الأربعين

في أصول الدين

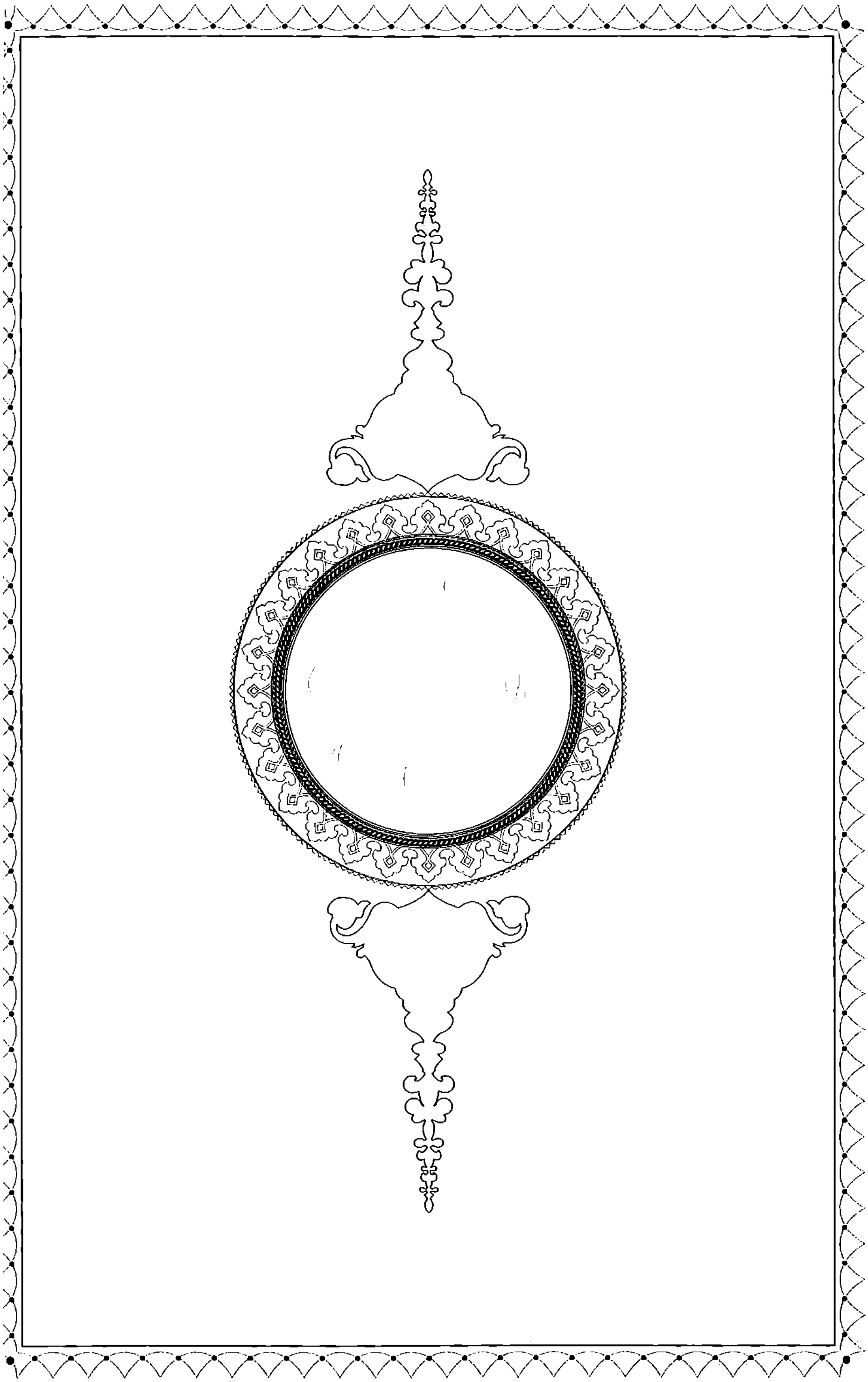
للإمام الغزالي

رضي الله عنه

دار المنهاج

الأربعين

في أصول الدين



الأربعين

في أصول الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين
زين الدين، أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي
الطوسي الطابراني الشافعي
رضي الله عنه
(٤٥٠-٥٠٥هـ)

تشرف بخدمته والعناية به
اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي

دار المنهاج

الطَّبْعَة الأولى ـ الإصْدَار الثَّاني

١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٧م

اسم الكتاب : الأربعين في أصول الدين

المؤلف : الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)

الإعداد : مركز دار المنهاج للدراسات

موضوع الكتاب : أصول الدين

مقاس الكتاب : (٢٢ سم)

تصنيف ديوي الموضوعي : (٢١٤)

عدد الأجزاء : (١)

عدد المجلدات : (١)

نوع الورق : شاموا فاخر

نوع التجليد : مجلَّد كرتوناج

عدد الصفحات : (٥٤٤ صفحة)

عدد ألوان الطباعة : لونان

التصميم والإخراج : مركز المنهاج للصف والإخراج الفني

9 789953 498805

الرقم المعياري الدولي

ISBN: 978 - 9953 - 498 - 80 - 5

دار المنهاج
لبنان ـ بيروت
هاتف : 806906 05 ـ فاكس : 813906 05

دار المنهاج للنشر والتوزيع
لصاحبها عمر سالم باجخيف
وفقه الله تعالى

المملكة العربية السعودية ـ جدة
حي الكندرة ـ شارع الملك فهد ـ جانب البنك الفرنسي
هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص . ب 22943 ـ جدة 21416

عضو في الاتحاد العام للناشرين العرب
عضو في إدارة جمعية الناشرين السعوديين
عضو في نقابة الناشرين في لبنان

www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com

الموزعون المعتمدون داخل المملكة العربية السعودية

جدة

مكتبة دار كنوز المعرفة
هاتف 6570628 . 6510421

مكة المكرمة

مكتبة الأسدي
هاتف 5570506 . 5273037

مكة المكرمة

مكتبة نزار الباز
هاتف 5473838 . فاكس 5473939

المدينة المنورة

دار البدوي
هاتف 0503000240

المدينة المنورة

مكتبة الزمان
هاتف 8366666 . فاكس 8383226

الرياض

مكتبة جرير
وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها
هاتف 4626000 . فاكس 4656363

الرياض

مكتبة العبيكان
وجميع فروعها داخل المملكة
هاتف 4654424 . فاكس 2011913

الرياض

دار التدمرية
هاتف 4924706 . فاكس 4937130

الدمام

مكتبة المتنبي
هاتف 8344946 . فاكس 8432794

الطائف

مكتبة أم هاني
هاتف 7320809

عرعر

مكتبة المتنبي العلمية
هاتف 6628586

الموزعون المعتمدون خارج المملكة العربية السعودية

الجمهورية اليمنية

مكتبة تريم الحديثة - حضرموت
هاتف 417130 - فاكس 418130

دولة قطر

مكتبة الثقافة - الدوحة
هاتف 44421132 - فاكس 44421131

جمهورية مصر العربية

دار السلام - القاهرة
هاتف 22741578 - فاكس 22741750

مكتبة نزار الباز - القاهرة
هاتف 25060822 - جوال 0122107253

الإمارات العربية المتحدة

حروف للنشر والتوزيع - أبو ظبي
هاتف 5593007 - فاكس 5593027

مكتبة الإمام البخاري - دبي
هاتف 2977766 - فاكس 2975556

دولة الكويت

مكتبة دار البيان - حَوَلي
تلفاكس 22616490 - جوال 99521001

دار الضياء للنشر والتوزيع - حَوَلي
هاتف 22658180 - فاكس 22658180

المملكة المغربية

دار الأمان - الرباط
هاتف 0537723276 - فاكس 0537200055

الدار العالمية - الدار البيضاء
هاتف 052282882 - فاكس 052283354

مملكة البحرين

مكتبة الفاروق - المنامة
هاتف 17272204 - فاكس 17256936

مكتبة الريان - المنامة
هاتف 0097339247759

الجمهورية اللبنانية

الدار العربية للعلوم - بيروت
هاتف 785107 - فاكس 786230

مكتبة التمام - بيروت
هاتف 707039 - جوال 03662783

المملكة الأردنية الهاشمية

دار محمد دنديس - عمّان
هاتف 4653390 - فاكس 4653380

الجمهورية العربية السورية

مكتبة المنهاج القويم - دمشق
هاتف 2235402 - فاكس 2242340

جمهورية العراق

مكتبة دار الميثاق - الموصل
هاتف 7704116177 - فاكس 7481732016

جمهورية الجزائر

دار البصائر - الجزائر
هاتف 021773627 - فاكس 021773625

جمهورية الصومال

مكتبة دار الزاهر ـ مقديشو

هاتف 002525911310

جمهورية تشاد

مكتبة الشيخ التيجاني ـ أنجامينا

هاتف 0023599978036

جمهورية أندونيسيا

دار العلوم الإسلامية ـ سوروبايا

هاتف 0062313522971

جوال 00623160222020

ماليزيا

مكتبة توء كنالي ـ كوالا لمبور

هاتف 00601115726830

جمهورية داغستان

مكتبة دار الرسالة ـ محج قلعة

هاتف 0079285708188

مكتبة نور الإسلام ـ محج قلعة

هاتف 0079882124001

الهند

دار الكتاب العربي ـ كيرلا

هاتف 0091483274003

جوال 00919946476748

مكتبة الشباب العلمية ـ لكنهو

هاتف 00919198621671

جمهورية جنوب أفريقيا

دار الإمام البخاري

هاتف 0027114210824

الجمهورية التركية

مكتبة الإرشاد ـ إستانبول

هاتف 02126381633 ـ فاكس 02126381700

جمهورية فرنسا

مكتبة سنا ـ باريس

هاتف 0148052928 ـ فاكس 0148052997

إنكلترا

دار مكة العالمية ـ برمنجهام

هاتف 01217739309 ـ جوال 07533177345

فاكس 01217723600

الولايات المتحدة الأمريكية

مكتبة الإمام الشافعي ـ جورجيا

هاتف 0017036723653

أستراليا

المكتبة الإسلامية

هاتف 0061297584040

Virgin

MEGASTORE

فيرجن وفروعها في العالم العربي

جميع إصداراتنا متوافرة على

موقع مكتبة نيل وفرات . كوم لتجارة الكتب

www.nwf.com

فرات Furat.com

موقع رائد لتجارة الكتب والبرمجيات العربية

www.furat.com

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ

بين يدي الكتاب

لكَ الحمدُ ربَّنا علىٰ ما أنعمتَ وأوليتَ ، وعلىٰ ما تعبَّدتَنا بهِ مِنْ شرعٍ فيهِ أسرارُ سعادتِنا .

وصلواتُكَ وتسليماتُكَ العَطِرةُ علىٰ صاحبِ المَقامِ المحمودِ ، أمينِ وحيِكَ ، سيِّدِنا ومولانا محمدٍ ، إمامِ المتقينَ ، وقائدِ الغُرِّ المُحجَّلينَ إلىٰ جنَّاتِ النَّعيمِ ، وعلىٰ آلِهِ الهُداةِ الأتقياءِ ، وصحبِهِ أنجمِ الظَّلْماءِ ، ومَنْ نهجَ نهجَهُم إلىٰ يومِ اللِّقاءِ .

وبعد :

فما أطولَ الأملَ في قلبِ ابنِ آدمَ !! يَهرَمُ منهُ كلُّ شيءٍ إلَّا بارقةَ الأملِ ، تَبرُقُ وتَشُبُّ في كلِّ وقتٍ وحينٍ ، وكأنَّها غُمِسَتْ بماءِ الحياةِ فهيَ سرابٌ يَحسَبُهُ الظمآنُ ماءً .

وليتَ أملَهُ كانَ باللهِ ، ربِّهِ وسيِّدِه ومولاهُ ؛ إذاً نِعْمَ القلبُ قلبُهُ ، ولٰكنَّهُ في سَكَراتِ أنفاسِهِ المُتواصِلةِ التي يَظنُّها طويلةَ المدىٰ ، فلا تمضي حِقْبةٌ إلَّا ويَتجدَّدُ الطمعُ بأخرىٰ ، سكرةً بعدَ سكرةٍ ، إلىٰ أن تأتيَ سكرةُ الموتِ بالحقِّ ، ذٰلكَ ما كنتَ منهُ تَحيدُ ؛ ليصيرَ العبدُ بعدَها إلىٰ ما قَدَّمَ مِنْ خيرٍ وشرٍّ ، ثمَّ إلىٰ ساحةِ المحكمةِ الإلٰهيَّةِ العادلةِ ، التي قالَ عنها الحَكَمُ العدْلُ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ ؛ فيتلاومُ العبدُ معَ شيطانِهِ ، ويلعنُ

بعضُهم بعضاً ، فيقومُ الشيطانُ الرجيمُ في أوليائِهِ خطيباً كما حكىٰ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴿٢٢﴾ ﴾ .

ولقد تنبَّهَ حُجَّةُ الإسلامِ الإمامُ الغزاليُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ كغيرِهِ مِنْ فحولِ العلماءِ إلىٰ ضرورةِ **تنويعِ الخطابِ الوعظيِّ والإرشاديِّ بما يناسبُ أحوالَ المخاطبينَ** ؛ فما كانَ قد أسهبَ فيهِ في موطنٍ . . أوجزَ فيهِ في موطنٍ آخرَ ، ثمَّ قامَ في موضعٍ آخر ، وشوَّقَ للاستزادةِ والعَبِّ مِنْ أسرارِ ما طَوَّلَ الكلامَ فيهِ .

ثمَّ إنَّهُ قد مالَ في أُخرياتِ حياتِهِ إلى الاغترافِ مِنَ البحرِ الذي عمَّ الكونَ نورُ جلالِهِ وجمالِهِ ؛ وهوَ **القرآنُ الكريمُ الجامعُ لأشتاتِ العلومِ والمعارفِ** ، قاصداً جواهرَهُ ودُررَهُ ؛ فوضعَ كتابَهُ الفريدَ الذي لم يُسبَقْ إليهِ مِنْ حيثُ **نوعيَّةُ الموضوعِ وطريقةُ الاستشهادِ** ؛ وهوَ كتابُهُ العظيمُ « جواهرُ القرآنِ » ، وفيهِ أبانَ **بالتفصيلِ التأصيلَ** إلىٰ أنَّ علومَ الأولينَ والآخرينَ ، المجموعةَ في القرآنِ الكريمِ . . ترجعُ **إلىٰ ثلاثةِ أصولٍ وثلاثةِ توابعَ** .

ثمَّ أوضحَ بأنَّ جميعَها يَرجِعُ إلىٰ مقاصدَ شريفةٍ نبيلةٍ ، **مجتمعةٍ في أربعينَ أصلاً هيَ أصولُ الدِّينِ كلِّهِ** ، وعنها يَتفرَّعُ ما سواها ، فجعلَ القسمَ الثالثَ للحديثِ عن هٰذهِ الأصولِ الأربعينَ .

ولمَّا رأىٰ أنَّ هٰذا القسمَ يَصلُحُ لأن يكونَ كتاباً برأسِهِ . . أوصىٰ بأن يُكتَبَ وحدَهُ ؛ ليَنتفِعَ بهِ مَنْ تَقصُرُ هِمَّتُهُ عن قراءةِ « الجواهرِ » ، فلا تفوتَه دُرَرُ « الأربعينَ » ، علىٰ أنَّ الأفضلَ لصاحبِ الهمَّةِ العاليةِ أن ينظرَ في « الجواهرِ » أوَّلاً ؛ لتَكتمِلَ عندَهُ اللَّوحةُ البيانيةُ بتمامِها ، ويُدرِكَ الارتباطَ الوثيقَ بينَ كلامِ اللهِ تعالىٰ وبينَ هٰذهِ المقاصدِ التي يجبُ أن تتحقَّقَ في سلوكِ مريدِ الآخرةِ .

وكتابُ « الأربعينَ » زُبدتُهُ وخلاصتُهُ . . تدعو إلى الزُّهدِ في الدُّنيا بما يَشمَلُ ذٰلكَ مِنْ تقصيرِ الأملِ والاستعدادِ للمَعادِ ، كما أنَّ مُطالعَهُ يجدُ في خواتيمِهِ قولَهُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (فمَنْ صلَّىٰ صلاةَ مُودِّعٍ . . فقد حازَ الكمالَ ، وتأهَّلَ للدُّخولِ علىٰ حضرةِ ذي الجلالِ ، ولٰكنْ مَنْ هوَ الذي تَتيسَّرُ لهُ مثلُ هٰذهِ الصلاةِ ؟!) فلذٰلكَ كانَ الحديثُ المَقاصديُّ عن أصولِ الدِّينِ الأربعينَ . . مِنْ أهمِّ الأمورِ الباسطةِ والشارحةِ للفؤادِ لكي يَتهيَّأَ لمثلِ هٰذهِ الصلاةِ .

هٰذا ؛ وبعدَ صدورِ الكتابِ في إصدارِهِ الأولِ سنةَ (٢٠٠٦ م) بتحقيقِ أخينا الشيخِ بوجمعة مكري . . هيَّأَ اللهُ لنا عِدَّةَ نسخٍ خطيَّةٍ عزيزةٍ ؛ يَفوقُ بعضُها ما اعتَمدنا عليهِ سابقاً .

وكعادةِ دارِ المنهاجِ في تقديمِ المزيدِ مِنَ العنايةِ والتحقيقِ لمنشوراتِها بشكلٍ مستمرٍّ . . فقد شَرعَتْ في إعادةِ خدمةِ هٰذا

الكتابِ مِنْ جديدٍ ؛ ودفَعتِ الأصولَ الجديدةَ لِلَّجْنةِ العلميَّةِ ، التي قامَتْ بمقابلتِهِ وإعادةِ تحقيقِهِ ، معَ الضبطِ والتوثيقِ ، والتعليقِ علىٰ مواضعَ كثيرةٍ ذاتِ بالٍ .

فالشكرُ أولاً : لأخينا الشيخِ بوجمعة مكري علىٰ ما قَدَّمَ في الإصدارِ الأوَّلِ ، وثانياً : لِلَّجْنةِ العلميَّةِ علىٰ ما بذلَتْ مِنْ جُهدٍ في هٰذا الإصدارِ .

والشُّكرُ موصولٌ لقُرَّائِنا الكرامِ ، الذينَ لم يَبخَلوا علينا بنصائحِهِم وملاحظاتِهِم ، وهٰذِهِ الدُّرَّةُ هيَ ثمرةُ التعاونِ بينَ الجميعِ .

وها هيَ ذي دارُ المنهاجِ تبعثُ مِنْ جديدٍ كتابَ « الأربعينَ » مصحوباً بمزيدِ عنايةٍ واهتمامٍ ، نسألُ اللهَ القَبُولَ والنفعَ ، وأن يجعلَ هٰذا العملَ خالصاً لوجهِهِ الكريمِ .

إنّه خير مسؤول

يوم الاثنين (١٧) رمضان الخير (١٤٣٨هـ)
(١٢) حزيران / يونيو (٢٠١٧م)

الناشر

ترجمة

الإمام المجدد، حجة الإسلام

محمد بن محمد بن محمد الغزالي

رضي الله عنه (1)

(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ)

هوَ الإمامُ حُجَّةُ الإسلامِ زينُ الدِّينِ ، أبو حامدٍ ، محمدُ بنُ محمدِ بنِ محمدٍ الطُّوسيُّ الطَّابَرَانيُّ ، الشافعيُّ ، الغزاليُّ .

وُلِدَ بطُوسَ سنةَ (٤٥٠ هـ) ، وتُوفِّيَ أبوهُ وهوَ صغيرٌ ، وكانَ قد أوصىٰ بهِ وبأخيهِ أحمدَ إلىٰ صديقٍ لهُ ، فرعاهُما حتىٰ أدخلهُما المدرسةَ يتعلَّمانِ إلىٰ أن كبرا فيها .

ثمَّ بدأت مرحلةُ التحصيلِ العلميّ علىٰ أكابرِ شيوخِ العصرِ ؛ فقرأَ الإمامُ الغزاليُّ رضيَ اللهُ عنهُ على الشيخِ الإمامِ أحمدَ بنِ محمدٍ الرَّاذَكانيِّ بطُوسَ .

وسافرَ إلىٰ جُرجانَ ، فقرأَ على الشيخِ الإمامِ أبي القاسمِ الإسماعيليِّ ، وعَلَّقَ عنهُ « التعليقةَ » .

---

(١) أهم مصادر الترجمة : « تاريخ دمشق » (٥٥/٢٠٠) ، « سير أعلام النبلاء » (١٩/٣٢٢) ، « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/١٩١) ، « إتحاف السادة المتقين » (١/٦) .

ثُمَّ قدمَ نيسابورَ ، ولازمَ الإمامَ أبا المعالي الجُوَيْنيَّ إمامَ الحرمينِ وتخرَّجَ بهِ ، وعرضَ عليهِ باكورةَ مُؤلَّفاتِهِ « المنخولَ » في أصولِ الفقهِ .

ولمَّا تُوفِّيَ الإمامُ الجُوَيْنيُّ . . خرجَ إلى المعسكرِ ، وسمعَ بهِ الوزيرُ نظامُ المُلْكِ ، فقدَّمَهُ في مجلسِهِ ، وحَظِيَ عندَهُ بالقَبُولِ ، وبرعَ في المناظرةِ حتىٰ ظهرَ اسمُهُ في الآفاقِ ، فأُرسِلَ إلىٰ بغدادَ للتدريسِ في المدرسةِ النِّظَاميةِ سنةَ (٤٨٤ هـ) .

وفي أثناءِ تدريسِهِ ببغدادَ تفرَّغَ للتأليفِ ؛ فكَثُرَتْ مُؤلَّفاتُهُ ، وعَلَتْ شهرتُهُ ؛ حتىٰ أضحىٰ يُشارُ إليهِ بالبَنانِ .

ثُمَّ جاءَتْهُ السعادةُ الحقيقيةُ ؛ فسلكَ طريقَ الزهدِ والتألُّهِ ، وخرجَ مِنْ جميعِ ما كانَ فيهِ ، وتركَهُ وراءَ ظهرِهِ ، وقصدَ بيتَ اللهِ الحرامَ ؛ فخرجَ إلى الحجِّ سنةَ (٤٨٨ هـ) .

ثُمَّ دخلَ دمشقَ سنةَ (٤٨٩ هـ) ، فأقامَ بها نحوَ عشرِ سنينَ ، أخذَ نفسَهُ فيها بالرياضةِ ، والمجاهدةِ والخلوةِ ، وأَلَّفَ فيها كتابَهُ العظيمَ « إحياءَ علومِ الدِّينِ » .

ثمَّ عادَ إلىٰ طُوسَ ، فاستدعاهُ فخرُ المُلْكِ إلىٰ نيسابورَ ، فدَرَّسَ بها في المدرسةِ النِّظَاميةِ .

ثمَّ تركَ المدرسةَ ، وعادَ إلىٰ بيتِهِ مُوزِّعاً أوقاتَهُ بينَ تلاوةِ

القرآنِ ، والتدريسِ والإفادةِ ، والنُّصحِ والإرشادِ ، إلىٰ أن وافَتْهُ المنيةُ بطُوسَ سنةَ (٥٠٥ هـ) .

تركَ الإمامُ الغزاليُّ رضيَ اللهُ عنهُ مُؤلَّفاتٍ مشهورةً لم يُسبَقْ إليها ، مَنْ تأمَّلَها . . علمَ فضلَهُ وقَدْرَهُ في فنونِ العِلْمِ ، وقد قيلَ : (أُحصِيَتْ كتبُ الغزاليِّ التي صنفَها ، ووُزِّعَتْ علىٰ عمرِهِ ؛ فخصَّتْ كلَّ يومٍ أربعُ كراريسَ ، وذَٰلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ)[١] .

ومِنْ هٰذهِ المُؤلَّفاتِ النافعةِ : « إحياءُ علومِ الدِّينِ » ، و« الاقتصادُ في الاعتقادِ » ، و« مقاصدُ الفلاسفةِ » ، و« بدايةُ الهدايةِ » ، و« تهافتُ الفلاسفةِ » ، و« المُنقِذُ مِنَ الضَّلالِ » ، و« مِحَكُّ النظرِ » ، و« معيارُ العِلْمِ » ، و« القسطاسُ المستقيمُ » ، و« المنخولُ » ، و« المستصفىٰ » ، و« البسيطُ » ، و« الوسيطُ » ، و« الوجيزُ » ، و« الخلاصةُ » ، و« إلجامُ العوامِّ » ، و« أيُّها الولدُ » ، و« فيصلُ التفرقةِ » ، و« الأربعينَ في أصولِ الدِّينِ » ، وهوَ كتابُنا هٰذا ، وغيرُها الكثيرُ[٢] .

(١) الكراريس ـ جمع كُرَّاسة ـ : وهي عبارة عن مجموع من الأوراق المزدوجة المتداخلة فيما بينها بحدود عشر ورقات ، فكان ما يكتبه رضي الله عنه يقارب أربعين ورقة يومياً ، وهٰذا راجع للبركة في الوقت ، وذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

(٢) وقد أكرم الله سبحانه وتعالىٰ دار المنهاج بخدمة بعض كتب هٰذا الإمام الجليل ؛ وأهمها : « إحياء علوم الدين » ، و« الاقتصاد في الاعتقاد » ، و« بداية الهداية » ، و« المنقذ من الضلال » ، ←

ومِنْ ثناءاتِ أهلِ العِلْمِ في حقِّهِ :

قالَ فيهِ شيخُهُ الإمامُ الجُوَيْنيُّ : (الغزاليُّ بحرٌ مُغْرِقٌ) .

وقالَ الحافظُ ابنُ عساكرَ : (كانَ إماماً في عِلْمِ الفقهِ مذهباً وخلافاً ، وفي أصولِ الدِّياناتِ) .

وقالَ الحافظُ ابنُ النجارِ : (إمامُ الفقهاءِ على الإطلاقِ ، وربَّانيُّ الأمةِ باتفاقٍ ، ومُجتهِدُ زمانِهِ) .

وقالَ الحافظُ الذهبيُّ : (الشيخُ الإمامُ البحرُ ، حُجَّةُ الإسلامِ ، أُعْجُوبةُ الزمانِ) .

وقالَ الإمامُ ابنُ السبكيِّ : (حُجَّةُ الإسلامِ ، ومَحَجَّةُ الدِّينِ التي يُتوصَّلُ بها إلىٰ دارِ السلامِ ، جامعُ شتاتِ العلومِ ، والمُبَرِّزُ في المنقولِ منها والمفهومِ) .

رضي الله عنه وأرضاه ، وأكرم نزله ومثواه ، ونفع بعلومه

إنّه خير مسؤول

آمين

← و« الخلاصة » ، و« معيار العلم » ، و« محكُّ النظر » ، و« القسطاس المستقيم » ، ونسأل الله أن يتمم نعمته علينا بخدمة جميع كتب هٰذا الإمام العبقري رضي الله عنه .

يا مسكينُ ؛ كيفَ تُهدِّدُني بالعاقبةِ ، وتُخوِّفُني بمجاوزةِ الجمهورِ ومخالفةِ المشهورِ ، وبذٰلكَ فرحي وسروري ؟! إنَّ الذي يكرهونَ منّي . . ذٰلكَ الذي يَشتهيهِ قلبي !! فاطوِ طُومارَ الهَذَيَانِ ، ولا تُقَعْقِعْ بعدَ هٰذا بالشِّنانِ (١) .

كُتُبُ الإمامِ الغزاليّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ نفحةٌ مِنْ نَفَحَاتِ اللهِ تعالىٰ ، أَلَا فتعرَّضوا لها ؛ فإنَّها تميتُ نوازعَ الشرِّ ، وتُنعِشُ الفؤادَ برغبةِ القربِ مِنَ الحقِّ تعالىٰ ، وهوَ الذي قالَ عن بعضِ كتبِهِ : (ولعلَّ ما أودعناهُ هٰذا الكتابَ إن تعلَّمَهُ المُتعلِّمُ رغبةً في الدُّنيا . . فيجوزُ أن يُرخَّصَ فيهِ ؛ إذ يُرجىٰ أن ينزجرَ بهِ في آخرِ عمرِهِ ؛ فإنَّهُ مشحونٌ بالتخويفِ باللهِ ، والترغيبِ في الآخرةِ ، والتحذيرِ مِنَ الدُّنيا . . .) (٢) .

وقد كانَ وما زالَ كتابُهُ العظيمُ « إحياءُ علومِ الدِّينِ » مُتصدِّراً قائمةَ تآليفِهِ ، وحائزاً قَصَبَ السَّبْقِ في الساحةِ الإسلاميةِ على امتدادِ العصورِ ، وحسبُكَ في مدحِهِ ما قالَهُ مُصنِّفُهُ فيهِ : (لم

(١) انظر (ص ٤٨٠) .
(٢) إحياء علوم الدين (٣٠٢/٤) .

يُصنَّفْ في فنّهِ مثلُهُ في التحقيقِ والتحصيلِ ، والإحاطةِ بجميعِ التفاصيلِ)[1] ، وأهلُ مكةَ أدرىٰ بشعابِها .

وقالَ فيهِ صاحبُ « كشفِ الظنونِ » : (وهوَ مِنْ أجملِ كتبِ المواعظِ وأعظمِها ؛ حتىٰ قيلَ فيهِ : إنَّهُ لو ذهبَتْ كتبُ الإسلامِ وبقيَ « الإحياءُ » . . لأغنىٰ عمَّا ذهبَ)[2] .

وقالَ فيهِ الإمامُ الحدَّادُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ[3] :

وبوضعِهِ « الإحياءَ » فاقَ فيا لهُ   مِنْ فائقٍ وكمثلِهِ لم يُوضَعِ

والناظرُ في « الإحياءِ » و« الأربعينَ » بعينِ التدبُّرِ والتأمُّلِ يرىٰ حجمَ التشاركِ الكبيرِ بينَ كتبِ « الإحياءِ » وأصولِ كتابِ « الأربعينَ » ؛ حيثُ اشتركَ الكتابانِ بقُرابةِ ثلاثةِ أرباعِ العناوينِ الأصليةِ ، فكانَ كتابُ « الأربعينَ » كالمُعتَصرِ مِنْ مُختصَرِ « إحياءِ علومِ الدِّينِ » ، بل هوَ المُختصَرُ الحقيقيُّ والأولُ لهٰذا الكتابِ العظيمِ ؛ فصاحبُ البيتِ أدرىٰ بالذي فيهِ .

وقد أَلَّفَ الإمامُ الغزاليُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ كتابَ « جواهرِ

---

(١) انظر (ص ١٦٢) .

(٢) كشف الظنون (١/٢٣) .

(٣) ديوان الإمام الحداد (ص ١٨٥) .

القرآنِ » ؛ لنشرِ علومِ القرآنِ الأصليَّةِ (١) ؛ وهيَ ثلاثةٌ مُهمَّةٌ :

تعريفُ المدعوِّ إليهِ سبحانَه وتعالىٰ .

وتعريفُ طريقِ السلوكِ إليهِ عبرَ الصِّراطِ الشرعيِّ المستقيمِ .

وتعريفُ الحالِ عندَ الوصولِ إليهِ .

وثلاثةٌ مُتِمَّةٌ :

تعريفُ أحوالِ المجيبينَ للدَّعوةِ .

وحكايةُ أحوالِ الجاحدينَ لها .

وتعريفُ عِمارةِ الطريقِ (٢) .

وقدِ اعتنى الإمامُ الغزاليُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ بذكرِها في كتابِهِ « جواهرِ القرآنِ » ، وبعدَها كانَ لا بدَّ مِنْ ذكرِ المقاصدِ الحاصلةِ مِنِ اعتقاداتٍ وأعمالٍ ، وحاصلُها بعدَ استقصائِها أربعونَ أصلاً ؛ وهيَ تُمثِّلُ قسمَ اللَّواحقِ مِنْ كتابِ « الجواهرِ » ، هـٰذا القسم الذي ذكرَ الإمامُ الغزاليُّ أنَّ مَنْ شاءَ أن يكتبَهُ مفرداً . . فليَكتُبْ ؛ فإنَّهُ يَشتمِلُ علىٰ زُبدةِ علومِ القرآنِ ، وقد سمَّاهُ : « الأربعينَ في أصولِ الدِّينِ » .

---

(١) لا علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي ؛ من مكي ومدني ، وأسباب نزول ، ومحكم ومتشابه ، وناسخ ومنسوخ .

(٢) انظر « جواهر القرآن » (ص ٢٣ ـ ٢٤) ، وبهـٰذه القسمة تدرك لِمَ كان كتاب « الأربعين في أصول الدين » من توابع « الجواهر » .

فإذاً ؛ هوَ القسمُ الثالثُ مِنْ كتابِ « الجواهرِ » أصالةً ، ولٰكنْ لَمَّا رأى الإمامُ أنَّهُ يَصلُحُ لأن يكونَ كتاباً برأسِهِ ؛ لعمومِ نفعِهِ . . أجازَ بأن يُفرَدَ وحدَهُ(١) .

وبهٰذا تُدرَكُ أهميةُ قراءةِ « جواهرِ القرآنِ » قبلَ « الأربعينَ » لِمَنْ أرادَ مزيداً مِنَ الفهمِ والاطلاعِ والتحقيقِ .

متىٰ ألَّفَ الإمامُ الغزاليُّ كتابَ « الأربعينَ » ؟

أمَّا عن زمنِ تأليفِهِ : فكانَ بلا شكٍّ بعدَ « إحياءِ علومِ الدِّينِ » ، وبعدَ كتبِهِ الفقهيَّةِ الأربعةِ ، و« التهافتِ » ، و« الاقتصادِ » ، و« حُجَّةِ الحقّ » و« قواصمِ الباطنيَّةِ » ، و« مَفصِلِ الخلافِ في أصولِ الدِّينِ » ، و« معيارِ العلمِ » ، و« مِحَكِّ النظرِ » ، وهٰذهِ كلُّها قد ذكرَها الإمامُ الغزاليُّ في « جواهرِ القرآنِ »(٢) و« المقصدِ الأسنىٰ »(٣) ، وكذا بعدَ كتابِ « ميزانِ العملِ » الذي صنَّفَهُ في حكايةِ رحلتِهِ الرُّوحيَّةِ علىٰ طريقةِ الصوفيَّةِ ، فهوَ بلا شكٍّ مِنْ أُخرياتِ مُؤلَّفاتِهِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ وهٰذا لهُ شأنُهُ عندَ الناظرينَ .

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٤١/١) : (ومنها « الأربعين » ، وهو قسم من كتابه المسمَّىٰ بـ « جواهر القرآن » ، وقد أجاز أن يكتب مفرداً ، فكتبوه وجعلوه مستقلاً ، وهو عندي) .

(٢) انظر (ص ٣٩ ـ ٤٠) ، وذكر معها « الرسالة القدسية » ، وهي مضمنة في « إحياء علوم الدين » .

(٣) انظر « جواهر القرآن » (ص ٧٥) .

محتوىٰ كتابِ « الأربعينَ »

« الأربعينَ » موسوعةٌ علميَّةٌ شرعيةٌ مُختصَرةٌ ، وما كانَ أحراهُ لو تُرجِمَ للُّغاتِ الحيَّةِ في العالَمِ ككتابٍ تعريفيٍّ بالإسلامِ مِنَ الطرازِ الأولِ !!

فربعُهُ الأولُ ؛ وهوَ الأصولُ العشرُ الأُولىٰ : في الاعتقاداتِ .

وربعُهُ الثاني ؛ وهوَ الأصولُ العشرُ الثانيةُ : في العباداتِ .

وربعُهُ الثالثُ ؛ وهوَ الأصولُ العشرُ الثالثةُ : في بيانِ الأخلاقِ المذمومةِ .

وربعُهُ الأخيرُ ؛ وهوَ الأصولُ العشرُ الرابعةُ : في بيانِ الأخلاقِ المحمودةِ .

وخاتمتُهُ : في مناظرةِ النَّفْسِ .

وهٰذهِ العناوينُ الرئيسةُ تُظهِرُ بجلاءٍ ما اختبأَ تحتَها مِنَ الجواهرِ والدُّرَرِ ، معَ ما تضمَّنَهُ الكتابُ مِنْ مسائلَ ومعارفَ لا يُستغنىٰ عنها .

التلبُّس بأنوارِ السُّنَّةِ

يَعيبُ الحُجَّةُ الغزاليُّ رحمَهُ اللّٰهُ تعالىٰ علىٰ مَنْ كانَ نصيبُهُ مِنْ فهمِ السُّنَّةِ : أنَّهُ يجوزُ تركُها !!

ويُمثِّلُ لذٰلكَ مثالاً بديعاً فيقولُ : (إنَّ ذٰلكَ يضاهي قولَ

الطبيبِ : إنَّ فقءَ العينِ لا يُبطِلُ وجودَ الإنسانِ)[1] .

وقد نصَّ في « الأربعينَ » أنَّ مفتاحَ السَّعادةِ اتباعُ السُّنَّةِ[2] ، فلم يُفرِّقْ بينَ سُنَّةٍ عادةٍ أو سُنَّةٍ عبادةٍ ؛ فحركاتُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا تكونُ عن عَبَثٍ أبداً ، بل وراءَ كلِّ حركةٍ حكمةٌ وسرٌّ ونورٌ ، وهٰذا وإنِ انطوىٰ عن مداركِ الحِسِّ في عالَمِ المُلكِ ، إلَّا أنَّهُ مُنكشِفٌ لأهلِ البصيرةِ كالعِيانِ في عالَمِ الملكوتِ .

ثمَّ قرَّرَ أمراً قد يُستهجَنُ ابتداءً ؛ وهوَ أنَّ تركَ السُّنَّةِ لا يكونُ إلَّا عن أمرينِ : كفرٍ خفيٍّ ، أو حمقٍ جليٍّ ، ودَلَّلَ لذٰلكَ بما تَخضَعُ لهُ نفوسُ المُخبِتينَ[3] .

والعَجَبُ أن ترىٰ بعضَ طلبةِ العلمِ يَترخَّصونَ في تركِ السننِ ، وكانَ الحريُّ بهِم إدمانَها لتصيرَ في نفوسِهِم جِبِلَّةً وقُرَّةَ عينٍ ، وسرُّ هٰذا الفسادِ . . من علماءِ السُّوءِ ، الذينَ صارَ العِلْمُ لقلقةَ لسانٍ عندَهُم ، فهانَ بسببِهِمُ العِلْمُ في أعينِ الناسِ .

أعظِمْ بـ « الأربعينَ » مِنْ كتابٍ أحرىٰ أن تَتناقلَهُ الخاصَّةُ والعامَّةُ ، وتَتداولَهُ العلماءُ وطُلَّابُ العِلْمِ ؛ إذ هوَ ـ كما قالَ مُصنِّفُهُ عنهُ ـ : عُصارةُ مقاصدِ كتابِ اللهِ النُّورِ المبينِ ، وإنَّما

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (١/٥٨٧) .
(٢) انظر (ص ١٨٩) .
(٣) انظر (ص ١٩٧) .

سِرُّ تقويةِ الإيمانِ في غذاءِ أدلَّةِ القرآنِ ، لا في دواءِ علمِ الجَدَلِ والكلامِ !!

ورحمَ اللهُ الإمامَ الغزاليَّ إذ قالَ : (وليسَ الطريقُ في تقويتِهِ وإثباتِهِ : أن يُعلَّمَ ـ يعني : الصبيَّ ـ صنعةَ الجَدَلِ والكلامِ ، بل يشتغلُ بتلاوةِ القرآنِ وتفسيرِهِ ، وقراءةِ الحديثِ ومعانيهِ ، ويشتغلُ بوظائفِ العباداتِ ، فلا يزالُ اعتقادُهُ يزدادُ رسوخاً بما يقرعُ سمعَهُ مِنْ أدلَّةِ القرآنِ وحُجَجِهِ ، وبما يَرِدُ عليهِ مِنْ شواهدِ الأحاديثِ وفوائدِها ، وبما يَسطَعُ عليهِ مِنْ أنوارِ العباداتِ ووظائفِها ، وبما يَسري إليهِ مِنْ مشاهدةِ الصالحينَ ومجالستِهِم ، وسيماهُم وسماعِهِم وهيئاتِهِم ؛ في الخضوعِ للهِ عزَّ وجلَّ ، وتكونُ هٰذهِ الأسبابُ كالسقيِ والتربيةِ لهُ ؛ حتىٰ ينموَ ذٰلكَ البَذْرُ ويَقوىٰ ويرتفعَ شجرةً طيبةً راسخةً ، أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ)[1] .

❊ ❊

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (١/٣٤٢) .

وصف النسخ الخطية

تـمَّ بحمد الله تعالى اعتماد ثمان نسخ خطية ؛ اثنتان منها قريبتا عهد بالإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ ، ويظهر نظرُ أهل العلم فيها ، ومعارضتُها بغيرها من النسخ الأخرىٰ ، وبعضها حوىٰ من التعليقات الجيدة التي تمَّ نقل بعضها بالهامش ؛ وهـٰذه النسخ هي :

النسخة الأولىٰ : نسخة المكتبة السليمانية بإستنبول ، ذات الرقم (٧٣٦٤) ، وقد وقع فيها خرم كبير ، وقد شُكِلَتْ شكلاً تامّاً .

كتبت بخط نسخي بيّنٍ معتاد .

يظهر في هوامشها أنها معارضة بنسخٍ أخرىٰ ، كما أثبت فيها بعض التعليقات البيانية والشارحة ، وجاءت في (٩٢) ورقة .

وقد وقع الفراغ من نسخها ومعارضتها ومقابلتها يوم الاثنين ، الثامن والعشرين من شهر رجب ، سنة سبع وسبعين وخمس مئة من الهجرة الشريفة .

ورمز لها بـ (أ) .

النسخة الثانية : نسخة مكتبة سليم آغا بإستنبول ، ذات الرقم (١٠٨) .

وهي ضمن مجموع كبير لجملة من تصانيف الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ ، ووقع كتاب « الأربعين » عقب كتاب « جواهر القرآن » ؛ لكونه القسم الثالث منه ؛ من الورقة (٥٥) وإلى الورقة (١٥٠) ، ويليه كتاب « القسطاس المستقيم » ، وهي تامة .

وقد كتبت بخط نسخي معتاد ، ويظهر من هوامشها معارضتها بنسخ أخرىٰ ، مع بعض التعليقات اليسيرة .

ووقع الفراغ من نسخها سنة سبع وثمانين وخمس مئة من الهجرة المباركة .

ورمز لها بـ (ب) .

النسخة الثالثة : نسخة مكتبة شهيد علي بإستنبول ، ذات الرقم (١٥٦٤) ، وهي تامة ، وقد جاءت في (١٠١) ورقة .

وكتبت بخط نسخي جميل ، وعناوينها باللون الأحمر وسائرها باللون الأسود ، وعلىٰ هوامشها بعض الإفادات والتعليقات العلمية .

ووقع الفراغ من نسخها الأربعاء من شهر رجب ، سنة أربع وثمان مئة للهجرة .

ورمز لها بـ (ج) .

النسخة الرابعة : نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق ، ذات الرقم (١٣٤٧) تصوف ، ضمن مجموع ضمَّ إضافة لكتاب « الأربعين » بعضَ الرسائل والوصايا اللطيفة ، وكتاب « منهاج العابدين » للإمام الغزالي ، و« الأربعين » في خاتمتها ، وقع في (١٢٩) ورقة ؛ من الورقة (١٢٦) إلىٰ (٢٥٥) .

وكتبت بخط نسخي معتاد .

وكتب علىٰ ورقة العنوان منها : (الحمد لله ، طالع فيه العبد الفقير تقي الدين الحسيني الحصني الشافعي ، عُفي عنه) ، وهوَ الإمامُ المشهور صاحبُ « كفاية الأخيار » ، وفي هامشها بعض التعليقات العلمية النافعة .

وقد جاء في بعض صفحاتها أنها كتبت سنة أربع وثمان مئة للهجرة .

ورمز لها بـ (د) .

النسخة الخامسة : نسخة مكتبة حاجي بشير أغا بإستنبول ، ذات الرقم (٦٥٠) ، ضمن مجموع ، وقع كتابنا « الأربعين » في (٩٨) ورقة منه .

كتبت بخط نسخي معتاد ، ويظهر أنها معارضة بنسخ أخرىٰ ، غير أنها صدرت بجملة كبيرة ـ قرابة (٢٥) ورقة ـ بما جاء في « جواهر القرآن » .

وقد وقع الفراغ من نسخها سنة سبع وثمان مئة للهجرة .

ورمز لها بـ (هـ) .

النسخة السادسة : نسخة المكتبة السليمانية بإستنبول ، ذات الرقم (٢١٤٧) .

وهي ضمن مجموع ضمَّ بعض رسائل الإمام الغزالي ، وقد وقع في (١٤٠) ورقة ، تصدره كتاب « الأربعين » إلى الورقة (٨١) ، ويليه كتاب « المضنون به علىٰ غير أهله » ، وخُتم بكتاب « جواهر القرآن » .

وهي نسخة مقابلة ومعارضة بغيرها من النسخ ، ووقع في هامشها بعض التعليقات اليسيرة .

وقد تمَّ الفراغ من نسخ هـٰذا المجموع القيّم في الخامس عشر

من شهر جمادى الآخر من سنة إحدىٰ وتسع مئة للهجرة .

ورمز لها بـ (و)

النسخة السابعة : نسخة دار الكتب المصرية ، ذات الرقم (٥١١٩) ، وهي تامة ، وقد جاء عدد أوراقها (١٦٤) ورقة .

وكتبت **بخط نسخي** معتاد .

وقد كان الفراغ من نسخها سنة ثمان وعشرين ومئة وألف للهجرة ، **علىٰ يد كاتبها** يوسف بن حسين بن قهرمان بن كريم بن أصلان ببغداد في المدرسة المرجانية .

ورمز لها بـ (ز) .

النسخة الثامنة : نسخة (مكتبة الأحقاف ـ مجموعة حسين ابن سهل ، ٣٣٦) ، ذات الرقم (١٩٢) ، مفردة تامة .

وقعت في (١٨٩) ورقة ، وخطها نسخي معتاد .

وقع الفراغ من نسخها سنة أربع وخمسين ومئتين وألف للهجرة .

ورمز لها بـ (ح) .

منهج العمل في الكتاب

لكتاب « الأربعين » شأنُهُ ومكانته عند أهل العلم ، مع تداوله بين أيدي العامة والخاصَّة ، ودخولِهِ في السلاسل التعليمية والتربوية ، ولهٰذا كلِّه كانت العناية العلمية والفنيَّة به من الواجبات الأكيدة ؛ والحقُّ أن أكثرَ رسائل الإمام الغزالي وكتبه اللِّطاف هي من هٰذا النوع ؛ الذي كُتبَ له الشيوع والذيوع بين شرائح علمية وثقافية متنوعة المناهج والمشارب والمستويات .

ولذٰلك اجتمع في عناية الكتاب بين الشَّكْل العامِّ ، وشرح بعض المفردات الغريبة التي يحتاج إليهما الطالب المتمرِّس .

فكان أن اتُّخذَتِ النسختان (أ ، ب) أصلين معتمدين ، عليهما معوَّلُ جملة النص المحقَّق ، وكان لباقي النسخ المعتمدة شأنُها في تصحيح واستدراك ما وقع أو فات منهما ، ولا سيما عند اتفاق جميع النسخ علىٰ كلمة واحدة ، وبعد هٰذا أثبتت بعض مغايرات وفروق النسخ ممَّا قد يؤكد معنىً أو يورث معنىً جديداً .

وقد شُكل النصُّ شكلاً إعرابيّاً تامّاً ، وفُصِّل بمنهج ترقيمي مريح ؛ وهو المنهج المعتمد من قبل مركز دار المنهاج .

كما تمَّ تخريج جميع الآثار المرفوعة والموقوفة والأقوال مع عزوها لقائليها إن لم تذكر ، ومثل ذٰلك الأشعار والنصوص

المنقولة ، والإحالات إلىٰ كتب المصنف لإثراء الموضوع الذي يتكلم فيه ، ونقل بعض الشواهد لها ، وبيان المسائل المشكلة ومنزع المصنف فيها ، إضافة إلىٰ إثبات بعض التعليقات الهامشية المهمة من بعض النسخ الخطية والتي لها وقع في النفس عند الباحث .

وقد أُعدَّ للكتاب بعض المقدمات العلمية التي لا بدَّ منها ؛ فتُرجم للمصنف ترجمة مقتضبة تليق بحجم الكتاب ، وكلمة للحديث عنه ، وكذٰلك إعداد فهرس تفصيلي لأبوابه وفصوله وكبريات مسائله العلمية .

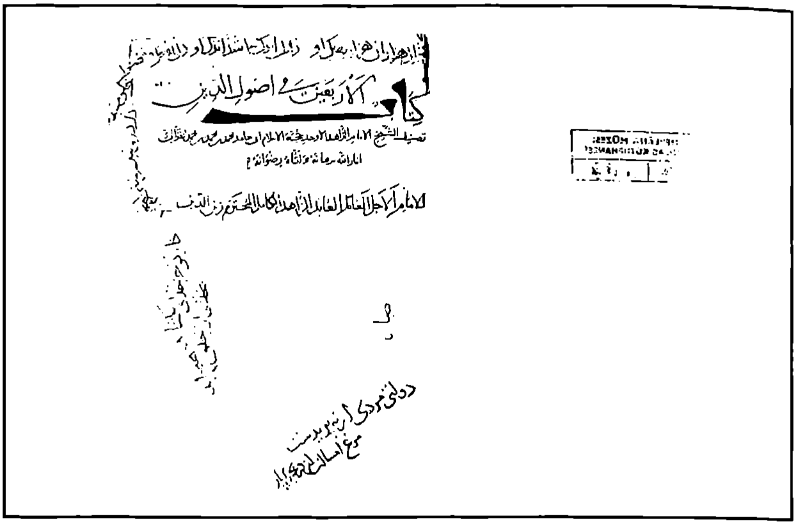
والمولى الكريم سبحانه هو المرجوُّ والمأمول في قبول هٰذا الجهد المبذول ، وإليه سبحانه الضراعة بأن يكتب لنا التوفيق والإخلاص في جميع مساعينا .

والحمد لله رب العالمين

اللّجنة العلميّة
بمركز دار المنهاج للدّراسات والتّحقيق العلميّ
بإشراف
عمر سالم باجخيف

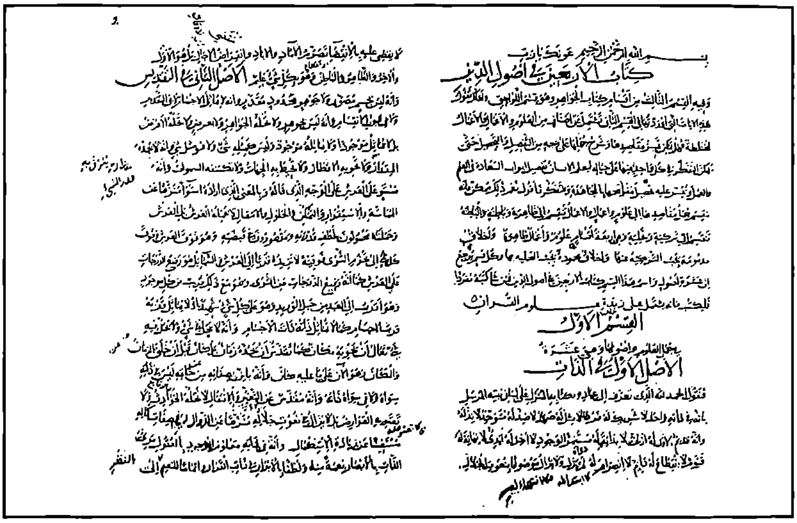
(١) شعبان المكرّم (١٤٣٨هـ)
(٢٧) نيسان / إبريل (٢٠١٧م)

صور من المخطوطات المعتمدة



كتاب الأربعين في أصول الدين

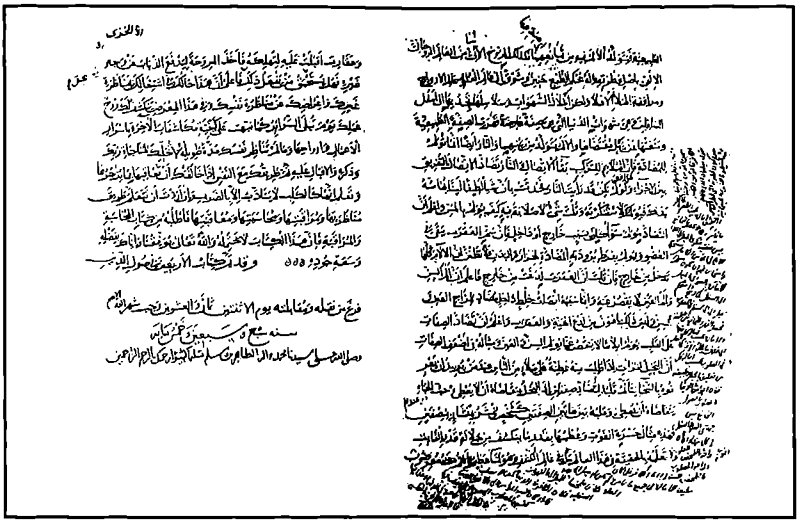
راموز ورقة العنوان للنسخة (أ)



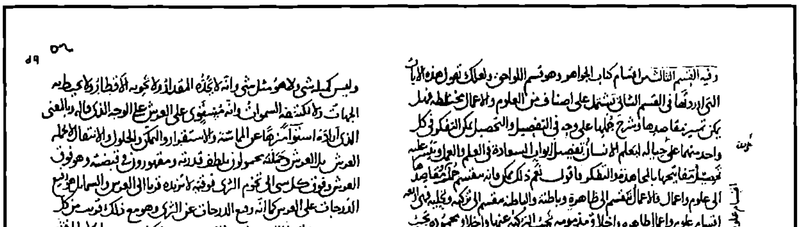
كتاب الأربعين في أصول الدين

القسم الأول

راموز الورقة الأولى للنسخة (أ)



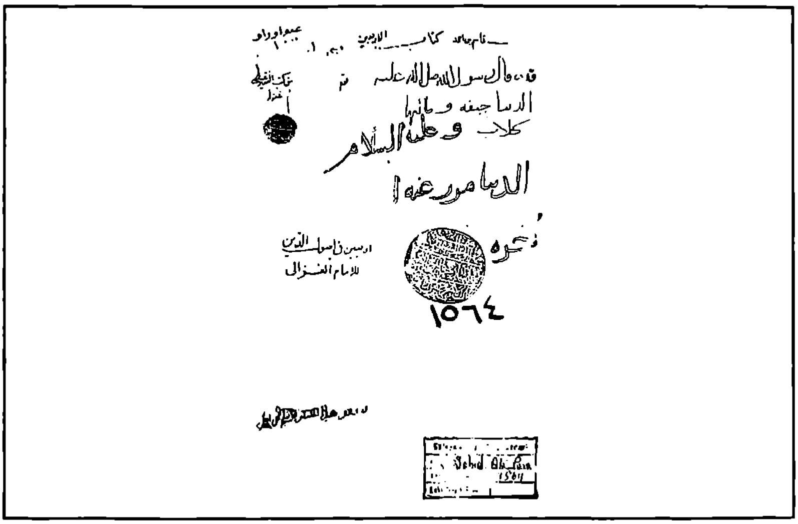
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (أ)



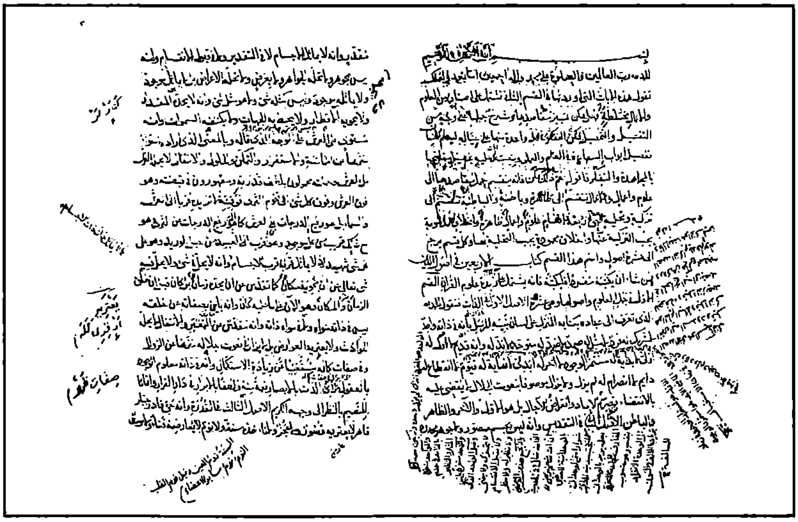
راموز الورقة الأولى للنسخة (ب)



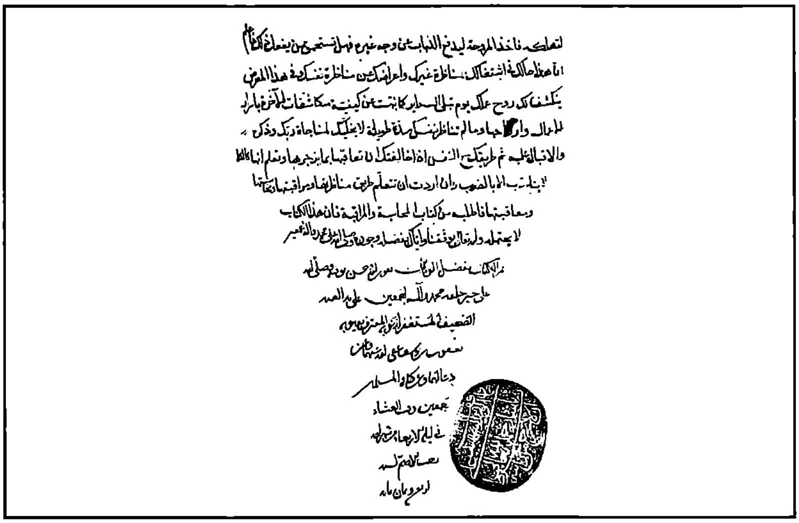
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ب)



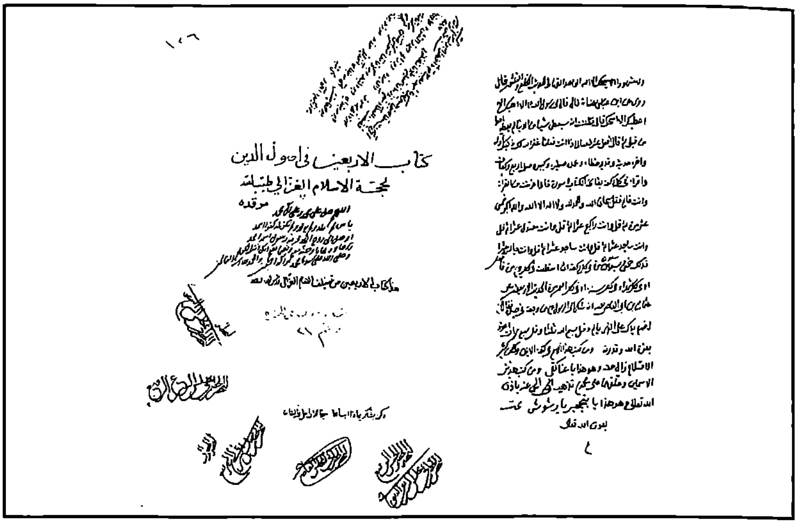
راموز ورقة العنوان للنسخة (ج)



رامو الورقة الأولى للنسخة (ج)



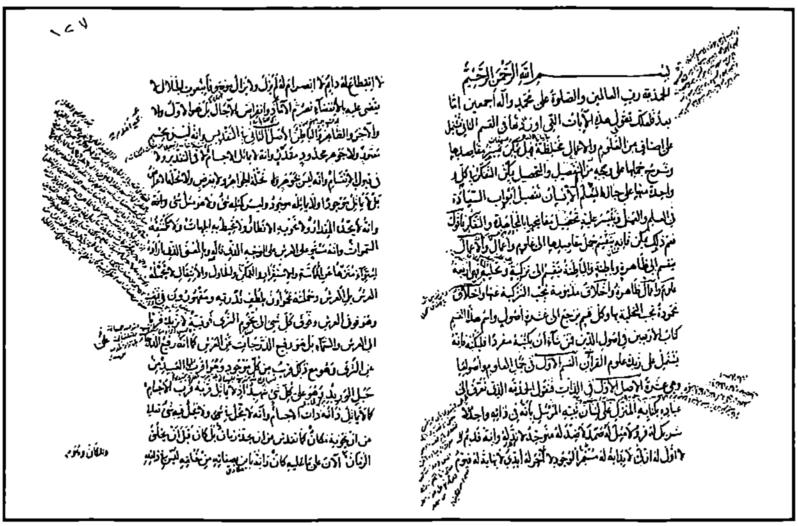
رامو الورقة الأخيرة للنسخة (ج)



كتاب الاربعين في اصول الدين

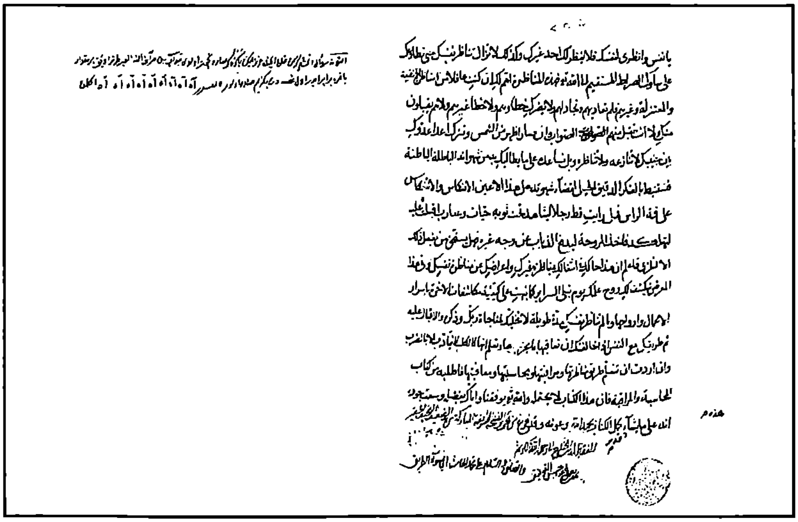
لحجة الاسلام الغزالي رحمه الله

راموز ورقة العنوان للنسخة (د)

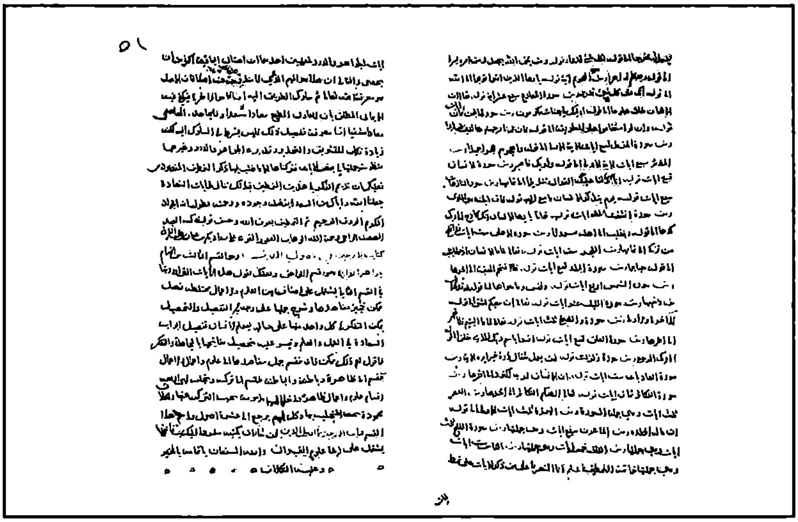


بسم الله الرحمن الرحيم

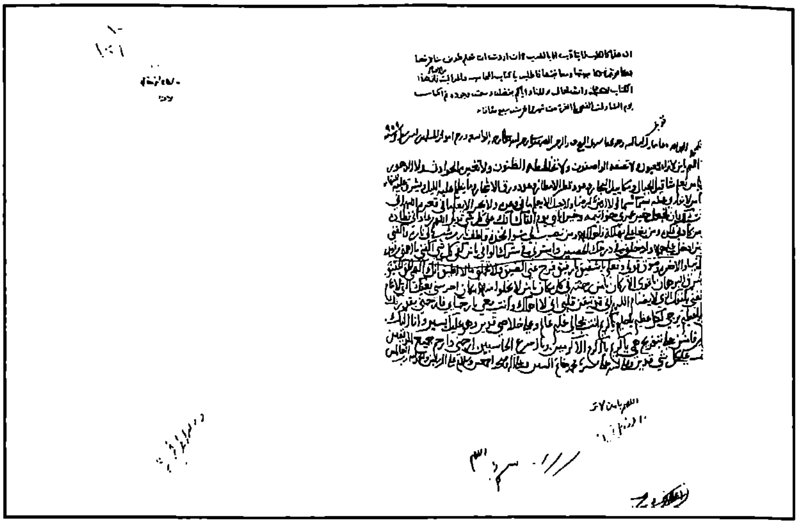
راموز الورقة الأولى للنسخة (د)



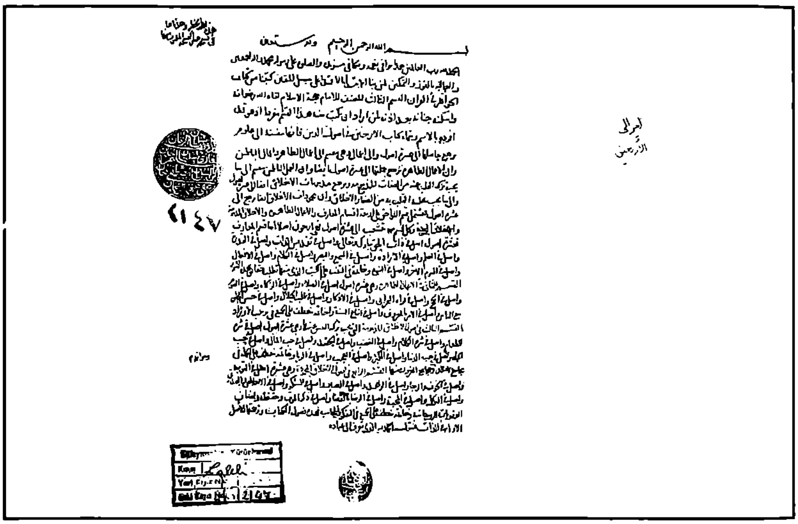
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (د)



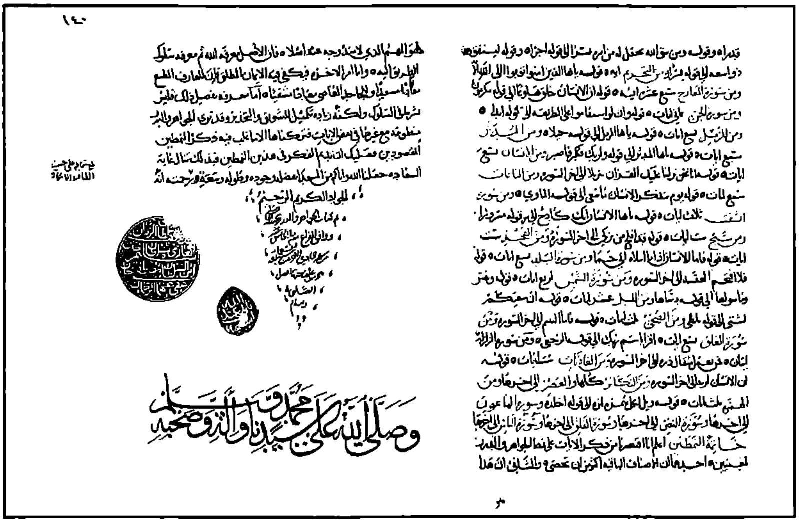
راموز الورقة الأولى للنسخة (هـ)



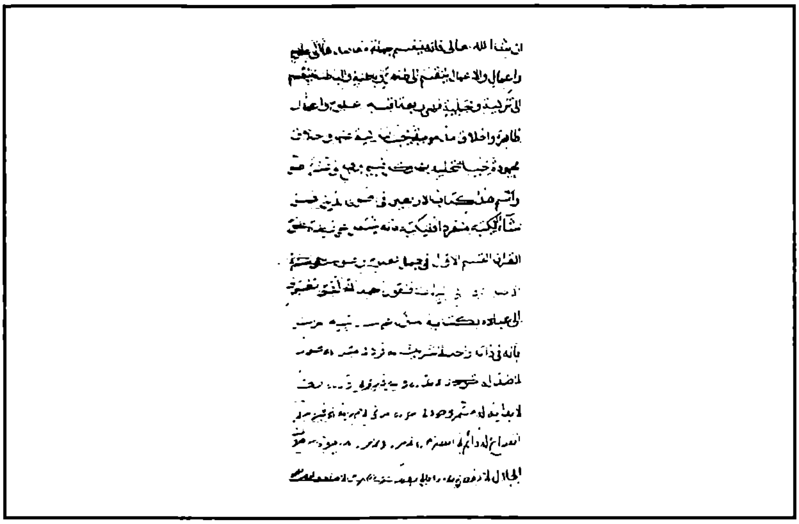
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (هـ)



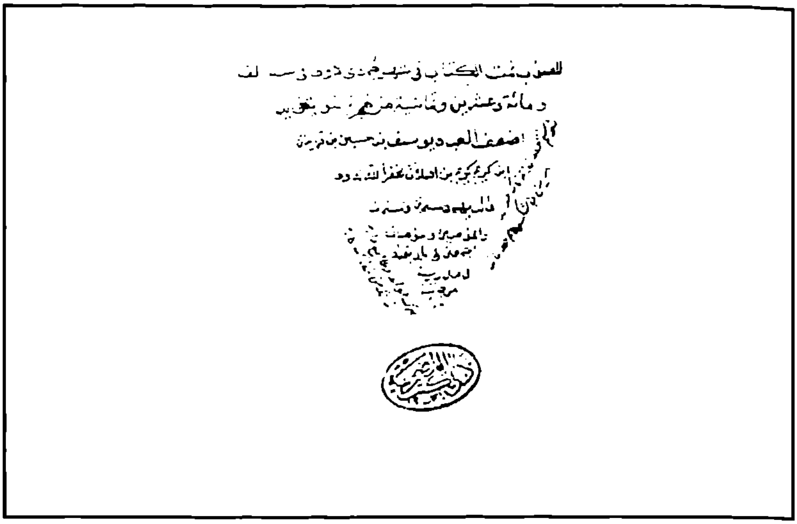
راموز الورقة الأولى للنسخة (و)



راموز الورقة الأخيرة للنسخة (و)

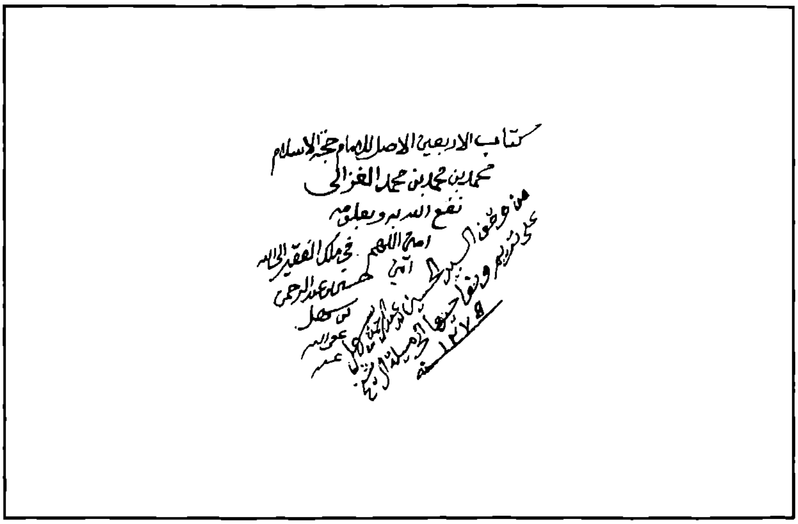


راموز الورقة الأولى للنسخة (ز)



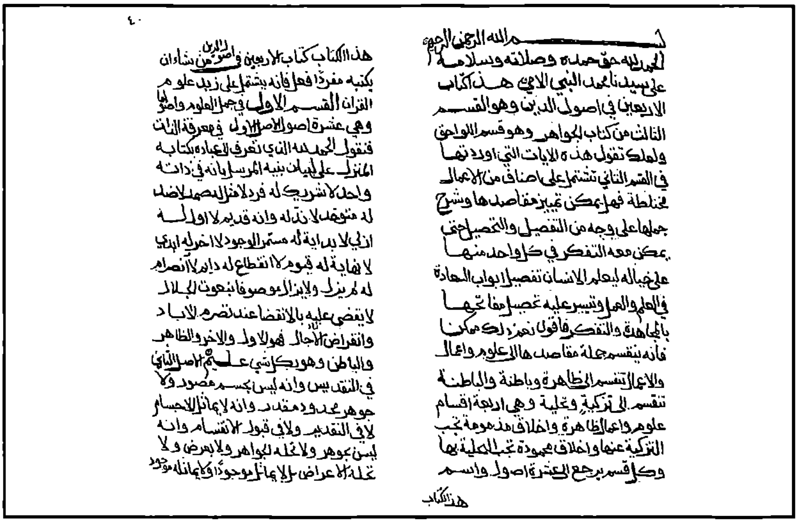
ضعف العبد يوسف بن حسين

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ز)



كتاب الاربعين الاصل للامام حجة الاسلام
محمد بن محمد بن محمد الغزالي
نفع الله به وبعلومه

راموز ورقة العنوان للنسخة (ح)



راموز الورقة الأولى للنسخة (ح)



راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ح)

الأربعين

في أصول الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠-٥٠٥هـ)

خطبة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

* [الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ حمداً يوافي نعمَهُ ويكافئُ مزيدَهُ ، والصلاةُ على رسولِهِ محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ ، والعاقبةُ بالفوزِ والتمكينِ لِمَنْ بنى الابتداءَ بالاقتداءِ على سبيلِ المتقينَ .

كتبْنا مِنْ كتابِ « الجواهرِ في القرآنِ » القسمَ الثالثَ المُصنَّفَ للإمامِ حُجَّةِ الإسلامِ لقَّاهُ اللهُ رضوانَهُ ، وأسكنَهُ جِنانَهُ ؛ بعدَ إذنِهِ لِمَنْ أرادَ أن يكتبَ منهُ هٰذا القسمَ مُفرَداً ؛ إذْ هوَ قد أفردَهُ بالاسمِ ، وسمَّاهُ كتابَ « الأربعينَ في أصولِ الدِّينِ » ؛ فإنَّها مُنقسِمةٌ إلى علومٍ يرجعُ حاصلُها إلى عشرةِ أصولٍ ، وإلى أعمالٍ ؛ وهيَ تنقسمُ إلى أعمالِ الظاهرِ وأعمالِ الباطنِ ، وإنَّ الأعمالَ الظاهرةَ ترجعُ جملتُها إلى عشرةِ أصولٍ أيضاً ، وإنَّ العملَ الباطنَ ينقسمُ إلى ما يجبُ تزكيةُ القلبِ عنهُ مِنَ الصفاتِ المذمومةِ ، وترجعُ مذموماتُ الأخلاقِ أيضاً إلى عشرةِ أصولٍ ، وإلى ما يجبُ تحليةُ القلبِ بهِ مِنَ الصفاتِ والأخلاقِ ، وإنَّ محموداتِ الأخلاقِ أيضاً ترجعُ إلى عشرةِ أصولٍ .

فيشتملُ قسمُ اللواحقِ علىٰ أربعةِ أقسامٍ : المعارفِ ، والأعمالِ الظاهرةِ ، والأخلاقِ المذمومةِ ، والأخلاقِ المحمودةِ ، وكلُّ قسمٍ يَتشعَّبُ إلىٰ عشرةِ أصولٍ ؛ فهيَ أربعونَ أصلاً .

أمَّا قسمُ المعارفِ . . فعشرةُ أصولٍ : أصلٌ في ذاتِ الحقِّ تباركَ وتعالىٰ ، وأصلٌ في تقديسِ الذاتِ ، وأصلٌ في القدرةِ ، وأصلٌ في العلمِ ، وأصلٌ في الإرادةِ ، وأصلٌ في السمعِ والبصرِ ، وأصلٌ في الكلامِ ، وأصلٌ في الأفعالِ ، وأصلٌ في اليومِ الآخرِ ، وأصلٌ في النبوَّةِ ، وخاتمةٌ في التنبيهِ على الكتبِ التي منها تُطلَبُ حقائقُ هٰذهِ الأصولِ .

القسمُ الثاني : في الأعمالِ الظاهرةِ ؛ وهيَ عشرةُ أصولٍ : أصلٌ في الصلاةِ ، وأصلٌ في الزكاةِ ، وأصلٌ في الصومِ ، وأصلٌ في الحجِّ ، وأصلٌ في قراءةِ القرآنِ ، وأصلٌ في الأذكارِ ، وأصلٌ في طلبِ الحلالِ ، وأصلٌ في حُسْنِ الخُلُقِ معَ الناسِ ، وأصلٌ في الأمرِ بالمعروفِ ، وأصلٌ في اتباعِ السُّنَّةِ ، وخاتمةٌ تنعطفُ على الجميعِ في ترتيبِ الأورادِ .

القسمُ الثالثُ : في أصولِ الأخلاقِ المذمومةِ التي يجبُ تزكيةُ

النفسِ عنها ؛ وهيَ عشرةُ أصولٍ : أصلٌ في شَرَهِ الطعامِ ، وأصلٌ في شَرَهِ الكلامِ ، وأصلٌ في الغضبِ ، وأصلٌ في الحسدِ ، وأصلٌ في حبِّ المالِ ، وأصلٌ في حبِّ الجاهِ ، وأصلٌ في حبِّ الدنيا ، وأصلٌ في الكِبْرِ ، وأصلٌ في العُجْبِ ، وأصلٌ في الرياءِ ، وخاتمةٌ تنعطفُ على الجملةِ في مجامعِ الأخلاقِ ومواقعِ الغرورِ منها .

القسمُ الرابعُ : في أصولِ الأخلاقِ المحمودةِ ؛ وهيَ عشرةُ أصولٍ : أصلٌ في التوبةِ ، وأصلٌ في الخوفِ والرجاءِ ، وأصلٌ في الزهدِ ، وأصلٌ في الصبرِ ، وأصلٌ في الشكرِ ، وأصلٌ في الإخلاصِ والصدقِ ، وأصلٌ في التوكُّلِ ، وأصلٌ في المحبَّةِ ، وأصلٌ في الرضا بالقضاءِ ، وأصلٌ في ذِكْرِ الموتِ وحقيقتِهِ وأصنافِ العقوباتِ الروحانيَّةِ ، وخاتمةٌ تنعطفُ على الجميعِ في التفكُّرِ والمحاسبةِ .

فهٰذهِ فصولُ الكتابِ وترجمتُها] *[1] .

وهوَ القسمُ الثَّالثُ مِنْ أقسامِ كتابِ « الجواهرِ » ، وهوَ قسمُ اللَّواحقِ[2] .

---

(١) ما بين معقوفين زيادة من النسختين المتأخرتين (هـ ، و) .

(٢) إذ كتابُ « جواهر القرآن » قسمَهُ الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ أقساماً ثلاثة : القسم الأول : في المقدمات والسوابق ، والقسم الثاني : في المقاصد ، والقسم الثالث : في ←

ولعلَّكَ تقولُ : هٰذهِ الآياتُ التي أوردتَها في القسمِ الثَّاني تشتملُ علىٰ أصنافٍ مِنَ العلومِ والأعمالِ مُختلِطةٍ [1] ، فهل يمكنُ تمييزُ مقاصدِها ، وشرحُ جُمَلِها علىٰ وجهٍ مِنَ التَّفصيلِ والتَّحصيلِ حتىٰ يمكنَ معَهُ التَّفكُّرُ في كلِّ واحدةٍ منهُما علىٰ حِيالِها ؛ ليَعلمَ الإنسانُ تفصيلَ أبوابِ السَّعادةِ في العِلْمِ والعملِ ، ويَتيسَّرَ عليهِ تحصيلُ مفاتيحِها بالمجاهدةِ والتَّفكُّرِ ؟

فأقولُ : نعمْ ؛ ذٰلكَ ممكنٌ ، وأنا أُميِّزُهُ لكَ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ ينقسمُ جُمَلُ مقاصدِها إلىٰ : علومٍ ، وأعمالٍ .

والأعمالُ تنقسمُ إلىٰ : ظاهرةٍ ، وباطنةٍ .

والباطنةُ تنقسمُ إلىٰ : تزكيةٍ ، وتحليةٍ .

فهيَ أربعةُ أقسامٍ :

- علومٌ .
- وأعمالٌ ظاهرةٌ .
- وأخلاقٌ مذمومةٌ تجبُ التَّزكيةُ عنها .
- وأخلاقٌ محمودةٌ تجبُ التَّحليةُ بها .

اللواحق ، وعن القسم الأخير قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « جواهر القرآن » (ص ١٧) : (ومقصوده : حصر جُملِ المقاصد الحاصلة من هٰذه الآيات ، وهو كتاب مستقلٌّ لمن أراد أن يكتبه مفرداً ، وقد سمَّيناه : كتاب « الأربعين في أصول الدين ») .

(١) أراد بالعلوم : ما ورد في ذاته تعالىٰ وصفاته وأفعاله ، وبالأعمال : ما ورد في بيان الصراط المستقيم والحثِّ عليه . انظر « جواهر القرآن » (ص ١٧) .

وكلُّ قسمٍ يرجعُ إلىٰ عشرةِ أصولٍ .

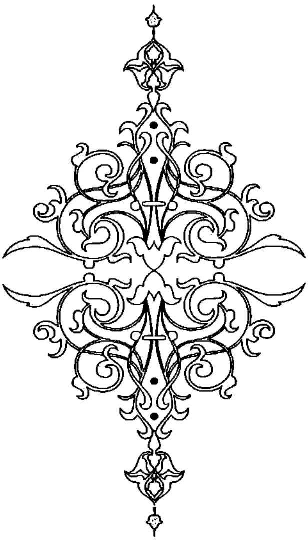
واسمُ هٰذا القسمِ[1] :

كتاب « الأربعينَ في أصولِ الدِّينِ »

فمَنْ شاءَ أن يكتبَهُ مفرداً . . فليكتبْهُ ؛ فإنَّه يشتملُ علىٰ زُبْدةِ علومِ القرآنِ .

❊

(١) يعني : القسم الأخير من كتابه « جواهر القرآن » كما سبق بيانه (ص ١٢ ـ ١٣) .



القِسمُ الأَوّلُ

في جُمَلِ العُلُومِ وأُصُولِها

وهي عشرة

الأصل الأوّل

في الذّات[1]

فنقولُ : الحمدُ للهِ الذي تَعرَّفَ إلىٰ عبادِهِ بكتابِهِ المُنزَلِ ، علىٰ لسانِ نبيِّهِ المُرسَلِ ؛ بأنَّه في ذاتِهِ واحدٌ لا شريكَ لهُ ، فردٌ لا مِثْلَ لهُ ، صمدٌ لا ضدَّ لهُ ، مُتوحِّدٌ لا ندَّ لهُ .

وأنَّه قديمٌ لا أوَّلَ لهُ ، أزليٌّ لا بدايةَ لهُ ، مُستمِرُّ الوجودِ لا آخِرَ لهُ ، أبديٌّ لا نهايةَ لهُ ، قيُّومٌ لا انقطاعَ لهُ ، دائمٌ لا انصرامَ لهُ ، لم يَزَلْ ولا يَزَالُ موصوفاً بنعوتِ الجلالِ[2] ، لا يَقْضِي عليهِ بالانقضاءِ تصرُّمُ الآمادِ وانقراضُ الآجالِ ، بل هوَ الأوَّلُ والآخِرُ ، والظَّاهرُ والباطنُ ، وهوَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ[3] .

❊

(١) أي : في تعريف الذات ؛ أي : في تعريف ذات الله تعالىٰ وتوحيده باعتبار صفاته ؛ لأن تعريف ذاته لا يمكن بالمقال ؛ لأن ذٰلك لا يمكن ؛ أي : لا يحصل إلا بالذوق والحال . انتهىٰ هامش (د) .

(٢) لم يزل : قبل خلق الخلق ، ولا يزال : بعد خلقهم ، وقد أشار بذٰلك إلى الصفات السلبية .

(٣) انظر « إحياء علوم الدين » (١/٣٣١ ـ ٣٣٢) .

الأصل الثّاني

في التّقديس

وأنَّـهُ ليسَ بجسمٍ مُصوَّرٍ ، ولا جوهرٍ محدودٍ مُقدَّرٍ ، وأنَّـهُ لا يُماثِلُ الأجسامَ ، لا في التَّقديرِ ولا في قَبُولِ الانقسامِ .

وأنَّهُ ليسَ بجوهرٍ ، ولا تَحُلُّهُ الجواهرُ ، ولا بِعَرَضٍ ، ولا تَحُلُّهُ الأعراضُ ، بل لا يماثلُ موجوداً ، ولا يماثلُهُ موجودٌ ، وليسَ كمثلِهِ شيءٌ ، ولا هوَ مثلُ شيءٍ .

وأنَّـهُ لا يَحُدُّهُ المقدارُ ، ولا تَحويهِ الأقطارُ ، ولا تحيطُ بهِ الجهاتُ ، ولا تكتنفُهُ الأرضُ والسَّماواتُ .

وأنَّهُ مستوٍ على العرشِ على الوجهِ الذي قالَهُ ، وبالمعنى الذي أرادَهُ ، استواءً مُنزَّهاً عنِ المُماسَّةِ والاستقرارِ ، والتَّمكُّنِ والحلولِ والانتقالِ ، لا يحملُهُ العرشُ ، بلِ العرشُ وحَمَلَتُهُ محمولونَ بلطفِ قدرتِهِ ، ومقهورونَ في قبضتِهِ .

وهوَ فوقَ العرشِ ، وفوقَ كلِّ شيءٍ إلىٰ تخومِ الثَّرىٰ ، فوقيَّةً

لا تزيدُهُ قرباً إلى العرشِ والسَّماءِ ، كما لا تزيدُهُ بعداً عنِ الأرضِ والثَّرىٰ ، بل هوَ رفيعُ الدَّرجاتِ عنِ العرشِ ، كما أنَّهُ رفيعُ الدَّرجاتِ عنِ الثَّرىٰ .

وهوَ معَ ذٰلكَ قريبٌ مِنْ كلِّ موجودٍ ، وهوَ أقربُ إلى العبيدِ مِنْ حبلِ الوريدِ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ شهيدٌ ؛ إذ لا يماثلُ قربُهُ قربَ الأجسامِ ، كما لا تماثلُ ذاتُهُ ذاتَ الأجسامِ .

وأنَّهُ لا يَحُلُّ في شيءٍ ، ولا يَحُلُّ فيهِ شيءٌ ، تعالىٰ عن أن يَحويَهُ مكانٌ ، كما تَقدَّسَ عن أن يَحُدَّهُ زمانٌ ، بل كانَ قبلَ أن خلقَ الزَّمانَ والمكانَ ، وهوَ الآنَ علىٰ ما عليهِ كانَ .

وأنَّهُ بائنٌ عن خلقِهِ بصفاتِهِ ، ليسَ في ذاتِهِ سواهُ ، ولا في سواهُ ذاتُهُ .

وأنَّهُ مُقدَّسٌ عنِ التَّغيُّرِ والانتقالِ ، لا تَحُلُّهُ الحوادثُ ، ولا تعتريهِ العوارضُ ، بل لا يزالُ في نعوتِ جلالِهِ مُنزَّهاً عنِ الزَّوالِ ، وفي صفاتِ كمالِهِ مستغنياً عن زيادةِ الاستكمالِ .

وأنَّهُ في ذاتِهِ معلومُ الوجودِ بالعقولِ ، مرئيُّ الذَّاتِ بالأبصارِ ، نعمةً منهُ ولطفاً بالأبرارِ في دارِ القرارِ ، وإتماماً للنَّعيمِ بالنَّظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ[1] .

٭

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (١/٣٣٢ ـ ٣٣٣) .

الأصل الثالث
في الحياة والقدرة [1]

وأنَّهُ حيٌّ قادرٌ ، جبَّارٌ قاهرٌ ، لا يعتريهِ قصورٌ ولا عَجْزٌ ، ولا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ ، ولا يعارضُهُ فَناءٌ ولا موتٌ .

وأنَّهُ ذو المُلكِ والملكوتِ ، والعزَّةِ والجبروتِ ، لهُ السلطانُ والقهرُ ، والخَلْقُ والأمرُ ، والسَّماواتُ مطويَّاتٌ بيمينِهِ ، والخلائقُ مقهورونَ في قبضتِهِ .

وأنَّهُ المُتفرِّدُ بالخَلْقِ والاختراعِ ، المُتوحِّدُ بالإيجادِ والإبداعِ ، خلقَ الخَلْقَ وأعمالَهُم ، وقَدَّرَ أرزاقَهُم وآجالَهُم ، لا يشِذُّ عن قبضتِهِ مقدورٌ ، ولا يَعزُبُ عن قدرتِهِ تصاريفُ الأمورِ ، لا تُحصَىٰ مقدوراتُهُ ، ولا تتناهَىٰ معلوماتُهُ [2] .

---

(١) جاء العنوان في النسخ الخطية للأصل الثالث هكذا : (في القدرة) ، والمثبت موافق لـ « إحياء علوم الدين » .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (١/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤) .

الأصل الرّابع
في العلم

وأنَّهُ عالِمٌ بجميعِ المعلوماتِ ، محيطٌ بما يجري مِنْ تخومِ الأَرَضينَ إلىٰ أعلى السَّماواتِ ، لا يَعزُبُ عن علمِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ ، بل يعلمُ دبيبَ النَّملةِ السَّوداءِ ، على الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ ، في اللَّيلةِ الظَّلماءِ ، ويُدرِكُ حركةَ الذَّرِّ في جوِّ الهواءِ .

ويعلمُ السِّرَّ وأخفىٰ ، ويَطَّلِعُ علىٰ هواجسِ الضَّمائرِ ، وحركاتِ الخواطرِ ، وخفيَّاتِ السَّرائرِ ، بعِلْمٍ قديمٍ أزليٍّ ، لم يَزَلْ موصوفاً بهِ في أزلِ الآزالِ ، لا بعِلْمٍ مُتجدِّدٍ حاصلٍ في ذاتِهِ بالحلولِ والانتقالِ (١) .

(١) وانظر « إحياء علوم الدين » (١/٣٣٤) .

الأصل الخامس

في الإرادة

وأنَّهُ سبحانَهُ مريدٌ للكائناتِ ، مُدبّرٌ للحادثاتِ ، فلا يجري في المُلْكِ والملكوتِ قليلٌ أو كثيرٌ ، صغيرٌ أو كبيرٌ ، خيرٌ أو شرٌّ ، نفعٌ أو ضرٌّ ، إيمانٌ أو كفرٌ ، عرفانٌ أو نُكرٌ ، فوزٌ أو خسرانٌ ، زيادةٌ أو نقصانٌ ، طاعةٌ أو عصيانٌ . . إلَّا بقضائِهِ وقَدَرِهِ ، وحكمِهِ ومشيئتِهِ ؛ فما شاءَ . . كانَ ، وما لم يشأْ . . لم يكنْ .

لا يَخرُجُ عن مشيئتِهِ لفتةُ ناظرٍ ، ولا فلتةُ خاطرٍ ، بل هوَ المُبدِئُ المعيدُ ، الفعَّالُ لِمَا يريدُ ، لا رادَّ لحُكْمِهِ ، ولا مُعقِّبَ لقضائِهِ ، ولا مَهرَبَ لعبدٍ عن معصيتِهِ إلَّا بتوفيقِهِ ورحمتِهِ ، ولا قوَّةَ لهُ علىٰ طاعتِهِ إلَّا بمعونتِهِ وإرادتِهِ .

لوِ اجتمعَ الإنسُ والجنُّ والملائكةُ والشَّياطينُ علىٰ أن يُحرِّكوا في العالَمِ ذَرَّةً أو يُسكِّنوها دونَ إرادتِهِ ومشيئتِهِ . . لَعَجَزُوا عن ذٰلكَ .

وأنَّ إرادتَهُ قديمةٌ قائمةٌ بذاتِهِ ، في جملةِ صفاتِهِ ، لم يَزَلْ كذٰلكَ موصوفاً بها ، مريداً في أزلِهِ لوجودِ الأشياءِ في أوقاتِها التي قَدَّرَها ، فوُجِدَتْ في أوقاتِها كما أرادَهُ في أزلِهِ ، مِنْ غيرِ

تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ ، بل وقعَتْ علىٰ وَفْقِ علمِهِ وإرادتِهِ مِنْ غيرِ تبدُّلٍ ولا تغيُّرٍ .

دَبَّرَ الأمورَ لا بترتيبِ أفكارٍ وتربُّصِ زمانٍ ، فلذٰلكَ لم يشغلْهُ شأنٌ عن شأنٍ (١) .

* (٢) [اعلمْ : أنَّ هٰذا المَقامَ مزلَّةُ الأقدامِ ، ولقد زَلَّتْ فيهِ أقدامُ الأكثرينَ ؛ لأنَّ تمامَ تحقيقِهِ مُستمَدٌّ مِنْ تيَّارِ بحرٍ عظيمٍ وراءَ بحرِ التَّوحيدِ ، وهم يَطلُبونَهُ بالبحثِ والجدالِ ، ولقد قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدىً . . إِلَّا أُوتُوا ٱلْجَدَلَ » (٣) .

ويَستدِلُّونَ بآياتِ القرآنِ ، مُؤوِّلينَ وليسوا مِنْ أهلِ التَّأويلِ ، ولو نالَ كلُّ واحدٍ مَقامَ التَّأويلِ . . لَمَا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ داعياً لابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : « ٱللَّهُمَّ ؛ فَقِّهْهُ فِي ٱلدِّينِ ، وَعَلِّمْهُ ٱلتَّأْوِيلَ » (٤) ، ولَمَا قالَ يعقوبُ ليوسفَ عليهِما السلامُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴿٦﴾ ﴾ .

---

(١) وانظر « إحياء علوم الدين » (١/٣٣٥) .

(٢) من هنا إلىٰ (ص ٧٥) زيادة مقحمة في صلب النص من النسختين المتأخرتين (ج ، د) ، وهي غير موجودة في « إحياء علوم الدين » ، وهي ملتقطة من بعض كتب الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ . وقد جاءت أيضاً مثبتة في عدد من مطبوعات الكتاب ؛ فرأينا إثباتها للفائدة العلمية .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٥٣) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه ابن حبان (٧٠٥٥) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

قالَ صاحبُ « الكشَّافِ » : (يعني : معانيَ كتبِ اللهِ ، وسننِ الأنبياءِ ، وما غَمُضَ واشتبهَ على النَّاسِ مِنْ أغراضِها ومقاصِدِها ، يُفسِّرُها لهُم ويشرحُها ، ويَدُلُّهُم علىٰ مُودَعاتِ حِكَمِها)[1] .

وإنَّما زَلَّتْ أقدامُ الأكثرينَ في هٰذا المَقامِ ؛ لأنَّهُم يَتَّبعونَ الذينَ يَتَّبعونَ ما تشابهَ منهُ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلِهِ ، وما يعلمُ تأويلَهُ إلَّا اللهُ والرَّاسخونَ في العلمِ ، وهٰؤلاءِ ليسوا براسخينَ ، بل قاصرونَ عاجزونَ ، فلقصورِهِم لم يُطِيقوا ملاحظةَ كُنْهِ هٰذا الأمرِ ، فأُلجِمُوا عمَّا لم يُطِيقوا خوضَ غَمَراتِهِ بلِجامِ المنعِ معَ سائرِ القاصرينَ ، فقيلَ لهُم : اسكتوا ، فما لهٰذا خُلِقتُم ؛ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : خرجَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ونحنُ نتنازعُ في القَدَرِ ، فغضبَ حتَّى احمرَّ وجهُهُ ، فقالَ : « أَبِهَـٰذَا أُمِرْتُمْ ؟! أَمْ بِهَـٰذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ ؟! إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَـٰذَا ٱلْأَمْرِ ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ فِي هَـٰذَا ٱلْأَمْرِ [أَنْ] لا تَنَازَعُوا فِيهِ »[2] .

وعن أبي جعفرٍ قالَ : قلتُ ليونسَ بنِ عبيدٍ : مررتُ بقومٍ

(١) الكشاف (٢/٤١٩) .
(٢) أخرجه الترمذي (٢١٣٣) .

يختصمونَ في القَدَرِ ، فقالَ : (لو همَّتْهُم ذنوبُهُم . . ما اختصموا في القَدَرِ) [١] .

وامتلأَ مشكاةُ بعضِهِم نوراً مُقتبَساً مِنْ نورِ اللهِ ، وكانَ زيتُهُم صافياً ، يكادُ يُضِيءُ ولو لم تمسسْهُ نارٌ ، فاشتعلَ نوراً علىٰ نورٍ ، فأشرَقَتْ أقطارُ المَلَكوتِ بينَ أيديهِم بنورِ ربِّها ، فأدركوا الأمورَ كما هيَ عليهِ ، فقيلَ لهُم : تأدَّبوا بأدبِ اللهِ واسكتوا ، وإذا ذُكِرَ القَدَرُ . . فأمسِكوا ، فلذٰلكَ أمسكَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا سُئِلَ عنِ القَدَرِ ، فقالَ للسَّائلِ : (بحرٌ عميقٌ لا تَلِجْهُ) ، ولمَّا كَرَّرَ السُّؤالَ . . قالَ : (طريقٌ مظلمٌ لا تسلُكْهُ) ولمَّا كَرَّرَ الثالثةَ . . قالَ : (سِرُّ اللهِ قد خفيَ عليكَ فلا تُفَتِّشْهُ) [٢] .

ومَنْ أرادَ معرفةَ أسرارِ المَلَكوتِ . . فليلازمْ بابَهُم بالمحبَّةِ والإخلاصِ والصِّدقِ ، والإعراضِ عن أعدائِهِم ، والامتثالِ بأوامرِهِم ، والسَّعْيِ فيما يُرضِيهِم .

وكذٰلكَ مَنْ أحبَّ معرفةَ أسرارِ الربوبيَّةِ . . فليلازمْ بابَ اللهِ بالمحبَّةِ والصدقِ والإخلاصِ ، والتعظيمِ والحياءِ والامتثالِ بالأوامرِ ، والانتهاءِ عنِ المعاصي ، والمجاهدةِ والإقبالِ بكُنْهِ الهمَّة والتعرُّضِ لنفحاتِهِ ، والسَّعْيِ فيما يرضىٰ .

---

(١) حلية الأولياء (٢١/٣) .

(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١٣/٤٢) عن سيدنا علي رضي الله عنه .

وإن لم يُطِقْ ذٰلكَ . . فعليهِ أن يعتقدَ في هٰذا البحثِ ما عليهِ أبو حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ وأصحابُهُ رحمَهُمُ اللهُ ؛ حيثُ قالوا : (إحداثُ الاستطاعةِ في العبدِ فعلُ اللهِ ، واستعمالُ الاستطاعةِ المُحْدَثَةِ فعلُ العبدِ حقيقةً لا مجازاً) .

والقَدَريَّةُ أنكروا قضاءَ اللهِ ، ورَأَوُا الخيرَ والشرَّ مِنْ أنفسِهم ؛ أرادوا بذٰلكَ تنزيهَ اللهِ عنِ الظلمِ وفعلِ القبيحِ ، ولٰكن ضَلُّوا ؛ إذ نسبوا العَجْزَ إلى اللهِ في ضمنِ ذٰلكَ ولم يَدْرُوا .

والجَبْريَّةُ اعتمدوا على القضاءِ ، ورأوُا الخيرَ والشرَّ مِنَ اللهِ ، ولم يَرَوْا مِنْ أنفسِهم فعلاً ؛ أرادوا بذٰلكَ تنزيهَ اللهِ عنِ العجزِ فضلُّوا ؛ إذ نسبوا الظُّلمَ إليهِ في ضمنِ ذٰلكَ ، وأضلُّوا سفهاءَهُم ، فكانوا يعصونَ اللهَ ، ويَنسُبونَ إلى اللهِ ؛ كالشيطانِ حيثُ قالَ : بما أغويتَني .

فالحاصلُ : أنَّ القَدَريَّةَ أثبتوا الاختيارَ الكليَّ للعبدِ في جميعِ أفعالِ العبادِ ، وأنكروا قضاءَ اللهِ وقَدَرَهُ بالكليَّةِ في أفعالِ العبادِ ، والجَبْريَّةَ نَفَوُا الاختيارَ بالكليَّةِ في أفعالِ العبادِ ، واعتمدوا على القضاءِ ، فينبغي للباحث معَهُم أن يضربَهُم ، ويُمزِّقَ ثيابَهَم

وعمائمَهُم ، ويَخدِشَ وجهَهُم ، ويَنتِفَ أشعارَهُم وأشفارَهُم ، وشواربَهُم ولِحاهُم ، ويعتذرَ بما اعتذرَ هٰؤلاءِ في سائرِ أفعالِهِمُ القبيحةِ الصادرةِ منهُم .

والمعتزلةُ أضافوا الشرَّ فقطْ إلىٰ أنفسِهِم ، وأثبتوا لأنفسِهِمُ الاختيارَ الكلِّيَّ ؛ تحرُّزاً عن نسبةِ القبيحِ إلى اللهِ والظلمِ ، ولٰكن نسبوا إلى اللهِ العَجْزَ في ضمنِ ذٰلكَ ولم يَدْرُوا ، **تعالى اللهُ عن ذٰلكَ عُلُوّاً كبيراً** .

وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ توسَّطوا ؛ فلم يَنفُوا الاختيارَ عن أنفسِهِم بالكليَّةِ ، ولم يَنفُوا القضاءَ والقَدَرَ عنِ اللهِ بالكليَّةِ ، بل قالوا : أفعالُ العبادِ مِنَ اللهِ مِنْ وجهٍ ، ومِنَ العبدِ مِنْ وجهٍ ، وللعبدِ اختيارٌ في إيجادِ فعلِهِ .

واعلمْ : أنَّ قضاءَ اللهِ علىٰ أربعةِ أوجهٍ : قضاءِ الطاعةِ ، والمعصيةِ ، والنعمةِ ، والشدَّةِ .

والمذهبُ المستقيمُ في ذٰلكَ :

إذا قضىٰ لعبدٍ الطاعةَ . . فعليهِ أن يَستقبِلَهُ بالجَهدِ والإخلاصِ

حتَّىٰ يكرمَهُ **بالتوفيقِ** ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ ؛ يعني : الذينَ جاهدوا في طاعتِنا وفي دينِنا لَنُوَفِّقَنَّهُم لذٰلكَ .

وإذا قضى المعصيةَ . . فعليهِ أن يَستقبِلَهُ **بالاستغفارِ والتوبةِ والندامةِ** حتىٰ يرزقَهُ **قَبُولَ التوبةِ** ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

وإذا قضى النعمةَ . . فعليهِ أن يَستقبِلَهُ **بالشكرِ والسخاءِ** حتَّىٰ يكرمَهُ اللهُ **بالزيادةِ** ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾ .

وإذا قضى الشدَّةَ . . فعليهِ أن يَستقبِلَهُ **بالصَّبرِ والرضاءِ** حتَّىٰ يُعطِيَهُ اللهُ **الكرامةَ في الآخرةِ** ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ، وقالَ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ .

ذَكَرَ الإمامُ مولانا علاءُ الدِّينِ رحمَهُ اللهُ في « شرحِهِ للمصابيحِ » **الفرقَ بينَ القضاءِ والقَدَرِ** : هوَ أنَّ **القضاءَ** : وجودُ جميعِ الموجوداتِ في اللَّوحِ المحفوظِ إجمالاً .

والقَدَرَ : هوَ تفصيلُ قضائِهِ السابقِ بإيجادِهِ في الموادِّ الخارجيَّةِ واحداً بعدَ واحدٍ .

وقيلَ : **القضاءُ** : هوَ الإرادةُ الأزليَّةُ ، والعنايةُ الإلـٰهيَّةُ المقتضيةُ

لنظامِ الموجوداتِ علىٰ ترتيبٍ خاصٍّ ، والقَدَرُ : تَعلُّقُ تلكَ الإرادةِ بالأشياءِ في أوقاتِها الخاصَّةِ .

ثمَّ إنَّ المسلمينَ في القَدَرِ . . على اختلافٍ :

منهُم مَنْ ذهبَ إلىٰ أنَّ كلَّ ما يجري في العالَمِ ؛ مِنَ الخيرِ والشرِّ ، والأفعالِ والأقوالِ . . بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ ، ولا اختيارَ للعبادِ فيهِ ، ويُسمَّىٰ هـٰذا القومُ جَبْريةً ، والجَبْرُ : هوَ القهرُ والإكراهُ ، فيقولونَ : أجبرَ اللهُ عبادَهُ علىٰ أقوالِهِم وأفعالِهِم مِنْ غيرِ اختيارٍ منهُم فيها ، ويزعمونَ أنَّ إضافتَها إليهِم إضافتُها إلى الجماداتِ ؛ في مثلِ قولِنا : دارَتِ الرَّحا ، وجَرَى الميزابُ .

وهـٰذا المذهبُ باطلٌ ؛ لأنَّهُم إن قالوا هـٰذا القولَ ليُسقِطوا مِنْ أنفسِهِمُ التكاليفَ ، ويُشبِّهوا أنفسَهُم بالصبيانِ والمجانينِ في عدمِ جَرَيانِ الخطابِ . . فقد كفروا ؛ لأنَّ مذهبَهُم يُفضي إلىٰ إبطالِ الكتبِ والرسلِ .

وإن قالوا ذٰلكَ لتعظيمِ اللهِ وتحقيرِ أنفسِهِم وعجزِهِم عن دفعِ قضاءِ اللهِ . . فهم مُبتدِعونَ ؛ لمخالفتِهِمُ الإجماعَ .

ومنهُم مَنْ ذهبَ إلىٰ أنَّ كلَّ ما يَصدُرُ عنِ العبادِ عَقِيبَ قصدِهِم

وإرادتِـهِـم . . يكونُ واقعاً بقدرتِهِم واختيارِهِم ، ولا يَتعلَّقُ بها بخصوصِها قدرةُ اللهِ وإرادتُـهُ ، ويُسمَّىٰ هٰؤلاءِ قَدَرِيَّةً ؛ لنَفْيِهِمُ القَدَرَ ، لا لإثباتِهِم .

وهٰذا المذهبُ أيضاً باطلٌ ؛ لأنَّهُم إن قالوا هٰذا القولَ عنِ اعتقادِ جوازِ العَجْزِ عنِ التقديرِ للهِ . . فهُم كافرونَ ، تعالى اللهُ عن ذٰلكَ علوّاً كبيراً ، وإن قالوا عن خطأ اجتهاداتِهِم وتنزيهِ الحقِّ عن تقديرِ أفعالِهِمُ القبيحةِ وخَلْقِها . . فهُم مُبتدِعونَ ؛ لمخالفتِهِمُ الإجماعَ .

ومِنْ هٰذهِ الطائفةِ مَنْ يقولُ : الخيرُ بتقديرِ اللهِ ، والشرُّ ليسَ بتقديرِهِ .

والمذهبُ الحقُّ : هوَ أنَّ المُؤثِّرَ مجموعُ القدرتينِ : قدرةِ اللهِ ، وقدرةِ العبادِ [١] ، فالأفعالُ الصادرةُ عنِ العبادِ كلُّها بقضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ ، ولٰكنْ للعبادِ اختيارٌ ، فالتقديرُ مِنَ اللهِ ، والكَسْبُ مِنَ العبادِ ، وهٰذا المذهبُ وَسَطٌ بينَ الجَبْرِ والقَدَرِ ، وعليهِ أهلُ السنَّةِ والجماعةِ . انتهىٰ كلامُهُ .

---

(١) في هامش (د) : (هٰذا الذي قاله ليس مذهب الأشاعرة من أهل السنة) ، فالمؤثر هو الله تعالىٰ وحده بقدرته ، وليس لقدرة العبد تأثير .

وقالَ الإمامُ حجَّةُ الإسلامِ الغزاليُّ رحمَهُ اللهُ في كتابِ « المقصدِ الأقصىٰ » : (تدبيرُ ربِّ الأربابِ ومُسبِّبِ الأسبابِ . . أصلُ وضعِ الأسبابِ ؛ ليتوجَّهَ إلى المُسبَّباتِ حُكْمُهُ .

ونصبُهُ الأسبابَ الكليَّةَ الأصليَّةَ الثابتةَ المُستقِرَّةَ التي لا تزولُ ولا تحولُ ؛ كالأرضِ والسماواتِ السبعِ والكواكبِ والأفلاكِ وحركاتِها المتناسبةِ الدائمةِ التي لا تتغيَّرُ ولا تنعدمُ إلىٰ أن يبلغَ الكتابُ أجلَهُ . . قضاؤُهُ ، كما قالَ : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴿١٢﴾ ﴾ .

وتوجيهُهُ هٰذهِ الأسبابَ بحركاتِها المناسبةِ المحدودةِ المُقدَّرةِ المحسوبةِ إلى المُسبَّباتِ الحادثةِ منها لحظةً بعدَ لحظةٍ . . قَدَرُهُ .

فالحكمُ : هوَ التدبيرُ الأوَّلُ الكلِّيُّ ، والأمرُ الأزليُّ الذي هوَ كلَمْحِ البصرِ .

والقضاءُ : هوَ الوضعُ الكلِّيُّ للأسبابِ الكليَّةِ الدائمةِ .

والقَدَرُ : هوَ توجيهُ الأسبابِ الكليَّةِ بحركاتِها المُقدَّرةِ المحسوبةِ إلىٰ مُسبَّباتِها المعدودةِ المحدودةِ بقَدْرٍ معلومٍ لا يزيدُ ولا ينقصُ ، ولذٰلكَ لا يَخرُجُ شيءٌ عن قضائِهِ وقدرِهِ .

ولا تفهمُ ذٰلكَ إلّا بمثالٍ : ولعلَّكَ شاهدتَ صُندوقَ الساعاتِ التي بها يُتعرَّفُ أوقاتُ الصلواتِ ، وإن لم تشاهدْهُ . . فجملةُ ذٰلكَ : أنَّهُ لا بدَّ فيهِ مِنْ آلةٍ علىٰ شكلِ أُسطوانةٍ تحوي مقداراً مِنَ الماءِ معلوماً ، وآلةٍ أخرىٰ مُجوَّفةٍ موضوعةٍ فيها فوقَ الماءِ ، وخيطٍ مشدودٍ أحدُ طرفيهِ في هٰذهِ الآلةِ المُجوَّفةِ ، وطرفُهُ الآخَرُ في أسفلِ ظرفٍ صغيرٍ موضوعٍ فوقَ الآلةِ المُجوَّفةِ ، وفيهِ كُرَةٌ ، وتحتَهُ طاسٌ ؛ بحيثُ لو سقطَتِ الكرةُ . . وقعَتْ في الطاسِ وسُمِعَ طنينُها ، ثمَّ تَثقُبُ أسفلَ الآلةِ الأسطوانيَّةِ ثَقباً بقَدْرٍ معلومٍ ينزلُ الماءُ منهُ قليلاً قليلاً ، فإذا انخفضَ الماءُ . . انخفضَتِ الآلةُ المُجوَّفةُ الموضوعةُ علىٰ وجهِ الماءِ ، فامتدَّ الخيطُ المشدودُ بها فحَرَّكَ الظرفَ الذي فيهِ الكرةُ تحريكاً يُقرِّبُهُ مِنَ الانتكاسِ إلىٰ أن ينتكسَ ، فيتدحرجُ منهُ الكرةُ ، وتقعُ في الطاسِ وتَطِنُّ ، وعندَ انقضاءِ كلِّ ساعةٍ تقعُ واحدةٌ .

وإنَّما يتقدَّرُ الفصلُ بينَ الوقعتينِ بتقديرِ خروجِ الماءِ وانخفاضِهِ ؛ وذٰلكَ بتقديرِ سَعَةِ الثَّقْبِ الذي يخرجُ منهُ الماءُ ، ويُعرَفُ ذٰلكَ بطريقِ الحسابِ ، فيكونُ نزولُ الماءِ بمقدارٍ مُقَدَّرٍ معلومٍ ، بسببِ تقديرِ سعةِ الثقبة بقدرٍ معلومٍ ، ويكونُ انخفاضُ أعلى الماءِ بذٰلكَ المقدارِ وبهِ يَتَقَدَّرُ انخفاضُ الآلةِ المُجوَّفةِ وانجرارُ الخيطِ بها المشدودِ ، وتَولُّدُ الحركةِ في الظرفِ الذي فيه الكرةُ ، وكلُّ ذٰلك يَتقدَّرُ بتقدُّرِ سببِهِ ، لا يزيدُ ولا ينقصُ .

ويمكنُ أن يُجعَلَ وقوعُ الكُرَةِ في الطاسِ سبباً لحركةٍ أخرىٰ ، وتكونَ الحركةُ الأخرىٰ سبباً لحركةٍ ثالثةٍ ، وهٰكذا إلىٰ درجاتٍ كثيرةٍ ، حتَّىٰ تتولَّدَ منها حركاتٌ عجيبةٌ مُقدَّرةٌ بمقاديرَ محدودةٍ ، وسببُها الأوَّلُ : نزولُ الماءِ بمقدارٍ معلومٍ .

فإذا تصوَّرتَ هٰذهِ الصورةَ . . فاعلمْ أنَّ واضعَها يحتاجُ إلىٰ ثلاثةِ أمورٍ :

أوَّلُها : التدبيرُ ؛ وهوَ الحكمُ بأنَّهُ ما الذي ينبغي أن يكونَ مِنَ الآلاتِ والأسبابِ والحركاتِ حتَّىٰ يُؤدِّيَ إلىٰ حصولِ ما ينبغي أن يَحصُلَ ؟ وذٰلكَ هوَ الحكمُ .

والثاني : إيجادُ هٰذهِ الآلاتِ التي هيَ الأصولُ ؛ وهيَ الآلةُ الأسطوانيَّةُ لتحويَ الماءَ ، والآلةُ المُجوَّفةُ لتُوضَعَ علىٰ وجهِ الماءِ ، والخيطُ المشدودُ بها ، والظرفُ الذي فيهِ الكُرةُ ، والطاسُ الذي يقعُ فيهِ الكرةُ ؛ وذٰلكَ هوَ القضاءُ .

الثالثُ : نَصْبُ سببٍ يُوجِبُ حركةً مُقدَّرةً محسوبةً محدودةً ؛ وهوَ ثَقْبُ أسفلِ الآلةِ ثقبةً مُقدَّرةَ السَّعةِ ، ليحدثَ بنزولِ الماءِ منها حركةٌ في الماءِ تُؤدِّي إلىٰ حركةِ وجهِ الماءِ بنزولِهِ ، ثمَّ إلىٰ حركةِ

الآلةِ المُجوَّفةِ الموضوعةِ علىٰ وجهِ الماءِ ، ثمَّ إلىٰ حركةِ الخيطِ ، ثمَّ إلىٰ حركةِ الظرفِ الذي فيهِ الكُرَةُ ، ثمَّ إلىٰ حركةِ الكُرَةِ ، ثمَّ إلى الصدمةِ بالطاسِ ، ثمَّ إلى الطنينِ الحاصلِ منها ، ثمَّ إلىٰ تنبيهِ الحاضرينَ واستماعِهِم ، ثمَّ إلىٰ حركتِهِم في الاشتغالِ بالصلواتِ والأعمالِ عندَ معرفتِهِم بانقضاءِ الساعةِ ، وكلُّ ذٰلكَ يكونُ بقَدْرٍ معلومٍ ومقدارٍ مُقدَّرٍ ، بسببِ تقدُّرِ جميعِها بقَدْرِ الحركةِ الأولىٰ ؛ وهيَ حركةُ الماءِ .

فإذا فهمتَ أنَّ هٰذهِ الآلاتِ أصولٌ لا بدَّ منها للحركةِ ، وأنَّ الحركةَ لا بدَّ مِنْ تقدُّرِها ليَتقدَّرَ ما يتولَّدُ منها . . فكذٰلكَ فافهمْ حصولَ الحوادثِ المُقدَّرةِ التي لا يَتقدَّمُ منها شيءٌ ولا يَتأخَّرُ ، إذا جاءَ أجلُها ؛ أي : حضرَ سببُها ، وكلُّ ذٰلكَ بمقدارٍ معلومٍ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ .

فالسماواتُ والأفلاكُ والكواكبُ والأرضُ والبحرُ والهواءُ ، وهٰذهِ الأجسامُ العظامُ في العالَمِ . . كتلكَ الآلاتِ ، والسببُ المُحرِّكُ للأفلاكِ والكواكبِ والشمسِ والقمرِ بحسابٍ معلومٍ . . كتلكَ الثقبةِ المُوجِبةِ لنزولِ الماءِ بقَدْرٍ معلومٍ ، وإفضاءُ حركةِ الشمسِ والقمرِ والكواكبِ إلىٰ حصولِ الحوادثِ في الأرضِ . . كإفضاءِ حركةِ الماءِ إلىٰ حصولِ تلكَ الحركاتِ المفضيةِ إلىٰ سقوطِ الكرةِ المُعرِّفةِ لانقضاءِ الساعةِ .

ومثالُ تداعي حركاتِ السماءِ إلىٰ تغييراتِ الأرضِ : هوَ أنَّ الشمسَ بحركتِها إذا بلغَتْ إلى المشرقِ فاستضاءَ العالَمُ ، وتَيسَّرَ على الناسِ الإبصارُ ، فيَتيسَّرُ عليهِمُ الانتشارُ في الأشغالِ ، فإذا بلغَتِ المغربَ . . تَعذَّرَ عليهِم ذٰلكَ ، فرجعوا إلى المساكنِ ، وإذا قَرُبَتْ مِن وَسَطِ السماءِ ، وسامتَتْ رؤوسَ أهلِ الأقاليمِ . . حَمِيَ الهواءُ ، واشتدَّ القيظُ ، وحصلَ نضجُ الفواكهِ ، وإذا بَعُدَتْ . . حصلَ الشتاءُ ، واشتدَّ البردُ ، وإذا توسَّطَتْ . . حصلَ الاعتدالُ ، فظهرَ الربيعُ ، وأنبتَتِ الأرضُ ، وظهرَتِ الخضرةُ .

وقِسْ بهٰذهِ المشهوراتِ التي تعرفُها الغرائبَ التي لا تعرفُها ، فاختلافُ هٰذهِ الفصولِ كلِّها مُقدَّرةٌ بقَدَرٍ معلومٍ ؛ لأنَّها منوطةٌ بحركاتِ الشمسِ والقمرِ ، و﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ ؛ أي : حركتُهُما بحسابٍ معلومٍ ؛ فهٰذا هوَ التقديرُ ، ووضعُ الأسبابِ الكليَّةِ هوَ **القضاءُ** ، والتدبيرُ الأوَّلُ الذي هوَ كلمحِ البصرِ هوَ **الحكمُ** .

وكما أنَّ حركةَ الآلةِ والخيطِ والكرةِ ليسَتْ خارجةً عن مشيئةِ واضعِ الآلةِ ، بل ذٰلكَ هوَ الذي أرادَهُ بوضعِ الآلةِ . . فكذٰلكَ **كلُّ ما يحدثُ في العالَمِ** مِنَ الحوادثِ ؛ شرِّها وخيرِها ، نَفْعِها وضرِّها ، **غيرُ خارجٍ عن مشيئةِ اللهِ تعالىٰ** ، بل ذٰلكَ مرادُ اللهِ تعالىٰ ، ولأجلِهِ دَبَّرَ أسبابَهُ ، وتفهيمُ الأمورِ الإلٰهيَّةِ بالأمثلةِ العرفيَّةِ عسيرٌ ، ولٰكنِ

المقصودُ مِنَ الأمثلةِ التنبيهُ ، فدَعِ المثالَ ، وتنبَّهْ للغرضِ ، واحذرْ مِنَ التمثيلِ والتشبيهِ)] *[1] .

❋ ❋

(١) المقصد الأسنىٰ (ص ٩٢ ـ ٩٥) ، وما بين معقوفين بدءاً من (ص ٦٢) زيادة من النسختين المتأخرتين (ج ، د) .

الأصل السادس

في السمع والبصر

وأنَّهُ تعالىٰ سميعٌ بصيرٌ ، يسمعُ ويرىٰ ، لا يَعزُبُ عن سمعِهِ مسموعٌ وإن خفيَ ، ولا يغيبُ عن رؤيتِهِ مرئيٌّ وإن دَقَّ ، ولا يَحجبُ سمعَهُ بُعدٌ ، ولا يدفعُ رؤيتَهُ ظلامٌ .

يرىٰ مِنْ غيرِ حَدَقةٍ وأجفانٍ ، ويسمَعُ مِنْ غيرِ أصمِخةٍ وآذانٍ ، كما يَعلَمُ مِنْ غيرِ قلبٍ ، ويَبطِشُ بغيرِ جارحةٍ ، ويَخلُقُ بغيرِ آلةٍ ؛ إذ لا تُشبِهُ صفاتُهُ صفاتِ الخَلْقِ ، كما لا تُشبِهُ ذاتُهُ ذاتَ الخَلْقِ [1] .

* * *

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (١/٣٣٥ ـ ٣٣٦) .

الأصل السابع

في الكلام

وأنَّهُ تعالىٰ مُتكلِّمٌ ، آمرٌ ناهٍ ، واعدٌ مُتوعِّدٌ ، بكلامٍ أزليٍّ قديمٍ ، قائمٍ بذاتِهِ ، لا يُشبِهُ كلامَ الخَلْقِ ؛ فليسَ بصوتٍ يَحْدُثُ مِنِ انسلالِ هواءٍ واصطكاكِ أجرامٍ ، ولا بحرفٍ ينقطعُ بإطباقِ شفةٍ أو تحريكِ لسانٍ .

وأنَّ القرآنَ والتَّوراةَ والإنجيلَ والزَّبورَ كتبُهُ المُنزلَةُ علىٰ رُسلِهِ .

وأنَّ القرآنَ مقروءٌ بالألسنةِ ، مكتوبٌ في المصاحفِ ، محفوظٌ في القلوبِ .

وأنَّهُ معَ ذٰلكَ قديمٌ ، قائمٌ بذاتِ اللهِ تعالىٰ ، لا يقبلُ الانفصالَ والافتراقَ بالانتقالِ إلى القلوبِ والأوراقِ .

وأنَّ موسىٰ عليهِ السَّلامُ سمعَ كلامَ اللهِ تعالىٰ بغيرِ صوتٍ ولا حرفٍ ؛ كما يرى الأبرارُ ذاتَ اللهِ سبحانَهُ مِنْ غيرِ شكلٍ ولا لونٍ (١) .

---

(١) في « قواعد العقائد » من « الإحياء » (١/٣٣٦) : (من غير جوهر ولا عرض) .

وإذ كانَتْ لهُ هٰذهِ الصِّفاتُ . . كانَ حيّاً ، عالماً ، قادراً ، مريداً ، سميعاً ، بصيراً ، مُتكلِّماً ؛ بالحياةِ ، والعلمِ ، والقدرةِ ، والإرادةِ ، والسَّمعِ ، والبصرِ ، والكلامِ ، لا بمُجرَّدِ الذَّاتِ [١] .

* * *

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (١/٣٣٦) .

الأصل الثّامن

في الأفعال

وأنَّهُ تعالىٰ لا موجودَ سواهُ إلَّا وهوَ حادثٌ بفعلِهِ ، وفائضٌ مِنْ عدلِهِ ، علىٰ أحسنِ الوجوهِ وأكملِها ، وأتمِّها وأعدلِها .

وأنَّهُ حكيمٌ في أفعالِهِ ، عادلٌ في أقضيتِهِ ، ولا يُقاسُ عدلُهُ بعدلِ العبادِ ؛ إذِ العبدُ يُتصوَّرُ منهُ الظُّلمُ بتصرُّفِهِ في مِلْكِ غيرِهِ ، ولا يُتصوَّرُ الظُّلمُ مِنَ اللهِ سبحانَهُ ؛ فإنَّهُ لا يُصادِفُ لغيرِهِ مِلْكاً حتَّىٰ يكونَ تصرُّفُهُ فيهِ ظلماً .

فكلُّ ما سواهُ ؛ مِنْ جنٍّ وإنسٍ ، وشيطانٍ ومَلَكٍ ، وسماءٍ وأرضٍ ، وحيوانٍ ونباتٍ ، وجوهرٍ وعَرَضٍ ، ومُدرَكٍ ومحسوسٍ . . حادثٌ ، اخترعَهُ بقدرتِهِ بعدَ العَدَمِ اختراعاً ، وأنشأَهُ بعدَ أن لم يكنْ إنشاءً ؛ إذ كانَ في الأزلِ موجوداً وحدَهُ ، ولم يكنْ معَهُ غيرُهُ ، فأحدثَ الخَلْقَ بعدَ ذٰلكَ إظهاراً لقدرتِهِ ، وتحقيقاً لِمَا سبقَ مِنْ إرادتِهِ ، ولِمَا حَقَّ في الأزلِ مِنْ كلمتِهِ ، لا لافتقارِهِ إليهِ وحاجتِهِ .

وأنَّـهُ مُتفضِّلٌ بالـخَلْقِ والاختـراعِ والتَّكليفِ لا عن وجوبٍ ، ومُتطوِّلٌ بالإنعامِ والإصلاحِ لا عن لزومٍ ؛ فلهُ الفضلُ والإحسانُ ، والنِّعمةُ والامتنانُ ؛ إذ كانَ قادراً علىٰ أن يَصُبَّ علىٰ عبادِهِ أنواعَ العذابِ ، ويبتليَهُم بضروبِ الآلامِ والأوصابِ ، ولو فعلَ ذٰلكَ . . لكانَ منهُ عدلاً ، ولم يكنْ قبيحاً ولا ظلماً .

وأنَّهُ يثيبُ عبادَهُ على الطَّاعاتِ بحكمِ الكرمِ والوعدِ ، لا بحكمِ الاستحقاقِ واللُّزومِ ؛ إذ لا يجبُ عليهِ فعلٌ ، ولا يُتصوَّرُ منهُ ظلمٌ ، ولا يجبُ عليهِ لأحدٍ حقٌّ .

وأنَّ حقَّهُ في الطَّاعاتِ وجبَ على الخَلْقِ بإيجابِهِ علىٰ لسانِ أنبيائِهِ ، لا بمُجرَّدِ العقلِ ، ولٰكنَّهُ بعثَ الرُّسلَ وأظهرَ صدقَهُم بالمعجزاتِ الظَّاهرةِ ، فبلَّغوا أمرَهُ ونهيَهُ ، ووعدَهُ ووعيدَهُ ، فوجبَ على الخَلْقِ تصديقُهُم فيما جاؤوا بهِ[١] .

* *

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (١/٣٣٧ ـ ٣٣٨) .

الأصل التاسع

في اليوم الآخر

وأنَّهُ يُفرِّقُ بالموتِ بينَ الأرواحِ والأجسادِ ، ثمَّ يعيدُهَا إليها عندَ الحشرِ والنُّشورِ ، فيبعثرُ ما في القبورِ ، ويُحصِّلُ ما في الصُّدورِ ، فيرىٰ كلُّ مُكلَّفٍ ما عملَهُ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ مُحضَراً ، ويُصادِفُ دقيقَ ذٰلكَ وجليلَهُ مُسطَّراً ، في كتابٍ لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحصاها .

ويَعرِفُ كلُّ واحدٍ مقدارَ عملِهِ خيرِهِ وشرِّهِ بمعيارٍ صادقٍ يُعبَّرُ عنهُ بالميزانِ ، وإن كانَ لا يساوي ميزانُ الأعمالِ ميزانَ الأجسامِ الثِّقالِ ، كما لا يساوي الأَصْطُرْلَابُ الذي هوَ ميزانُ المواقيتِ[1] ، والمِسطرةُ التي هيَ ميزانُ المقاديرِ ، والعَروضُ الذي هو ميزانُ الأشعارِ . . سائرَ الموازينِ .

ثمَّ يُحاسِبُهُم علىٰ أفعالِهِم وأقوالِهِم ، وسرائرِهِم وضمائرِهِم ، ونيَّاتِهِم وعقائدِهِم ، ممَّا أبدَوهُ وأخفَوهُ ؛ فإنَّهُم يتفاوتونَ فيهِ ؛ إلىٰ مُناقَشٍ في الحسابِ ، وإلىٰ مُسامَحٍ فيهِ ، وإلىٰ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ .

---

(١) الأَصْطُرْلابُ : آلة لتعيين ارتفاعات الأجرام السماوية ، ومعرفة الوقت والجهات الأصلية . انظر « المعجم الوسيط » (١/١٧) .

وأنَّهُم يُساقونَ إلى الصِّراطِ ؛ وهوَ جسرٌ ممدودٌ بينَ منازلِ الأشقياءِ والسُّعَداءِ ، أحدُّ مِنَ السَّيفِ ، وأدقُّ مِنَ الشَّعَرِ ، يَخِفُّ عليهِ مَنِ استوىٰ في الدُّنيا على الصِّراطِ المستقيمِ الذي يوازيهِ في الخفاءِ والدِّقَّةِ ، ويَتعثَّرُ بهِ مَنْ عدلَ عن سواءِ السَّبيلِ المستقيمِ ، إلَّا مَنْ عُفِيَ عنهُ بحكمِ الكرمِ والجودِ .

وأنَّهُم عندَ ذٰلكَ يُسألونَ ؛ فيَسأَلُ مَنْ شاءَ مِنَ الأنبياءِ عن تبليغِ الرِّسالةِ ، ومَنْ شاءَ مِنَ الكُفَّارِ عن تكذيبِ المرسلينَ ، ومَنْ شاءَ مِنَ المُبتدِعةِ عنِ السُّنَّةِ ، ومَنْ شاءَ مِنَ المسلمينَ عن أعمالِهِم ؛ فيَسأَلُ الصَّادقينَ عن صدقِهِم ، والمنافقينَ عن نفاقِهِم .

ثمَّ يُساقُ السُّعداءُ إلى الرَّحمـٰنِ وفداً ، والمجرمونَ إلىٰ جهنَّمَ وِرداً ، ثمَّ يأمرُ بإخراجِ المُوحِّدينَ مِنَ النَّارِ بعدَ الانتقامِ ، حتَّىٰ لا يبقىٰ في النَّارِ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الإيمانِ ، ويَخرُجُ بعضُهُم قبلَ تمامِ العقوبةِ والانتقامِ بشفاعةِ الأنبياءِ والعلماءِ والشُّهداءِ ، ومَنْ لهُ رتبةُ الشَّفاعةِ (١) .

ثمَّ يَستقِرُّ أهلُ السَّعادةِ في الجنَّةِ مُنعَّمينَ أبدَ الآبدينَ ، مُمتَّعينَ بالنَّظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ .

---

(١) في هامش (د) : (كالأولياء والمشايخ والصلحاء والعُبَّاد) .

ويَستقِرُّ أهلُ الشَّقاوةِ في النَّارِ مُردَّدينَ تحتَ أنواعِ العذابِ ، مُبعَدينَ عنِ النَّظرِ بالحجابِ إلىٰ وجهِ اللهِ ذي الجلالِ والإكرامِ [1] .

❁

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (١/٣٣٩ ـ ٣٤١)

الأصل العاشر

في النّبوّة

وأنَّهُ خلقَ الملائكةَ ، وبعثَ الأنبياءَ ، وأيَّدَهُم بالمعجزاتِ .

وأنَّ الملائكةَ كلَّهُم عبادُهُ ، لا يستكبرونَ عن عبادتِهِ ولا يَستحسِرونَ ، بل يُسبّحونَ اللَّيلَ والنَّهارَ لا يَفتُرونَ .

وأنَّ الأنبياءَ رسلُهُ إلىٰ خلقِهِ ، وينتهي إليهِم وحيُهُ بواسطةِ الملائكةِ ، فيَنطِقونَ عن وحيٍ يُوحَىٰ ، لا عنِ الهوىٰ .

وأنَّهُ بعثَ النَّبيَّ الأُمِّيَّ القُرَشيَّ محمَّداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برسالتِهِ إلىٰ كافَّةِ العربِ والعجمِ ، والجنِّ والإنسِ ، فنسخَ بشرعِهِ الشَّرائعَ إلَّا ما قرَّرَهُ ، وفضَّلَهُ علىٰ سائرِ الأنبياءِ ، وجعلَهُ سيِّدَ البشرِ ، ومنعَ كمالَ الإيمانِ بشهادةِ التَّوحيدِ ؛ وهوَ قولُ : (لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ) ، ما لم تقترنْ بها شهادةُ الرَّسولِ ؛ وهوَ قولُكَ : (محمَّدٌ رسولُ اللهِ) .

وألزمَ الخَلْقَ تصديقَهُ في جميعِ ما أخبرَ عنهُ في أمرِ الدُّنيا والآخرةِ ، وألزمَهُمُ اتِّباعَهُ والاقتداءَ بهِ ، فقالَ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴿٧﴾ ﴾ .

فلم يُغادِرْ شيئاً يُقرِّبُهُم إلى اللهِ تعالىٰ . . إلَّا أمرَهُم بهِ ودلَّهُم علىٰ سبيلِهِ ، ولا شيئاً يُقرِّبُهُم إلى النَّارِ ويُبعِدُهُم عنِ اللهِ تعالىٰ . . إلَّا نهاهُم عنهُ وعرَّفَهُم طريقَهُ ؛ لأنَّ ذٰلكَ أمورٌ لا يُرْشِدُ إليها مُجرَّدُ العقلِ والذَّكاءِ ، بل هيَ أسرارٌ يُكاشَفُ بها مِنْ حظيرةِ القدسِ قلوبُ الأنبياءِ .

فالحمدُ للهِ علىٰ ما أرشدَ وهدىٰ ، وأظهرَ مِنْ أسمائِهِ الحسنىٰ ، وصفاتِهِ العلا ، والصَّلاةُ علىٰ محمَّدٍ المصطفىٰ ، خاتِمِ الأنبياءِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ ، وسلَّمَ كثيراً (١) .

* * *

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (١/٣٣٨) .

خَاتِمَة
في التّنبيه على الكتب الّتي تطلب منها حقيقة هٰذه العقيدة

اعلمْ : أنَّ ما ذكرناهُ هوَ الحاصلُ مِنْ علومِ القرآنِ ؛ أعني : جُمَلَ ما يَتعلَّقُ منها باللهِ واليومِ الآخِرِ ، وهيَ ترجمةُ العقيدةِ التي لا بدَّ أن ينطويَ عليها قلبُ كلِّ مسلمٍ ؛ [فمَنِ اعتقدَ جميعَ ذٰلكَ موقناً . . كانَ مِنْ أهلِ الحقِّ وعصابةِ أهلِ السنةِ ، وفارقَ رهطَ الضلالِ وحزبَ البدعةِ ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ كمالَ اليقينِ ، والثباتَ في الدينِ ، لنا ولكافةِ المسلمينَ ؛ إنَّهُ أرحمُ الراحمينَ .

اعلمْ : أنَّ ما ذكرناهُ في ترجمةِ العقيدةِ في وجهِ التدريجِ والإرشادِ ، وترتيبِ درجاتِ الاعتقادِ . . ينبغي أن يُقدَّمَ إلى الصبيِّ في أولِ نشوئِهِ ليحفظَهُ حفظاً ، ثمَّ لا يزالُ ينكشفُ لهُ معناهُ في كبرِهِ شيئاً شيئاً ؛ فابتداؤُهُ الحفظُ ، ثمَّ الفهمُ ، ثمَّ الاعتقادُ والإيقانُ والتصديقُ بهِ ؛ وذٰلكَ ممَّا يحصلُ في الصبيِّ بغيرِ برهانٍ ، فمِنْ فضلِ اللهِ سبحانَه علىٰ قلبِ الإنسانِ شرحُهُ في أولِ نشوئِهِ للإيمانِ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ حُجَّةٍ وبرهانٍ ، وقد شرحنا ذٰلكَ في كتابِ « قواعدِ العقائدِ » مِنْ كتابِ « إحياءِ علومِ الدينِ »][١] ؛

(١) ما بين معقوفين زيادة من (و) فقط .

بمعنىٰ : أنَّهُ يعتقدُهُ ويُصدِّقُ بهِ تصديقاً جزماً .

ووراءَ هٰذهِ العقيدةِ رتبتانِ :

إحداهُما : معرفةُ أدلَّةِ هٰذهِ العقيدةِ الظَّاهرةِ مِنْ غيرِ غوصٍ علىٰ أسرارِها .

والثَّانيةُ : معرفةُ أسرارِها ، ولُبابِ معانيها ، وحقيقةِ ظواهرِها .

والرُّتبتانِ جميعاً ليستا واجبتينِ علىٰ جميعِ العوامِّ ؛ أعني : أنَّ نجاتَهُم في الآخِرةِ غيرُ موقوفةٍ عليهِما ، ولا فوزَهُم موقوفٌ عليهِما ، وإنَّما الموقوفُ عليهِما كمالُ السَّعادةِ ، وأعني بالنَّجاةِ : الخلاصَ مِنَ العذابِ ، وأعني بالفوزِ : الحصولَ علىٰ أصلِ النَّعيمِ ، وأعني بالسَّعادةِ : نيلَ غاياتِ النَّعيمِ .

فالسُّلطانُ إذا استولَىٰ علىٰ بلدةٍ وفتحَها عَنوةً وقَهراً ؛ فالذي لم يقتلْهُ ولمْ يُعذِّبْهُ . . فهوَ ناجٍ وإن أخرجَهُ عنِ البلدةِ ، والذي لم يُعذِّبْهُ ومعَ ذٰلكَ مكَّنَهُ مِنَ المُقامِ في بلدِهِ معَ أهلِهِ وأسبابِ معيشتِهِ . . فهوَ معَ النَّجاةِ فائزٌ ، والذي خلعَ عليهِ ، وأشركَهُ في مِلكِهِ ، واستخلفَهُ في مملكتِهِ وإمارتِهِ . . فهوَ معَ النَّجاةِ والفوزِ سعيدٌ ، ثمَّ زياداتُ درجاتِ السَّعادةِ لا تنحصرُ .

واعلمْ : أنَّ الخلقَ في الآخِرةِ يَنقسِمونَ إلىٰ هٰذهِ الأصنافِ ، بل إلىٰ أصنافٍ أكثرَ مِنْ هٰذهِ ، وقد شرحنا مِنْ ذٰلكَ ما أمكنَ شرحُهُ في (كتابِ التَّوبةِ) مِنْ كتبِ « الإحياءِ » ، فاطلبْهُ منهُ [1] .

أمَّا الرُّتبةُ الأولىٰ مِنَ الرُّتبتينِ ؛ وهيَ معرفةُ أدلَّةِ ظاهرِ هٰذهِ العقيدةِ . . فقد أودعناها « الرِّسالةَ القدسيَّةَ » في قدْرِ عشرينَ ورقةً ، وهيَ أحدُ فصولِ (كتابِ قواعدِ العقائدِ) مِنْ كتابِ « الإحياءِ » [2] .

وأمَّا أدلَّتُها معَ زيادةِ تحقيقٍ ، وزيادةِ تأنُّقٍ في إيرادِ الأسئلةِ والإشكالاتِ . . فقد أودعناها كتابَ « الاقتصادِ في الاعتقادِ » في مقدارِ مئةِ ورقةٍ ، وهوَ كتابٌ مُفرَدٌ برأسِهِ ، يحوي لُبابَ علمِ المُتكلِّمينَ ، ولٰكنَّهُ أبلغُ في التَّحقيقِ ، وأقربُ إلىٰ قرعِ أبوابِ المعرفةِ مِنَ الكلامِ الرَّسميِّ الذي يُصادَفُ في كتبِ المُتكلِّمينَ .

وكلُّ ذٰلكَ يرجعُ إلى الاعتقادِ لا إلى المعرفةِ ؛ فإنَّ المُتكلِّمَ لا يُفارِقُ العامِّيَّ في كونِهِ عارفاً وكونِ العامِّيِّ مُعتقِداً ، بل هوَ أيضاً مُعتقِدٌ عرفَ معَ اعتقادِهِ أدلَّةَ الاعتقادِ ؛ ليُؤكِّدَ الاعتقادَ

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٩/٧) .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٣٨١/١) ، وهي الفصل الثالث من هٰذا الكتاب .

ويُسمِّرَهُ[١] ، ويَحرُسَهُ عن تشويشِ المُبتدِعةِ ، لا ليَحُلَّ عقدَةَ الاعتقادِ إلى انشراحِ المعرفةِ .

فإن أردتَ أن تستنشقَ شيئاً مِنْ روائحِ المعرفةِ . . صادفتَ منها مقداراً يسيراً مبثوثاً في (كتابِ الصَّبرِ والشُّكرِ) و(كتابِ المحبَّةِ) ، وبابِ التَّوحيدِ مِنْ أوَّلِ (كتابِ التَّوكُّلِ) ، وجملةُ ذٰلكَ مِنْ كُتُبِ « الإحياءِ » ، وتُصادِفُ منها قدراً صالحاً يُعرِّفُكَ كيفيَّةَ قرعِ بابِ المعرفةِ في كتابِ « المقصدِ الأسنىٰ في شرحِ معاني أسماءِ اللهِ الحسنىٰ » لا سيَّما في الأسماءِ المُشتقَّةِ مِنَ الأفعالِ .

وإنْ أردتَ صريحَ المعرفةِ بحقائقِ هٰذهِ العقيدةِ مِنْ غيرِ مجمجةٍ[٢] ولا مراقبةٍ . . فلا تصادفُهُ إلَّا في بعضِ كتبِنا المضنونِ بها علىٰ غيرِ أهلِها[٣] ، وإيَّاكَ أن تغترَّ وتُحدِّثَ نفسَكَ بأهليَّتِها ، وتشرئبَّ لطلبِهِ ، فتَسْتَهْدِفَ للمشافهةِ بصريحِ الرَّدِّ ، إلَّا أن تجمعَ ثلاثَ خصالٍ :

---

(١) يقال : سمَّر الباب ؛ إذا أوثقه بالمسمار ، والمراد التثبيت .

(٢) المجمجة : الإتيان بكلام غير مفهم .

(٣) العلم المضنون به علىٰ غير أهله عند الإمام الغزالي هو من ثمرات مقام الإحسان ، المشار إليه في حديث جبريل ؛ ومنه علم المكاشفة ، ويرىٰ أن هٰذا العلم لا رخصة في إشاعته ، بل هناك رخصة في الإشارة إليه ، وقد ألمع لكثير من ذٰلك في كتاب « إحياء علوم الدين » .

إحداها : الاستقلالُ في العلومِ الظَّاهرةِ ، ونيلُ رتبةِ الإمامةِ فيها .

والثَّانيةُ : انقلاعُ القلبِ عنِ الدُّنيا بالكلِّيَّةِ ، بعدَ محوِ الأخلاقِ الذَّميمةِ كلِّها منهُ ـ كما سيأتي في أصولِ الأخلاقِ الذَّميمةِ ـ حتَّىٰ لا يبقىٰ فيكَ تَعطُّشٌ إلَّا إلى الحقِّ ، ولا اهتمامٌ إلَّا بهِ ، ولا شغلٌ إلَّا فيهِ ، ولا تعريجٌ إلَّا عليهِ .

والثَّالثةُ : أن يكونَ قد أُتيحَ لكَ السَّعادةُ في أصلِ الفطرةِ ؛ بقريحةٍ صافيةٍ ، وفطنةٍ بليغةٍ ، لا تَكِلُّ عن دَرَكِ غوامضِ العلومِ ومشكلاتِها ، علىٰ سبيلِ البديهةِ والمبادرةِ ؛ فإنَّ البليدَ إذا أتعبَ خاطرَهُ وأكدَّ نفسَهُ . . ربَّما أدركَ بعضَ الغوامضِ أيضاً ، ولٰكنْ يُدرِكُ منها شيئاً يسيراً في مُدَّةٍ طويلةٍ .

فلن يصلحَ لاقتباسِ أنوارِ المعرفةِ الحقيقيَّةِ . . إلَّا قلبٌ صافٍ ، كأنَّهُ مرآةٌ مَجلُوَّةٌ ، وإنَّما يصيرُ كذٰلكَ بقُوَّةِ الفطرةِ وصحَّةِ القصدِ ، ثمَّ بإزالةِ كُدوراتِ الدُّنيا عن وجهِهِ ؛ فإنَّه الرَّينُ والطَّبعُ الذي بهِ يمنعُ اللهُ القلوبَ عن معرفتِهِ ، فإنَّ اللهَ يَحولُ بينَ المرءِ وقلبِهِ .

القِسمُ الثَّاني

في الأعمالِ الظَّاهِرَة

وهي عشرة أصول

الأصل الأوّل

في الصّلاة

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلصَّلَاةُ عِمَادُ ٱلدِّينِ »[1] .

واعلمْ : أنَّكَ في صلاتِكَ مُناجٍ ربَّكَ ، فانظرْ كيفَ تُصلِّي ، وحافظْ فيها علىٰ ثلاثةِ أمورٍ ؛ لتكونَ مِنْ جملةِ المحافظينَ على الصَّلاةِ والمقيمينَ لها ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ إنَّما يأمرُ بالإقامةِ ؛ فيقولُ : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، وليسَ يقولُ : صلِّ .

ويُثْنِي على المحافظينَ على الصَّلاةِ ؛ فيقولُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ :

الأوَّلُ : المحافظةُ على الطَّهارةِ ؛ بأن تُسبِغَ الوضوءَ قبلَ الصَّلاةِ ، وإسباغُها : أن تأتيَ بجميعِ سننِها وأذكارِها المرويَّةِ عندَ كلِّ وظيفةٍ منها ، وتحتاطَ أيضاً في طهارةِ ثيابِكَ ، وطهارةِ بدنِكَ ، وطهارةِ الماءِ الذي تتوضَّأُ بهِ احتياطاً لا يفتحُ عليكَ بابَ الوسواسِ ؛ فإنَّ الشَّيطانَ يوسوسُ في الطَّهارةِ ؛ ليضيعَ أكثرُ أوقاتِ العبادةِ .

---

(١) قطعة من حديث رواه البيهقي في « الشعب » (٢٥٥٠) من حديث عمر رضي الله عنه .

واعلمْ : أنَّ المقصودَ مِنْ طهارةِ الثَّوبِ ؛ وهوَ القشرُ الخارجُ ، ثمَّ مِنْ طهارةِ البدنِ ؛ وهوَ القشرُ القريبُ . . طهارةُ القلبِ ؛ وهوَ اللُّبُّ الباطنُ ، وطهارةُ القلبِ عن نجاساتِ الأخلاقِ أهمُّ الطَّهاراتِ ، كما سنذكرُهُ في القسمِ الثَّالثِ .

لـٰكنْ لا يَبعُدُ أن يكونَ لطهارةِ الظَّاهرِ أيضاً تأثيرٌ في إشراقِ نورِها على القلبِ ؛ فإنَّكَ إذا أسبغتَ الوضوءَ ، واستشعرتَ نظافةَ ظاهرِكَ . . صادفتَ في قلبِكَ انشراحاً وصفاءً كنتَ لا تُصادِفُهُ مِنْ قبلُ ؛ وذٰلكَ لسرِّ العلاقةِ التي بينَ عالَمِ الشَّهادةِ وعالَمِ الملكوتِ ؛ فإنَّ ظاهرَ البدنِ مِنْ عالَمِ الشَّهادةِ ، والقلبَ مِنْ عالَمِ الملكوتِ بأصلِ فطرتِهِ ، وإنَّما هبوطُهُ إلىٰ عالمِ الشَّهادةِ كالغريبِ عن جِبِلَّتِهِ[١] .

وكما تنحدرُ مِنْ معارفِ القلبِ آثارٌ إلى الجوارحِ . . فكذٰلكَ قد يرتفعُ مِنْ أحوالِ الجوارحِ أنوارٌ إلى القلبِ ، ولذٰلكَ أُمِرَ بالصَّلاةِ معَ أنَّها حركاتٌ للجوارحِ التي هيَ مِنْ عالَمِ الشَّهادةِ ، ولذٰلكَ جعلَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الدُّنيا ومِنَ الدُّنيا ؛

(١) في (د) زيادة : (وقبيلته) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٣٣٤/١) : (الملك : هو عالَمُ الشهادة من المحسوسات الطبيعية ، والملكوت : هو عالَمُ الغيب المختصُّ بأرواح النفوس) ، وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « إحياء علوم الدين » (٤٤٢/١) : (وأعني بالملك : عالم الشهادة المدرك بالحواس ، وأعني بالملكوت : عالم الغيب المدرك بنور البصيرة ، والقلب من عالم الملكوت ، والأعضاء وأعمالها من عالم الملك ، ولطف الارتباط ودقته بين العالمين انتهىٰ إلىٰ حدٍّ ظنَّ بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخر . . .) .

قالَ : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ . . . » الحديثَ[(١)] .

فلا تستبعدْ أن يفيضَ مِنْ طهارةِ الظَّاهرِ أثرٌ على الباطنِ ؛ ففي بدائعِ صنعِ اللهِ تعالىٰ أمورٌ أعجبُ مِنْ هٰذا ؛ إذ قد عُرِفَ بالتَّجربةِ : أنَّ المُجامِعَ في حالِ مباشرتِهِ لو أدمنَ النَّظرَ إلىٰ بياضٍ مشرقٍ ، أو حمرةٍ قانيةٍ ، حتَّىٰ غلبَتْ تلكَ الصُّورةُ علىٰ نفسِهِ . . مالَ لونُ المولودِ إلىٰ ذٰلكَ اللَّونِ الذي غلبَتْ عليهِ نفسُهُ ، وأنَّ الجنينَ أوَّلَ ما يتحرَّكُ في البطنِ تميلُ صورتُهُ إلى الحسنِ ، إن كانَتِ الأُمُّ مُشاهِدةً في تلكَ الحالةِ لصورةٍ حسنةٍ ، بحيثُ غلبَتْ تلكَ الصُّورةُ علىٰ نفسِها .

ولذٰلكَ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المُباشِرَ عندَ مباشرتِهِ أن يُحضِرَ في قلبِهِ إرادةَ صلاحِ المولودِ ، ويدعوَ اللهَ بذٰلكَ فيقولَ : « ٱللَّهُمَّ ؛ جَنِّبْنَا ٱلشَّيْطَانَ ، وَجَنِّبِ ٱلشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا »[(٢)] ؛ حتَّىٰ يُفيضَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ مبادئَ الصَّلاحِ على الرُّوحِ التي يَخلُقُها عندَ إلقاءِ البَذْرِ في محلِّ الحرثِ بواسطةِ الصَّلاحِ الغالبِ

---

(١) كذا روى الإمام الغزالي الحديث تبعاً لصاحب « قوت القلوب » (٢٤٩/٢) ، وقد رواه النسائي (٦١/٧) دون زيادة قوله : (ثلاث) والتي هي محلُّ الشاهد هنا ، وقد بيَّن الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٣١١/٥) بطلان هٰذه الزيادة من حيث الصنعة الحديثية ، أما من حيث المعنىٰ . . فباب التأويل فيه سعة ، ومحبته صلى الله عليه وسلم للطيب والنساء في حقِّه أخروية كذٰلك ، وقد ذكر الحافظ ابن رجب في « جامع العلوم والحكم » (١٩٨/٢) ما يشهد لهٰذه الزيادة فقال : (ويشهد لذٰلك حديث : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه ، أو عالماً أو متعلماً . . . » ، وحديث : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ما ابتغي به وجه الله) .

(٢) رواه البخاري (١٤١) ، ومسلم (١٤٣٤) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

علىٰ قلبِ الحارثِ ؛ كما يُفِيضُ اللهُ سبحانَهُ النُّورَ بواسطةِ المرآةِ المحاذيةِ للشَّمسِ علىٰ بعضِ الأجسامِ المحاذيةِ للمرآةِ .

وهٰذا الآنَ يقرعُ باباً عظيماً مِنْ معرفةِ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ في الملكِ والملكوتِ ، وإلىٰ قريبٍ منهُ يَرجِعُ سرُّ الشَّفاعةِ في الآخِرةِ (١) ، فلنتجاوزْهُ ، فغرضُنا الآنَ ذكرُ الأعمالِ دونَ المعارفِ .

وقد أشممناكَ شيئاً يسيراً مِنْ روائحِ أسرارِ الطَّهارةِ الظَّاهرةِ ؛ فإن كنتَ لا تُصادِفُ بعدَ الطَّهارةِ وإسباغِ الوُضوءِ شيئاً مِنَ الصَّفاءِ الذي وصفناهُ . . فاعلمْ أنَّ الدَّرَنَ الذي عرضَ علىٰ قلبِكَ مِنْ كُدوراتِ شهَواتِ الدُّنيا وشواغلِها اقتضَىٰ كَلالَ حسِّ القلبِ ؛ فصارَ لا يُحِسُّ باللَّطائفِ والأشياءِ الخفيَّةِ اللَّطيفةِ ، ولم يبقَ في قُوَّتِهِ

---

(١) وقع في هامش (ج) كلامٌ عن هٰذا السرِّ ؛ وهو : (وإنما سرُّ الشفاعة الأنبياءُ صلوات الله عليهم أجمعين والأولياءُ ؛ فالشفاعة نور يشرق من الحضرة الإلـٰهية علىٰ جوهرة النبوة ، وتنتشر منها إلىٰ كل جوهر استحكمت مناسبتها مع جوهر النبوة ؛ لشدَّة المحبة وكثرة المواظبة على السنن ونوافل العبادات ، وكثرة الاشتغال بالأذكار والتسبيحات والأدعية المأثورة عنه صلى الله عليه وسلم وآله ، وغيره من الأذكار وأنواع الصلوات عليه السلام والأدعية .
ومثاله : نور الشمس إذا وقع على الماء ؛ فإنه ينعكس منه إلىٰ موضع مخصوص من الحائط ، لا إلىٰ جميع المواضع ، وإنما يختص ذٰلك الموضع لمناسبة بينه وبين الماء في الوضع ، وتلك المناسبة مساوية [لعلها : متباينة] عن سائر أجزاء الحائط ، فكما أن المناسبة الوضعية [تقتضي] الاختصاص بانعكاس النور . . فالمناسبات المعنوية العقلية أيضاً تقتضي ذٰلك في الجواهر المعنوية ، ومن استولىٰ عليه التوحيد . . فقد تأكَّدت مناسبته مع الحضرة الإلـٰهية ، وأشرق عليه النور من غير واسطة ، ومن استولىٰ عليه السنن والاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ومحبة اتباعه ، ولم يترسخ قدمه في ملاحظة [الوحدانية] . . لم تستحكم مناسبته إلا مع الواسطة ، فافتقر إلىٰ واسطة الماء المكشوف للشمس ، وإلىٰ مثل هٰذا يراجع الوزير) ، والمراد بالوزير : مرتبة النبوة بالنسبة للذات الإلـٰهية .

إلَّا إدراكُ الجليَّاتِ إن بقيَ[1] ؛ فاشتغِلْ بجلاءِ قلبِكَ وتصفيتِهِ ، فذٰلكَ أوجبُ عليكَ مِنْ كلِّ ما أنتَ فيهِ .

المحافظةُ الثَّانيةُ : أن تحافظَ علىٰ سننِ الصَّلاةِ ، وأعمالِها الظَّاهرةِ ، وأذكارِها وتسبيحاتِها ؛ حتَّىٰ تأتيَ فيها بجميعِ السُّننِ والآدابِ والهيئاتِ ، كما جمعناها في كتابِ « بدايةِ الهدايةِ »[2] ؛ فإنَّ لكلِّ واحدٍ منها سرّاً ، ولهُ تأثيرٌ في القلبِ ، كما نبَّهنا عليهِ في تأثيرِ الطَّهارةِ[3] ، بل ذٰلكَ أشدُّ وأبلغُ ، وشرحُ ذٰلكَ يطولُ .

وأنتَ إذا أتيتَ بذٰلكَ . . انتفعتَ بهِ وإن لم تعلمْ أسرارَهُ ، كما ينتفعُ شاربُ الدَّواءِ بشربِهِ وإن لم يعرفْ طبائعَ أَخلاطِهِ ، ووجوهَ مناسبتِهِ لمرضِهِ .

واعلمْ على الجملةِ : أنَّ للصَّلاةِ صورةً صَوَّرَها ربُّ الأربابِ كما صَوَّرَ الحيوانَ مثلاً ؛ فرُوحُها : النِّيَّةُ والإخلاصُ وحضورُ القلبِ ، وبدنُها : الأعمالُ ، وأعضاؤُها الأصليَّةُ : الأركانُ ، وأعضاؤُها الكماليَّةُ : الأبعاضُ .

فالإخلاصُ والنيَّةُ فيها تجري مَجرى الرُّوحِ .

---

(١) قوله : (إن بقي) زيادة من (و ، ح) ؛ بمعنىٰ : إن كان له قلب بعد هٰذا ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

(٢) انظر « بداية الهداية » (ص ١٣٣) .

(٣) انظر (ص ٩٣ ـ ٩٤) .

والقيامُ والقعودُ يجريانِ مَجرى البدنِ .

والرُّكوعُ والسُّجودُ يجريانِ مَجرى الرَّأسِ واليدِ والرِّجلِ .

وإكمالُ الرُّكوعِ والسُّجودِ بالطُّمأنينةِ وتحسينِ الهيئةِ تجري مَجرىٰ حسنِ الأعضاءِ ، وحسنِ أشكالِها وألوانِها .

والأذكارُ والتَّسبيحاتُ المُودَعةُ فيها تجري مَجرىٰ آلاتِ الحسِّ المُودَعةِ في الرَّأسِ والأعضاءِ ؛ كالعينِ والأذنِ وغيرِهما .

ومعرفةُ معاني الأذكارِ وحضورُ القلبِ عندَها يجري مَجرىٰ قُوَّةِ الحسِّ المُودَعةِ في آلاتِ الحسِّ ؛ كقُوَّةِ البصرِ ، وقُوَّةِ السَّمعِ والشَّمِّ والذَّوقِ في معادنِها .

واعلمْ : أنَّ تقرُّبَكَ بالصَّلاةِ كتقرُّبِ بعضِ خدمِ السُّلطانِ بإهداءِ وصيفةٍ إلى السُّلطانِ .

واعلمْ : أنَّ فقدَ النِّيَّةِ والإخلاصِ مِنَ الصَّلاةِ كفقدِ الرُّوحِ مِنَ الوصيفةِ ، والمُهدِي للجيفةِ الميتةِ (١) مستهزئٌ بالسُّلطانِ ، فيَستحِقُّ سفكَ الدَّمِ .

وفقدُ الرُّكوعِ والسُّجودِ يجري مَجرىٰ فقدِ الأعضاءِ .

وفقدُ الأذكارِ يجري مَجرىٰ فقدِ العينينِ مِنَ الوصيفةِ ، وجدعِ الأنفِ والأذنينِ .

---

(١) في (و ، ح) : (والمهدي للخليفةِ الميتةَ) .

وعـدمُ حـضـورِ الـقـلـبِ وغـفـلـتُـهُ عـن مـعـرفـةِ مـعـانـي الـقـراءةِ والأذكارِ . . كفقدِ البصرِ والسَّمعِ معَ بقاءِ جِرمِ الحدقةِ والأذنِ ، ولا يخفىٰ عليكَ أنَّ مَنْ أهدىٰ وصيفةً بهـٰذهِ الصِّفةِ كيفَ يكونُ حالُهُ عندَ السُّلطانِ !!

واعلـمْ : أنَّ قـولَ الفقيهِ في الصَّلاةِ النَّاقصةِ أبعاضُها وسننُها : (إنَّها صحيحةٌ) . . كقولِ الطَّبيبِ في الوصيفةِ المقطوعةِ أطرافُها : (إنَّها حيَّةٌ وليسَتْ بميتةٍ) .

فإن كانَ ذٰلكَ كافياً في التَّقرُّبِ بها إلى السُّلطانِ ونيلِ الكرامةِ منهُ . . فاعلمْ : أنَّ الصَّلاةَ النَّاقصةَ صالحةٌ للتَّقرُّبِ بها إلى اللهِ سبحانَهُ ونيلِ الكرامةِ منهُ .

وإن أوشكَ أن يُرَدَّ ذٰلكَ على المُهدي ويُزجَرَ . . فلا يَبعُدُ مثلُ ذٰلكَ في الصَّلاةِ النَّاقصةِ ؛ فإنَّها قد تُرَدُّ على المُصلِّي كالخِرقةِ الخَلَقةِ كما وردَ في الخبرِ (١)

واعلـمْ : أنَّ أصلَ الصَّلاةِ التَّعظيمُ والاحترامُ ، وإهمالُ آدابِ الصَّلاةِ يُناقِضُ التَّعظيمَ والاحترامَ .

---

(١) رواه الطيالسي في « مسنده » (٥٨٦) ، والطبراني في « الأوسط » (٨١١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٨٧١) من حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وفيه : « وإذا لم يتمَّ ركوعها ولا سجودها ولا القراءة فيها . . قالت الصلاة : ضيَّعك الله كما ضيعتني ، ثم صُعد بها إلى السماء وعليها ظلمة ، فغُلِّقت دونها أبوابُ السماء فتُلَفُّ كما يُلَفُّ الثوب الخَلَقُ ، فيُضرب بها وجهه » ، والخَلَق : البالي ، للمذكر والمؤنث .

المحافظةُ الثَّالثةُ : أن تحافظَ علىٰ رُوحِ الصَّلاةِ ؛ وهوَ الإخلاصُ وحضورُ القلبِ في جملةِ الصَّلاةِ ، واتِّصافُ القلبِ في الحالِ بمعانيها .

فلا تسجدْ ولا تركعْ إلَّا وقلبُكَ خاشعٌ متواضعٌ علىٰ موافقةِ ظاهرِكَ ؛ فإنَّ المرادَ مِنَ الصَّلاةِ خضوعُ القلبِ ، لا خضوعُ البدنِ .

ولا تقلِ : (اللهُ أكبرُ) وفي قلبِكَ شيءٌ أكبرُ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

ولا تقلْ : (وجَّهتُ وجهيَ . . .)[١] إلَّا وقلبُكَ مُتوجِّهٌ بكلِّ وجهِهِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ومُعرِضٌ عن غيرِهِ .

ولا تقلِ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿٢﴾ ﴾ إلَّا وقلبُكَ طافحٌ[٢] بشكرِ نعمِهِ عليكَ ، فَرِحٌ بهِ مُستبشِرٌ .

ولا تقلْ : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ إلَّا وأنتَ مُستشعِرٌ ضَعفَكَ وعجزَكَ ، وأنَّهُ ليسَ إليكَ ولا إلىٰ غيرِكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ .

وكذٰلكَ في جميعِ الأذكارِ والأعمالِ ، وشرحُ ذٰلكَ يطولُ ، وقد شرحناهُ في كتابِ « الإحياءِ »[٣] .

---

(١) وذٰلك في دعاء الاستفتاح في الصلاة ، كما في حديث سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة . . قال : « وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين . . . » الحديث رواه مسلم (٧٧١) ، وابن خزيمة (٤٦٢) ، وابن حبان (٧٧١) .

(٢) أي : مشغول . انتهىٰ هامش (ب) .

(٣) انظر « إحياء علوم الدين » (٦١٧/١) وما بعدها .

فجاهدْ نفسَكَ في أن تردَّ قلبَكَ إلى الصَّلاةِ حتَّىٰ لا تَغفُلَ مِنْ أوَّلِها إلىٰ آخرِها ؛ فإنَّهُ لا يُكتَبُ للرَّجلِ مِنْ صلاتِهِ إلَّا ما عقلَ منها .

فإن تعذَّرَ عليكَ الإحضارُ ـ وما أُراكَ إلَّا كذٰلكَ ـ فانظرْ : فإن كانَ قدرُ الغفلةِ مقدارَ ركعتينِ . . فلا تُعِدِ الصَّلاةَ ، ولٰكنِ افهمْ أنَّ النَّوافلَ جوابرُ الفرائضِ ، فتنفَّلْ بمقدارٍ يحضرُ فيها قلبُكَ في مقدارِ ركعتينِ ، فكلَّما زادَتِ الغفلةُ . . زدْ في النَّوافلِ حتَّىٰ يحضرَ قلبُكَ ؛ مثلاً : في عشرِ ركعاتٍ بمقدارِ أربعِ ركعاتٍ ، وهوَ قدْرُ فرضِكَ ، فمِنْ رحمةِ اللهِ سبحانَهُ عليكَ أن قَبِلَ منكَ جُبرانَ الفرائضِ بالنَّوافلِ .

فهٰذهِ هيَ أصولُ المحافظةِ على الصَّلاةِ .

* * *

الأصل الثّاني

في الزّكاة والصّدقة

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴿٢٦١﴾ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هَلَكَ ٱلْأَكْثَرُونَ ، إِلَّا مَنْ قَالَ بِٱلْمَالِ هَٰكَذَا وَهَٰكَذَا »(١) .

فاعلمْ : أنَّ إنفاقَ المالِ في الخيراتِ أحدُ أركانِ الدِّينِ ، وإنَّما سرُّ التَّكليفِ بهِ بعدَ ما يرتبطُ بهِ مِنْ مصالحِ البلادِ والعبادِ ، وسدِّ الخَلَّاتِ والفاقاتِ . . أنَّ المالَ محبوبُ الخَلْقِ ، وهم مأمورونَ بحبِّ اللهِ ، ويَدَّعونَ الحبَّ بنفسِ الإيمانِ ، **فجُعِلَ بذلُ المالِ معياراً لحبِّهِم ، وامتحاناً لصدقِهِم في دعواهُم** ؛ فإنَّ المحبوباتِ كلَّها تُبذَلُ لأجلِ المحبوبِ الأغلبِ حبُّهُ على القلبِ ، **فانقسمَ الخَلْقُ فيهِ إلىٰ ثلاثِ طبقاتٍ** :

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥٣٥/٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وبلفظ مقارب عن البخاري (٦٦٢٨) ، ومسلم (٩٩٠) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه ، والأكثرون : الأغنياء ، ومعنىٰ (قال بالمال هٰكذا وهٰكذا) : صرفه في وجوه الخيرات ، فالقول مجاز عن الفعل .

الطَّبقةُ الأُولى : الأقوياءُ ؛ وهمُ الذينَ أنفقوا جميعَ ما ملكوا ، ولم يَدَّخروا لأنفسِهم شيئاً ، فهٰؤلاءِ صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليهِ مِنَ الحبِّ ، كما فعلَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ إذ جاءَ بمالِهِ كلِّهِ ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَاذَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟ » فقالَ : اللهَ ورسولَهُ ، وقالَ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : « مَاذَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟ » قالَ : مثلَهُ ؛ أي : مثلَ ما أتيتُ بهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « **بَيْنَكُمَا مِثْلُ مَا بَيْنَ كَلِمَتَيْكُمَا** »(١) .

الطَّبقةُ الثَّانيةُ : المُتوسِّطونَ ؛ وهم الذينَ لم يَقدِروا علىٰ إخلاءِ اليدِ عنِ المالِ دَفعةً واحدةً ، ولٰكنْ أمسكوهُ لا للتَّنعُّمِ ، بل للإنفاقِ عندَ ظهورِ محتاجٍ إليه ، فهم يقنعونَ في حقِّ أنفسِهم بما يُقوِّيهِم على العبادةِ ، وإذا عَرَضَ محتاجٌ . . بادروا إلىٰ سدِّ خُلَّتِهِ وحاجتِهِ ، ولم يقتصروا علىٰ قدْرِ الواجبِ مِنَ الزَّكاةِ ، وإنَّما غرضُهُمُ الأظهرُ في الإمساكِ ترصُّدُ الحاجاتِ(٢) .

---

(١) رواه أبو داوود (١٦٧٥) ، والترمذي (٣٦٧٥) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ، وقوله : (بينكما مثل ما بين كلمتيكما) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢/١) عن الحسن مرسلاً بنحوه .

(٢) في هامش (و) : (بلغ مقابلة) .

الطَّبقةُ الثَّالثةُ : الضُّعفاءُ ؛ وهمُ المُقتصِرونَ علىٰ أداءِ الزَّكاةِ الواجبةِ ، فلا يزيدونَ عليها ، ولا ينقصونَ منها .

فهٰذهِ درجاتُهُم ، وبذلُ كلِّ واحدٍ علىٰ مقدارِ حبِّهِ للهِ ، وما أراكَ تَقدِرُ على الدَّرجةِ الأُولىٰ والثَّانيةِ ، ولٰكنِ اجتهدْ حتَّىٰ **تُجاوِزَ الدَّرجةَ الثَّالثةَ** إلىٰ أواخرِ طبقاتِ المُقتصِدينَ المُتوسِّطينَ ، فتزيدَ على الواجبِ ولو شيئاً يسيراً ؛ **فإنَّ الاكتفاءَ بمُجرَّدِ الواجبِ حدُّ البخلاءِ** ، قالَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي : يستقصي[1] عليكم فتبخلوا .

فاجتهدْ ألَّا ينقضيَ عليكَ يومٌ إلَّا وتتصدَّقُ بشيءٍ وراءَ الواجبِ ولو بكِسرةِ خُبزٍ ، **فترتفعُ بذٰلكَ عن درجةِ البخلاءِ .**

فإن لم تملكْ شيئاً . . فليسَتِ الصَّدقةُ كلُّها في المالِ ، لٰكنْ كلمةٌ طيِّبةٌ ، وشفاعةٌ ومعونةٌ في حاجةٍ ، وعيادةُ مريضٍ ، وتشييعُ جِنازةٍ ، **وفي الجملةِ** : أن تبذلَ شيئاً ممَّا تَقدِرُ عليه ؛ مِنْ جاهٍ ونفْسٍ وكلامٍ لتطييبِ قلبِ مسلمٍ ، فيُكتَبَ جميعُ ذٰلكَ لكَ صدقةً .

---

(١) كذا في جميع النسخ بإثبات الياء .

وحافظْ في زكاتِكَ وصدقتِكَ علىٰ خمسةِ أمورٍ :

الأوَّلُ : الإسرارُ ؛ فإنَّ في الخبرِ : « أَنَّ صَدَقَةَ ٱلسِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ ٱلرَّبِّ »[1] ، والذي يتصدَّقُ بيمينِهِ بحيثُ لا تعلمُ شمالُهُ ما تنفقُ يمينُهُ . . أحدُ السَّبعةِ الذينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ يومَ لا ظلَّ إلَّا ظلُّهُ[2] ، وقد قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

وبذٰلكَ تتخلَّصُ عنِ الرِّياءِ ؛ فإنَّهُ غالبٌ على النَّفسِ ، وهوَ مهلكٌ ، ينقلبُ في القلبِ ـ إذا وُضِعَ الإنسانُ في قبرِهِ ـ في صورةِ حيَّةٍ ؛ أي : يؤلمُ إيلامَ الحيَّةِ ، والبخلُ ينقلبُ في صورةِ عقربٍ .

والمقصودُ مِنَ الإنفاقِ : الخلاصُ مِنْ رذيلةِ البخلِ ، فإذا امتزجَ بهِ الرِّياءُ . . كانَ كأنَّهُ جعلَ العقربَ غذاءً للحيَّةِ ، فيخلُصُ مِنَ العقربِ ، ولٰكنَّهُ زادَ في قُوَّةِ الحيَّةِ ؛ إذ كلُّ صفةٍ مِنَ الصِّفاتِ المُهلِكةِ في القلبِ إنَّما غذاؤُها وقُوَّتُها في إجابتِها إلىٰ مقتضاها .

الثَّاني : أن تحذرَ مِنَ المَنِّ ؛ وحقيقتُهُ : أن ترىٰ نفسَكَ مُحسِناً إلى الفقيرِ ، مُتفضِّلاً عليهِ .

---

(١) رواه الترمذي (٦٦٤) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وعلامتُهُ : أن تَتوقَّعَ منهُ شكراً ، أو تستنكرَ تقصيرَهُ في حقِّكَ ، وموالاتَهُ عدوَّكَ ، استنكاراً يزيدُ علىٰ ما كانَ قبلَ الصَّدقةِ ، فذٰلكَ يدلُّ علىٰ أنَّكَ رأيتَ لنفسِكَ عليهِ فضلاً .

وعلاجُهُ : أن تعرفَ أنَّهُ المُحسِنُ إليكَ بقَبُولِ حقِّ اللهِ تعالىٰ منكَ ؛ فإنَّ مِنْ أسرارِ الزَّكاةِ تطهيرَ القلبِ ، وتزكيتَهُ عن رذيلةِ البخلِ وخبثِ الشُّحِّ ، ولذٰلكَ كانَتِ الزكاةُ طُهْرَةً ؛ إذ بها حصلَتِ الطَّهارةُ ، فكأنَّها غُسالةُ نجاسةٍ ، ولذٰلكَ تَرفَّعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأهلُ بيتِهِ عن أخذِ الزَّكاةِ ، وقالَ عليهِ السلامُ : « إِنَّهَا أَوْسَاخُ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ »[1] .

فإذا أخذَ الفقيرُ منكَ ما هو طُهْرَةٌ لكَ . . فلهُ الفضلُ عليكَ ، أرأيتَ لو أنَّ فَصَّاداً فصدَكَ مَجَّاناً ، وأخرجَ مِنْ باطنِكَ الدَّمَ الذي تخشىٰ ضررَهُ في الحياةِ الدُّنيا . . أكانَ الفضلُ لكَ أم لهُ ؟ فالذي يُخرِجُ مِنْ باطنِكَ رذيلةَ البخلِ وضررَها في الحياة الأُخرىٰ . . أَولىٰ بأن تراهُ مُتفضِّلاً .

الثَّالثُ : أن تخرجَهُ مِنْ أطيبِ أموالِكَ وأجودِها : قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴿٢٦٧﴾ . . . ﴾ الآيةَ .

---

(١) رواه مسلم (١٠٧٢) من حديث سيدنا عبد المطلب بن ربيعة رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا ٱلطَّيِّبَ »[1] ؛ يعني : الحلالَ ؛ فإنَّ المقصودَ مِنْ هٰذا إظهارُ درجةِ الحبِّ ، والإنسانُ يُؤثِرُ الأحبَّ إليهِ الأنفسَ دونَ الأخسِّ .

الرَّابعُ : أن تعطيَ بوجهٍ طَلْقٍ مُستبشِرٍ وأنتَ بهِ فرحانُ غيرُ مستكرهٍ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سَبَقَ دِرْهَمٌ مِئَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ »[2] ، وإنَّما أرادَ بهِ : ما يعطيهِ عن بشاشةٍ وطيبةِ نفسٍ مِنْ أنفَسِ مالِهِ وأجودِهِ ، فذٰلكَ أفضلُ مِنْ مئةِ ألفٍ معَ الكراهةِ .

الخامسُ : أن تَتخيَّرَ لصدقتِكَ محلّاً تزكو بهِ الصَّدقةُ ؛ وهوَ المُتَّقي العالِمُ ، الذي يستعينُ بها علىٰ طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتقواهُ ، أوِ الصَّالحُ المُعْيِلُ ذو الرَّحمِ .

فإن لم تجتمعْ هٰذهِ الأوصافُ . . فتزكو الصَّدقةُ بآحادِها أيضاً[3] ، ورعايةُ الصَّلاحِ أصلُ الأمورِ ؛ فإنَّ الدُّنيا لم تُخلَقْ

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥) ، والدارمي في « مسنده » (٢٧٥٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه النسائي (٥٩/٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) في (و) : (بآخذها) بدل (بآحادها) ، والمراد بآحادها : بواحدة من الخصال المذكورة سابقاً .

إِلَّا بُلْغةً للعبادِ ، وزاداً لهُم إلى المَعادِ ، فلتُصرَفْ إلى المسافرينَ إليهِ ، المُتَّخذينَ هٰذهِ الدَّارَ منزلاً مِنْ منازلِ الطَّريقِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا تَأْكُلْ إِلَّا طَعَامَ تَقِيٍّ ، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ »[1] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَطْعِمُوا طَعَامَكُمُ ٱلْأَتْقِيَاءَ ، وَأَوْلُوا مَعْرُوفَكُمُ ٱلْمُؤْمِنِينَ »[2] .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أبو داوود (٤٧٩٩) ، والترمذي (٢٣٩٥) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (١٢٨/٤) : (وإنما نهىٰ عن مؤاكلة غير تقي ؛ لأن المطاعمة توجب الألفة ، بل هي أوثق عرى المداخلة ، ومخالطة غير التقي تخلُّ بالدين ، وتوقع في الشبه والمحظورات ، فكأنه نهىٰ عن مخالطة الفجَّار) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥٥/٣) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١١٠٦) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦١٦) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

الأصل الثّالث

في الصّيـام

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَقُولُ ٱللهُ سُبْحَانَهُ : كُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، إِلَىٰ سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ ، إِلَّا ٱلصِّيَامَ ؛ فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لِكُلِّ شَيْءٍ بَابٌ ، وَبَابُ ٱلْعِبَادَةِ ٱلصَّوْمُ »(٢) .

وإنَّما كانَ الصَّومُ مخصوصاً بهٰذهِ الخواصِّ لأمرينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ يرجعُ إلىٰ كفٍّ ؛ وهوَ عملٌ سِرِّيٌّ ، لا يَطَّلعُ عليهِ غيرُ اللهِ تعالىٰ ، لا كالصَّلاةِ والزَّكاةِ وغيرِهما .

والثَّاني : أنَّهُ قهرٌ لعدوِّ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ الشَّيطانَ هوَ العدوُّ ، ولن يقوى العدوُّ إلَّا بواسطةِ الشَّهواتِ ، والجوعُ يكسرُ جميعَ الشَّهواتِ التي هيَ آلةُ الشَّيطانِ ؛ فلذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ

---

(١) رواه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٢٣) من حديث ضمرة بن حبيب مرسلاً .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنِ ٱبْنِ آدَمَ مَجْرَى ٱلدَّمِ ، فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِٱلْجُوعِ »(١) .

وهوَ سِرُّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ . . فُتِحَتْ أَبْوَابُ ٱلْجَنَّةِ ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ ٱلنِّيرَانِ ، وَصُفِّدَتِ ٱلشَّيَاطِينُ ، وَنَادَىٰ مُنَادٍ : يَا بَاغِيَ ٱلْخَيْرِ ؛ هَلُمَّ ، وَيَا بَاغِيَ ٱلشَّرِّ ؛ أَقْصِرْ »(٢) .

واعلمْ : أنَّ الصَّومَ بالإضافةِ إلىٰ مقدارِهِ . . علىٰ ثلاثِ درجاتٍ ، وبالإضافةِ إلىٰ أسرارِهِ . . علىٰ ثلاثِ درجاتٍ .

أمَّا درجاتُ مقدارِهِ :

فأقلُّها : الاقتصارُ علىٰ شهرِ رمضانَ .

وأعلاها : صومُ داوودَ عليهِ السَّلامُ ؛ وهوَ أن تصومَ يوماً وتفطرَ يوماً ؛ ففي الخبرِ الصَّحيحِ : أنَّ ذٰلكَ أفضلُ مِنْ صومِ الدَّهرِ(٣) ، وأنَّه أفضلُ الصِّيامِ(٤) .

---

(١) رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٤) من حديث سيدتنا صفية رضي الله عنها ، ولٰكن دون قوله : (فضيقوا مجاريه بالجوع) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (١٩٤/٤) : (وأنا أظن أن هٰذه الزيادة وقعت تفسيراً للحديث من بعض رواته ، فألحقها به من روىٰ عنه) ، وأول خطيئة وسوس بها الشيطان لبني آدم كانت لقمة .

(٢) رواه الترمذي (٦٨٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وأصله عند البخاري (١٨٩٩) ، ومسلم (١٠٧٩) .

(٣) رواه البخاري (١٩٧٩) ، ومسلم (١١٥٩/١٨٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٤) رواه البخاري (١٩٧٦) ، ومسلم (١١٥٩/١٨٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

وسِرُّهُ : أنَّ مَنْ صامَ الدَّهرَ . . صارَ الصِّيامُ لهُ عادةً ؛ فلا يُحِسُّ بوقعِهِ في نفسِهِ بالانكسارِ ، وفي قلبِهِ بالصَّفاءِ ، وفي شهواتِهِ بالضَّعفِ ؛ فإنَّ النَّفسَ إنَّما تتأثَّرُ بما يَرِدُ عليها ، لا بما مَرَنَتْ عليهِ ، فلا يَبعُدُ هٰذا ؛ فإنَّ الأطبَّاءَ أيضاً ينهونَ عنِ اعتيادِ شربِ الدَّواءِ ، وقالوا : مَنْ تعوَّدَ ذٰلكَ . . لم ينتفعْ بهِ إذا مرضَ ؛ إذ يألفُهُ مزاجُهُ ، فلا يَتأثَّرُ بهِ .

واعلمْ : أنَّ طبَّ القلوبِ قريبٌ مِنْ طبِّ الأبدانِ ، وهوَ سِرُّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعبدِ اللهِ بن عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما لمَّا كانَ يسألُهُ عنِ الصَّومِ ، فقالَ : « صُمْ يَوْماً ، وَأَفْطِرْ يَوْماً » فَقَالَ : أُطِيقُ أفضلَ مِنْ ذٰلكَ ، فقالَ : « لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَٰلِكَ »(١) .

ولذٰلكَ لمَّا قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلاناً صامَ الدَّهرَ . . قالَ : « لَا صَامَ وَلَا أَفْطَرَ »(٢) ، كما قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها لرجلٍ كانَ يقرأُ القرآنَ بهَذْرَمَةٍ : (إنَّ هٰذا ما قرأَ القرآنَ ولا سكتَ)(٣) .

وأمَّا الدَّرجةُ المُتوسِّطةُ . . فهوَ أن تصومَ ثلثَ الدَّهرِ ؛ ومهما صمتَ الاثنينِ والخميسَ ، وأضفتَ إليهِما شهرَ رمضانَ . . فقد صمتَ مِنَ السَّنةِ أربعةَ أشهرٍ وأربعةَ أيَّامٍ ، وهيَ زيادةٌ على

---

(١) هو الحديث المتقدم .

(٢) رواه مسلم (١١٦٢) من حديث سيدنا أبي قتادة رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٩٧) ، والهذرمة : السرعة في القراءة من غير تدبرٍ ، وبدون تقويم للألفاظ ، ولا تمكين للحروف .

الثُّلثِ ، لكن لا بدَّ أن ينكسرَ يومٌ مِنْ أيَّامِ التَّشريقِ ، فترجعُ الزِّيادةُ إلىٰ ثلاثةِ أيَّامٍ ، ويُتصوَّرُ أن ينكسرَ في العيدينِ يومانِ ، فتكونُ ثلاثةَ أيَّامٍ ، فترجعُ الزِّيادةُ إلىٰ يومٍ واحدٍ ، فتأمَّلْ حسابَهُ تعرفْهُ .

فلا ينبغي أن ينقصَ مِنْ هٰذا القدرِ صومُكَ ؛ فإنَّهُ خفيفٌ على النَّفسِ ، وثوابُهُ جزيلٌ .

وأمَّا درجاتُ أسرارِهِ . . فثلاثٌ :

أدناها : أن يقتصرَ على الكفِّ عنِ المفطراتِ ، ولا يكفَّ جوارحَهُ عنِ المَكارِهِ ؛ وذٰلكَ صومُ العمومِ ، وهوَ قناعتُهم بالاسمِ .

الثَّانيةُ : أن تضيفَ إليهِ كفَّ الجوارحِ ؛ فتحفظَ اللِّسانَ عنِ الغِيبةِ ، والعينَ عنِ النَّظرِ بالرِّيبةِ ، وكذا سائرُ الأعضاءِ ؛ وذٰلكَ صومُ الخصوصِ .

الثَّالثةُ : أن تضيفَ إليهِ صيانةَ القلبِ عنِ الفكرِ والوسواسِ ، وتجعلَهُ مقصوراً علىٰ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ وذٰلكَ صومُ خصوصِ الخصوصِ ، وهوَ الكمالُ .

ثمَّ للصِّيامِ خاتمةٌ بها يكملُ ؛ وهوَ أن يفطرَ علىٰ طعامٍ حلالٍ لا علىٰ شبهةٍ ، وألَّا يستكثرَ مِنْ أكلِ الحلالِ بحيثُ يتداركُ ما فاتَهُ ضحوةً ، فيكونُ قد جمعَ بينَ أكلتينِ دَفعةً واحدةً ؛ فتثقلُ معدتُهُ ، وتقوىٰ شهوتُهُ ، ويَبطُلُ سِرُّ الصَّومِ وفائدتُهُ ، ويفضي إلى التَّكاسلِ عنِ التَّهجُّدِ ، وربَّما لم يستيقظْ قبلَ الصُّبحِ ، وكلُّ ذٰلكَ خُسرانٌ ، وربَّما لا توازيهِ فائدةُ الصَّومِ .

* * *

الأصل الرّابع

في الحجّ

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴿٩٧﴾ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ . . فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيّاً ، وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيّاً »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ ٱلْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ . . . » الحديثَ(٢) .

وللحجِّ أعمالٌ ظاهرةٌ ، ذكرناها في كتابِ « الإحياءِ »(٣) ، ونُنبِّهُكَ الآنَ علىٰ آدابٍ دقيقةٍ ، وأسرارٍ باطنةٍ .

أمَّا الآدابُ . . فسبعةٌ :

الأوَّلُ : أن يرتادَ للطَّريقِ رفيقاً صالحاً ، ونفقةً طيِّبةً حلالاً ؛ فالزَّادُ الحلالُ يُنوِّرُ القلبَ ، والرَّفيقُ الصَّالحُ يُذكِّرُ الخيرَ ، ويزجرُ عنِ الشَّرِّ .

---

(١) رواه الترمذي (٨١٢) ، والدارمي في « مسنده » (١٨٢٦) من حديث سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) انظر « إحياء علوم الدين » (٢/١٦٠) .

الثَّاني : أن يُخلِّيَ يدَهُ عن مالِ التِّجارةِ ؛ كيلا يَتشعَّبَ فكرُهُ ، وينقسمَ خاطرُهُ ، ولا يصفوَ للزِّيارةِ قصدُهُ .

الثَّالثُ : أن يُوسِّعَ في طريقِهِ الطَّعامَ ، ويُطيِّبَ الكلامَ معَ الرُّفقاءِ والمُكارينَ .

الرَّابعُ : أن يتركَ الرَّفثَ والجدالَ ، والتَّحدُّثَ بالفضولِ وأمورِ الدُّنيا ، بل يَقصُرَ لسانَهُ ـ بعدَ مُهمَّاتِ حاجاتِهِ ـ على الذِّكرِ والفكرِ وتلاوةِ القرآنِ .

الخامسُ : أن يركبَ زاملةً دونَ المَحْمِلِ [1] ، ويكونَ رَثَّ الهيئةِ ؛ أشعثَ أغبرَ ، غيرَ مُتزيِّنٍ ، بل علىٰ هيئةِ المساكينِ ؛ حتَّىٰ لا يُكتَبَ في زمرةِ المُترفِّهينَ .

السَّادسُ : أن ينزلَ عنِ الدَّابَّةِ أحياناً ؛ ترفيهاً للدَّابَّةِ ، وتطييباً لقلبِ المُكاري ، وتخفيفاً للأعضاءِ بالتَّحريكِ ، ولا يُحمِّلَ الدَّابَّةَ ما لا تطيقُ ، بل يَرفُقَ بها ما أمكنَ .

---

(١) الزاملة : الإبل التي يحمل عليها طعام الرجل ومتاعه في السفر .

السَّابعُ : أن يكونَ طَيِّبَ النَّفْسِ بما أنفقَ مِن نفقةٍ ، وبما أصابَهُ مِنْ تعبٍ وخُسرانٍ ، وأن يرىٰ ذٰلكَ مِنْ آثارِ قَبُولِ الحَجِّ ، فيَحتسِبَ الثَّوابَ عليهِ .

وأمَّا أسرارُهُ . . فكثيرةٌ ، نرمزُ منها إلىٰ فنَّينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ وُضِعَ بدلاً عنِ الرَّهبانيَّةِ التي كانَتْ في المِلَلِ ، كما وردَ بهِ الخبرُ[1] ، فجعلَ اللهُ سبحانَهُ الحجَّ رهبانيَّةً لأمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فشرَّفَ البيتَ العتيقَ ، وأضافَهُ إلىٰ نفسِهِ ، ونَصَبَهُ مَقصِداً لعبادِهِ ، وجعلَ ما حوالَيْهِ حرماً لبيتِهِ ؛ تفخيماً لأمرِهِ ، وجعلَ عرفاتٍ كالميدانِ علىٰ فِناءِ حرمِهِ .

وأكَّدَ حرمةَ الموضعِ بتحريمِ صيدِهِ وشجرِهِ ، ووضعَهُ علىٰ مثالِ حضرةِ الملوكِ ؛ ليقصِدَهُ الزُّوَّارُ مِنْ كلِّ فجٍّ عميقٍ شُعْثاً غُبْراً ، متواضعينَ لربِّ البيتِ ؛ خضوعاً لجلالِهِ ، واستكانةً لعزَّتِهِ ، معَ الاعترافِ بتنزُّهِهِ عن أن يكتنفَهُ بيتٌ أو يَحوِيَهُ مكانٌ ؛ ليكونَ ذٰلكَ أبلغَ في رِقِّهِم وعبوديَّتِهِم .

---

(١) قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « إحياء علوم الدين » (٢/٢٣٤) : (سأله صلى الله عليه وسلم أهلُ الملل عن الرهبانية والسياحة في دينه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أبدلنا بها الجهاد والتكبير علىٰ كل شرف » ؛ يعني : الحج) ، وروىٰ أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤٩٢٣) عن سيدنا أنس رضي الله عنه قال : مات ابنٌ لعثمان بن مظعون ، فاشتد حزنه عليه حتى اتخذ مسجداً في داره يتعبد فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها لم تكتب علينا الرهبانية يا عثمان ، إن رهبانية أمتي الجلوس في المساجد وانتظار الصلوات ، والحج والعمرة . . . » .

ولذٰلكَ وظَّفَ عليهِم أعمالاً غريبةً ، لا تناسبُ الطَّبعَ والعقلَ ؛ ليكونَ إقدامُهُم عليها بحكمِ محضِ العبوديَّةِ وامتثالِ الأمرِ مِنْ غيرِ معاونةِ باعثٍ آخَرَ ، وهٰذا سرٌّ عظيمٌ في الاستعبادِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَبَّيْكَ بِحِجَّةٍ حَقّاً ، تَعَبُّداً وَرِقّاً »(١) .

الفنُّ الثَّاني : أنَّ هٰذا السَّفَرَ وُضِعَ علىٰ مثالِ سفرِ الآخرةِ ، فليتذكَّرِ المريدُ بكلِّ عملٍ مِنْ أعمالِهِ أمراً مِنْ أمورِ الآخرةِ مُوازِياً لهُ ؛ فإنَّ فيهِ تذكرةً للمُتذكِّرِ ، وعبرةً للمُستبصِرِ .

فتذكَّرْ مِنْ أوَّلِ سفرِكَ عندَ وداعِكَ أهلَكَ . . وداعَ الأهلِ في سَكَراتِ الموتِ .

ومِن مفارقةِ الوطنِ . . الخروجَ مِنَ الدُّنيا .

ومِن ركوبِ الجملِ . . ركوبَ الجِنازةِ .

ومِنَ الالتفافِ في أثوابِ الإحرامِ . . الالتفافَ في أثوابِ الكفنِ .

ومِنْ دخولِ الباديةِ إلى الميقاتِ . . ما بينَ الخروجِ مِنَ الدُّنيا إلىٰ ميقاتِ القيامةِ .

ومِنْ هولِ قطَّاعِ الطَّريقِ . . سؤالَ مُنكَرٍ ونكيرٍ .

ومِنْ سباعِ البوادي . . عقاربَ القبرِ ودِيدانَهُ .

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٦٨٠٣) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

ومِنِ انفرادِكَ عن أهلِكَ وأقاربِكَ . . وَحشةَ القبرِ ووَحدتَهُ .

ومِنَ التَّلبيةِ . . إجابةَ نداءِ داعي اللهِ عزَّ وجلَّ عندَ البعثِ .

وكذٰلكَ في سائرِ الأعمالِ ؛ فإنَّ في كلِّ عملٍ سرّاً ، وتحتَهُ رمزاً ، يتنبَّهُ لهُ كلُّ عبدٍ بقَدْرِ استعدادِهِ للتَّنبُّهِ ؛ بصفاءِ قلبِهِ ، وقصورِ همَّتِهِ علىٰ مُهمَّاتِ الدِّينِ .

الأصل الخامس

في قراءة القرآن

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَفْضَلُ عِبَادَةِ أُمَّتِي قِرَاءَةُ ٱلْقُرْآنِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَوْ كَانَ ٱلْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ . . مَا مَسَّتْهُ ٱلنَّارُ »[٢] .

وقالَ عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ : « مَا مِنْ شَفِيعٍ أَفْضَلَ مَنْزِلَةً عِنْدَ ٱللهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مِنَ ٱلْقُرْآنِ ، لَا نَبِيٌّ وَلَا مَلَكٌ وَلَا غَيْرُهُ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَقُولُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ : مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ ٱلْقُرْآنِ عَنْ دُعَائِي وَمَسْأَلَتِي . . أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ثَوَابِ ٱلشَّاكِرِينَ »[٤] .

واعلمْ : أنَّ لقراءةِ القرآنِ آداباً ظاهرةً ، وأسراراً باطنةً .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٨٦٥) من حديث سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٥٥) من حديث سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه .
(٣) أخرج مسلم نحوه (٨٠٤) من حديث سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .
(٤) رواه الترمذي (٢٩٢٦) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري بنحوه ، وبلفظه هنا رواه العقيلي في « الضعفاء » (٤/١٢١٤) .

أمَّا الآدابُ الظَّاهرةُ . . فثلاثةٌ :

الأوَّلُ : أن تقرأَهُ باحترامٍ وتعظيمِ هيئةٍ ، وأن تُلزِمَ الحرمةَ قلبَكَ ، وتُلزِمَ هيئتَها ظاهرَكَ ، ولن تَلزَمَ الحرمةُ قلبَكَ ما لم تُلزِمْ هيئةَ الحرمةِ ظاهرَكَ ، وقد عرفتَ كيفيَّةَ علاقةِ القلبِ بالجوارحِ (١) ، ووجهَ ارتفاعِ الأنوارِ منها إليهِ .

وهيئةُ الحرمةِ : أن تجلسَ وأنتَ على الطَّهارةِ ساكناً مُطرِقاً ، مُستقبِلَ القِبلةِ ، غيرَ مُتَّكِئٍ ولا مُتربِّعٍ ولا نائمٍ ، كما تجلسُ بينَ يدي المُقرِئِ ، وتقرأَهُ بترتيلٍ وتفخيمٍ ، وتُؤدِّيَهُ حرفاً حرفاً مِنْ غيرِ هَذْرَمةٍ ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (لَأن أقرأَ « إذا زلزلَتِ » و« القارعةَ » أتدبَّرُهُما . . أحبُّ إليَّ مِنْ أن أقرأَ « البقرةَ » و« آلَ عمرانَ » هذرمةً) (٢) .

الثَّاني : أن تَتشوَّفَ في بعضِ الأوقاتِ إلىٰ أقصىٰ درجاتِ

---

(١) تقدم (ص ٩٤) .

(٢) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/٤٦) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٨٢٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢١٤) عن محمد بن كعب القرظي ، وروى البيهقي في « الشعب » (١٩٧١) عن أبي جمرة قال : قلت لابن عباس : إني سريع القرآن ؛ إني أهذرمُ القرآن هذرمة ، فقال ابن عباس : (لأن أقرأ بـ « سورة البقرة » فأرتلها . . أحب إليَّ أن أقرأ القرآن كله هذرمة) .

قال الإمام أبو عمرو الداني في « التحديد في الإتقان والتجويد » (ص ٧١) : (وإنما يستعمل القارئ الحدر والهذرمة ـ وهما سرعة القراءة ـ مع تقويم الألفاظ وتمكين الحروف . . لتكثر حسناته ؛ إذ كان له بكل حرف عشر حسناتٍ ؛ وذلك بعد معرفته بالهمز من غير لكز ، والمد من غير تمطيط ، والتشديد من غير تمضيغ ، والإشباع من غير تكلف) .

الفضلِ فيه ؛ وذلكَ بأن تقرأَهُ في الصَّلاةِ قائماً ، خصوصاً في المسجدِ وباللَّيلِ ؛ لأنَّ القلبَ في اللَّيلِ أصفىٰ ؛ لأنَّهُ أفرغُ ، فإنَّكَ وإن خلَوتَ بالنَّهارِ فتردُّدُ الخَلْقِ وحركاتُهُم في أشغالِهِم تُحرّكُ باطنَكَ ، وتشغلُكَ عن تدبُّرِهِ ، خصوصاً إن كنتَ تتوقَّعُ أن تُطلَبَ بشغلٍ مِنَ الأشغالِ .

وكيفَما قرأتَهُ ولو مُضطجِعاً مِنْ غيرِ طهارةٍ . . فلا يخلو عنِ الفضلِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ أثنىٰ على الجميعِ ، فقالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴿١٩١﴾ . . . ﴾ الآيةَ .

ولٰكنْ ما ذكرناهُ فيهِ زيادةُ الفضلِ ، فإن كنتَ مِنْ تُجَّارِ طريقِ الآخرةِ . . فلا يسهلُ عليكَ تركُ الفضلِ ، وقد قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ قرأَ القرآنَ وهوَ قائمٌ في الصَّلاةِ . . كانَ لهُ بكلِّ حرفٍ مئةُ حسنةٍ ، ومَنْ قرأَ القرآنَ وهوَ قاعدٌ في الصَّلاةِ . . كانَ لهُ بكلِّ حرفٍ خمسونَ حسنةً ، ومَنْ قرأَ القرآنَ في غيرِ صلاةٍ وهوَ علىٰ وُضوءٍ . . فخمسٌ وعشرونَ حسنةً ، ومَنْ قرأَ القرآنَ علىٰ غيرِ وُضوءٍ . . فعشرُ حسناتٍ)[١] .

الثَّالثُ : في مقدارِ القراءةِ ، ولهُ ثلاثُ درجاتٍ :

أدناها : أن يختمَ في الشَّهرِ مرَّةً .

(١) رواه تمام في « فوائده » كما في « الروض البسام » (١٣٠٤) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما مرفوعاً .

وأقصاها : أن يختمَ في ثلاثةِ أيَّامٍ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قَرَأَ ٱلْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ . . لَمْ يَفْقَهْهُ »[١] .

وأعدلُها : أن يختمَ في كلِّ أسبوعٍ مرَّةً .

وأمَّا الختمُ في كلِّ يومٍ . . فغيرُ مُستحبٍّ ، وإيَّاكَ أن تتصرَّفَ بعقلِكَ فتقولَ : ما كانَ خيراً ونافعاً ؛ فكلَّما كانَ أكثرَ . . كانَ أنفعَ ؛ فإنَّ عقلَكَ لا يهتدي إلىٰ أسرارِ الأمورِ الإلـٰهيَّةِ ، وإنَّما تتلقَّاها قُوَّةُ النُّبوَّةِ .

فعليكَ بالاتِّباعِ ؛ فإنَّ خواصَّ الأمورِ لا تُدرَكُ بالقياسِ ، أوَما ترىٰ كيفَ نُدِبتَ إلى الصلاةِ جميعَ النهارِ ، ونُهِيتَ عنها في أوقاتٍ معينةٍ ؛ أُمرتَ بتركِها بعدَ الصُّبحِ وبعدَ العصرِ ، وعندَ الطُّلوعِ وعندَ الغروبِ والزَّوالِ ، وذٰلكَ ينتهي إلىٰ قدْرِ ثلثِ النَّهارِ ؟!

فكيفَ وأثرُ الفسادِ ظاهرٌ علىٰ قياسِكَ هٰذا ؟! فإنَّهُ كقولِ القائلِ : الدَّواءُ نافعٌ للمريضِ ، فكلَّما كانَ أكثرَ . . فهوَ أنفعُ ، وأنتَ تعلمُ أنَّ كثرةَ الدَّواءِ ربَّما تقتلُ .

---

(١) رواه بلفظه هنا أحمد في « المسند » (٢/١٦٤) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وبنحوه رواه أبو داوود (١٣٨٥) ، والترمذي (٢٩٤٩) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٨٠١٣) ، وابن ماجه (١٤٢٦) .

وأمَّا الأسرارُ الباطنةُ . . فخمسةٌ :

الأوَّلُ : أن تستشعرَ في أوَّلِ قراءتِكَ عظمةَ الكلامِ باستشعارِ عظمةِ المُتكلِّمِ ؛ فتُحضِرَ في قلبِكَ العرشَ والكرسيَّ ، والسَّماواتِ والأرضَ وما بينَهُما ؛ مِنَ الجنِّ والإنسِ ، والحيواناتِ والنَّباتاتِ .

وتتذكَّرَ أنَّ الخالقَ لجميعِها واحدٌ ، وأنَّ الكلَّ في قبضتِهِ وقدرتِهِ ، مُرَدَّدونَ بينَ فضلِهِ ورحمتِهِ .

وأنَّكَ تريدُ أن تقرأَ كلامَهُ ، وتنظرَ بهِ إلىٰ صفةِ ذاتِهِ ، وتطالعَ جمالَ علمِهِ وحكمتِهِ ، وتعلمَ أنَّه كما لا يمسُّ ظاهرَ المُصحفِ إلَّا المُطهَّرونَ لظواهرِهِم ، وهوَ محجوبٌ عن غيرِهِم . . فكذٰلكَ حقيقةُ معناهُ وباطنُهُ محجوبٌ عن باطنِ القلبِ ، إلَّا إذا كانَ مُطهَّراً مِنْ كلِّ رجسٍ وخبَثٍ مِنْ خبائثِ الباطنِ .

وبمثلِ هٰذا التَّعظيمِ كانَ عكرمةُ رضيَ اللهُ عنهُ إذا نشرَ المُصحفَ . . ربَّما غُشِيَ عليهِ ، ويقولُ : (هٰذا كلامُ ربِّي ، هٰذا كلامُ ربِّي)[١] .

واعلمْ : أنَّهُ لولا أنَّ أنوارَ كلامِهِ العزيزِ وعظمتَهُ غُشِّيَتْ بكسوةِ الحروفِ . . لمَا أطاقَتِ القُوَّةُ البشريَّةُ سماعَهُ ؛ لعظمتِهِ وسلطانِهِ وسبُحاتِ نورِهِ ، ولولا تثبيتُ اللهِ عزَّ وجلَّ موسىٰ عليهِ السَّلامُ . .

---

(١) رواه الطبراني بنحوه في « المعجم الكبير » (٣٧١/١٧) .

لَمَا أطاقَ سماعَهُ مُجرَّداً عن كسوةِ الحروفِ والأصواتِ ، كما لم يُطِقِ الجبلُ مبادئَ تجلِّيهِ حتَّىٰ صارَ دكّاً[١] .

الثَّاني : أن تقرأَ مُتدبِّراً لمعانيهِ إن كنتَ مِنْ أهلِهِ ، وكلُّ ما جرىٰ بهِ لسانُكَ في غفلةٍ فأعِدْهُ ، ولا تَعُدُّهُ مِنْ عملِكَ ؛ لأنَّ التَّرتيلَ في الظَّاهرِ للتَّمكُّنِ مِنَ التَّدبُّرِ ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا خيرَ في عبادةٍ لا فقهَ فيها ، ولا في قراءةٍ لا تدبُّرَ فيها)[٢] .

وإيَّاكَ أن تصيرَ مشغوفاً بعدِّ الختَماتِ علىٰ نفسِكَ ، فلَأَن تُردِّدَ آيةً واحدةً ليلةً تَتدبَّرُها . . خيرٌ لكَ مِنْ ختمتينِ ؛ فقد قرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فردَّدَها عشرينَ مرَّةً[٣] .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (قامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بنا ليلةً ، فقامَ بآيةٍ يُردِّدُها ؛ ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾)[٤] .

وقامَ تميمٌ الدَّاريُّ ليلةً بقولِهِ سبحانَهُ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[٥] .

---

(١) مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ .
(٢) رواه الدارمي في « مسنده » (٣٠٥) .
(٣) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٥٥١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) رواه النسائي (٢/١٧٧) ، وابن ماجه (١٤٢٩) .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢/٥٠) .

وقامَ سعيدُ بنُ جبيرٍ ليلةً بقولِهِ : ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩ ﴾ (١) .

ولعلَّ الأليقَ بكَ ما قالَهُ بعضُ العارفينَ إذ قالَ : (لي في كلِّ جمعةٍ ختمةٌ ، وفي كلِّ شهرٍ ختمةٌ ، وفي كلِّ سنةٍ ختمةٌ ، ولي ختمةٌ منذُ ثلاثينَ سنةً ما فرغتُ منها بعدُ) (٢) .

وذٰلكَ بحسبِ درجاتِ التَّدبُّرِ ؛ فإنَّ القلبَ في بعضِ الأوقاتِ لا يَحتمِلُ التَّدبُّرَ الطَّويلَ ، فليكنْ للتَّدبُّرِ الطَّويلِ ختمةٌ خاصَّةٌ .

الثَّالثُ : أن تجتنيَ في تدبُّرِكَ ثمارَ المعرفةِ مِنْ أغصانِها ، وتقتبسَها مِنْ أوطانِها ، ولا تطلبِ التِّرياقَ مِنْ حيثُ تطلبُ منهُ الجواهرَ ، ولا الجواهرَ مِنْ حيثُ تطلبُ منهُ المِسكَ والعُودَ ؛ فإنَّ لكلِّ ثمرةٍ غصناً ، ولكلِّ جوهرٍ مَعدِناً ، وإنَّما يَتيسَّرُ لكَ هٰذا بأن تعرفَ الأصنافَ العشرةَ التي حصرنا فيها أقسامَ القرآنِ ، فهيَ عشرةُ معادنَ (٣) .

فما يَتعلَّقُ مِنَ القرآنِ باللهِ تعالىٰ ، وبصفاتِهِ وأفعالِهِ . . فاقتبسْ منهُ معرفةَ الجلالِ والعظمةِ .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٥٢) .
(٢) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/٥٠) .
(٣) وهي التي ذكرها في مقدمة كتابه « جواهر القرآن » (ص ٢٢) .

وما يَتعلَّقُ بالإرشادِ إلى الطَّريقِ المستقيمِ . . فاقتبسْ منهُ معرفةَ الرَّحمةِ ، والعطفِ والحكمةِ .

وما يَتعلَّقُ بإهلاكِ الأعداءِ . . فاقتبسْ منهُ معرفةَ العِزَّةِ والاستغناءِ ، والقهرِ والتَّجبُّرِ .

وما يَتعلَّقُ بأحوالِ الأنبياءِ . . فاقتبسْ منهُ معرفةَ اللُّطفِ والنِّعمةِ ، والفضلِ والكرمِ .

وكذٰلكَ في كلِّ صنفٍ ما يليقُ بهِ ، فلا تنظرَنَّ إليهِ بعينٍ واحدةٍ ، وشرحُ ذٰلكَ يطولُ .

الرَّابعُ : أن تتخلَّىٰ عن موانعِ الفهمِ ؛ وهيَ الأكِنَّةُ التي تمنعُ مِنَ الفقهِ ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿١٨/٥٧﴾ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَوْلَا أَنَّ ٱلشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَىٰ قُلُوبِ بَنِي آدَمَ . . لَنَظَرُوا إِلَىٰ مَلَكُوتِ ٱلسَّمَاءِ »(١) .

واعلمْ : أنَّ معانيَ القرآنِ مِنْ جملةِ عالَمِ الملكوتِ ، وإنَّما حروفُها مِنْ عالَمِ الشَّهادةِ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٥٣) بنحوه ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٧٧٢٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ضمن خبر الإسراء والمعراج .

والأكِنَّةُ التي يُبتلَىٰ بها المُتَّقي المُتعطِّشُ إلى الحقِّ نوعانِ :

إمَّا ما يُبتلَىٰ بهِ الضَّعيفُ الإيمانِ مِنْ حجابِ الشَّكِّ والجحودِ .

أوْ ما يُبتلَىٰ بهِ المُنهمِكُ في الدُّنيا مِنْ حجابِ الشَّهواتِ المُستغرِقةِ للقلبِ ، فذٰلكَ جليٌّ لا يخفىٰ كونُهُ مانعاً مِنْ فهمِ لطائفِ القرآنِ واقتباسِ أنوارِهِ ، وبهِما حُجِبَ أكثرُ الخَلْقِ .

وأمَّا العُبَّادُ المُتجرِّدونَ لطريقِ اللهِ تعالىٰ . . فيُحجَبونَ بنوعينِ آخَرَينِ :

أحدُهُما : الوسواسُ الصَّارفُ للقلبِ إلى التَّفكُّرِ في النِّيَّةِ ، وأنَّها كيفَ كانَتْ في الابتداءِ ؟ وهل بقيَتِ الآنَ ؟ وهل هوَ مُخلِصٌ في الحالِ ؟ هٰذا إن كانَ في الصَّلاةِ .

أوِ الوسواسُ الصَّارفُ للهَمِّ إلىٰ تصحيحِ مخارجِ الحروفِ ، والتشكُّكِ فيها ، وإعادتِها لأجلِ ذٰلكَ ، وهٰذا يجري في الصَّلاةِ وغيرِها .

وكيفَ يُطالِعُ أسرارَ الملكوتِ قلبٌ مصروفٌ إلىٰ مطالعةِ الشَّفتينِ وكيفيَّةِ إطباقِهِما ، واللِّسانِ والحَنَكِ ، وكيفيَّةِ انسلالِ الهواءِ مِنِ اصطكاكِهِما ؟! وهوَ معنىٰ تقطيعِ الحروفِ وتصحيحِها .

النَّوعُ الثَّاني : التَّقليدُ لظواهرِ معاني القرآنِ ، والجمودُ عليها ؛

وذٰلكَ حجابٌ عظيمٌ عنِ الفهمِ ، ولستُ أعني بهِ التَّقليدَ الباطلَ ؛ كتقليدِ المُبتدِعِ ، بلِ التَّقليدَ الحقَّ أيضاً ؛ **فإنَّ الحقَّ الذي كُلِّفَ الخَلْقُ اعتقادَهُ لهُ درجاتٌ** ، ولهُ مبدأٌ ظاهرٌ ، وهوَ كالقِشرِ في المثالِ ، ولهُ غورٌ باطنٌ ، وهوَ كاللُّبابِ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لِلْقُرْآنِ ظَهْراً وَبَطْناً ، وَحَدّاً وَمَطْلِعاً »(١) .

فالجامدُ على الظَّاهرِ ، الظَّانُّ أنَّهُ ليسَ وراءَهُ مَرقىً يُرتقَىٰ إليهِ . . كيفَ يُتصوَّرُ أن تنكشفَ لهُ الأسرارُ ؟!

فقد كُلِّفَ الخَلْقُ مثلاً أن يعتقدوا أنَّ اللهَ تعالىٰ يُرىٰ ، ولٰكنْ للرُّؤيةِ ظاهرٌ وسِرٌّ ؛ فمَنِ اعتقدَ أنَّ رؤيةَ اللهِ تعالىٰ مناسبةٌ للرُّؤيةِ التي يألفُها الإنسانُ في هٰذا العالَمِ . . كيفَ يُتصوَّرُ أن يَطَّلِعَ علىٰ سِرِّ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ ؟!

وكيفَ يفهمُ أنَّ ذٰلكَ مُمتنِعٌ في هٰذهِ الحياةِ الدُّنيا بهٰذهِ العينِ الموقوفةِ علىٰ ملاحظةِ الجهاتِ والأقطارِ ؟!

وكيفَ يفهمُ قولَهُ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ معَ قولِهِ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ؟!(٢) .

ويكفيكَ هٰذا المثالُ الواحدُ ، فلسنا نكشفُ لكَ أكثرَ مِنْ هٰذا ،

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٧٥) بنحوه من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، وانظر « قوت القلوب » (٥١/١) .

(٢) قال الإمام في « إحياء علوم الدين » (٤٢٢/٨) : (والرؤية : هي استكمال لإدراك الخيال ؛ وهو غاية الكشف ، وسُمي ذٰلك رؤية ؛ لأنه غاية الكشف ، لا لأنه في العين ، بل لو خلق الله هٰذا الإدراك الكامل المكشوف في الجبهة أو الصدر مثلاً . . استحق أن يُسمىٰ رؤية) .

ولسنا نقصدُ في هٰذهِ الأصولِ إلَّا التَّلويحاتِ لمبادي الأسرارِ ؛ تشويقاً للمُستعدِّينَ لها إليها .

الخامسُ : ألَّا تقتصرَ على اقتباسِ الأنوارِ ، بل تضيفُ إليها اقتباسَ الأحوالِ والآثارِ ؛ وذٰلكَ ألَّا تقرأَ آيةً إلَّا أن تصيرَ مُتَّصِفاً بصفتِها ، فيكونَ لكَ بحسَبِ كلِّ فهمٍ حالٌ ووَجْدٌ :

فعندَ ذكرِ الرَّحمةِ ووعدِ المغفرةِ . . تستبشرُ كأنَّكَ تطيرُ مِنَ الفرحِ .

وعندَ ذكرِ الغضبِ وشدَّةِ العقابِ . . تتضاءلُ كأنَّكَ تموتُ مِنَ الفزعِ .

وعندَ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وأسمائِهِ وعظمتِهِ . . تتطأطأُ وتتصاغرُ كأنَّكَ تنمحقُ مِنْ مشاهدةِ الجلالِ .

وعندَ ذكرِ الكُفَّارِ ما يستحيلُ عليهِ مِنْ ولدٍ وصاحبةٍ . . تنكسرُ وتَغُضُّ صوتَكَ كأنَّكَ تنطمسُ مِنَ الحياءِ .

وكذٰلكَ في كلِّ صنفٍ مِنَ الأصنافِ العشرةِ[1] ، وذٰلكَ أيضاً يطولُ .

ولْيَظهَرْ أثرُ ذٰلكَ علىٰ جوارحِكَ ؛ مِنْ بكاءٍ عندَ الحزنِ ، وعرقِ

(١) المذكورة في صدر كتابه « جواهر القرآن » .

جبينٍ عندَ الحياءِ ، واقشعرارِ جلدٍ وارتعادِ فرائصَ عندَ الهيبةِ والإجلالِ ، وانبساطٍ في الأعضاءِ واللِّسانِ والصَّوتِ عندَ الاستبشارِ ، وانقباضٍ فيها عندَ الاستشعارِ .

فإذا فعلتَ ذٰلكَ . . اشتركَ في نيلِ حظِّ القرآنِ جميعُ أجزائِكَ ، **وفاضَتْ آثارُ القرآنِ علىٰ عوالمِكَ الثَّلاثةِ** ؛ أعني : عالَمَ الملكوتِ ، وعالَمَ الجبروتِ ، وعالَمَ الشهادةِ ، **واعلمْ أنَّكَ مُركَّبٌ مِنَ العوالمِ الثَّلاثةِ ، وفيكَ مِنْ كلِّ عالَمٍ جزءٌ** .

واعلمْ : أنَّ محضَ أنوارِ المعرفةِ يَفِيضُ مِنْ عالَمِ الملكوتِ ، **ومُفِيضُهُ سِرُّ القلبِ** ؛ لأنَّه أيضاً مِنَ الملكوتِ .

وأمَّا آثارُها ؛ مِنَ الخشيةِ والخوفِ والسُّرورِ ، والهيبةِ وسائرِ الأحوالِ . . فإنَّها تَهبِطُ مِنْ عالَمِ الجبروتِ ، **ومهبطُها الصَّدرُ** الذي هوَ مِنْ عالَمِ الجبروتِ ، وهوَ عالَمٌ آخَرُ مِنْ عوالمِكَ ، كنَّينا عنهِ بالصَّدرِ كما كنَّينا عنِ الأوَّلِ بالقلبِ ؛ لأنَّ عالَمَ الجبروتِ بينَ عالَمِ الملكوتِ وعالَمِ الشَّهادةِ ، كما أنَّ الصَّدرَ بينَ القلبِ والجوارحِ .

وأمَّا البكاءُ والشَّهقةُ ، والاقشعرارُ وارتعادُ الفرائصِ . . فتنزلُ مِنْ عالَمِ الشَّهادةِ ، **ومهبطُها الجوارحُ** ؛ لأنَّها مِنْ عالَمِ الشَّهادةِ .

وما أُراكَ تفهمُ مِنَ القلبِ غيرَ اللَّحمِ الصَّنوبريِّ الشَّكلِ ، ومِنَ الصَّدرِ غيرَ العظامِ المحيطةِ بهِ ؛ فإنَّكَ لا تدركُ مِنْ كلِّ شيءٍ

إلَّا غلافَهُ وقشرَهُ ، وما أبعدَكَ عنْ دَرَكِ الحقائقِ !! فإنَّ هـٰذا يُوجَدُ للميتِ والبهائمِ ، ولا تنزلُ عليهِ أنوارُ المعارفِ والعلومِ ، ولا آثارُها مِنَ الخشيةِ والهيبةِ والسُّرورِ .

فإن أردتَ أن تستنشقَ شيئاً مِنْ روائحِ هـٰذهِ الأسرارِ ـ وما أُراكَ تريدُ ؛ فقد أخذَ الشَّيطانُ بمُخَنَّقِكَ [1] بحبالِ الشَّهواتِ ـ **فعليكَ ببابِ التَّوحيدِ** مِنْ أوَّلِ (كتابِ التَّوكُّلِ) مِنْ كتابِ « إحياءِ علومِ الدينِ » إن أردتَهُ .

واعلمْ : أنَّ القرآنَ كالشَّمسِ ، **وفيضانَ أسرارِ المعرفةِ منهُ على القلبِ** . . كفيضانِ أنوارِ الشَّمسِ على الأرضِ .

وسريانَ آثارِ الخشيةِ والخوفِ والهيبةِ وسائرِ الأحوالِ منهُ على الصَّدرِ . . كسريانِ حرارةِ الشَّمسِ في باطنِ الأرضِ تابعاً لإشراقِ الأنوارِ ؛ فإنَّ الخشيةَ أثرُ نورِ المعرفةِ ، وإنَّما يخشى اللهَ مِنْ عبادِهِ العلماءُ .

وانتشارَ الحركاتِ والتَّغيُّراتِ إلى الجوارحِ ؛ مِنَ البكاءِ والعرقِ ، والاقشعرارِ والارتعادِ منبعثاً مِنْ آثارِ الخشيةِ ، وسائرِ الأحوالِ . . كحركةِ أجزاءِ الأرضِ بتصاعدِ الأبخرةِ والأدخنةِ منها بتصعيدِ حرارةِ الشَّمسِ ؛ فالحركةُ تبعُ الحرارةِ ، والحرارةُ تبعُ النُّورِ ، والنُّورُ تبعُ وقوعِ المحاذاةِ بينَ الأرضِ والشَّمسِ .

---

(١) المُخَنَّق : موضع الخنق من العنق .

فاجتهدْ بأن تحاذيَ بوجهِ قلبِكَ شطرَ شمسِ القرآنِ ، وتستضيءَ بأنوارِهِ كذٰلكَ ، فإن لم تُطِقْ ذٰلكَ . . فأصغِ إلى النِّداءِ الواردِ مِنْ جانبِ الطُّورِ الأيمنِ ، فإن آنستَ مِنْ جوانبِهِ ناراً . . فخذْ منهُ قبساً ، وأشعلْ منهُ سراجاً إن كانَ زيتُكَ يكادُ يضيءُ ولو لم تمسسْهُ نارٌ ، فإذا مسَّتْهُ النَّارُ . . انبعثَ منهُ الضِّياءُ ، ووجدتَ على النَّارِ هدىً ، وقامَ في حقِّكَ مَقامَ الشَّمسِ المُنتشِرةِ الإشراقِ والضِّياءِ (١) .

❊ ❊ ❊

---

(١) هٰذه القطعة من كلام الإمام إنما يفهمها ـ كما قال في « إحياء علوم الدين » (٧/٣١٨) ـ من عرف منطق الطير ، ويجحدها من عجز عن الإيضاع ـ وهو السير السريع ـ في السير ، فضلاً عن أن يجول في جو الملكوت جولان الطير .

الأصل السادس

في ذكر الله تعالى في كلّ حال

قَالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [٣/١٩١] .

وقالَ : ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٨/٤٥] .

وقالَ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [٧٣/٨] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَذِكْرُ ٱللهِ بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ . . أَفْضَلُ مِنْ حَطْمِ ٱلسُّيُوفِ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ، وَمِنْ إِعْطَاءِ ٱلْمَالِ سَحّاً »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ ٱلْوَرِقِ وَٱلذَّهَبِ ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا أَعْدَاءَكُمْ ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ » . قَالُوا : وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ ٱللهِ ؟ فَقَالَ : « ذِكْرُ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ »(٢) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١١٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠٦٩) موقوفاً علىٰ سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، ورواه مرفوعاً من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ابنُ شاهين في « الترغيب في الذكر » كما في « إتحاف السادة المتقين » (٥/٦) .

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٧) ، وابن ماجه (٣٩٤٤) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سَبَقَ ٱلْمُفَرِّدُونَ ، سَبَقَ ٱلْمُفَرِّدُونَ » فقيلَ : ومَنْ هم يا رسولَ اللهِ ؟ فَقَالَ : « ٱلْمُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ ٱللهِ ؛ وَضَعَ ذِكْرُ ٱللهِ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ ، فَوَرَدُوا ٱلْقِيَامَةَ خِفَافاً »[١] .

واعلمْ : أنَّه قدِ انكشفَ لأربابِ البصائرِ أنَّ الذِّكرَ أفضلُ الأعمالِ ، ولٰكنْ لهُ أيضاً قشورٌ ثلاثةٌ ، بعضُها أقربُ إلى اللُّبِّ مِنْ بعضٍ ، ولهُ لبٌّ وراءَ القشورِ الثَّلاثةِ ، وإنَّما فضلُ القشورِ لكونِها طريقاً إليهِ .

فالقِشْرُ الأعلىٰ منهُ : ذكرُ اللِّسانِ فقطْ .

والثَّاني : ذكرُ القلبِ ؛ إذ كانَ القلبُ يحتاجُ إلىٰ مراقبةٍ حتَّىٰ يحضرَ معَ الذِّكرِ ، ولو تُرِكَ وطبعَهُ . . لٱسترسلَ في أوديةِ الأفكارِ .

والثَّالثُ : أن يستمكنَ الذِّكرُ مِنَ القلبِ ويستوليَ عليهِ ، بحيثُ يحتاجُ إلىٰ تكلُّفٍ في صرفِهِ عنهُ إلىٰ غيرِهِ ، كما احتيجَ في الثَّاني إلىٰ تكلُّفٍ في قرارِهِ معَهُ ودوامِهِ عليهِ .

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٩٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وأصله عند مسلم (٢٦٧٦) .

والرَّابعُ ـ وهوَ اللُّبابُ ـ : أن يستمكنَ المذكورُ مِنَ القلبِ ، وينمحيَ الذِّكرُ ويخفىٰ ، وهوَ اللُّبابُ المطلوبُ ؛ وذٰلكَ بألَّا يلتفتَ إلى الذِّكرِ ولا إلى القلبِ ، بل يستغرقُ المذكورُ جملتَهُ ، ومهما ظهرَ لهُ في أثناءِ ذٰلكَ التفاتٌ إلى الذِّكرِ . . فذٰلكَ حجابٌ شاغلٌ .

وهٰذهِ الحالةُ هيَ التي يُعبِّرُ عنها العارفونَ بالفَناءِ ؛ وذٰلكَ بأن يفنىٰ عن نفسِهِ حتَّىٰ لا يُحِسَّ بشيءٍ مِنْ ظواهرِ جوارحِهِ ، ولا مِنَ الأشياءِ الخارجةِ عنهُ ، ولا مِنَ العوارضِ الباطنةِ فيهِ ، بل يغيبُ عن جميعِ ذٰلكَ ، ويغيبُ عنهُ جميعُ ذٰلكَ ، ذاهباً إلىٰ ربِّهِ أوَّلاً ، ثمَّ ذاهباً فيهِ آخِراً .

فإن خطرَ لهُ في أثناءِ ذٰلكَ أنَّهُ فنيَ عن نفسِهِ بالكلِّيَّةِ . . فذٰلكَ أيضاً شَوْبٌ وكدورةٌ ، بلِ الكمالُ في أن يفنىٰ عن نفسِهِ ، ويفنىٰ عنِ الفَناءِ أيضاً ؛ فإنَّ الفَناءَ عنِ الفَناءِ غايةُ الفَناءِ .

وهٰذا قد يظنُّهُ الفقيهُ الرَّسميُّ أنَّهُ طامَّاتٌ غيرُ معقولةٍ ، وليسَ كذٰلكَ ، بل هٰذهِ الحالةُ لهُم بالإضافةِ إلىٰ محبوبِهِم كحالتِكَ في أكثرِ أحوالِكَ بالإضافةِ إلىٰ محبوبِكَ ؛ مِنْ جاهٍ أو مالٍ أو معشوقٍ ؛ فإنَّكَ قد تصيرُ مُستغرِقاً لشدَّةِ الغضبِ بالفكرِ في عدوِّكَ ، ولشدَّةِ شهوتِكَ بالفكرِ في معشوقِكَ ، حتَّىٰ لا يكونَ فيكَ مُتَّسعٌ لشيءٍ أصلاً ، فتُخاطَبُ فلا تفهمُ ! ويَجتازُ بينَ يديكَ غيرُكَ فلا تراهُ وعيناكَ مفتوحتانِ ! ويُتكلَّمُ عندَكَ فلا تسمعُ وما بأذنيكَ صممٌ !

وأنتَ في هٰذا الاستغراقِ غافلٌ عن كلِّ شيءٍ ، وعنِ الاستغراقِ أيضاً ؛ فإنَّ المُلتفِتَ إلى الاستغراقِ مُعرِضٌ عنِ المُستغرَقِ بهِ .

وإنَّما سمَّوا هٰذهِ الحالةَ فَناءً وإن كانَ الشَّخصُ والظِّلُّ باقيَينِ ؛ لأنَّ الأشخاصَ والأظلالَ (١) بل سائرَ المحسوساتِ ليسَ لها حقيقةُ الوجودِ ، بلِ الوجودُ الحقيقيُّ لعالَمِ الأمرِ والملكوتِ ، والقلبُ مِنْ عالَمِ الأمرِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ ، والقوالبُ مِنْ عالَمِ الخَلْقِ .

وأعني بالقلبِ : اللَّطيفةَ الذَّاكرةَ العارفةَ التي هيَ مَهبِطُ الأنوارِ الإلٰهيَّةِ ، دونَ القلبِ الظَّاهرِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مِنْ عالَمِ الخَلْقِ ، ولا تفهمْ مِنْ هٰذا إشارةً إلىٰ قِدَمِ الرُّوحِ وحدوثِ القالبِ !! بل هما جميعاً حادثانِ .

وإنَّما أعني بالخَلْقِ : ما تقعُ عليهِ المِساحةُ والتَّقديرُ ؛ وهيَ الأجسامُ وصفاتُها .

وأعني بعالَمِ الأمرِ : ما لا يتطرَّقُ إليهِ التَّقديرُ .

والعالَمُ الجِسمانيُّ ليسَ لهُ وجودٌ حقيقيٌّ ، بل هوَ مِنْ ذٰلكَ العالَمِ كالظِّلِّ مِنَ الأجسامِ ، وليسَ لظلِّ الإنسانِ حقيقةُ الإنسانِ ، فليسَ للشَّخصِ حقيقةُ الوجودِ ، بل هوَ ظلُّ الحقيقةِ ، والكلُّ مِنْ

---

(١) العبارة في (ب ، ج ، د ، هـ) : (وإن كان الشخص والطلل باقياً ؛ لأن الأشخاص والأطلال) .

صنعِ اللهِ تعالىٰ ؛ ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝١٥ ﴾ ، وسجودُ عالَمِ الأمرِ للهِ تعالىٰ طَوْعٌ ، وسجودُ الظِّلالِ كَرهٌ ، وتحتَهُ سِرٌّ ، بل أسرارٌ تُحرِّكُ أوائلُها سلسلةَ المجانينِ والحمقىٰ فضلاً عن أواخرِها ، فلنتجاوزْها .

فقد أفهمناكَ ما أرادوهُ بالفَناءِ ، فدعْ عنكَ الغِيبةَ والتَّكذيبَ بما لم تُحِطْ بعلمِهِ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ ۝٣٩ ﴾ ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١ ﴾ .

فإذا فهمتَ الفَناءَ في المذكورِ . . فاعلمْ أنَّهُ أوَّلُ الطَّريقِ ؛ وهوَ الذَّهابُ إلى اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما الهدىٰ بعدَهُ ؛ أعني بالهدىٰ : هدى اللهِ تعالىٰ ؛ كما قالَ الخليلُ عليهِ السلامُ : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩ ﴾ .

فأوَّلُ الأمرِ ذهابٌ إلى اللهِ ، ثمَّ ذهابٌ في اللهِ ؛ وذٰلكَ هوَ الفَناءُ والاستغراقُ بهِ ، ولٰكنْ هٰذا الاستغراقُ أوَّلاً يكونُ كبرقٍ خاطفٍ ، قلَّما يثبتُ ويدومُ ، فإن دامَ ذٰلكَ وصارَ عادةً راسخةً وهيئةً ثابتةً . . عرجَ بهِ إلى العالَمِ الأعلىٰ ، وطالعَ الوجودَ الحقيقيَّ الأصفىٰ ، وانطبعَ فيهِ نقشُ الملكوتِ ، وتجلَّىٰ لهُ قدسُ اللَّاهوتِ .

وأوَّلُ ما يَتمثَّلُ لهُ مِنْ ذٰلكَ العالَمِ : جواهرُ الملائكةِ ، وأرواحُ الأنبياءِ والأولياءِ في صورةٍ جميلةٍ ، يَفيضُ إليهِ بواسطتِها بعضُ

الحقائقِ ؛ وذلكَ في البدايةِ ، إلىٰ أن تعلوَ درجتُهُ عنِ المثالِ ، فيُكافَحُ بصريحِ الحقِّ في كلِّ شيءٍ[1] .

فإذا رُدَّ إلىٰ هـٰذا العالَمِ الحادثِ الذي هوَ كالظِّلالِ . . نظرَ إلى الخَلْقِ نظرَ مُترحِّمٍ عليهِم ؛ لحرمانِهِم عن مطالعةِ جمالِ حضرةِ القدسِ ، وتعجَّبَ منهُم في قناعتِهِم بالظِّلالِ ، وانخداعِهِم بعالَمِ الغُرورِ وعالَمِ الخيالِ ، فيكونُ معَهُم حاضراً بشخصِهِ ، غائباً بقلبِهِ ، يَتعجَّبُ هوَ مِنْ حضورِهِم ، ويَتعجَّبونَ هم مِنْ غَيبتِهِ .

فهـٰذهِ ثمرةُ لُبابِ الذِّكرِ ، وإنَّما مبدؤُها ذكرُ اللِّسانِ ، ثمَّ ذكرُ القلبِ تكلُّفاً ، ثمَّ ذكرُ القلبِ طبعاً ، ثمَّ استيلاءُ المذكورِ وانمحاءُ الذِّكرِ ، وهـٰذا سِرُّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَحَبَّ أَن يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ ٱلْجَنَّةِ . . فَلْيُكْثِرْ ذِكْرَ ٱللهِ تَعَالَىٰ »[2] ، بلْ سِرُّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَفْضُلُ ٱلذِّكْرُ ٱلْخَفِيُّ عَلَى ٱلذِّكْرِ ٱلَّذِي تَسْمَعُهُ ٱلْحَفَظَةُ سَبْعِينَ ضِعْفاً »[3] .

واعلمْ : أنَّ كلَّ ذِكرٍ يَشعُرُ بهِ قلبُكَ . . تسمعُهُ الحفظةُ ؛ فإنَّ

---

(١) يُكافَح : يُواجَهُ ، ولقيه مكافحة : وقع وجهه بوجهه فجأة .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٥٧/٢٠) من حديث سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه بنحوه .

(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٧٣٨) من حديث الصدِّيقة سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، والبيهقي في « الشعب » (٥٥٢) عن معاوية بن يحيىٰ يرفعه .

شعورَهُم يُقارِنُ شعورَكَ ، وفيهِ شِركٌ خفيٌّ [1] ، حتَّىٰ إذا غابَ ذكرُكَ عن شعورِكَ بذهابِكَ في المذكورِ بالكلِّيَّةِ . . فيغيبُ ذكرُكَ عن شعورِ الحفظةِ ، وما دامَ القلبُ يشعرُ بالذِّكرِ ويلتفتُ إليهِ . . فهوَ مُعرِضٌ عنِ اللهِ تعالىٰ [2] ، وغيرُ منفكٍّ عن شِركٍ خفيٍّ ، حتَّىٰ تصيرَ مُستغرِقاً بالواحدِ الحقِّ ، فذٰلكَ هوَ التَّوحيدُ .

وكذٰلكَ القولُ في المعرفةِ ؛ فمَنْ طلبَ المعرفةَ للمعرفةِ . . فقد قالَ بالثَّاني [3] ، ومَنْ وجدَها كأنَّهُ لا يجدُها ، بل يجدُ المعروفَ بها . . فهوَ الذي استمكنَ مِنْ حقيقةِ الوصالِ ، وحلَّ بُحبوحةَ حظيرةِ القدسِ .

فإن قلتَ : فلِمَ اختصَّتْ هٰذهِ المكاشفاتُ بحالِ الفَناءِ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذهِ قصَّةٌ يطولُ فيها نظرُ النَّاظرِ ، ولٰكنْ إذا تأمَّلتَ . . لم تَقصُرْ عن أن تدركَ كونَ الحواسِّ وعوارضِ النَّفسِ وشهَواتِها جاذبةً إلىٰ هٰذَا العالَمِ المحسوسِ ؛ عالَمِ الزُّورِ والغُرورِ ، ولذٰلكَ ينكشفُ صريحُ الحقِّ بالموتِ [4] ؛ لبطلانِ سلطانِ الحواسِّ والخيالاتِ الموليةِ بوجهِ القلبِ إلىٰ عالَمِ السُّفلِ .

---

(١) كذا في (و) ، وفي باقي النسخ : (وفيه سرٌّ خفيٌّ) .

(٢) يعني : بقدر الالتفات والشعور .

(٣) حيث حصل عنده معرفةٌ ومعروفٌ ؛ فمن طلب المعرفة لذاتها . . فهو معرض عن الله تعالىٰ ، ومن طلبه حتىٰ صار مستغرقاً به . . فهٰذه هي المعرفة المنشورة .

(٤) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٧/٥٢) عن الثوري قال : (الناس نيام ، فإذا ماتوا . . انتبهوا) .

فإن قصرَ عنكَ سلطانُ الحواسِّ بالنَّومِ . . طُولِعتَ بشيءٍ مِنَ الغيبِ علىٰ قدْرِ استعدادِكَ وقَبُولِكَ وهمَّتِكَ ، ولٰكنْ بمثالٍ يحتاجُ إلى التَّعبيرِ ، وما عندي أنَّكَ لم تُصادِفْ مِنْ نفسِكَ رؤيا صادقةً اطَّلعتَ بها علىٰ أمرٍ مستقبلٍ لٰكنْ بالمثالِ ؛ إذِ الخيالُ لا يفترُ في النَّومِ وإن ركدَتِ الحواسُّ ، فلذٰلكَ يضعفُ الاطِّلاعُ ، ولا يخلو عن شوبِ المثالِ .

وأمَّا الفَناءُ : فعبارةٌ عن حالةٍ تركدُ فيها الحواسُّ ولا تشتغلُ ، ويسكنُ فيها الخيالُ فلا يُشوِّشُ ، فإن بقيَتْ في الخيالِ بقيَّةٌ مغلوبةٌ . . لم تُؤثِّرْ إلَّا في محاكاةِ ما يتجلَّىٰ مِنْ عالَمِ القدسِ ، حتَّىٰ يَتمثَّلُ الأنبياءُ والملائكةُ والأرواحُ المُقدَّسةُ في قوالبِ الخيالِ .

فهٰذهِ أمورٌ نبَّهتُكَ عليها[١] ؛ لتكونَ مُتشوِّفاً إلىٰ أن تصيرَ مِنْ أهلِ الذَّوقِ لها ، فإن لم تكنْ . . فمِنْ أهلِ العلمِ بها ، فإن لم تكنْ . . فمِنْ أهلِ الإيمانِ بها[٢] ، **﴿ويرفعُ اللهُ الذينَ آمنوا منكُم والذينَ أُوتوا العلمَ درجاتٍ﴾** .

وإيَّاكَ أن تكونَ مِنَ المنكرينَ لها ؛ فتلقى العذابَ الشَّديدَ إذا

---

(١) يعني : الأذكار والمكاشفات والفناء . انتهىٰ هامش (ج) .

(٢) مقام علم بالاستدلال ، ومقام الإيمان بالسمع ، ومقام الذوق بالمشاهدة . انتهىٰ هامش (ج) .
قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « كيمياء السعادة » (ص ١٢٨) : (وهٰذه الطريقة لا تفهم إلا بالتجربة ، وإن لم تحصل بالذوق . . لم تحصل بالتعليم ، والواجب التصديق بها ؛ حتىٰ لا تحرم شعاع سعادتهم ، وهو من عجائب القلب) .

كُوشِفتَ بالحقّ عندَ سكَراتِ الموتِ الذي كنتَ منهُ تحيدُ ، وقيلَ لكَ : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

واعلمْ : أنَّ الإيمانَ والعِلمَ والذَّوقَ ثلاثُ درجاتٍ متباعدةٍ ؛ فإنَّ العِنّينَ مثلاً يُتصوَّرُ أن يُصدِّقَ بوجودِ شهوةِ الوِقاعِ لغيرِهِ ؛ بأن يقبلَ ذٰلكَ ممَّنْ يَحسُنُ ظنُّهُ بهِ ولا يَتَّهِمُهُ بالكذبِ ، وذٰلكَ إيمانٌ .

ويُتصوَّرُ أن يعلمَ بالبرهانِ وجودَهُ لغيرِهِ ، وهوَ عِلْمٌ ، ومأخذُهُ القياسُ ؛ إذ ينظرُ إلىٰ شهوتِهِ للطَّعامِ مثلاً ، فيقيسُ بها شهوةَ الوِقاعِ ، وكلُّ ذٰلكَ بعيدٌ عن إدراكِ حقيقةِ الشَّهوةِ بوجودِها لهُ .

وكذٰلكَ المرضُ ، يعرفُهُ المعافى الصَّحيحُ ويؤمنُ بهِ ، ويعرفُهُ الطبيبُ الصَّحيحُ بالبرهانِ ، وهوَ عِلْمٌ ، وما لم يَصِرْ مريضاً . . لم يَحصُلْ لهُ بالذَّوقِ .

فكذٰلكَ القولُ في الفَناءِ في التَّوحيدِ ؛ فالذَّوقُ مشاهدةٌ ، والعِلمُ قياسٌ ، والإيمانُ قَبُولٌ بحُسْنِ الظَّنِّ معَ الانفكاكِ عنِ التُّهَمَةِ ، فاجتهدْ أن تصيرَ مِنْ أهلِ المشاهدةِ ؛ فليسَ الخبرُ كالمعاينةِ .

فإنْ قلتَ : فقد عظَّمتَ أمرَ الذِّكرِ ، فهوَ أفضلُ أم قراءةُ القرآنِ ؟

فاعلمْ : أنَّ قراءةَ القرآنِ أفضلُ للخَلْقِ كلِّهِم إلَّا للذَّاهبِ إلى اللهِ ، فهوَ أفضلُ للذَّاهبِ إلى اللهِ في جميعِ أحوالِ بدايتِهِ ،

وفي بعضِ أحوالِهِ في نهايتِهِ ؛ فإنَّ القرآنَ هوَ المُشتمِلُ علىٰ صنوفِ المعارفِ والأحوالِ والإرشادِ إلى الطَّريقِ .

فما دامَ العبدُ مُفتقِراً إلىٰ تهذيبِ الأخلاقِ وتحصيلِ المعارفِ . . فالقرآنُ أَولىٰ بهِ ، فإن جاوزَ ذٰلكَ واستولى الذِّكرُ علىٰ قلبِهِ ؛ بحيثُ يُرتجىٰ لهُ أن يُفضِيَ بهِ ذٰلكَ إلى الاستغراقِ . . فمداومةُ الذِّكرِ أَولىٰ بهِ ؛ فإنَّ القرآنَ يُجاذِبُ خاطِرَهُ ، ويَسرَحُ بهِ في رياضِ الجنَّةِ ، والمريدُ الذَّاهبُ إلى اللهِ تعالىٰ لا ينبغي أن يلتفتَ إلى الجنَّةِ ورياضِها ، بل ينبغي أن يجعلَ همَّهُ همّاً واحداً ، وذكرَهُ ذِكراً واحداً ؛ حتَّىٰ يُدرِكَ درجةَ الفَناءِ والاستغراقِ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ .

وكذٰلكَ مَنْ ينتهي إلىٰ درجةِ الاستغراقِ ولا يدومُ ولا يَثبُتُ عليهِ ، فإذا رُدَّ إلىٰ نفسِهِ . . فقد تنفعُهُ تلاوةُ القرآنِ ، وهٰذهِ حالةٌ نادرةٌ عزيزةٌ ؛ كالكِبريتِ الأحمرِ يُتحدَّثُ بهِ ولا يُوجدُ .

فتكونُ تلاوةُ القرآنِ أفضلَ مطلقاً ؛ لأنَّهُ أفضلُ في كلِّ حالٍ ، إلَّا في حالِ مَنْ شغلَهُ المُتكلِّمُ عنِ الكلامِ ؛ إذ لُبابُ القرآنِ معرفةُ المُتكلِّمِ بالقرآنِ ، ومعرفةُ جمالِهِ والاستغراقُ بهِ ، والقرآنُ سائقٌ إليهِ وهادٍ نحوَهُ ، ومَنْ أشرفَ على المَقصِدِ . . لم يَلتفِتْ إلى الطَّريقِ .

فإن قلتَ : فأيُّ الأذكارِ أفضلُ ؟

فاعلمْ : أنَّ الأفضلَ ـ كما ذكرناهُ[١] ـ استيلاءُ المذكورِ على القلبِ ، وهوَ شيءٌ واحدٌ لا كثرةَ فيهِ حتىٰ تختارَ أفضلَهُ ، وذٰلكَ عينُ الجمعِ والتَّوحيدِ ، وإنَّما التَّفرقةُ والكثرةُ قبلَ ذٰلكَ : ما دمتَ في مَقامِ الذِّكرِ باللِّسانِ أوِ القلبِ ، وعندَ هـٰذَا قد ينقسِمُ الذِّكرُ إلى الأفضلِ وغيرِ الأفضلِ ، وفضلُهُ بحَسَبِ الصِّفاتِ التي يُعبَّرُ عنها بالأذكارِ .

والصِّفاتُ والأسماءُ الواردةُ في حقِّ اللهِ سبحانَهُ تنقسمُ :

إلىٰ ما هوَ حقيقةٌ في حقِّ العبادِ ، ومُؤوَّلةٌ في حقِّهِ سبحانَهُ ؛ كالصَّبورِ والشَّكورِ ، والرَّحيمِ والمُنتقِمِ .

وإلىٰ ما هوَ حقيقةٌ في حقِّهِ سبحانَهُ ، وإذا استُعمِلَ في حقِّ غيرِهِ . . كانَ مجازاً .

فمِنْ أفضلِ الأذكارِ : (لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ الحيُّ القيُّومُ) فإنَّ فيهِ اسمَ اللهِ الأعظمَ ؛ إذ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱسْمُ ٱللهِ ٱلْأَعْظَمُ فِي آيَةِ ٱلْكُرْسِيِّ وَأَوَّلِ آلِ عِمْرَانَ »[٢] ، ولا يشتركانِ إلَّا في هـٰذا ، ولهُ سِرٌّ يَدِقُّ عن فهمِكَ ذكرُهُ .

---

(١) تقدم قبل قليل (ص ١٣٨) .

(٢) روى الحاكم في « المستدرك » (١/٥٠٦) من حديث سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن اسم الله الأعظم لفي ثلاث سور في القرآن ؛ في سورة البقرة ، وآل عمران ، وطه » ، فالتمستُها ، فوجدتُ في (سورة البقرة) آيةَ الكرسي : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ، وفي (سورة آل عمران) : ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ، وفي (سورة طه) : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ .

والقدرُ الذي يمكنُ الرَّمزُ إليهِ : أنَّ قولَكَ : (لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ) يُشعِرُ بالتَّوحيدِ ، ومعنى الوحدانيَّةِ في الذَّاتِ والرُّتبةِ حقيقيٌّ في حقِّ اللهِ تعالىٰ غيرُ مُؤوَّلٍ ، بل هوَ في حقِّ غيرِهِ مجازٌ ومُؤوَّلٌ .

وكذٰلكَ (الحيُّ) فإنَّ معنى الحيِّ : هوَ الذي يَشعُرُ بذاتِهِ ويعلَمُ ذاتَهُ ـ والميتُ : هوَ الذي لا خبرَ لهُ مِنْ ذاتِهِ[1] ـ وهـٰذا أيضاً حقيقيٌّ للهِ تعالىٰ غيرُ مُؤوَّلٍ .

و(القيُّومُ) : يُشعِرُ بكونِهِ قائماً بذاتِهِ ، وأنَّ كلَّ شيءٍ قيامُهُ بهِ ، وهـٰذا أيضاً حقيقيٌّ لهُ عزَّ وجلَّ غيرُ مُؤوَّلٍ ، لا يُوجدُ لغيرِهِ ، بل لا يُتصوَّرُ لغيرِهِ .

وما عدا هـٰذا مِنَ الأسماءِ الدَّالَّةِ على الأفعالِ ؛ كالرَّحيمِ والمُقسِطِ والعدلِ وغيرِهِ . . فهوَ دونَ ما يدلُّ على الصِّفاتِ ؛ لأنَّ مصادرَ الأفعالِ هيَ الصِّفاتُ ؛ فالصِّفاتُ أصلٌ ، والأفعالُ تبعٌ .

وما عداها مِنَ الصِّفاتِ التي تدلُّ على القدرةِ والعلمِ والإرادةِ والكلامِ والسَّمعِ والبصرِ . . فذٰلكَ ممَّا يُظَنُّ أنَّ الثَّابتَ منها للهِ عزَّ وجلَّ مفهومُ ظواهرِها ، وهيهاتَ !! فإنَّ المفهومَ مِنْ ظواهرِها أمورٌ تناسبُ صفاتِ الإنسانِ وكلامَهُ وقدرتَهُ وعلمَهُ وإرادتَهُ وسمعَهُ وبصرَهُ ، بل لها حقائقُ يستحيلُ ثبوتُها للإنسانِ ، فتُستخرَجُ مِنْ هـٰذهِ الأسامي بنوعٍ مِنَ التَّأويلِ .

---

(١) (من) هنا بمعنىٰ (عن) للمجاوزة .

فهٰذا يُنبّهُكَ علىٰ ما يحتملُهُ فهمُكَ مِنِ اختصاصِ هٰذهِ الكلماتِ بكونِها أعظمَ .

ويَقرُبُ منهُ قولُكَ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلٰهَ إلَّا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) لأنَّ (سبحانَ اللهِ) للتَّقديسِ ، وهوَ حقيقيٌّ في حقِّهِ ؛ فإنَّ القُدُسَ الحقيقيَّ لا يُتصوَّرُ إلَّا لهُ تعالىٰ[١] .

وقولُكَ : (الحمدُ للهِ) يُشعِرُ بإضافةِ النِّعمِ كلِّها إليهِ ، وهوَ حقيقيٌّ ؛ إذ هوَ المُتفرِّدُ بالأفعالِ كلِّها تفرُّداً حقيقيّاً بلا تأويلٍ ، وهوَ تباركَ وتعالى المُستوجِبُ للحمدِ وحدَهُ ؛ إذ لا شِرْكةَ لأحدٍ معَهُ في فعلِهِ أصلاً وألبتةَ ، كما لا شِرْكةَ للقلمِ معَ الكاتبِ في استحقاقِ المَحمَدةِ عندَ حُسْنِ الخطِّ .

واعلمْ : أنَّ كلَّ مَنْ سواهُ ممَّنْ ترىٰ منهُ نعمةً . . فهوَ مُسخَّرٌ لهُ كالقلمِ ، فهٰذا مثالٌ ينبّهُكَ علىٰ تفرُّدِهِ باستحقاقِ الحمدِ .

وقولُكَ : (لا إلٰهَ إلَّا اللهُ) فقد عرفتَ أنَّهُ التَّوحيدُ الحقيقيُّ[٢] .

وقولُكَ : (اللهُ أكبرُ) فليسَ المعنيُّ بهِ أنَّه أكبرُ مِنْ غيرِهِ ؛ إذ ليسَ معَهُ سبحانَهُ غيرُهُ حتَّىٰ يُقالَ : إنَّهُ أكبرُ منهُ ، بل كلُّ ما سواهُ فهوَ نورٌ مِنْ أنوارِ قدرتِهِ ، وليسَ لنورِ الشَّمسِ معَ الشَّمسِ رتبةُ المعيَّةِ حتَّىٰ يُقالَ : إنَّها أكبرُ منهُ ، بل رتبةُ التَّبعيَّةِ .

---

(١) القُدُس : الطُّهر ، والقدوس : الطاهر عن النقائص .

(٢) تقدم قريباً (ص ١٤٤) .

بل معناهُ : أنَّه أكبرُ مِنْ أن يُنالَ بالحواسِّ ، ويُدرَكَ جلالُهُ بالعقلِ والقياسِ ، بل أكبرُ مِنْ أن يُدرِكَ كُنْهَ جلالِهِ غيرُهُ ، بل أكبرُ مِنْ أن يعرفَهُ غيرُهُ ؛ فإنَّهُ لا يعرفُ اللهَ إلَّا اللهُ ؛ فإنَّ منتهىٰ معرفةِ عبادِهِ : أن يعرفوا أنَّه يستحيلُ منهُم معرفتُهُ الحقيقيَّةُ ، ولا يعرفُ ذٰلكَ أيضاً بكمالِهِ إلَّا نبيٌّ أو صِدِّيقٌ .

أمَّا النَّبيُّ . . فيُعبِّرُ عنهُ فيقولُ : « لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ »[1] .

وأمَّا الصِّدِّيقُ . . فيقولُ : (العجزُ عن دَرَكِ الإدراكِ إدراكٌ)[2] .

فإن تَشوَّفتَ إلىٰ زيادةِ تحقيقٍ في هٰذا المعنىٰ ، واستنكرتَ قولي : (لا يعرفُ اللهَ إلَّا اللهُ) . . فاطلبْ معرفةَ حقيقتِهِ بالبرهانِ مِنْ كتابِ « المقصدِ الأسنىٰ في شرحِ معاني أسماءِ اللهِ الحسنىٰ »[3]

ويكفيكَ الآنَ هٰذا القدْرُ مِنَ الرُّموزِ إلىٰ أسرارِ الذِّكرِ وأفضلِ الأذكارِ منها .

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٢) انظر « المقصد الأسنىٰ » (ص ٩٥) .

(٣) ورد اسم الكتاب في (ب ، ج ، د ، هـ) : « المقصد الأقصىٰ في شرح معاني أسماء الله الحسنىٰ » .

الأصل السّابع

في طلب الحلال

قالَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ ، والحرامُ خبيثٌ وليسَ بطيِّبٍ ، وقد قرنَ عزَّ وجلَّ أكلَ الطَّيِّباتِ بالعباداتِ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طَلَبُ ٱلْحَلَالِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ بَعْدَ ٱلْفَرِيضَةِ »(١) ؛ أي : بعدَ فريضةِ الإيمانِ والصَّلاةِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَكَلَ ٱلْحَلَالَ أَرْبَعِينَ يَوْماً . . نَوَّرَ ٱللهُ قَلْبَهُ ، وَأَجْرَىٰ يَنَابِيعَ ٱلْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَىٰ لِسَانِهِ » ، وفي روايةٍ : « زَهَّدَهُ ٱللهُ فِي ٱلدُّنْيَا »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ لِلهِ تَعَالَىٰ مَلَكاً عَلَىٰ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ ، يُنَادِي كُلَّ لَيْلَةٍ : مَنْ أَكَلَ حَرَاماً . . لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ صَرْفٌ

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠/٧٤) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه دون زيادة : (على كل مسلم) ، وهي عنده في « الأوسط » (٨٦٠٥) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/٢٨٧) ، وروى ابن المبارك في « الزهد » (١٠١٤) عن مكحول مرسلاً ، وأبو نعيم نحوه في « الحلية » (٥/١٨٩) عنه عن سيدنا أبي أيوب رضي الله عنه مرفوعاً .

وَلَا عَدْلٌ »[1] ، فالصَّرفُ : النَّافلةُ ، والعدلُ : الفريضةُ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ٱشْتَرَىٰ ثَوْباً بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ وَفِي ثَمَنِهِ دِرْهَمٌ حَرَامٌ . . لَمْ يَقْبَلِ ٱللهُ مِنْهُ صَلَاتَهُ مَا دَامَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ »[2] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (لو صلَّيتُم حتَّىٰ تكونوا كالحنايا ، وصُمتُم حتَّىٰ تكونوا كالأوتارِ . . لم يَقبَلِ اللهُ ذٰلكَ منكُم إلَّا بورعٍ حاجزٍ)[3] .

وقيلَ : العبادةُ معَ أكلِ الحرامِ . . كالبنيانِ على السِّرجينِ .

فَصْلٌ

[في بيانِ درجاتِ الورعِ]

اعلمْ : أنَّ طِيبَ المطعمِ لهُ خاصِّيَّةٌ عظيمةٌ في تصفيةِ القلبِ وتنويرِهِ ، وتأكيدِ استعدادِهِ لقَبُولِ أنوارِ المعرفةِ ، وفيهِ سِرٌّ لا يَحتمِلُ هٰذا الكتابُ ذكرَهُ ، ولٰكنْ ينبغي أن تَفهَمَ أنَّ درجاتِ الورعِ أربعٌ :

---

(١) كذا أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/٢٨٨) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، وعند الديلمي بنحوه في « الفردوس » (٥٨٥٣) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/٩٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٧٠٧) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) عزاه الحافظ الزبيدي إلىٰ « قوت القلوب » كما في « إتحاف السادة المتقين » (٦/١١) .

الدَّرجةُ الأُولىٰ : ورعُ العدولِ ؛ وهيَ التي يجبُ الفسقُ باقتحامِها ، وتزولُ العدالةُ بزوالِها ؛ وهيَ التي تُحرِّمُها فتوى الفقهاءِ .

الثَّانيةُ : ورعُ الصَّالحينَ ؛ وهوَ الحذرُ عمَّا يَتطرَّقُ إليهِ احتمالُ التَّحريمِ ، وإن أفتى المفتي بحِلِّهِ بناءً على الظَّاهرِ ، وهوَ الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لَا يَرِيبُكَ »[1] .

الثَّالثةُ : ورعُ المتَّقينَ ؛ قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا يَبْلُغُ ٱلْعَبْدُ دَرَجَةَ ٱلْمُتَّقِينَ حَتَّىٰ يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ مَخَافَةَ مَا بِهِ بَأْسٌ »[2] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (كنَّا نَدَعُ تسعةَ أعشارِ الحلالِ مخافةَ الوقوعِ في الحرامِ)[3] .

ومِنْ هـٰذا الأصلِ : كانَ بعضُهُم إذا استحقَّ مئةَ درهمٍ . . اقتصرَ علىٰ تسعةٍ وتسعينَ ، وتركَ الواحدَ حاجزاً بينَه وبينَ النَّارِ ؛ لخوفِ الزِّيادةِ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٨) من حديث سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥١) ، وابن ماجه (٤٣٧٧) من حديث سيدنا عطية السعدي رضي الله عنه .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٥٢/٨) ، وفيه : (مخافة الربا) .

وكانَ بعضُهُم يأخذُ ما يأخذُ بنقصانِ حبَّةٍ ، ويعطي ما يعطي بزيادةِ حبَّةٍ .

ولذٰلكَ أخذَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ بأنفِهِ حذراً مِنْ ريحِ المِسكِ الذي كانَ يُوزَنُ بينَ يديهِ لبيتِ المالِ ، وقالَ لمَّا سُئِلَ عن ذٰلكَ : (وهل يُنتفَعُ إلَّا بريحِهِ ؟!)[1] .

ومِنْ ذٰلكَ : أن يَتورَّعَ عنِ الزِّينةِ وأكلِ الشَّهواتِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ تجمحَ النَّفْسُ فتدعوَهُ إلى الشَّهواتِ المحظورةِ .

ومِنْ ذٰلكَ : تركُ النَّظرِ إلىٰ تجمُّلِ أهلِ الدُّنيا ، فإنَّهُ يُحرِّكُ دواعيَ الرَّغبةِ في الدُّنيا ؛ ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴿١٣١﴾ ﴾ .

ولذٰلكَ قالَ عيسى ابنُ مريمَ عليهِ السَّلامُ : (لا تنظروا إلىٰ أموالِ أهلِ الدُّنيا ؛ فإنَّ بريقَ أموالِهِم يَذهَبُ بحلاوةِ إيمانِكُم)[2] .

ولذٰلكَ قالَ السَّلفُ : (مَنْ رَقَّ ثوبُهُ . . رَقَّ دينُهُ)[3] .

والحلالُ الطَّلْقُ الطَّيِّبُ : كلُّ حلالٍ انفكَّ عن مثلِ هٰذهِ المخافةِ ، ولم تُوجَدْ فيهِ آفةٌ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٣٢٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٨/٦٤) .

(٢) كذا ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/٢٦٢) .

(٣) رواه الدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (٢/٨٠) عن أبي العزير المليكي ، **والمقصود** : أن رقة الثوب دليل التنعم والتبسط في الدنيا ، إن جاوز الحد ولم يصاحبه الشكر . . كان ذٰلك من رقة الدين ، والأمر نسبي من شخصٍ لآخر .

الرَّابعةُ : ورعُ الصِّدِّيقينَ ؛ وهوَ الحذرُ عن كلِّ ما لا يُرادُ بتناولِهِ القُوَّةُ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، أو كانَ قد تَطرَّقَ إلىٰ بعضِ أسبابِها معصيةٌ .

فمِنْ ذٰلكَ : ما حُكِيَ أنَّ ذا النُّونِ المِصريَّ كانَ محبوساً جائعاً ، فبعثَتْ إليهِ امرأةٌ صالحةٌ مِنْ طيِّبِ مالِها طعاماً علىٰ يدِ السَّجَّانِ ، فلم يأكلْ منهُ ، واعتذرَ بأنَّهُ جاءَني علىٰ طبقِ ظالمٍ ؛ أي : يدِ السَّجَّانِ (١) .

ومِنْ ذٰلكَ : أنَّ بِشْراً الحافيَ كانَ لا يشربُ الماءَ مِنَ الأنهارِ التي حفرَها السَّلاطينُ (٢) .

وأطفأَ بعضُهُم سراجاً أشعلَهُ غلامُهُ مِنْ بيتِ ظالمٍ (٣) .

وشربَ بعضُهُم دواءً ، فأشارَتْ عليهِ امرأتُهُ بالمشيِ والتَّردُّدِ ، فقالَ : (هٰذهِ مشيةٌ لا أعرفُ لها وجهاً ، وأنا أحاسبُ نفسي علىٰ جميعِ حركاتِها) (٤) .

وهٰذهِ رتبةُ أقوامٍ وَفَوا بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ

---

(١) كذا ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/١٩١) ، وكانت هٰذه المرأة عجوزاً صالحة كما حكىٰ فيه ، وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « إحياء علوم الدين » (٣/٣٧٨) : (وهٰذه الغاية القصوىٰ في الورع) .

(٢) انظر « قوت القلوب » (٢/٢٩٦) .

(٣) وهو عثمان بن زائدة ، والخبر رواه المروذي في « الورع » (٣٤٠) .

(٤) كذا أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/٢٨١) ، ورواه المروذي في « الورع » (٣٩٩) ، وصاحبه هو يحيى بن يحيىٰ ، وفيه : (وأنا أحاسب نفسي منه أربعين سنة) .

يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ، فعَدُّوا كلَّ ما لم يكنْ للهِ وحدَهُ حراماً ، وليسَ هٰذا مِنْ عُشِّكَ وعُشِّ ناصحِكَ ، فادرجْ واجتهدْ أن تفيَ بورعِ العدولِ الذي يُفتي بهِ الفقهاءُ .

نعم ؛ ينبغي أن تضيفَ إليهِ شيئينِ :

أحدُهُما : أن تحذرَ عن مواقعِ غرورِهِم ، ولا تلتفتَ إلىٰ قولِهِم : (مَنْ وهبَ في آخرِ السَّنةِ مالَهُ زوجتَهُ ، واستوهبَ منها مالَها . . سقطَتِ الزَّكاةُ عنهُما) فإنَّهُم إن عنَوا بهِ أنَّ السُّلطانَ لا يطالبُهُما بالزَّكاةِ ؛ لأنَّ مطمحَ نظرِهِ ظاهرُ المُلْكِ . . فهوَ صدقٌ .

ودرجةُ الفقهاءِ وفتواهُم ذِكرُ ما يَتعلَّقُ بالظَّواهرِ ؛ فيحكمونَ بالبراءةِ عنِ الزَّكاةِ إذا سقطَ طلبُ السَّاعي ، ويحكمونَ بصحَّةِ الصَّلاةِ إذا امتنعَ القتلُ على السُّلطانِ بجريانِ صورةِ الصَّلاةِ ؛ إذ ليسَ بأيديهِم مِنَ القوانينِ إلَّا القانونُ الذي يستعملُهُ السُّلطانُ في السِّياسةِ ؛ لينتظمَ أمرُ المعيشةِ الدُّنيويَّةِ ، التي هيَ منزلٌ مِنْ منازلِ الطَّريقِ كما سبقَ (١) .

وأمَّا أنتَ إذا كنتَ تنظرُ إلىٰ ما ينفعُكَ غداً عندَ جبَّارِ الجبابرةِ وسلطانِ السَّلاطينِ . . فلا تلتفتْ إلىٰ هٰذا .

واعلمْ : أنَّ مقصودَ الزَّكاةِ إزالةُ رذيلةِ البخلِ ؛ فإنَّهُ مُهلِكٌ ،

(١) تقدم (ص ١٠٨) .

كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « **ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوىً مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ ٱلْمَرْءِ بِنَفْسِهِ . . .** » الحديثَ[1] .

وهِبَةُ مالِ الزَّكاةِ لأجلِ دَرْءِ الزَّكاةِ تجعلُ الشُّحَّ مُطاعاً ؛ فإنَّهُ يصيرُ مُطاعاً بإجابتِهِ إلىٰ ما يقتضيهِ ، وقبلَ هـٰذا لم يكنْ مُطاعاً ، فكيفَ يكونُ ذٰلكَ منجياً ؟!

وكذٰلكَ مَنْ يسيءُ معاشرةَ زوجتِهِ حتَّىٰ تُبرِئَهُ عنِ المهرِ . . فلا يَحِلُّ لهُ المهرُ بينَهُ وبينَ اللهِ عزَّ وجلَّ **وإن كانَ الفقيهُ يفتي بسقوطِ المهرِ وصحَّةِ الإبراءِ** ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ ﴾ ، وليسَ هـٰذا طيبةَ النَّفْسِ ، بل طيبةُ القلبِ[2] ، **والفقيهُ لا يُميِّزُ بينَ الأمرينِ** ؛ لأنَّ شغفَهُ بقطعِ الخصوماتِ الظَّاهرةِ لا غيرُ .

والحجامةُ وشربُ الدَّواءِ البشعِ لا تطيبُ بهِ النَّفْسُ ، بل يطيبُ بهِ القلبُ ، وكذٰلكَ كلُّ ما يأباهُ الطَّبعُ ، ويريدُهُ العقلُ لمصلحةِ البدنِ في العاقبةِ ، وهـٰذا بابٌ طويلٌ ، وأصلُهُ : **ألَّا تَستحِلَّ مالَ غيرِكَ إلَّا برضاً مُطلَقٍ صافٍ** .

وينبغي ألَّا تأكلَ مِنَ السُّؤالِ ؛ فإن سألتَ أحداً . . فاحذرْ

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) فما كلُّ ما يطيب به القلب تطيب به النفس ، قال الإمام الرازي في « مفاتيح الغيب » (٩/١٨٢) : (بنى الشرط علىٰ طيب النفس فقال : ﴿ فَإِن طِبْنَ ۝٤ ﴾ ، ولم يقل : « فإن وهبن أو سمحن » ؛ إعلاماً بأن المراعىٰ هو تجافي نفسها عنِ الموهوب طيبة) .

أن تسألَ على الملأ ، فربَّما تُعطَىٰ بالحياءِ ، وذٰلكَ ليسَ مقروناً بالرِّضا ؛ فإنَّ المستحييَ يُؤْثِرُ ألمَ إزالةِ المُلْكِ علىٰ ألمِ الحياءِ ، ولا فرقَ بينَ أن تأخذَ مالَهُ بضربِ ظاهرِهِ بالسَّوطِ ، وبينَ أن تأخذَهُ بضربِ باطنِهِ بسوطِ الحياءِ ، فالكلُّ مُصادرةٌ .

واحذرْ أيضاً أن يُعطِيَكَ بالدِّينِ ؛ وذٰلكَ بأن يُعطِيَكَ لظنِّهِ أنَّكَ ورعٌ تقيٌّ ، فتأكلَ بالدِّينِ ، ويكونُ مِنْ شرطِ حلِّهِ : ألَّا يكونَ في باطنِكَ ما لوِ اطَّلعَ عليهِ المعطي . . لَامتنعَ مِنَ الإعطاءِ ؛ فلا فرقَ بينَ مَنْ يأخذُ بالتَّصوُّفِ والتَّقوىٰ وهوَ ليسَ مُتَّصفاً بهِ باطناً ، وبينَ مَنْ يزعمُ أنَّهُ عَلَويٌّ ليُعطَىٰ وهوَ كاذبٌ ، فكلُّ ذٰلكَ حرامٌ عندَ ذوي البصائرِ ، وإن أفتى الفقيهُ بالحِلِّ بناءً على الظَّاهرِ .

الفنُّ الثَّاني : أن تراجعَ قلبَكَ وإن أفتَوكَ ؛ فإنَّ الإثمَ حوَازُّ القلوبِ [١] ، فالذي يضرُّكَ ما حاكَ في قلبِكَ ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ » [٢] ، وهٰذا السِّرُّ يطولُ ذِكرُهُ .

ولٰكنِ اعلمْ على الجملةِ : أنَّ المحذورَ مِنَ الحرامِ إظلامُ القلبِ ،

(١) حوازُّ القلوب : هي الأمور التي تؤثر في القلوب ، فيكون الإثم كالران عليها ، ورواه شمر بتشديد الواو ؛ أي : يحوزها ويتملكها ويغلب عليها ، ويروىٰ (حزَّاز) بزايين ؛ وهو صيغة مبالغة من اسم الفاعل .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢٢٨/٤) من حديث سيدنا وابصة بن معبد رضي الله عنه .

والمطلوبَ مِنَ الحلالِ تنويرُهُ ، وذٰلكَ يَتشعَّبُ مِنِ اعتقادِكَ ، لا مِنْ نفسِ المُعتقَدِ ؛ فمَنْ وطئَ امرأةً علىٰ ظنِّ أنَّها أجنبيَّةٌ فإذا هيَ منكوحتُهُ . . حصلَ إظلامُ القلبِ ، ولو وطئَ أجنبيَّةً علىٰ ظنِّ أنَّها زوجتُهُ . . لم يَحصُلْ .

وكذٰلكَ في النَّجاساتِ والطَّهاراتِ المُؤثِّرةِ في تنويرِ القلبِ بهمِّكَ واعتقادِكَ ؛ فما أُمِرتَ بأن تُصلِّيَ وثوبُكَ طاهرٌ ، بل أن تُصلِّيَ وأنتَ تعتقدُ أنَّهُ طاهرٌ ، **فاستشعارُ الطَّهارةِ مُؤثِّرٌ في إشراقِ القلبِ وإن لم يكنْ علىٰ وَفْقِ الحالِ** ، ولذٰلكَ نقولُ : إنَّ مَنْ صلَّىٰ ثمَّ تذكَّرَ أنَّهُ كانَ معَهُ نجاسةٌ . . فليسَ عليهِ الإعادةُ على الأصحِّ [1] ؛ لأنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خلعَ نعليهِ في أثناءِ صلاتِهِ لمَّا أخبرَهُ جبريلُ عليهِ السَّلامُ بأنَّ عليهِما قذراً ، واستمرَّ فيها [2] .

ولذٰلكَ يُشدَّدُ الأمرُ على المُوَسْوِسِ ؛ فإنَّهُ ما لم يَطمئِنَّ قلبُهُ باعتقادِ الطَّهارةِ . . فيجبُ عليهِ الاستقصاءُ والمعاودةُ ، وأولٰئكَ قومٌ شدَّدوا علىٰ أنفسِهِم فشدَّدَ اللهُ عليهِم ، وهلكوا باستقصائِهِم ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « **هَلَكَ ٱلْمُتَنَطِّعُونَ** » [3] ، فكذٰلكَ

(١) وهو قول الإمام الشافعي في القديم ، وانظر « نهاية المطلب » (٢/٢٩٦) .

(٢) رواه أبو داوود (٦٥٠) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) رواه مسلم (٢٦٧٠) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

وروى القشيري في « رسالته » (ص ٢١٩) أنه دخل يوماً من الأيام فقير ، فقال للشيخ أبي عبد الله بن خفيف : بي وسوسةٌ ، فقال الشيخ : (**عهدي بالصوفية يسخرون من الشيطان ، والآن الشيطان يسخرُ منهم !!**) .

وذُكر عن بعض السلف رحمه الله تعالىٰ : أنه رأىٰ رجلاً يصلي في مسجدٍ وكان يُوسوِس في ←

في الحلالِ أنتَ مُتعبَّدٌ بما يَطمئِنُّ إليهِ قلبُكَ ، لا بما يُفتي بهِ المفتي ، فاستفتِ قلبَكَ وإن أفتَوكَ .

فَصْلٌ

[في الأموالِ المُشتبِهةِ ، وحكمِها]

إيَّاكَ أن تُشدِّدَ علىٰ نفسِكَ فتقولَ : أموالُ الدُّنيا كلُّها حرامٌ !! وقد أخبثَتْها الأيدي العاديَةُ ، والمعاملاتُ الفاسدةُ ، فأقنعُ بالحشيشِ مُترهِّباً ، أو أتناولُ مِنَ الجميعِ مُتوسِّعاً ، لا أُفصِّلُ فيهِ بينَ حلالٍ وحرامٍ !!

بلِ اعلمْ قطعاً : أنَّ الحلالَ بيِّنٌ ، والحرامَ بيِّنٌ ، وبينَهُما أمورٌ متشابهاتٌ ، كذٰلكَ كانَ في عصرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وكذٰلكَ يكونُ أبدَ الدَّهرِ .

فاستمِدَّ مِنَ السِّرِّ الذي ذكرناهُ[١] ؛ فإنَّكَ غيرُ مُتعبَّدٍ بما هوَ في نفسِهِ حلالٌ ، بل بما هوَ في اعتقادِكَ حلالٌ لا تعرفُ سبباً ظاهراً في تحريمِهِ ؛ فقد توضَّأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ مَزادةِ مُشرِكةٍ[٢] ، وتوضَّأَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ مِنْ جرَّةِ

← تكبيرة الإحرام ، فقال له : (إذا أردت أن تُوسوِس . . فوسوس مثل صاحب هٰذا المسجد) فقال : وما كانت وسوسة صاحب المسجد ؟ فقال : (إن الذي بنىٰ هٰذا المسجد رجلٌ من الصالحين وكان يدفع زكاة ماله أكثر من مرة بالسنة الواحدة ؛ لوسوسته : هل دفعها أم لا !! فافعل مثله) .

(١) المذكور قريباً (ص ١٥٥) في أن العمدة هو ما تعتقده ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

(٢) رواه ضمن خبر طويل ـ فيه ذكر معجزته صلى الله عليه وسلم بتكثير الماء ـ البخاريُّ ←

نصرانيَّةٍ[1] ، ولو عطِشوا . . لشربوا منهُ ، وشربُ الماءِ النَّجِسِ حرامٌ ، ولٰكنِ استصحَبوا يقينَ الطَّهارةِ[2] ، ولم يتركوها لتوهُّمِ النَّجاسةِ .

وكذٰلكَ كلُّ مالٍ صادفتَهُ في يدِ رجلٍ مجهولٍ عندَكَ حالُهُ . . فلكَ أن تشتريَ منهُ ، وتأكلَ مِنْ ضيافتِهِ ؛ تحسيناً للظَّنِّ بالمسلمِ ، فإنَّ الأصلَ أنَّ ما في يدِهِ فهوَ حلالٌ ، وما تصادفُهُ في يدِ رجلٍ عرفتَهُ بالصَّلاحِ . . فهوَ أولىٰ بأن تعتقدَهُ حلالاً .

نعم ؛ يجبُ الحذرُ ممَّا تُصادِفُهُ في يدِ سلطانٍ ظالمٍ ، أو في يدِ رجلٍ عرفتَهُ بالرِّبا أو بيعِ الخمرِ ؛ فيجبُ الحذرُ منهُ حتَّىٰ تسألَ وتستقصيَ ، وتعرفَ أنَّهُ مِنْ أينَ حصلَ لهُ ذٰلكَ ؛ فإن ظهرَ لكَ جهةُ حصولِهِ وأنَّهُ حلالٌ . . فلكَ أخذُهُ ، وإلَّا . . فالاعتمادُ على العلامةِ الظَّاهرةِ ، وهيَ قرينةُ حالِهِ .

وهٰذا إذا كانَ أكثرُ أموالِهِ حراماً ، فإن كانَ أكثرُها حلالاً . . فلكَ أن تأكلَ منهُ ، وإن تركتَهُ . . فذٰلكَ ورعٌ ؛ فقد كتبَ بعضُ وُكَلاءِ ابنِ المباركِ مِنَ البصرةِ إليهِ يسألُهُ عن معاملةِ رجلٍ يُعامِلُ السُّلطانَ ، فقالَ : (إن كانَ لا يُعامِلُ غيرَ السُّلطانِ . .

← (٣٤٤) ، ومسلم (٦٨٢) من حديث سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما ، وكان قد أصاب واحداً من القوم جنابةٌ ، فأعطىٰ صلى الله عليه وسلم الذي أصابته الجنابة إناءً من ماء هٰذه المشركة فقال له : « اذهب فافرغه عليك » ، وانظر « المجموع » للإمام النووي (١/٣٢٥) .

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبير » (١/٣٢) برقم (١٣٠) .

(٢) عنون في هامش (د) : (عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالاستصحاب) .

فلا تُعامِلْهُ ، وإن كانَ يُعامِلُ غيرَهُ أيضاً . . فعامِلْهُ)[1] .

وبالجملةِ : النَّاسُ في حقِّكَ ستَّةُ أقسامٍ :

أحدُها : أن يكونَ مجهولاً ؛ فكُلْ مِنْ مالِهِ ، والحذرُ ليسَ بواجبٍ ، بل هوَ محضُ الورعِ .

الثَّاني : أن تعرفَهُ بالصَّلاحِ والخيرِ ؛ فكُلْ منهُ ولا تَتورَّعْ ؛ فالورعُ فيهِ وسوسةٌ ، فإن أدَّىٰ إلى الإيذاءِ والإيحاشِ . . فهوَ معصيةٌ وحرامٌ ؛ لِمَا فيهِ مِنَ الإيذاءِ ، ولِمَا فيهِ مِنْ سوءِ الظَّنِّ بالرَّجلِ الصَّالحِ .

الثَّالثُ : أن تعرفَهُ بالظُّلمِ والرِّبا ، حتَّىٰ علمتَ أنَّ كلَّ مالِهِ أو أكثرَهُ حرامٌ ؛ كالسَّلاطينِ الظَّلَمةِ وغيرِهِم ، فمالُهُم حرامٌ .

الرَّابعُ : أن تعرفَ أنَّ أكثرَ أموالِهِ حلالٌ ، ولٰكنْ لا يخلو عن حرامٍ ؛ كرجلٍ لهُ تجارةٌ وميراثٌ ، وهوَ معَ ذٰلكَ في عملِ السُّلطانِ ، فلكَ الأخذُ بالأغلبِ ، لٰكنِ التَّركُ مِنَ الورعِ المُهمِّ .

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/٢٧٢) .

الخامسُ : أن يكونَ مجهولاً عندَكَ ، لٰكنْ ترىٰ عليهِ علامةَ الظُّلمِ ؛ كالقَباءِ والقَلَنْسُوَةِ وهيئةِ الأتراكِ والظَّلَمةِ[1] ، فهٰذهِ علامةٌ ظاهرةٌ تُوجِبُ الحَذَرَ ، فلا تأكلْ مِنْ مالِهِ إلَّا بعدَ التَّفتيشِ .

السَّادسُ : أن ترىٰ عليهِ علامةَ الفسقِ لا علامةَ الظُّلمِ ؛ كطُولِ الشَّاربِ ، وانقسامِ شعرِ الرَّأسِ قَزَعاً[2] ، أو رأيتَهُ يَشتِمُ غيرَهُ ، أو ينظرُ إلى امرأةٍ ليسَتْ لهُ بمَحرَمٍ ؛ فإن علمتَ لهُ مالاً موروثاً أو تجارةً . . لم يحرمْ مالُهُ بذٰلكَ ، وإن كانَ أمرُهُ مجهولاً عندَكَ . . فهٰذا فيه نظرٌ ؛ لأنَّ علامةَ الفسقِ أضعفُ دلالةً مِنْ علامةِ الظُّلمِ ، ولٰكنَّ الأظهرَ عندي أنَّهُ لا يحرُمُ مالُهُ ؛ لأنَّ ظاهرَ اليدِ والإسلامِ يدلُّ على المُلْكِ دلالةً أظهرَ مِنْ دلالةِ هٰذهِ العلامةِ على التَّحريمِ ، وليسَتْ هٰذهِ الدَّلالةُ أقوىٰ مِنْ دلالةِ النَّصرانيَّةِ والمجوسيَّةِ علىٰ نجاسةِ الماءِ ، ولم يلتفتْ إليها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولا عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ .

أمَّا علامةُ الظُّلمِ . . فتضاهي ما إذا رأينا ظبيةً تبولُ في ماءٍ ، ثمَّ وجدنا الماءَ مُتغيِّراً ، وأمكنَ أن يكونَ مِنْ طُولِ المُكْثِ ، وأمكنَ أن يكونَ مِنَ البولِ ؛ فإنَّه يجبُ اجتنابُهُ ؛ إحالةً على السَّببِ الظَّاهرِ .

---

(١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب ، والقلنسوة : لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال .
(٢) القزع : حلق بعض الرأس دون بعض ، والحلق : إزالة الشعر من أصله ، لا التقصير فقط .

ثمَّ وراءَ هٰذا كلِّهِ يجبُ عليهِ أن يستفتيَ قلبَهُ ، فإذا وجدَ في قلبِهِ حزازةً . . فليجتنبْهُ ؛ فالإثمُ حوَازُّ القلوبِ[1] ، وحكَّاكاتُ الصُّدورِ .

ولٰكنْ ها هنا دقيقةٌ يغفلُ عنها أهلُ الورعِ ؛ وهيَ أنَّهُ حيثُ يكونُ التَّركُ مِنَ الورعِ أو مِنْ حزازةٍ في النَّفسِ . . فلا يجوزُ التَّركُ أوِ السُّؤالُ بحيثُ يؤذي ، فالمجهولُ إذا قَدَّمَ إليكَ طعاماً ؛ فإن سألتَهُ : أنَّهُ مِنْ أينَ . . استوحشَ وتأذَّىٰ ، والإيذاءُ حرامٌ ، وسوءُ الظَّنِّ حرامٌ ، وإن سألتَ عنهُ غيرَهُ بحيثُ يدري . . زادَ الإيذاءُ ، وإن سألتَ بحيثُ لا يدري . . فقد تجسَّستَ وأسأتَ الظَّنَّ ، وبعضُ الظَّنِّ إثمٌ ، وتساهلتَ بالغِيبةِ والتُّهَمَةِ ، وكلُّ ذٰلكَ حرامٌ ، وتركُ الورعِ ليسَ بحرامٍ ، فليسَ لكَ إلَّا التَّلطُّفُ بالتَّركِ .

فإن لم يُمكِنْ إلَّا بالإيذاءِ . . فعليكَ أن تأكلَ ؛ فإنَّ طِيبةَ قلبِ المسلمِ وصيانتَهُ عنِ الأذىٰ أهمُّ مِنَ الورعِ ، فإيَّاكَ أن تكونَ مِنَ القُرَّاءِ المغرورينَ الذينَ لا يدركونَ دقائقَ الورعِ .

واعلمْ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أكلَ مِنْ صدقةِ

(١) تقدم بيان معنىٰ (حواز) قريباً (ص ١٥٤) .

بريرةَ ولم يسألْ عنِ المُتصدّقِ [١] ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تُحمَلُ إليهِ الهدايا فيقبلُ ولا يسألُ [٢] .

نعم ؛ يسألُ في أوَّلِ قدومِهِ إلى المدينةِ عمَّا حُمِلَ إليهِ أنَّهُ هديَّةٌ أو صدقةٌ [٣] ؛ لأنَّ ذٰلكَ ليسَ فيهِ إيذاءٌ ، ولأنَّ قرينةَ الحالِ كانَتْ تقتضي الإمكانَ في الصَّدقةِ والهديَّةِ علىٰ وَتِيرةٍ واحدةٍ .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُدعىٰ إلى الضِّيافاتِ فيجيبُ ولا يسألُ ، ولم يُنقَلِ السُّؤالُ إلَّا نادراً في محلِّ الرِّيبةِ [٤] .

فإن قلتَ : فإن وقعَ طعامٌ حرامٌ في سوقٍ . . فهل أشتري مِنْ ذٰلكَ السُّوقِ ؟

فأقولُ : إن تحقَّقتَ أنَّ الحرامَ هوَ الأكثرُ . . فلا تشترِ منهُ إلَّا بعدَ التَّفتيشِ ، وإن علمتَ أنَّ الحرامَ كثيرٌ وليسَ بالأكثرِ . . فلكَ

---

(١) روى البخاري (١٤٩٣) ، ومسلم (١٠٧٥) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها : « . . . هو لها صدقة ، ولنا هدية » .

(٢) روى البخاري (٢٥٨٥) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها) ، قال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٢٣٦/٥) : (وظاهر الإطلاق : أنه كان يقبلها من المؤمن والكافر ، وفي السير : أنه قبل هدية المقوقس وغيره من الملوك) .

(٣) كما روى البخاري (٢٥٧٦) ، ومسلم (١٠٧٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) روىٰ مالك في « الموطأ » (٩١٠/٢) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم سأل عن جِزْوِ قِثَّاء (صغار العجُّور أو الخيار ونحوهما) فقال : « من أين لكم هٰذا ؟ » .

الشِّراءُ ، والتَّفتيشُ مِنَ الورعِ ، ولقد كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ رضيَ اللهُ عنهُم يشترونَ في أسفارِهِم مِنَ الأسواقِ ، معَ علمِهِم بأنَّ فيهِم أهلَ الرِّبا والغَصبِ وأهلَ الغُلولِ في الغنيمةِ ، وكانوا لا يتركونَ المعاملةَ معَهُم .

وهٰذا البابُ يستدعي شرحاً طويلاً ، فإن رغبتَ فيه . . فطالعْ (كتابَ الحلالِ والحرامِ) مِنْ كتبِ « الإحياءِ »[1] ؛ لتشهدَ عندَ مطالعتِهِ بأنَّهُ لم يُصنَّفْ في فنِّهِ مثلُهُ في التَّحقيقِ والتَّحصيلِ ، والإحاطةِ بجميعِ التَّفاصيلِ .

* * *

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣٤٣) وما بعدها .

الأصل الثّامن
في القيام بحقوق المسلمين، وحسن الصّحبة معهم

وهوَ ركنٌ مِنْ أركانِ الدِّينِ ؛ إذِ الدِّينُ معناهُ السَّفَرُ إلى اللهِ تعالىٰ ، ومِنْ أركانِ السَّفَرِ حسنُ الصُّحبةِ في منازلِ السَّفَرِ معَ المسافرينَ ، والخَلْقُ كلُّهم سَفْرٌ[١] ، يسيرُ بهِمُ العمرُ سيرَ السَّفينةِ براكبِها .

واعلمْ : أنَّ الإنسانَ في الدُّنيا إمَّا أن يكونَ وحدَهُ ، أو معَ خواصِّهِ مِنْ أهلٍ وولدٍ وقريبٍ وجارٍ ، أو يكونَ معَ عمومِ الخَلْقِ ، **فهٰذِهِ ثلاثةُ أحوالٍ ، وعليهِ حسنُ الصُّحبةِ وأداءُ الحقوقِ في جميعِ هٰذهِ الأحوالِ .**

الحالةُ الأُولىٰ : أن يكونَ وحدَهُ ، ولْيَعلَمْ أنَّهُ بنفسِهِ عالَمٌ ، وأنَّ باطنَهُ يشتملُ علىٰ أصنافٍ مِنَ الخَلْقِ مختلفِي الطَّبائعِ والأخلاقِ ، فإن لم يُحسِنْ صحبتَهُم ، ولم يقمْ بحقوقِهِم . . هلكَ .

وأصنافُ جنودِ الباطنِ كثيرةٌ ؛ ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، [٧٤/٣١]

---
(١) السَّفْر : المسافرون .

وقدِ استقصينا بعضَهُ في (كتابِ عجائبِ القلبِ) مِنْ كتبِ « الإحياءِ »[1] .

ونذكرُ الآنَ أمراءَ الجنودِ ورؤوسَها ؛ فنقولُ : فيكَ شهوةٌ تَجذِبُ بها إلىٰ نفسِكَ النَّافعَ ، وغضبٌ تدفعُ بهِ عن نفسِكَ الضَّارَّ ، وعقلٌ تُدبِّرُ بهِ الأمورَ ، وترعىٰ بهِ الرَّعيَّةَ .

وأنتَ باعتبارِ غضبِكَ كلبٌ عقورٌ ، وباعتبارِ شهوتِكَ بهيمةٌ ؛ كالفَرَسِ مثلاً ، وباعتبارِ عقلِكَ مَلِكٌ ، وأنتَ مأمورٌ بالعدلِ بينَهُم ، والقيامِ بحقوقِهِم ، والاستعانةِ بهِم ؛ لتقتنصَ بمعونتِهِم سعادةَ الأبدِ .

فإن رُضتَ الفَرَسَ ، وأدَّبتَ الكلبَ ، وسخَّرتَهُما للمَلِكِ . . تيسَّرَ لكَ الظَّفَرُ بما طلبتَ .

وإن سخَّرتَ العقلَ في استنباطِ الحيلِ لتحصيلِ ما يتقاضاهُ الكلبُ بغضبِهِ ولَجاجِهِ ، والفَرَسُ بحرصِهِ وجشعِهِ . . أوفيتَ على العطبِ ، فضلاً عن إدراكِ مقصودِ الطَّلبِ ، فصرتَ منكوساً معكوساً ، فاجراً ظالماً ؛ لأنَّ الظُّلمَ وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِهِ .

ولو رأيتَ شخصاً جُعِلَ في طاعتِهِ مَلِكٌ وكلبٌ وخنزيرٌ ، فلم يزلْ يَضطرُّ المَلِكَ إلىٰ أن يسجدَ للكلبِ والخنزيرِ . . فهل تراهُ ظالماً مُستوجِباً للَّعنةِ ؟!

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٢١/٥) .

ولو كُوشِفتَ بحالِكَ عندَ منامِكَ ، أو عندَ فَنائِكَ عن نفسِكَ ؛ كما وصفناهُ في الاستغراقِ باللهِ عزَّ وجلَّ . . لرأيتَ كلَّ مَنْ أطاعَ شهوتَهُ وغضبَهُ ساجداً لكلبٍ أو خنزيرٍ ؛ إذ لم يكنِ الكلبُ كلباً لصورتِهِ ، بل لمعناهُ ، وكذٰلكَ ترىٰ نفسَكَ بعدَ الموتِ ؛ لأنَّ المعانيَ في عالَمِ الآخرةِ تستتبعُ الصُّورَ ولا تتبعُها ، فيتمثَّلُ كلُّ شيءٍ بصورةٍ توازي معناهُ ، فيُحشَرُ المُتكبِّرونَ في صورةِ الذَّرِّ ، يَطؤُهُم مَنْ أقبلَ وأدبرَ[1] ، والمتواضعونَ أعزَّاءَ .

وأمَّا هٰذا العالَمُ . . فعالَمُ التَّلبيسِ ؛ فقد يُودَعُ معنى الخنزيرِ والكلبِ في صورةِ إنسانٍ ، فلا تغترَّ بهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ ينكشفُ يومَ تُبلى السَّرائرُ .

فعليكَ أن تُحسِنَ صحبةَ رُفقائِكَ الثَّلاثةِ ، فتكسرَ شَرَهَ الشَّهوةِ بسطوةِ الغضبِ ، وتُقِلَّ مِنْ غُلَوَاءِ الغضبِ بخداعِ الشَّهوةِ ، وتُسلِّطَ أحدَهُما على الآخَرِ ، فإنَّ ذٰلكَ بليغٌ جدّاً في تقويمِهِما ، حتَّىٰ ينقادا للعقلِ والشَّرعِ ، فيستعملَهُما العقلُ بحيثُ ينتفعُ بهِما ؛ كما يستعملُ الصَّائدُ الفَرَسَ والكلبَ عندَ الحاجةِ ، ويُسكِنُهُما عندَ الاستغناءِ .

وشرحُ هٰذهِ الرِّياضةِ والصُّحبةِ طويلٌ ، ذكرناهُ في

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(كتابِ رياضةِ النَّفسِ) مِنْ كتابِ « الإحياءِ »[1] .

الحالةُ الثَّانيةُ : صحبتُكَ معَ عمومِ الخَلْقِ ، وأقلُّ درجاتِ حسنِ الصُّحبةِ : كفُّ الأذىٰ عنهُم ؛ قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ »[2] .

وفوقَ ذٰلكَ : أن تنفعَهُم وتُحسِنَ إليهِم ؛ قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ ٱللهِ ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَى ٱللهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ »[3] .

وفوقَ ذٰلكَ : أن تحتملَ الأذىٰ منهُم ، وتُحسِنَ معَ ذٰلكَ إليهِم ؛ وذٰلكَ درجةُ الصِّدِّيقينَ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَسْبِقَ ٱلصِّدِّيقِينَ . . فَصِلْ مَنْ قَطَعَكَ ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ ، وَٱعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ »[4] ، هٰذهِ جملةُ الأمرِ .

وتفصيلُ هٰذهِ الحقوقِ كثيرةٌ ، ونقتصرُ مِنْ جملتِها علىٰ عشرينَ وظيفةً .

فمنها : ألَّا يحبَّ للنَّاسِ إلَّا ما يحبُّ لنفسِهِ .

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٥/١٧٣) .

(٢) رواه البخاري (١٠) ، ومسلم (٤٠) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠/٨٦) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٤) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٥٥٦٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٢١) .

قَالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ ٱلنَّارِ . . فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ ٱللهِ ، وَلْيَأْتِ إِلَى ٱلنَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ »[١] .

ومنها : أن يتواضعَ لكلِّ أحدٍ ولا يفتخرَ عليهِ ؛ فإنَّ اللهَ لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ ، وإن تكبَّرَ عليهِ غيرُهُ . . فليَحتمِلْ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ .

ومنها : أن يُوقِّرَ المشايخَ ويَرحَمَ الصِّبيانَ .

قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا ، وَلَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ إِجْلَالِ ٱللهِ تَعَالَىٰ إِكْرَامُ ذِي ٱلشَّيْبَةِ ٱلْمُسْلِمِ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا وَقَّرَ شَابٌّ شَيْخاً لِسِنِّهِ . . إِلَّا قَيَّضَ ٱللهُ لَهُ عِنْدَ سِنِّهِ مَنْ يُوَقِّرُهُ »[٤] ، وهـٰذا يُبشِّرُ بطُولِ الحياةِ معَ الأجرِ .

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤) والطبراني في « الأوسط » (٤٧٣٨) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٠٤) ، والترمذي (١٩٢٠) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، والترمذي (١٩١٩) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه واللفظ له .

(٣) رواه أبو داوود (٤٨١٠) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٤) رواه الترمذي (٢٠٢٢) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه بنحوه .

ومنها : أن يكونَ معَ كافَّةِ الخَلْقِ مُستبشِراً طَلْقَ الوجهِ .

قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَتَدْرُونَ عَلَىٰ مَنْ حُرِّمَتِ ٱلنَّارُ ؟ » ، قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « عَلَى ٱلْهَيِّنِ ٱللَّيِّنِ ، ٱلسَّهْلِ ٱلْقَرِيبِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ ٱلسَّهْلَ ٱلطَّلْقَ »(٢) .

ومنها : إصلاحُ ذاتِ البينِ بينَ المسلمينَ ولو بالمبالغةِ والزِّيادةِ في الكلامِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ ٱلِاثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْراً ، أَوْ نَمَىٰ خَيْراً »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ ٱلصِّيَامِ وَٱلصَّلَاةِ وَٱلصَّدَقَةِ ؟ » ، قالوا : بلىٰ يا رسولَ اللهِ .

قالَ : « إِصْلَاحُ ذَاتِ ٱلْبَيْنِ ، وَفَسَادُ ذَاتِ ٱلْبَيْنِ هِيَ ٱلْحَالِقَةُ »(٤) .

ومنها : أَلَّا تسمعَ بلاغاتِ النَّاسِ بعضِهِم علىٰ بعضٍ ، ولا تُبلِّغَ بعضَهُم ما تسمَعُ مِنْ بعضٍ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٨) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٣٥٢/٢٠) من حديث سيدنا معيقيب رضي الله عنه ، واللفظ له .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٦٩٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٢٦٩٢) ، ومسلم (٢٦٠٥) من حديث أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها .

(٤) رواه الترمذي (٢٥٠٩) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا يَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ قَتَّاتٌ »[1] .

وقيلَ : (مَنْ نمَّ إليكَ . . نمَّ عليكَ)[2] .

ومنها : ألَّا يزيدَ في الهجرةِ عندَ الوَحشةِ علىٰ ثلاثةِ أيَّامٍ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَن يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَقَالَ مُسْلِماً عَثْرَتَهُ . . أَقَالَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[4] .

ومنها : أن يُحسِنَ إلىٰ كلِّ أحدٍ ، كانَ أهلاً لذٰلكَ أو لم يكنْ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱصْنَعِ ٱلْمَعْرُوفَ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَهْلُهُ ، وَإِلَىٰ مَنْ لَيْسَ أَهْلَهُ ، فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ . . فَهُوَ أَهْلُهُ ، وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ . . فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ »[5] .

ومنها : أن تُخالِقَ كلَّ صنفٍ بأخلاقِهِم ؛ فلا تَلتمِسْ مِنَ الجاهلِ والغبيِّ ما تَلتمِسُ مِنَ الوَرِعِ العالِمِ .

قالَ داوودُ صلواتُ اللهِ عليهِ : (إلٰهي ؛ كيفَ لي أن يُحبَّنيَ

---

(١) رواه البخاري (٦٠٥٦) ، ومسلم (١٠٥) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه ، والقتَّات : النمَّام ؛ وهو الذي يكشف ما يكره كشفه تصريحاً أو كناية .
(٢) رواه السلمي في « آداب الصحبة » (١٢١) عن الخليل بن أحمد رحمه الله تعالىٰ .
(٣) رواه البخاري (٦٠٦٥) ، ومسلم (٢٥٥٨) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .
(٤) رواه أبو داوود (٣٤٥٤) ، وابن ماجه (٢٣٠٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) رواه السلمي في « آداب الصحبة » (١٣٨) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه .

النَّاسُ وأسلمَ فيما بيني وبينَكَ ؟ فأوحى اللهُ سبحانَهُ إليهِ : خالِقْ أهلَ الدُّنيا بأخلاقِ الدُّنيا ، وخالِقْ أهلَ الآخرةِ بأخلاقِ الآخرةِ)[1] .

ومنها : أن تُنزِلَ النَّاسَ منازِلَهُم ؛ فتزيدَ في إكرامِ ذي المنزلةِ وإن كانَتْ منزلتُهُ في الدُّنيا .

فإنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بسطَ رداءَهُ لبعضِهِم وقالَ : « إِذَا جَاءَكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ . . فَأَكْرِمُوهُ »[2] .

ومنها : أنْ تسترَ عوراتِ المسلمينَ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا يَرَى ٱمْرُؤٌ مِنْ أَخِيهِ عَوْرَةً فَيَسْتُرَهَا عَلَيْهِ . . إِلَّا دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ ؛ لَا تَغْتَابُوا ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَلَا تَتَبَّعُوا عَوْرَاتِهِمْ ؛ فَإِنَّ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ ٱلْمُسْلِمِ . . تَتَبَّعَ ٱللهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ تَتَبَّعَ ٱللهُ عَوْرَتَهُ . . يَفْضَحُهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ »[4] .

---

(١) أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/٢١٤) ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٤٣) .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٦٥) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما مختصراً ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٢٩١) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه ، والذي ألقىٰ له رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءَه ـ وليس فيه ذكر البسط ـ هو سيدنا جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه .

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٧/٢٨٨) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه .

(٤) رواه أبو داوود (٤٨٤٦) من حديث سيدنا أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه ، والترمذي (٢٠٣٢) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

ومنها : أن تتَّقيَ مواضعَ التُّهَمِ ؛ صيانةً لقلوبِ النَّاسِ عن سوءِ الظَّنِّ ، وألسنتِهِم عنِ الغِيبةِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱتَّقُوا مَوَاضِعَ ٱلتُّهَمِ »(١) .

وكلَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إحدىٰ نسائِهِ ، فمرَّ بهِ رجلٌ فسلَّمَ عليهِ ، فلمَّا مرَّ . . دعاهُ فقالَ : « يَا فُلَانُ ؛ هَـٰذِهِ زَوْجَتِي صَفِيَّةُ » ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ كنتُ أظنُّ فيهِ . . فإنِّي لا أظنُّ فيكَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ٱبنِ آدَمَ مَجْرَى ٱلدَّمِ »(٢) .

ومنها : أن تسعىٰ في قضاءِ حوائجِ المسلمينَ ولو بشفاعةٍ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱشْفَعُوا إِلَيَّ . . تُؤْجَرُوا ؛ فَإِنِّي أُرِيدُ ٱلْأَمْرَ فَأُؤَخِّرُهُ كَيْ تَشْفَعُوا إِلَيَّ فَتُؤْجَرُوا »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ مَشَىٰ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ سَاعَةً مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، قَضَاهَا أَوْ لَمْ يَقْضِهَا . . كَانَ خَيْراً لَهُ مِنِ ٱعْتِكَافِ شَهْرَيْنِ »(٤) .

---

(١) روى ابن عدي في « الكامل » (١٥٢/٧) عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه وضع للناس حكماً ؛ منها : (ومن عرض نفسه للتهم . . فلا يلومن من أساء به الظن) ، وروى الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٧٧) عنه أيضاً : (من أقام نفسه مُقام التهمة . . فلا يلومن من أساء به الظن) ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (٢٨٣/٧) .

(٢) رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٥) من حديث سيدتنا صفية رضي الله عنها .

(٣) رواه أبو داوود (٣٣٧/٥) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٢٣٤٩) من حديث سيدنا معاوية رضي الله عنه .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢٦٩/٤) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ضمن خبر طويل .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قِيَامُكَ مَعَ أَخِيكَ سَاعَةً . . خَيْرٌ مِنِ ٱعْتِكَافِكَ سَنَةً »(١) .

ومنها : أن يُبادِرَ بالسَّلامِ علىٰ كلِّ مسلمٍ ويصافحَهُ ليكونَ لهُ فضلُ البدايةِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا ٱلْتَقَى ٱلْمُسْلِمَانِ فَتَصَافَحَا . . قُسِمَتْ بَيْنَهُمَا سَبْعُونَ رَحْمَةً ؛ تِسْعٌ وَسِتُّونَ لِأَحْسَنِهِمَا بِشْراً »(٢) .

ومنها : أن ينصرَ أخاهُ في غَيبتِهِ ، فيردَّ عن عِرضِهِ ومالِهِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا مِنِ ٱمْرِئٍ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ مُسْلِماً فِي مَوْضِعٍ يُهْتَكُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ ، وَتُسْتَحَلُّ حُرْمَتُهُ . . إِلَّا نَصَرَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ فِي مَوْضِعٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ يَخْذُلُ مُسْلِماً فِي مَوْضِعٍ تُهْتَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ . . إِلَّا خَذَلَهُ ٱللهُ فِي مَوْضِعٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ »(٣) .

ومنها : أن يُدارِيَ أهلَ الشَّرِّ ليَسلَمَ منهُم .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : استأذنَ رجلٌ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « ٱئْذَنُوا لَهُ ، فَبِئْسَ أَخُو ٱلْعَشِيرَةِ » ،

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٦٧٩) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « من مشىٰ في حاجة أخيه وبلغ فيها . . كان خيراً من اعتكاف عشر سنين » .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٤٨) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو داوود (٤٨٥٠) من حديث سيدنا جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري رضي الله عنهم .

فلمَّا دخلَ . . ألانَ لهُ القولَ ؛ حتَّىٰ ظننتُ أنَّ لهُ عندَهُ منزلةً ، فلمَّا خرجَ . . راجعتُهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : « يَا عَائِشَةُ ؛ إِنَّ شَرَّ ٱلنَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ ٱللهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . . مَنْ تَرَكَهُ ٱلنَّاسُ ٱتِّقَاءَ فُحْشِهِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا وَقَى ٱلْمَرْءُ بِهِ عِرْضَهُ . . فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خَالِطُوا ٱلنَّاسَ بِأَبْدَانِكُمْ ، وَزَايِلُوهُمْ بِٱلْقُلُوبِ »(٣) .

ومنها : أن يحذرَ مجالسةَ الأغنياءِ ، ويكثرَ مجالسةَ المساكينِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِيَّاكُمْ وَمُجَالَسَةَ ٱلْمَوْتَىٰ » ، قيلَ : ومَنْ هُمْ ؟ قالَ : « ٱلْأَغْنِيَاءُ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱللَّهُمَّ ؛ أَحْيِنِي مِسْكِيناً ، وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً ، وَٱحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ ٱلْمَسَاكِينِ »(٥) .

---

(١) رواه البخاري (٦٠٥٤) ، ومسلم (٢٥٩١) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه الدارقطني في « سننه » (٢٨/٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٠/٢) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه .

(٣) كذا أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢١٥/٢) ، ورواه عبد الرزاق في « مصنفه » (١٤٤/١١) موقوفاً علىٰ سيدنا عمر رضي الله عنه ، وزايل الشيء : إذا فارقه .

(٤) روى الترمذي (١٧٨٠) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أردت اللحوق بي . . فليكفك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلقي ثوباً حتىٰ ترقعيه » .

(٥) رواه الترمذي (٢٣٥٢) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه ، وابن ماجه (٤٢٨٧) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وكانَ سليمانُ عليهِ السَّلامُ إذا رأىٰ في المسجدِ مسكيناً . . جلسَ إليهِ وقالَ : مسكينٌ جالسَ مسكيناً .

وقالَ موسىٰ عليهِ السَّلامُ : (إلٰهي ؛ أينَ أطلبُكَ ؟ قالَ : عندَ المنكسرةِ قلوبُهُم مِنْ أجلي) .

ومنها : أَلَّا يُجالِسَ إلَّا مَنْ يفيدُهُ في الدِّينِ فائدةً ، أو مَنْ يستفيدُ منهُ ، فأمَّا أهلُ الغفلةِ . . فيحذرُ منهُم .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْوَحْدَةُ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ ٱلسُّوءِ ، وَٱلْجَلِيسُ ٱلصَّالِحُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْوَحْدَةِ »[١] .

فإذا أكثرَ مِنْ مجالسةِ أهلِ الغفلةِ . . فيَنتقِصُ مِنْ دينِهِ بكلِّ جَلسةٍ شيءٌ ، فليُقدِّرْ أنَّ كلَّ واحدٍ منهُم لو كانَ يأخذُ منهُ في كلِّ جَلسةٍ سِلكاً مِنْ ثوبِهِ ، أو شعرةً مِنْ شَعرِ لحيتِهِ . . أمَا كانَ يحذرُهُ ؛ خيفةَ أن يصيرَ على القربِ أمردَ عارياً ؟! فالحذرُ لأجلِ الدِّينِ أَولىٰ .

ومنها : أن يعودَ مريضَهُم ، ويُشيِّعَ جنائزَهُم ، ويزورَ قبورَهُم ، ويدعوَ لهُم في الغَيبةِ ، ويُشمِّتَ العاطسَ ، ويردَّ السلامَ ، ويُنصِفَ النَّاسَ مِنْ نفسِهِ ، وينصحَ إذا استُنصِحَ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ حقوقٍ كثرَتْ فيها الأخبارُ ، آثرنا فيها الاختصارَ .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/٣٤٣) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

وجملتُها : أن تعملَ في حقِّهِم ما تحبُّ أن يُعمَلَ في حقِّكَ ؛ مِنْ إحسانٍ واهتمامٍ ، وكفِّ أذىً .

الحالةُ الثَّالثةُ : الصُّحبةُ معَ مَن يُدلِي ـ سوىٰ عمومِ الإسلامِ ـ بخاصِّيَّةٍ ؛ كجوارٍ ، أو قرابةٍ ، أو مِلكٍ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . . جَارَانِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا رَمَيْتَ كَلْبَ جَارِكَ . . فَقَدْ آذَيْتَهُ »(٢) .

وقيلَ لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلانةَ تصومُ النَّهارَ ، وتصلِّي اللَّيلَ ، وتؤذي جيرانَها ، فقالَ : « هِيَ فِي ٱلنَّارِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ ٱلْجَارِ ؟ إِنِ ٱسْتَعَانَ بِكَ . . أَعَنْتَهُ ، وَإِنِ ٱسْتَقْرَضَكَ . . أَقْرَضْتَهُ ، وَإِنِ ٱفْتَقَرَ . . جُدْتَ عَلَيْهِ ، وَإِن مَرِضَ . . عُدْتَهُ ، وَإِن مَاتَ . . ٱتَّبَعْتَ جِنَازَتَهُ ،

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٤/١٥١) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٧/٣٠٣) من حديث سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٦/٣٠٦) : (قال العراقي : لم أجد له أصلاً) ، وروى ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣٣٢) عن الحسن قال : (كان الرجل في الجاهلية يقول : والله ؛ لا يؤذىٰ كلبُ جاري) .

(٣) رواه أحمد في « مسنده » (٢/٤٤٠) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١١٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ . . هَنَّأْتَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ . . عَزَّيْتَهُ .

وَلَا تَسْتَطِيلُ عَلَيْهِ بِٱلْبِنَاءِ فَتَحْجُبَ عَنْهُ ٱلرِّيحَ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَإِذَا ٱشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً . . فَٱهْدِ لَهُ ، وَإِن لَمْ تَفْعَلْ . . فَأَدْخِلْهَا سِرّاً ، وَلَا تُخْرِجْ بِهَا وَلَدَكَ لِيَغِيظَ بِهَا وَلَدَهُ ، وَلَا تُؤْذِهِ بِقُتَارِ قِدْرِكَ إِلَّا أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا .

أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ ٱلْجَارِ ؟ وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَا يَبْلُغُ حَقَّ ٱلْجَارِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ ٱللهُ »(1) .

وأمَّا القَرابةُ : فقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قَالَ ٱللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ : أَنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ، وَهَـٰذِهِ ٱلرَّحِمُ ، شَقَقْتُ لَهَا ٱسْماً مِنِ ٱسْمِي ، فَمَنْ وَصَلَهَا . . وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا . . بَتَتُّهُ »(2) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صِلَةُ ٱلرَّحِمِ تَزِيدُ فِي ٱلْعُمُرِ »(3) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تُوجَدُ رَائِحَةُ ٱلْجَنَّةِ عَلَىٰ مَسِيرَةِ خَمْسِ مِئَةِ عَامٍ ، وَلَا يَجِدُ رِيحَهَا عَاقٌّ ، وَلَا قَاطِعُ رَحِمٍ »(4) .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٩١١٣) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .
(٢) رواه أبو داوود (١٦٩١) ، والترمذي (١٩٠٧) من حديث سيدنا عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه ، وأصله عند البخاري (٤٨٣٠) ، ومسلم (٢٥٥٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) قطعة من حديث رواه البيهقي في « الشعب » (٣١٦٨) .
(٤) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٥٦٦٠) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه ضمن خبر ، وعند البخاري (٥٩٨٤) ، ومسلم (٢٥٥٦) من حديث سيدنا جبير بن مطعم رضي الله عنه مرفوعاً : « لا يدخل الجنة قاطع » يعني : قاطع رحم .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بِرُّ ٱلْوَالِدَيْنِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلصَّلَاةِ ، وَٱلصِّيَامِ ، وَٱلْحَجِّ ، وَٱلْعُمْرَةِ ، وَٱلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بِرُّ ٱلْوَالِدَةِ عَلَى ٱلْوَالِدِ ضِعْفَانِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سَاوُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي ٱلْعَطِيَّةِ »[3] .

وأمَّا المَمْلوكُ : فقد قالَ فيهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱتَّقُوا ٱللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ؛ أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ ، وَٱكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مِنَ ٱلْعَمَلِ مَا لَا يُطِيقُونَ ؛ فَإِنَّ ٱللهَ مَلَّكَكُمْ إِيَّاهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ . . لَمَلَّكَهُمْ إِيَّاكُمْ »[4] .

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٣١٤/٦) : (قال العراقي : لم أجده هـٰكذا ، وروىٰ أبو يعلىٰ في « مسنده » [٢٧٦٠] ، والطبراني في « الصغير » [٨٠/١] ، و« الأوسط » [٢٩٣٦] من حديث أنس رضي الله عنه : أتىٰ رجلٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه ، قال : « هل بقي من والديك أحدٌ ؟ » قال : أمي ، قال : « فأبْلِ الله في برّها ؛ فإذا فعلت ذٰلك . . فأنت حاجٌّ ومعتمر ومجاهد » ، وإسناده حسن) .

(٢) روى البخاري (٥٩٧١) ، ومسلم (٢٥٤٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ من أحقُّ الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « ثم أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « ثم أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « ثم أبوك » .

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٣٥٤/١١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٧٧/٦) برقم (١٢١٢٦) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وروى البخاري (٢٥٨٧) من حديث سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما مرفوعاً : « اعدلوا بين أولادكم » .

(٤) قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٣٢٣/٦) : (قال العراقي : هو مفرَّق في عدة أحاديث . . .) ثم ذكرها ؛ فعند أبي داوود (٥١١٣) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » ، وعند البخاري (٣٠) ، ومسلم (١٦٦١) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه : « أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ؛ فإن كلفتموهم . . فأعينوهم » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا كَفَىٰ أَحَدَكُمْ مَمْلُوكُهُ طَعَاماً ، فَكَفَاهُ حَرَّهُ وَعِلَاجَهُ ، وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ . . فَلْيُجْلِسْهُ ، وَلْيَأْكُلْ مَعَهُ ، أَوْ لِيَأْخُذْ لُقْمَةً فَلْيُرَوِّغْهَا وَلْيَضَعْهَا فِي يَدِهِ ، وَلْيَقُلْ : كُلْ هَـٰذِهِ »(١) .

وسُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : كم نعفو عنِ المَمْلوكِ في اليومِ والليلةِ ؟ قالَ : « سَبْعِينَ مَرَّةً »(٢) .

فجملةُ حقِّ المَمْلوكِ : أن يُشرِكَهُ في طُعْمتِهِ وكسوتِهِ ، ولا يُكلِّفَهُ فوقَ طاقتِهِ ، ويعفوَ عن زلَّتِهِ ، ولا ينظرَ إليهِ بعينِ الكِبْرِ والازدراءِ ، ويُعلِّمَهُ مُهمَّاتِ دينِهِ .

وأمَّا حقوقُ المنكوحةِ : فتزيدُ علىٰ هـٰذا ؛ إذ يجبُ لها ـ معَ القيامِ بواجباتِها ـ حسنُ العِشْرةِ والمطايبةِ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي »(٣) .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ أفكَهِ النَّاسِ معَ نسائِهِ وأهلِهِ(٤) ، والأخبارُ في ذٰلكَ أكثرُ مِنْ أن تُحصَىٰ .

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥١٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو بنحوه عند البخاري (٢٥٥٧) ، ومسلم (١٦٦٣) ، ومعنىٰ (فليروغها) : يغمسها بالإدام ونحو ذٰلك .

(٢) رواه أبو داوود (٥١٢١) ، والترمذي (١٩٤٩) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) رواه الترمذي (٤٨٩٥) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، وابن ماجه (٢٠٧١) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٦٠) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه بلفظ : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أفكه الناس) ، وعند الطبراني في « الأوسط » (٦٣٥٧) بقيد : (مع صبي) .

فَصْلٌ

[في اتخاذِ الإخوانِ في اللهِ تعالىٰ]

مِنْ أصولِ الدِّينِ في أمرِ الصُّحبةِ . . اتِّخاذُ الإخوانِ في اللهِ تباركَ وتعالىٰ .

قالَ الله تعالىٰ لبعضِ أنبيائِهِ : (أمَّا زهدُكَ في الدُّنيا . . فقدِ استعجلتَ الرَّاحةَ ، وأمَّا انقطاعُكَ إليَّ . . فقد تعزَّزتَ بي ، فهل واليتَ فيَّ وليّاً ؟ وهل عاديتَ فيَّ عدوّاً ؟)(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَقُولُ ٱللهُ تَعَالَىٰ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ : أَيْنَ ٱلْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي ؟ ٱلْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي »(٢) .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : (لو أنَّكَ عبدتَني بعبادةِ أهلِ السَّماواتِ والأرضِ ، وحبٌّ في اللهِ ليسَ ، وبغضٌ في اللهِ ليسَ . . ما أغنىٰ عنكَ ذٰلكَ شيئاً)(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ حَوْلَ ٱلْعَرْشِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ ، عَلَيْهَا قَوْمٌ لِبَاسُهُمْ نُورٌ ، وَوُجُوهُهُمْ نُورٌ ، لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ ، يَغْبِطُهُمُ ٱلنَّبِيُّونَ وَٱلشُّهَدَاءُ » ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ حَلِّهِمْ لنا ،

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٩٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣١٧) .

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/٤٤٥) .

فقالَ : « ٱلْمُتَحَابُّونَ فِي ٱللهِ ، وَٱلْمُتَجَالِسُونَ فِي ٱللهِ ، وَٱلْمُتَزَاوِرُونَ فِي ٱللهِ »[١] .

واعلمْ : أنَّ كلَّ حُبٍّ لا يُتصوَّرُ دونَ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ . . فهوَ حبٌّ في اللهِ ، ولٰكنَّهُ علىٰ درجتينِ :

إحداهُما : أن تُحِبَّهُ لتنالَ منهُ في الدُّنيا نصيباً يُوصِلُكَ إلى الآخرةِ ؛ كحبِّكَ أستاذَكَ وشيخَكَ ، بل تلميذَكَ الذي ينمو علمُكَ بتعليمِهِ ، بل خادمَكَ الذي يُفرِّغُ قلبَكَ عن كنسِ بيتِكَ وغسلِ ثوبِكَ لتتفرَّغَ بسببِهِ لطاعةِ اللهِ تعالىٰ ، بلِ المُنفِقَ عليكَ مِنْ مالِهِ إذا كانَ غرضُكَ مِنْ ذٰلكَ فراغَ القلبِ لعبادةِ اللهِ تعالىٰ[٢] .

الثَّانيةُ ـ وهيَ أعلىٰ درجةً ـ : أن تُحِبَّهُ لأنَّهُ محبوبٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ومُحِبٌّ للهِ تعالىٰ ، وإن لم يَتعلَّقْ به غرضٌ لكَ في الدُّنيا والآخرةِ ؛ مِنْ علمٍ أو معونةٍ علىٰ دينٍ أو غيرِهِ ، وهٰذا أكملُ ؛ لأنَّ الحبَّ إذا غلبَ . . تعدَّىٰ إلىٰ كلِّ مَنْ هوَ مِنَ المحبوبِ بسببٍ ، حتَّىٰ يحبَّ الإنسانُ محبَّ محبوبِهِ ، ومحبوبَ محبوبِهِ ، بل يُميِّزُ بينَ الكلبِ الذي يكونُ في سِكَّةِ محبوبِهِ

---

(١) كذا أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/٢١٧) ، وبنحوه رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١١٧٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ومعنىٰ (حَلِّهم) : صفهم وانعتهم .

(٢) وانظر تفصيل ذٰلك في « إحياء علوم الدين » (٧/٣٤٣) .

وبينَ سائرِ الكلابِ ، وإنَّما سِرايةُ الحبِّ بقدرِ غلبةِ الحبِّ .

ومَنْ أحبَّ اللهَ . . لمْ يمكنْهُ إلَّا أن يحبَّ عبادَهُ الصالحينَ المرَضيّينَ عندَهُ ، إلَّا أنَّ ذٰلكَ قد يَقوىٰ حتَّىٰ يَحمِلَ علىٰ أن يَسلُكَ بهِم مَسلكَ نفسِهِ ، بل يُؤثرَهُم علىٰ نفسِهِ ، وقد يقصُرُ عن ذٰلكَ ، وفضلُهُم عندَهُ بقدْرِ درجتِهِ وقُوَّتِهِ .

وكذٰلكَ يُبغِضُ ـ لا محالةَ ـ مَنْ يعصيهِ ويُخالِفُ أمرَهُ ، ويُظهِرُ أثرَ ذٰلكَ في مجانبتِهِ ومهاجرتِهِ لهُ ، وتقطيبِهِ الوجهَ عندَ مشاهدتِهِ ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱللَّهُمَّ ؛ لَا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عَلَيَّ يَداً فَيُحِبَّهُ قَلْبِي »[١] ؛ حذراً مِنْ أن يقدحَ ذٰلكَ في البغضِ في اللهِ تعالىٰ .

وبالجملةِ : مَنْ لا يُصادِفُ مِنْ نفسِهِ الحبَّ في اللهِ والبغضَ في اللهِ بهٰذهِ الأسبابِ . . فهوَ ضعيفُ الإيمانِ ، وهٰذا لهُ تحقيقٌ وتفصيلٌ ؛ فاطلبْهُ مِنْ (كتابِ الصُّحبةِ والأُخوَّةِ في اللهِ تعالىٰ) مِنْ كتبِ « إحياءِ علومِ الدِّينِ »[٢] .

❊ ❊

(١) كذا أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٤٨/٢) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (١٤٨/٦) : (قال العراقي : رواه ابن مردويه في « التفسير » من رواية كثير بن عطية عن رجل لم يسم ، ورواه الديلمي في « مسند الفردوس » [٢٠١١] من حديث معاذ ، وأبو موسى المديني في كتاب « تضييع العمر والأيام » من طريق أهل البيت مرسلاً ، وأسانيده ضعيفة) .

(٢) إحياء علوم الدين (٩/٤) وما بعدها ، وقال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (لو أن رجلاً قام بين الركن والمقام يعبد الله تعالىٰ سبعين سنة . . لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب) .

الأصل التّاسع

في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴿٧١﴾ . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

وقالَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ في خُطبتِهِ : أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّكُم تقرؤونَ هٰذهِ الآيةَ ، وتُؤوِّلونَها علىٰ خلافِ تأويلِها ؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ، وإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَا مِنْ قَوْمٍ عَمِلُوا بِٱلْمَعَاصِي وَفِيهِمْ مَنْ يَقْدِرُ أَن يُنْكِرَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَفْعَلْ . . إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ ٱللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ »(١) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عُذِّبَ أَهْلُ قَرْيَةٍ فِيهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفاً ، أَعْمَالُهُمْ أَعْمَالُ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٣٣٨) ، والترمذي (٢١٦٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٠٩٢) ، وابن ماجه (٤١٦٢) .

ٱلْأَنْبِيَاءِ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ وكيفَ ذٰلكَ ؟ قالَ : « لَمْ يَكُونُوا يَغْضَبُونَ لِلّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَا يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ، وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ »(١) .

فَصْلٌ

[في بيانِ واجبِ مَنْ رأىٰ منكراً]

كلُّ مَنْ شاهدَ منكراً ولم يُنكِرْهُ وسكتَ عنهُ . . فهوَ شريكٌ فيهِ ؛ فالمستمعُ شريكُ المغتابِ ، ويجري هٰذا في جميعِ المعاصي ؛ حتَّىٰ في مجالسةِ مَنْ يلبسُ الدِّيباجَ ، ويَتختَّمُ بالذَّهبِ ، ويجلسُ على الحريرِ ، والجلوسِ في دارٍ أو حمَّامٍ علىٰ حيطانِها صورٌ ، أو فيها أوانٍ مِنْ ذهبٍ أو فضَّةٍ ، أو في الجلوسِ في مسجدٍ يسيءُ النَّاسُ الصَّلاةَ فيهِ ؛ فلا يتمُّونَ الرُّكوعَ والسُّجودَ ، أوِ الجلوسِ في مجلسِ وعظٍ يجري فيهِ ذكرُ البدعةِ ، أو في مجلسِ مناظرةٍ ومجادلةٍ يجري فيهِ الإيذاءُ والإفحاشُ بالسَّفهِ والشَّتمِ .

وبالجملةِ : مَنْ خالطَ النَّاسَ . . كثُرَتْ معاصيهِ وإن كانَ تقيّاً في نفسِهِ ، إلَّا أن يتركَ المداهنةَ ، فلا تأخذَهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ ، ويشتغلَ بالحِسْبةِ والمنعِ ، وإنَّما يسقطُ عنهُ الوجوبُ بأمرينِ :

(١) روى ابن أبي الدنيا في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٧١) عن إبراهيم بن عمر الصنعاني ، والبيهقي في « الشعب » (٨٩٨٢) عنه ، عن الوضين بن عطاء : (أوحى الله عز وجل إلىٰ يوشع بن نون أني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم ، وستين ألفاً من شرارهم ، قال : يا رب ؛ هٰؤلاء الأشرار ، ما بال الأخيار ؟ قال : إنهم لم يغضبوا لغضبي ، وكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم) .

أحدُهُما : أن يعلمَ أنَّهُ لو أنكرَ . . لم يُلتفَتْ إليهِ ، ولم يُترَكِ المُنكَرُ ، ونُظِرَ إليهِ بعينِ الاستهزاءِ ، وهٰذا هوَ الغالبُ في مُنكَراتٍ يرتكبُها الفقهاءُ ومَنْ يزعمُ أنَّهُ مِنْ أهلِ الدِّينِ ، فها هنا يجوزُ السُّكوتُ ، ولٰكنْ يُستحَبُّ الزَّجرُ باللِّسانِ ؛ إظهاراً لشعائرِ الدِّينِ مهما لم يَقدِرْ علىٰ غيرِ الزَّجرِ باللِّسانِ .

ويجبُ أن يفارقَ ذٰلكَ الموضعَ ؛ فليسَ يجوزُ مشاهدةُ المعصيةِ بالاختيارِ (١) ، فمَنْ جلسَ في مجلسِ الشُّربِ . . فهوَ فاسقٌ وإن لم يشربْ ، ومَنْ جالسَ مغتاباً ، أو لابِسَ حريرٍ ، أو آكِلَ رباً أو حرامٍ . . فهوَ فاسقٌ ، فليقمْ مِنْ موضعِهِ .

الثَّاني : أن يعلمَ أنَّهُ يَقدِرُ على المنعِ مِنَ المُنكَرِ ؛ بأن يرىٰ زجاجةً فيها خمرٌ فيرميَها فيكسرَها ، أو يسلبَ آلةَ الملاهي مِنْ يدِ صاحبِها ويضربَها على الأرضِ ، ولٰكنْ يعلمُ أنَّهُ يُضرَبُ أو يُصابُ بمكروهٍ ، فها هنا تُستحَبُّ الحِسْبةُ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ ولا تجبُ ، إلَّا أنَّ المكروهَ الذي يصيبُهُ لهُ درجاتٌ كثيرةٌ يطولُ النَّظرُ فيها ،

---

(١) روى الطبراني في « المعجم الكبير » (١١/٢٦٠) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « لا يقفنَّ أحدُكم موقفاً يُقتل فيه رجلٌ ظلماً ؛ فإن اللعنة تنزل علىٰ من حضر حين لم يدفعوا عنه ، ولا يقفنَّ أحدٌ منكم موقفاً يُضرب فيه أحد ظلماً ؛ فإن اللعنة تنزل علىٰ من حضره حين لم يدفعوا عنه » .

ذكرناها في (كتابِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكرِ) مِنَ « الإحياءِ »(١) .

وعلى الجملةِ : فلا يسقطُ الوجوبُ إلَّا بخوفِ مكروهٍ في بدنِهِ بالضَّربِ ، أو في مالِهِ بالاستهلاكِ ، أو في جاهِهِ بالاستخفافِ بهِ بوجهٍ يقدحُ في مروءتِهِ .

فأمَّا خوفُ استيحاشِ المنكَرِ عليهِ ، وخوفُ التَّعرُّضِ لهُ باللِّسانِ وعداوتِهِ لهُ ، أو توهُّمُ سعيِهِ في المستقبلِ بما يسوءُهُ ، أو يحولُ بينَهُ وبينَ زيادةِ خيرٍ يَتوقَّعُها . . فكلُّ ذٰلكَ موهوماتٌ وأمورٌ ضعيفةٌ لا يسقطُ الوجوبُ بها .

فَصْلٌ

[في بيانِ عمدةِ الحِسْبةِ]

عمدةُ الحِسْبةِ شيئانِ :

أحدُهُما : اللُّطفُ والرِّفقُ ، والبدايةُ بالوعظِ علىٰ سبيلِ اللِّينِ ، لا علىٰ سبيلِ العنفِ والتَّرفُّعِ والإدلالِ بدلالةِ الصَّلاحِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يُؤكِّدُ داعيةَ المعصيةِ ، ويحملُ العاصيَ على المناكرةِ وعلى الإيذاءِ .

ثـمَّ إذا آذاهُ ولم يكنْ حَسَنَ الخُلُقِ . . غضبَ لنفسِهِ ، وتركَ الإنكارَ للهِ تعالىٰ ، واشتغلَ بشفاءِ غليلِهِ منهُ ، فيصيرُ عاصياً ، بل

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٥٥٥/٤) .

ينبغي أن يكونَ كارهاً للحِسْبةِ ، يودُّ لو تركَ المعصيةَ بقولِ غيرِهِ ؛ فإنَّهُ إذا أحبَّ أن يكونَ هوَ المُتعرِّضَ . . كانَ ذٰلكَ لِمَا في نفسِهِ مِنْ دالَّةِ الاحتسابِ وعزَّتِهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا يَأْمُرُ بِٱلْمَعْرُوفِ ، وَلَا يَنْهَىٰ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ . . إِلَّا رَفِيقٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ ، رَفِيقٌ فِيمَا يَنْهَىٰ عَنْهُ ، حَلِيمٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ ، حَلِيمٌ فِيمَا يَنْهَىٰ عَنْهُ ، فَقِيهٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ ، فَقِيهٌ فِيمَا يَنْهَىٰ عَنْهُ »(١) .

ووعظَ المأمونَ رحمَهُ اللهُ واعظٌ بعنفٍ . . فقالَ : (يا رجلُ ؛ ارفقْ ؛ فقد بعثَ اللهُ تعالىٰ مَنْ هوَ خيرٌ منكَ إلىٰ مَنْ هوَ شرٌّ منّي فأمرَهُ بالرِّفقِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾)(٢) .

وروىٰ أبو أمامةَ رضي اللهُ عنهُ : أنَّ غلاماً شابّاً أتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : أتأذنُ لي في الزِّنا ؟ فصاحَ النَّاسُ بهِ ، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَقِرُّوهُ أَقِرُّوهُ ، ٱدْنُ مِنِّي » ، فدنا منهُ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ ؟ » ، فقالَ : لا ، جعلَني اللهُ فداكَ ، قالَ : « كَذَٰلِكَ ٱلنَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ

---

(١) عند الديلمي في « الفردوس » (٧٧٤١) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « لا ينبغي للرجل أن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر . . حتىٰ يكون فيه خصال ثلاثة : رفيق بما يأمر ، رفيق بما ينهىٰ ، عالم فيما يأمر ، عالم فيما ينهىٰ ، عدل فيما يأمر ، عدل فيما ينهىٰ » .

(٢) روىٰ نحوه ابن الجوزي في « المنتظم » (٥/٢٤٧٦) ، وأوردها عن المأمون ابنُ عبد ربه في « العقد الفريد » (١/٥٧) ، والواعظ في الخبر : هو الحارث بن مسكين .

لِأُمَّهَاتِهِمْ ، أَتُحِبُّهُ لِٱبْنَتِكَ ؟ » قالَ : لا ، قالَ : « كَذَٰلِكَ ٱلنَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ » .

حتَّىٰ ذكرَ الأختَ والعمَّةَ والخالةَ ، وهوَ يقولُ : « كَذَٰلِكَ ٱلنَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ » ، ثمَّ وضعَ يدَهُ علىٰ صدرِهِ وقالَ : « ٱللَّهُمَّ ؛ طَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَٱغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ » ، فلم يكنْ بعدَ ذٰلكَ شيءٌ أبغضَ إليهِ مِنَ الزِّنا[1] .

وقالَ بعضُهُم للفضيلِ : إنَّ سفيانَ بنَ عيينةَ قَبِلَ جوائزَ السُّلطانِ ، فقالَ : ما أخذَ منهُم إلَّا دونَ حقِّهِ ، ثمَّ خلا بهِ وعاتبَهُ بالرِّفقِ ، فقالَ سفيانُ : يا أبا عليٍّ ؛ إن لم نكنْ مِنَ الصَّالحينَ . . فإنَّا نحبُّ الصَّالحينَ[2] .

الثَّاني : أن يكونَ المُحتسِبُ قد بدأَ بنفسِهِ فهذَّبَها ، وتركَ ما ينهىٰ عنهُ أوَّلاً .

قالَ الحسنُ البصريُّ : (إذا كنتَ تأمرُ بالمعروفِ . . فكنْ مِنْ آخذِ النَّاسِ بهِ ، وإلَّا . . هلكتَ)[3] .

فهٰذا هوَ الأَولىٰ حتَّىٰ ينفعَ كلامُهُ ، وإلَّا . . استُهزِئَ بهِ ، وليسَ هٰذا شرطاً ، **بل يجوزُ الاحتسابُ للعاصي أيضاً .**

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢٥٦/٥) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٦٢/٨) .
(٢) رواه السلفي عن ابن الطيوري بسنده في « الطيوريات » (٢٤١) .
(٣) رواه أحمد في « الزهد » (١٤٥٧) .

قالَ أنسٌ : قلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ ألا نأمرُ بالمعروفِ حتَّىٰ نعملَ بهِ كلِّهِ ؟ ولا ننهىٰ عنِ المنكرِ حتَّىٰ نجتنبَهُ كلَّهُ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بَلَىٰ ، مُرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كُلِّهِ ، وَٱنْهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوهُ كُلَّهُ »[١] .

وقالَ الحسنُ البصريُّ : (يريدُ أن يظفرَ الشَّيطانُ منكُم بهٰذهِ الخَصلةِ ؛ وهوَ ألَّا تأمروا بالمعروفِ حتَّىٰ نأتيَ بهِ كلِّهِ) يعني : أنَّ هٰذا يُؤدِّي إلىٰ حَسْمِ بابِ الحِسْبةِ ؛ فمَنْ ذا الذي يُعصَمُ عنِ المعاصي ؟![٢] .

٭ ٭ ٭

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٦٢٤) ، و« الصغير » (٢/٧٨) .

(٢) وانظر تفصيل المسألة في « الاقتصاد في الاعتقاد » (ص ٣٨٥) .

الأصل العاشر

في اتّباع السّنّة

اعلمْ : أنَّ مفتاحَ السَّعادةِ اتِّباعُ السُّنَّةِ ، والاقتداءُ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في جميعِ مصادرِهِ ومواردِهِ ، وحركاتِهِ وسكناتِهِ ؛ حتَّىٰ في هيئةِ أكلِهِ ، وقيامِهِ ونومِهِ وكلامِهِ [١] .

ولستُ أقولُ ذٰلكَ في أمورِ العباداتِ فقطْ ؛ فإنَّهُ لا وجهَ لإهمالِ السُّننِ الواردةِ فيها ، بل ذٰلكَ في جميعِ أمورِ العاداتِ ، فبذٰلكَ يحصلُ الاتِّباعُ المطلقُ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ .

فعليكَ أن تلبَسَ السَّراويلَ قاعداً ، وتتعمَّمَ قائماً ، وتبتدئَ باليمينِ في تنعُّلِكَ ، وتأكلَ بيمينِكَ ، وتُقلِّمَ أظفارَكَ ، وتبتدئَ بمُسبِّحةِ اليدِ اليمنىٰ ، وتَختِمَ بإبهامِها ، وفي الرِّجلِ تبتدئَ بخِنصِرِ اليمنىٰ ، وتَختِمَ بخِنصِرِ اليسرىٰ [٢] .

---

(١) يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « إحياء علوم الدين » (١/ ٥٨٦) : (لا ينبغي أن يكون حظُّك من ممارسة الفقه أن تتميَّز لك السنة من الفرض ، فلا يعلق بفهمك من أوصاف السنة إلا أنه يجوز تركها فتتركها ؛ فإن ذٰلك يضاهي قول الطبيب : إن فقءَ العين لا يبطل وجود الإنسان ، ولـٰكن يخرجه عن أن يصدق رجاء المتقرّب في قبول السلطان إذا أخرجه في معرض الهدية !!) .

(٢) كما سيأتي بيانه (ص ١٩٢) .

وكذٰلكَ في جميعِ حركاتِكَ وسكناتِكَ ، فلقد كانَ محمَّدُ بنُ أسلمَ لا يأكلُ البِطِّيخَ ؛ لأنَّهُ لمْ يُنقَلْ إليهِ كيفيَّةُ أكلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لهُ .

وسها أحدُهُم ، فلبسَ الخفَّ فابتدأَ باليسرىٰ ، فكفَّرَ عنهُ بكُرِّ حنطةٍ[1] .

فلا ينبغي أن تتساهلَ في أمثالِ ذٰلكَ فتقولَ : هٰذا ممَّا يتعلَّقُ بالعاداتِ ، فلا معنىٰ للاتِّباعِ فيهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يُغلِقُ عليكَ باباً عظيماً مِنْ أبوابِ السَّعادةِ .

فصل

[في بيانِ الأسبابِ المُرغِّبةِ في اتِّباعِ السنَّةِ]

لعلَّكَ تشتهي الآنَ الوقوفَ على السَّببِ المُرغِّبِ في الاتِّباعِ في هٰذهِ الأفعالِ ، وتستبعدُ أن يكونَ تحتَ ذٰلكَ سِرٌّ ، أو أمرٌ مُهِمٌّ يقتضي هٰذا التَّشديدَ العظيمَ في المخالفةِ .

فاعلمْ : أنَّ ذكرَ السِّرِّ في آحادِ تلكَ السُّننِ طويلٌ ، لا يَحتمِلُ هٰذا الكتابُ شرحَهُ ، لٰكنْ ينبغي أن تفهمَ أنَّ ذٰلكَ ينحصرُ في ثلاثةِ أنواعٍ من الأسرارِ :

الأوَّلُ : أنَّا نبَّهناكَ في مواضعَ على العلاقةِ التي بينَ المُلكِ

(١) الكُرُّ : مكيال لأهل العراق بمقدار ستين صاعاً .

والملكوتِ ، وبينَ الجوارحِ والقلبِ ، وكيفيَّةِ تأثُّرِ القلبِ بعملِ الجوارحِ [1] ؛ فإنَّ القلبَ كالمرآةِ ، **ولا تتجلَّىٰ فيهِ حقائقُ الأشياءِ إلَّا بتصقيلِهِ وتنويرِهِ وتعديلِهِ .**

أمَّا تصقيلُهُ : فبإزالةِ خبثِ الشَّهواتِ ، وكدورةِ الأخلاقِ الذَّميمةِ .

وأمَّا تنويرُهُ : فبأنوارِ الذِّكرِ والمعرفةِ ، ويعينُ علىٰ ذٰلكَ العبادةُ الخالصةُ إذا أُدِّيَتْ علىٰ كمالِ الحرمةِ بمقتضى السُّنَّةِ .

وأمَّا تعديلُهُ : فبأن تجريَ جميعُ حركاتِ الجوارحِ علىٰ قانونِ العدْلِ ؛ إذِ اليدُ لا تصلُ إلى القلبِ حتَّىٰ تقصدَ تعديلَهُ ، فتُحدِثَ فيهِ هيئةً معتدلةً صحيحةً لا اعوجاجَ فيها ، وإنَّما التَّصرُّفُ في القلبِ بواسطةِ تعديلِ الجوارحِ ، وتعديلِ حركاتِها ، **ولهٰذا كانتِ الدُّنيا مزرعةَ الآخرةِ** ، ولهٰذا تعظمُ حسرةُ مَنْ ماتَ قبلَ التَّعديلِ ؛ لانسدادِ طريقِ التَّعديلِ بالموتِ ؛ **إذ تنقطعُ علاقةُ القلبِ عنِ الجوارحِ .**

فمهما كانَتْ حركاتُ الجوارحِ ، بل حركاتُ الخواطرِ أيضاً موزونةً بميزانِ العدلِ . . حدثَ في القلبِ هيئةٌ عادلةٌ مستويةٌ ، **تَستعِدُّ لقَبُولِ الحقائقِ علىٰ نعتِ الصِّحَّةِ والاستقامةِ** ، كما تَستعِدُّ المرآةُ المعتدلةُ لمحاكاةِ الصُّورِ الصَّحيحةِ مِنْ غيرِ اعوجاجٍ .

ومعنى العدلِ : وضعُ الأشياءِ مواضعَها .

---

(١) تقدم (ص ٩٤) .

ومثالُهُ : أنَّ الجهاتِ مثلاً أربعةٌ ، وقد خُصَّ منها جهةُ القِبلةِ بالتَّشريفِ ؛ فالعدلُ : أن تستقبلَ القبلةَ في أحوالِ الذِّكرِ والعبادةِ والوضوءِ ، وأن تنحرفَ عنها عندَ قضاءِ الحاجةِ وكشفِ العورةِ ؛ إظهاراً لفضلِ ما ظهرَ فضلُهُ .

ولليمينِ زيادةٌ على اليسارِ غالباً ؛ لفضلِ القُوَّةِ ؛ فالعدلُ : أن تُفضِّلَها على اليسارِ ، وتستعملَها في الأعمالِ الشَّريفةِ ؛ كأخذِ المُصحفِ والطَّعامِ ، وتتركَ اليسارَ للاستنجاءِ وتناولِ القاذوراتِ .

وقلمُ الظُّفرِ مثلاً تطهيرٌ لليدِ ، وهوَ إكرامٌ ، فينبغي أن يَبدأَ بالأكرمِ والأفضلِ ، وربَّما لا يستقلُّ عقلُكَ بالتَّفطُّنِ للتَّرتيبِ في ذٰلكَ وكيفيَّةِ البدايةِ ، فاتَّبعْ فيهِ السُّنَّةَ ، وابتدئْ بالمُسبِّحةِ مِنَ اليمينِ ؛ لأنَّ اليدَ أفضلُ مِنَ الرِّجلِ ، واليمنىٰ أفضلُ مِنَ اليسرىٰ ، والمُسبِّحةَ التي بها الإشارةُ في كلمةِ التَّوحيدِ أفضلُ مِنْ سائرِ الأصابعِ ، ثمَّ بعدَ ذٰلكَ تدورُ مِنْ يمينِ المُسبِّحةِ .

وللكفِّ ظهرٌ ووجهٌ ، فوجهُهُ ما يقابلُهُ ، فإذا جعلتَ الكفَّ وجهَ اليدِ . . كانَ يمينُ المُسبِّحةِ مِنْ جانبِ الوسطىٰ ، فقدِّرِ اليدينِ متقابلتَينِ بوجهَيهِما ، وقدِّرِ الأصابعَ كأنَّها أشخاصٌ ، فيدورُ المِقراضُ مِنَ المُسبِّحةِ إلىٰ أن يَختِمَ بإبهامِ اليمنىٰ ، كذٰلكَ فعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (١) ، والحكمةُ فيهِ ما ذكرناهُ .

---

(١) قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « إحياء علوم الدين » (١/٥٢٠) : (ولم أرَ في الكتب خبراً مروياً في ترتيب قلْم الأظفار ، ولٰكن سمعت ـ قال الحافظ الزبيدي : من أفواه ←

فإذا أنتَ تعوَّدتَ رعايةَ العدلِ في دقائقِ الحركاتِ . . صارَتِ العدالةُ والصِّحَّةُ هيئةً راسخةً في قلبِكَ ، واستوتْ صورتُهُ ، وبذٰلكَ تَستعِدُّ لقَبُولِ صورةِ السَّعادةِ .

ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ ، فرُوحُ اللهِ مفتاحُ أبوابِ السَّعادةِ ، ولم يكنْ نفخُها إلَّا بعدَ التَّسويةِ ، ومعنى التَّسويةِ يرجعُ إلى التَّعديلِ ، ووراءَهُ سِرٌّ يطولُ كشفُهُ ، وإنَّما نريدُ الرَّمزَ إلىٰ أصلِهِ .

فإن كنتَ لا تقوىٰ علىٰ فهمِ حقيقتِهِ . . فالتَّجرِبةُ تنفعُكَ ، فانظرْ إلىٰ مَنْ تَعوَّدَ الصِّدقَ كيفَ تصدقُ رؤياهُ غالباً ؛ لأنَّ الصِّدقَ حصَّلَ في قلبِهِ هيئةً صادقةً ، تَتلقَّىٰ لوائحَ الغيبِ في النَّومِ على الصِّحَّةِ ، وانظرْ كيفَ تكذبُ رؤيا الكذَّابِ ، بل رؤيا الشَّاعرِ الذي تَعوَّدَ التخييلاتِ الكاذبةَ ، فاعوجَّ لذٰلكَ صورةُ قلبِهِ .

فإن كنتَ تريدُ أنْ تلمحَ جنابَ القدسِ . . فاتركْ ظاهرَ الإثمِ وباطنَهُ ، واتركِ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ ، واتركِ الكذبَ حتَّىٰ في حديثِ النَّفسِ أيضاً .

← المشايخ ـ أنه صلى الله عليه وسلم بدأ بمسبحته اليمنىٰ ، وختم بإبهام اليمنىٰ ، وابتدأ في اليسرىٰ بالخنصر إلى الإبهام) وانظر « إتحاف السادة المتقين » (٤١١/٢) ، قال الإمام النووي في « المجموع » (٣٥٣/١) : (والمقصود : أن الذي ذكره الغزالي لا بأس به ، إلا في تأخير إبهام اليمنىٰ فلا يقبل قوله فيه ، بل يقدم اليمنىٰ بكاملها ، ثم يشرع في اليسرىٰ ، أما الحديث الذي ذكره . . فباطل لا أصل له) .

السِّرُّ الثَّاني : أن تعلمَ أنَّ الأشياءَ المُؤثِّرةَ في بدنِكَ بعضُها إنَّما يُعقَلُ تأثيرُهُ بنوعٍ مِنَ المناسبةِ إلى الحرارةِ والبرودةِ ، والرُّطوبةِ واليبوسةِ ؛ كقولِكَ : إنَّ العسلَ يضرُّ المَحرورَ ، وينفعُ الباردَ مزاجُهُ ، ومنها ما لا يُدرَكُ بالقياسِ ، ويُعبَّرُ عنهُ بالخواصِّ ، وتلكَ الخواصُّ لا يُوقَفُ عليها بالقياسِ ، بل مبدأُ الوقوفِ عليها وحيٌ أو إلهامٌ ، فالمغناطيسُ يَجذِبُ الحديدَ ، والسَّقَمُونيا[1] تَجذِبُ خلطَ الصَّفراءِ مِنْ أعماقِ العروقِ لا على القياسِ ، بل بخاصِّيَّةٍ وُقِفَ عليها إمَّا بإلهامٍ أو تَجرِبةٍ ، وأكثرُ الخواصِّ عُرِفَتْ بالإلهامِ ، وأكثرُ التَّأثيراتِ في الأدويةِ وغيرِها مِنْ قبيلِ الخواصِّ .

فكذلكَ فاعلمْ : أنَّ تأثيرَ الأعمالِ في القلبِ ينقسمُ إلىٰ ما يُفهَمُ وجهُ مناسبتِهِ ؛ كعلمِكَ بأنَّ اتِّباعَ الشَّهَواتِ الدُّنيويَّةِ يُؤكِّدُ علاقتَهُ معَ هٰذا العالَمِ ، فيخرجُ مِنْ هٰذا العالَمِ منكوسَ الرَّأسِ ، مُولِّياً وجهَهُ إلىٰ هٰذا العالَمِ ؛ إذ فيهِ محبوبُهُ ، وكعلمِكَ بأنَّ المداومةَ علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ تُؤكِّدُ الأُنسَ باللهِ تعالىٰ ، وتُوجِبُ الحبَّ حتَّىٰ تَعظُمَ اللَّذَّةُ بهِ عندَ فِراقِ الدُّنيا ، والقدومِ على اللهِ سبحانَهُ ؛ إذِ اللَّذَّةُ علىٰ قدْرِ الحبِّ ، والحبُّ علىٰ قدْرِ المعرفةِ والذِّكرِ .

ومِنَ الأعمالِ ما يُؤثِّرُ في الاستعدادِ لسعادةِ الآخرةِ أو لشقاوتِها بخاصِّيَّةٍ ليسَتْ على القياسِ ، لا يُوقَفُ عليها إلَّا بنورِ النُّبوَّةِ ؛ فإذا

---

(١) السَّقَمونيا : لفظة يونانية ، وقيل : سريانية ؛ وهي نباتٌ يستخرج من تجاويفه رطوبة دبقة وتجفَّف ، تُسْهِل بالمرة والصفراء . انظر « القاموس المحيط » (س ق م) .

رأيتَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قد عدلَ عن أحدِ المباحينِ إلى الآخرِ ، وآثـرَهُ عليهِ معَ قدرتِهِ عليهِما . . فاعلمْ : أنَّهُ اطَّلعَ بنورِ النُّبوَّةِ علىٰ خاصِّيَّةٍ فيهِ ، وكُوشِفَ بهِ مِنْ عالَمِ الملكوتِ ، كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي ، وَأُؤَدِّبَكُمْ مِمَّا أَدَّبَنِي :

لَا يُكْثِرَنَّ أَحَدُكُمُ ٱلْكَلَامَ عِنْدَ ٱلْمُجَامَعَةِ ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْهُ خَرَسُ ٱلْوَلَدِ .

وَلَا يَنْظُرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ فَرْجِ ٱمْرَأَتِهِ إِذَا هُوَ جَامَعَهَا ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْهُ ٱلْعَمَىٰ .

وَلَا يُقَبِّلَنَّ أَحَدُكُمُ ٱمْرَأَتَهُ إِذَا هُوَ جَامَعَهَا ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْهُ ٱلصَّمَمُ صَمَمُ ٱلْوَلَدِ .

وَلَا يُدِيمَنَّ أَحَدُكُمُ ٱلنَّظَرَ فِي ٱلْمَاءِ ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْهُ ذَهَابُ ٱلْعَقْلِ »(١)

وهٰذا مثالٌ ممَّا أردنا أن نُنبِّهَكَ على اطِّلاعِهِ علىٰ خواصِّ الأشياءِ بالإضافةِ إلىٰ أمورِ الدُّنيا ؛ لتقيسَ بهِ اطِّلاعَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ ما يُؤَثِّرُ بالخاصِّيَّةِ في السَّعادةِ والشَّقاوةِ(٢) .

ولا ترضَ لنفسِكَ أن تُصدِّقَ محمَّدَ بنَ زكريَّا الرَّازيَّ المُتطبِّبَ

---

(١) أورده الديلمي في « الفردوس » (٨١٧٢) من حديث سيدنا عطية بن بشر رضي الله عنه .
(٢) انظر « المنقذ من الضلال » (ص ١١٨) .

فيما يذكرُهُ مِنْ خواصِّ الأشياءِ في الحجامةِ والأحجارِ والأدويةِ ، ولا تُصدِّقَ سيِّدَ البشرِ محمَّدَ بنَ عبدِ اللهِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ فيما يخبرُ بهِ عنها ، وأنت تعلمُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مُكاشَفٌ مِنَ العالَمِ الأعلىٰ بجميعِ الأسرارِ ، وهٰذا يُنبِّهُكَ على الاتِّباعِ فيما لا تفهمُ وجهَ الحكمةِ فيهِ علىٰ ما ذكرناهُ في السِّرِّ الأوَّلِ .

السِّرُّ الثَّالثُ : أنَّ سعادةَ الإنسانِ في أن يَتشبَّهَ بالملائكةِ في النُّزوعِ عنِ الشَّهَواتِ ، وكسرِ النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ ، ويُبعِدَ عن مشابهةِ البهيمةِ المُهمَلَةِ سُدىً ، التي تسترسلُ في اتِّباعِ الهوىٰ بحَسَبِ ما يقتضيه طبعُها مِنْ غيرِ حاجزٍ .

ومهما تَعوَّدَ الإنسانُ في جميعِ أمورِهِ أن يفعلَ ما يشاءُ مِنْ غيرِ حاجزٍ . . أَلِفَ اتِّباعَ مرادِهِ وهواهُ ، وغلبَ علىٰ قلبِهِ صفةُ البهيمةِ ، فمصلحتُهُ : أن يكونَ في جميعِ حركاتِهِ مُلجَماً بلِجامٍ يَصدُّهُ عن طريقٍ إلىٰ طريقٍ ؛ كي لا تنسىٰ نفسُهُ العبوديَّةَ ولزومَ الصِّراطِ المستقيمِ ، فيكونَ أثرُ العبوديَّةِ ظاهراً عليهِ في كلِّ حركةٍ ؛ إذ لا يفعلُ شيئاً بحَسَبِ طبعِهِ ، بل بحَسَبِ الأمرِ ، فلا ينفكُّ في جميعِ أحوالِهِ عن مصادماتِ الزَّمانِ بإيثارِ بعضِ الأمورِ علىٰ بعضٍ .

ومَنْ ألقىٰ زِمامَهُ في يدِ كلبٍ مثلاً ، حتَّىٰ لم يكنْ تصرُّفُهُ وتردُّدُهُ

بحكمِ طبعِهِ ، بل بحكمِ غيرِهِ . . فنفسُهُ أقومُ ، وإلىٰ قَبُولِ الرِّياضةِ الحقيقيَّةِ أقربُ ممَّنْ جعلَ زِمامَهُ في يدِ هواهُ ، يسترسلُ استرسالَ البهيمةِ .

وتحتَ هٰذا أيضاً سِرٌّ عظيمٌ في تزكيةِ النَّفسِ ، وهٰذهِ فائدةٌ تحصلُ بوضعِ الشَّارعِ [1] كيفما وضَعَهُ ، والفائدةُ الحِكَميَّةُ أوِ الخاصِّيَّةُ لا تَتغيَّرُ بالوضعِ ، وهٰذا يَتغيَّرُ بالوضعِ ؛ فإنَّ المقصودَ : ألَّا يكونَ مُخلّىً معَ اختيارِهِ ، وذٰلكَ يحصلُ بالمنعِ عن أحدِ الجانبينِ ، أيَّ جانبٍ كانَ ، وفي مثلِ هٰذا يُتصوَّرُ أن تختلفَ الشَّرائعُ ؛ لأنَّهُ ثمرةُ الوضعِ .

فتكفيكَ هٰذهِ التَّنبيهاتُ الثَّلاثةُ علىٰ فضلِ ملازمةِ الاتِّباعِ في جميعِ الحركاتِ والسَّكناتِ [2] .

فَصْلٌ

[في تركِ السنَّةِ في العباداتِ مِنْ غيرِ عذرٍ]

هٰذا التَّحريضُ الذي ذكرتُهُ إنَّما هوَ في العاداتِ ، وأمَّا في العباداتِ . . فلا أعرفُ لتركِ السُّنَّةِ مِنْ غيرِ عذرٍ وجهاً إلَّا كفراً خفيّاً ، أو حمقاً جليّاً .

---

(١) في (ج ، د ، ح) زيادة (صلى الله عليه وسلم) .

(٢) قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « إحياء علوم الدين » (١/٥٢٢) : (وكلما كانت حركات الإنسان وخطراته إلى الضبط أقرب ، وعن الإهمال وتركه سدىً أبعد . . كانت مرتبته إلىٰ رتبة الأولياء والأنبياء أكثر ، وكان قربه من الله عز وجل أظهر) .

بيانُهُ : أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قالَ : « تَفْضُلُ صَلَاةُ ٱلْجَمَاعَةِ عَلَىٰ صَلَاةِ ٱلْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً »[1] . . فكيفَ تسمحُ نفسُ المؤمنِ بتركِها مِنْ غيرِ عذرٍ ؟!

نعم ؛ يكونُ السَّببُ في ذٰلكَ إمَّا حمقاً ، أو غفلةً بألَّا يتفكَّرَ في هٰذا التَّفاوتِ العظيمِ .

ومَنْ يستحمقُ غيرَهُ إذا آثرَ واحداً على اثنينِ . . كيفَ لا يستحمقُ نفسَهُ إذا آثرَ واحداً علىٰ سبعٍ وعشرينَ ، لا سيَّما فيما هوَ عمادُ الدِّينِ ومفتاحُ السَّعادةِ الأبديَّةِ ؟!

وأمَّا الكفرُ : فهوَ أن يخطرَ ببالِهِ أنَّ هٰذا ليسَ كذٰلكَ ، وإنَّما ذكرَهُ للتَّرغيبِ في الجماعةِ ، وإلَّا . . فأيُّ مناسبةٍ بينَ الجماعةِ وبينَ هٰذا العددِ المخصوصِ مِنْ بينِ سائرِ الأعدادِ ؟ وهٰذا كفرٌ خفيٌّ ، قد ينطوي عليهِ الصَّدرُ وصاحبُهُ لا يشعرُ بهِ .

وما أعظمَ حماقةَ مَنْ يُصدِّقُ المُنجِّمَ والطَّبيبَ في أمورٍ أبعدَ مِنْ ذٰلكَ ، ولا يُصدِّقُ النَّبيَّ المُكاشَفَ بأسرارِ الملكوتِ !! فإنَّ المُنجِّمَ لو قالَ لكَ : إذا انقضىٰ سبعةٌ وعشرونَ يوماً مِنْ أوَّلِ تحويلِ طالعِكَ أصابَتْكَ نكبةٌ ، فاحترزْ في ذٰلكَ اليومِ واجلسْ في بيتِكَ . . فلا تزالُ في تلكَ المُدَّةِ تستشعرُ وتتركُ جميعَ أشغالِكَ ، ولو سألتَ المُنجِّمَ

(١) رواه البخاري (٦٤٥) ، ومسلم (٦٤٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

عن سببِهِ . . لقالَ لكَ : إنَّما قدَّرتُ ذٰلكَ بهٰذهِ المُدَّةِ لأنَّ بينَ درجةِ الطَّالعِ وموضعِ زُحَلَ سبعاً وعشرينَ درجةً ، فتتأخَّرُ النَّكبةُ بكلِّ درجةٍ يوماً أو شهراً !!

وإذا قيلَ لكَ : (هٰذا هوسٌ مِنْ قائلِهِ ؛ إذ لا مناسبةَ لهُ ؛ فلا تُصدِّقَنَّ بهِ) . . فلا يخلو قلبُكَ عنِ الاستشعارِ ، وتقولُ : في أفعالِ اللهِ تعالىٰ عجائبُ لا تُعرَفُ مناسبتُها ، ولعلَّها خواصُّ لا تُدرَكُ ، وقد عُرِفَ بالتَّجرِبةِ أنَّ ذٰلكَ ممَّا يُؤثِّرُ وإن لم تُعرَفْ مناسبتُهُ ، ثمَّ إذا آلَ الأمرُ إلىٰ خبرِ النُّبوَّةِ عنِ الغيبِ . . أنكرتَ مثلَ هٰذهِ الخواصِّ ، وطلبتَ المناسبةَ الصَّريحةَ !! فهل لهٰذا سببٌ إلَّا شركٌ خفيٌّ ؟ لا ، بل كفرٌ جليٌّ ؛ إذ لا محمِلَ لهُ سواهُ .

وسببُ هٰذا التَّكاسلِ كلِّهِ : أنَّكَ لا يُهِمُّكَ أمرُ آخرتِكَ ؛ فإنَّ أمرَ دنياكَ لمَّا كانَ يُهِمُّكَ . . فتحتاطُ فيهِ بقولِ المُنجِّمِ والطَّبيبِ ، وبالاختلاجِ والفألِ ، والأمورِ البعيدةِ عنِ المناسبةِ غايةَ البعدِ ، وتنقادُ للاحتمالاتِ البعيدةِ ؛ لأنَّ الشفيقَ بسوءِ الظَّنِّ مُولَعٌ [١] ، ولو تفكَّرتَ . . لعلمتَ أنَّ هٰذا الاحتياطَ بالخطرِ الأبديِّ أليقُ .

---

(١) يراد منه : أن الخائف علىٰ نفسه يسيء الظن أبداً .

فإن قلتَ : ففي أيِّ جنسٍ مِنَ الأعمالِ ينبغي أن تُتَّبعَ السُّنَّةُ ؟

فأقولُ : في كلِّ ما وردَتْ فيهِ السُّنَّةُ ، والأخبارُ فيه كثيرةٌ ؛ وذٰلكَ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ٱحْتَجَمَ يَوْمَ ٱلسَّبْتِ وَٱلْأَرْبِعَاءِ ، فَأَصَابَهُ برصٌ . . فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ »(١) .

وقدِ احتجمَ بعضُ المُحدِّثينَ يومَ السَّبتِ(٢) ، وقالَ : (هٰذا الحديثُ ضعيفٌ) ، فبَرِصَ ، وعظمَ ذٰلكَ عليهِ ، حتَّىٰ رأىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فشكا إليهِ ذٰلكَ ، فقالَ : لِمَ احتجمتَ يومَ السَّبتِ ؟ فقالَ : لأنَّ الراويَ كانَ ضعيفاً ، فقالَ لهُ : أليسَ كانَ قد نُقِلَ عنِّي ؟! فقالَ : تبتُ يا رسولَ اللهِ ، فدعا لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالشِّفاءِ ، فأصبحَ وقد زالَ ما بهِ .

وقالَ أيضاً : « مَنِ ٱحْتَجَمَ يَوْمَ ٱلثُّلَاثَاءِ لِسَبْعَةَ عَشَرَ مِنَ ٱلشَّهْرِ . . كَانَ دَوَاءً لِسَنَةٍ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ نَامَ بَعْدَ ٱلْعَصْرِ ، فَٱخْتُلِسَ عَقْلُهُ . . فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ »(٤) .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٤٠٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) قال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٦/٣٤) : (وروى الديلمي عن أبي جعفر النيسابوري قال : قلت : هٰذا الحديث غير صحيح ، فافتصدت يوم الأربعاء . . . ، وقد كره أحمد الحجامة يوم السبت والأربعاء لهٰذا الحديث) .

(٣) رواه ابن عدي في « الكامل » (٣/٢٠٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/٣٤٠) برقم (١٩٥٦٤) من حديث سيدنا معقل بن يسار رضي الله عنه .

(٤) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٩١٨) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها .

وقالَ عليهِ السَّلامُ : « إِذَا ٱنْقَطَعَ شِسْعُ نَعْلِ أَحَدِكُمْ . . فَلَا يَمْشِ فِي نَعْلٍ وَاحِدَةٍ حَتَّىٰ يُصْلِحَ شِسْعَهُ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا وَلَدَتِ ٱمْرَأَةٌ . . فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَأْكُلُ ٱلرُّطَبُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ . . فَتَمْرٌ ؛ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ شَيْءٌ أَفْضَلَ مِنْهُ . . لَأَطْعَمَهُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَرْيَمَ حِينَ وَلَدَتْ عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا أُتِيَ أَحَدُكُمْ بِٱلْحَلْوَاءِ . . فَلْيُصِبْ مِنْهُ ، وَإِذَا أُتِيَ بِٱلطِّيبِ . . فَلْيَمَسَّ مِنْهُ »[٣] .

وأمثالُ ذٰلكَ في العاداتِ كثيرةٌ ، ولا يخلو شيءٌ منها عن سِرٍّ .

* * *

(١) رواه مسلم (٢٠٩٩) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٥٥) من حديث سيدنا علي كرم الله وجهه .

(٣) رواه البزار في « مسنده » (٨٠٢٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٥٣٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

خاتمة
في ترتيب الأوراد، تنعطف على الأصول العشرة

اعلمْ : أنَّ هٰذهِ العباداتِ التي فصَّلناها : منها ما يمكنُ الجمعُ بينَها ؛ كالصَّومِ والصَّلاةِ والقراءةِ ، ومنها ما لا يمكنُ الجمعُ بينَها ؛ كالقراءةِ والذِّكرِ ، والقيامِ بحقوقِ النَّاسِ والصَّلاةِ .

فينبغي أن يكونَ مِنْ أهمِّ أمورِكَ : توزيعُ أوقاتِكَ علىٰ أصنافِ الخيراتِ مِنْ صباحِكَ إلىٰ مسائِكَ ، ومِنْ مسائِكَ إلىٰ صباحِكَ ، وتعلمَ أنَّ مقصودَ العباداتِ تأكيدُ الأُنسِ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ للإنابةِ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والتَّجافي عن دارِ الغُرورِ .

ولن يَسعدَ في دارِ الخلودِ إلَّا مَنْ قدمَ على اللهِ سبحانَهُ مُحبّاً لهُ ، ولا يكونُ مُحبّاً للهِ إلَّا مَنْ كانَ عارفاً باللهِ ، مكثراً لذكرِهِ ، ولا تحصلُ المعرفةُ والحبُّ إلَّا بالفكرِ والذِّكرِ الدَّائمِ .

ولن يدومَ الذِّكرُ في القلبِ إلَّا بالمُذكِّراتِ ؛ وهيَ العباداتُ المُستغرِقةُ للأوقاتِ على التَّعاقبِ ، وباختلافِ أصنافِها زيادةُ تأثيرٍ في التَّذكيرِ ، ومنعُ المَلالِ ، وسقوطُ أثرِهِ عنِ القلبِ بالدَّوامِ الذي ينتهي إلىٰ حدِّ الاعتيادِ .

نعم ؛ إن كنتَ والهاً باللهِ عزَّ وجلَّ ، مُستغرِقاً بهِ . . لم تَفتقِرْ

إلىٰ ترتيبِ الأورادِ ، بل وردُكَ واحدٌ ؛ **وهوَ ملازمةُ الذِّكرِ** ، وما أُراكَ تكونُ كذٰلكَ ؛ **فإنَّ ذٰلكَ مِنْ أعزِّ الأمورِ** .

فإذا لم تكنْ والهاً باللهِ مُستهتَراً بهِ . . فعليكَ أن تُرتِّبَ أورادَكَ ، **وأحدُ الأورادِ** : هوَ مِنْ وقتِ انتباهِكَ مِنَ النَّومِ إلىٰ طلوعِ الشَّمسِ ، وينبغي أن تجمعَ في هٰذا الوقتِ الشَّريفِ بعدَ الفراغِ مِنَ الصَّلاةِ بينَ الذِّكرِ والدُّعاءِ والقراءةِ والتَّفكُّرِ ؛ فإنَّ لكلِّ واحدٍ أثراً آخَرَ في تنويرِ القلبِ ، وتعرفُ كيفيَّةَ ذٰلكَ وتفصيلَهُ مِنْ كتابِ « بدايةِ الهدايةِ »[1] ، و(كتابِ ترتيبِ الأورادِ) مِنَ « الإحياء » .

وكذٰلكَ تفعلُ بينَ الطُّلوعِ والزَّوالِ ، وبينَ الزَّوالِ والغروبِ ، وبينَ الغروبِ والعشاءِ ؛ فإنَّهُ مِنْ أشرفِ الأوقاتِ ؛ لأنَّ النَّشاطَ إنَّما يَتوفَّرُ بأن تُميِّزَ وردَ كلِّ وقتٍ ؛ لتكونَ في كلِّ وقتٍ عبادةٌ أخرىٰ تنتقلُ مِنْ بعضِها إلىٰ بعضٍ ، **هٰذا إن كنتَ مِنَ العُبَّادِ** .

فإن كنتَ مُعلِّماً أو مُتعلِّماً أو والياً . . فالاشتغالُ بذٰلكَ في بياضِ النَّهارِ أفضلُ مِنَ العباداتِ البدنيَّةِ ؛ **لأنَّ أصلَ الدِّينِ : العلمُ** الذي بهِ يحصلُ التَّعظيمُ لأمرِ اللهِ سبحانَهُ ، **والنَّفعُ** الذي يصدرُ عنِ الشَّفقةِ علىٰ خلقِ اللهِ تعالىٰ .

وكذٰلكَ إن كنتَ مُعْيِلاً مُحترِفاً . . فالقيامُ بحقِّ العيالِ بكسبِ الحلالِ أفضلُ مِنَ العبادةِ البدنيَّةِ ، ولٰكنَّكَ في جميعِ ذٰلكَ لا

---

(١) انظر « بداية الهداية » (ص ١٠٢) وما بعدها .

ينبغي أن تخلوَ وتنفكَّ عن ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، بل تكونَ كالمُستهتَرِ بمعشوقِهِ ، المدفوعِ إلىٰ شغلٍ مِنَ الأشغالِ لضرورةِ وقتِهِ ، فهوَ يعملُ ببدنِهِ ، وهوَ غائبٌ عن عملِهِ ، حاضرٌ بقلبِهِ معَ معشوقِهِ .

حُكِيَ عن أبي الحسنِ الخَرَقَانيِّ رحمَهُ اللهُ[1] : أنَّهُ كانَ يعملُ بالمِسحاةِ دائماً ، وكانَ يقولُ : أُعطينا اليدَ واللِّسانَ والقلبَ ؛ فاليدُ للعملِ ، واللِّسانُ للخَلْقِ ، والقلبُ للحقِّ .

ولنقتصِرْ علىٰ هٰذا القدْرِ في قسمِ الطَّاعاتِ الظَّاهرةِ ، ففيهِ كفايةٌ إِن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❊ ❊ ❊

---

(١) العارف الزاهد علي بن أحمد ، صاحب كرامات وأحوال ، توفي سنة (٤٢٥هـ) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٧/٤٢١) .

القِسمُ الثَّالِثُ

في تزكية القلب

عَنِ الأَخلاقِ المَذْمُومَة

تمهيد

قـالَ اللهُ تـعـالـىٰ : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ ، وقـالَ : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ والتَّزكيةُ : هيَ التَّطهيرُ .

وقـالَ رسـولُ اللهِ صـلَّى اللهُ عـليـهِ وسـلَّـمَ : « ٱلطُّهُورُ شَطْرُ ٱلْإِيمَانِ »[1] ، فافهمْ منهُ أنَّ كمالَ الإيمانِ بتزكيةِ القلبِ عمَّا لا يُحبُّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وتحليتِهِ بما يُحبُّهُ اللهُ تعالىٰ ، فالتَّزكيةُ شطرُ الإيمانِ ، وكيفَ يشتغلُ بالطَّهارةِ مَنْ لا يعرفُ النَّجاسةَ ؟!

فلنذكرِ الأخلاقَ المذمومةَ ، وهيَ كثيرةٌ ، ولٰكنْ ترجعُ شُعَبُها إلىٰ عشرةِ أصولٍ .

* *

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣) من حديث سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

الأصل الأوّل

في شره الطعام

وهوَ مِنَ الأُمَّهاتِ العظيمةِ الضَّررِ في الدِّينِ ؛ لأنَّ المعدةَ يَنبوعُ الشَّهَواتِ ؛ إذ منها تَتشعَّبُ شهوةُ الفَرْجِ ، ثمَّ إذا غلبَتْ شهوةُ المأكولِ والمنكوحِ . . انشعبَ منها شَرَهُ المالِ ؛ إذ لا يُتوصَّلُ إلىٰ قضاءِ الشَّهوتينِ إلَّا بهِ ، وينشعبُ مِنْ شهوةِ المالِ شهوةُ الجاهِ ؛ إذ يعسرُ كسبُ المالِ دونَهُ .

ثمَّ عندَ حصولِ المالِ والجاهِ وطلبِهِما تزدحمُ الآفاتُ كلُّها ؛ كالكِبْرِ والرِّياءِ والحسدِ والحقدِ والعداوةِ وغيرِها ، ومَنبَعُ جميعِ ذٰلكَ البطنُ ، فلهٰذا عظَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمرَ الجوعِ فقالَ : « مَا مِنْ عَمَلٍ أَحَبَّ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ مِنَ ٱلْجُوعِ وَٱلْعَطَشِ »[1] .

وقالَ : « لَا يَدْخُلُ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَاءِ مَنْ مَلَأَ بَطْنَهُ »[2] .

وقالَ : « سَيِّدُ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْجُوعُ »[3]

---

(١) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٥/١٨١) عن مكحول قال : (أفضل العبادة بعد الفرائض . . الجوع والظمأ) .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، ورواه ابن الأعرابي في « معجمه » (٢٣٥٠) عن الحسن مرسلاً .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) عن مكحول مرسلاً .

وقالَ عليهِ أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ : « ٱلْفِكْرُ نِصْفُ ٱلْعِبَادَةِ ، وَقِلَّةُ ٱلطَّعَامِ هِيَ ٱلْعِبَادَةُ »(١) .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « أَفْضَلُكُمْ عِنْدَ ٱللهِ تَعَالَىٰ أَطْوَلُكُمْ جُوعاً وَتَفَكُّراً ، وَأَبْغَضُكُمْ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ كُلُّ أَكُولٍ نَؤُومٍ شَرُوبٍ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا مَلَأَ ٱبْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ ، حَسْبُ ٱبْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، وَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ . . فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنِ ٱبْنِ آدَمَ مَجْرَى ٱلدَّمِ ، فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِٱلْجُوعِ وَٱلْعَطَشِ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « أَدِيمُوا قَرْعَ بَابِ ٱلْجَنَّةِ . . يُفتَحْ لَكُمْ » ، قالَتْ : كيفَ نُديمُ ؟ قالَ : « بِٱلْجُوعِ وَٱلظَّمَأِ »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كُلُوا وَٱشْرَبُوا فِي أَنْصَافِ ٱلْبُطُونِ ؛ فَإِنَّهُ جُزْءٌ مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ »(٦) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٥) عن الحسن مرسلاً .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٥) عن الحسن مرسلاً .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٨٠) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٦٧٣٧) ، وابن ماجه (٣٤٩٦) من حديث سيدنا المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه .

(٤) تقدم (ص ١١٠) ، وهو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٣) من مرسلات الحسن .

(٥) كذا أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٧١/٢) .

(٦) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) ، وهو عند صاحب « قوت القلوب » ←

فصل

[في بيانِ فوائدِ الجوعِ]

لعلَّكَ تشتهي أن تعلمَ السِّرَّ في تعظيمِ الجوعِ ، ووجهَ مناسبتِهِ لطريقِ الآخرةِ .

فاعلمْ : أنَّ لهُ فوائدَ كثيرةً ، ولٰكنْ يرجعُ أصولُها إلىٰ سبعٍ :

إحداها : صفاءُ القلبِ ونفاذُ البصيرةِ ؛ فإنَّ الشِّبعَ يُورِثُ البلادةَ ، ويُعمي القلبَ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَجَاعَ بَطْنَهُ . . عَظُمَتْ فِكْرَتُهُ ، وَفَطِنَ قَلْبُهُ »(١) .

ولا يخفىٰ أنَّ مفتاحَ السَّعادةِ المعرفةُ ، ولا تُنالُ إلَّا بصفاءِ القلبِ وتنوُّرِهِ ، فلذٰلكَ كانَ الجوعُ قرعَ بابِ الجنَّةِ .

الثَّانيةُ : رِقَّةُ القلبِ ؛ حتَّىٰ يُدرِكَ بهِ لذَّةَ المناجاةِ ، ويَتأثَّرَ بالذِّكرِ والعبادةِ .

قالَ الجنيدُ : (يجعلُ أحدُكُم بينَهُ وبينَ قلبِهِ مِخلاةً مِنَ الطَّعامِ ويريدُ أن يجدَ حلاوةَ المناجاةِ !!)(٢) .

← (١٦٧/٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو عند الديلمي في « الفردوس » (٣٣٩) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٢) .

(٢) كذا أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٧٣/٢) .

ولا يخفىٰ عليكَ أنَّ أحوالَ القلبِ ؛ مِنَ الخشيةِ والخوفِ ، والرِّقَّةِ والمناجاةِ ، والانكسارِ والهيبةِ . . مِنْ مفاتيحِ أبوابِ الجنَّةِ ، وإن كانَ بابُ المعرفةِ فوقَهُ ، والجوعُ قرعٌ لهٰذا البابِ أيضاً .

الثَّالثةُ : ذلُّ النَّفسِ ، وزوالُ البطرِ والطُّغيانِ منها ؛ فلا تُكسَرُ النَّفْسُ بشيءٍ كالجوعِ ، والطُّغيانُ داعٍ إلى الغفلةِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ بابُ الجحيمِ والشَّقاوةِ ، والجوعُ إغلاقٌ لهٰذا البابِ ، وفي إغلاقِ بابِ الشَّقاوةِ فتحُ بابِ السَّعادةِ .

ولذٰلكَ لمَّا عُرِضَتِ الدُّنيا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ : « **لَا ، بَلْ أَجُوعُ يَوْماً وَأَشْبَعُ يَوْماً ، فَإِذَا جُعْتُ . . صَبَرْتُ وَتَضَرَّعْتُ ، وَإِذَا شَبِعْتُ . . شَكَرْتُ** »(١) .

الرَّابعةُ : أنَّ البلاءَ مِنْ أبوابِ الجنَّةِ ؛ لأنَّ فيهِ مشاهدةَ طعمِ العذابِ ، وبهِ يَعظُمُ الخوفُ مِنْ عذابِ الآخرةِ ، **ولا يَقدِرُ الإنسانُ علىٰ أن يُعذِّبَ نفسَهُ بشيءٍ كالجوعِ ؛ فإنَّهُ لا يحتاجُ فيهِ إلىٰ تكلُّفٍ ،** ويرتبطُ بهِ فوائدُ أخرىٰ ، فيكونُ مُشاهِداً بلاءَ اللهِ تعالىٰ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٩٤ ، ٩٩٢٥) من حديث سيدنا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه .

على الدَّوامِ ، وذٰلكَ يدعو إلى الرَّحمةِ والإطعامِ ، والشَّبعانُ في غفلةٍ عن ألمِ الجائعِ .

الخامسةُ ـ وهيَ مِنْ كبارِ الفوائدِ ـ : كسرُ سائرِ الشَّهَواتِ التي هيَ منابعُ المعاصي ، والاستيلاءُ على النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ .

قالَ ذو النُّونِ رضيَ اللهُ عنهُ : (**ما شبعتُ قطُّ إلَّا عصيتُ ، أو هممتُ بمعصيةٍ**)[1] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (**أوَّلُ بدعةٍ حدثَتْ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . الشِّبعُ ؛ إنَّ القومَ لمَّا شبعَتْ بطونُهُم . . جَمَحَتْ بهِم نفوسُهُم إلى الدُّنيا**)[2] .

وأمَّا شهوةُ الفرجِ : فلا تخفىٰ غائلتُها ، **والجوعُ يكفي شرَّها** ، فمَنْ شبعَ . . فلا يَملِكُ فرجَهُ ، فإنْ منعَهُ التَّقوىٰ . . فلا يَملِكُ عينيهِ ؛ فالعينُ تزني كما أنَّ الفَرْجَ يزني ، **وجميعُ معاصي الأعضاءِ السَّبعةِ سببُها القُوَّةُ الحاصلةُ في الشِّبعِ .**

وقالَ حكيمٌ : (كلُّ مريدٍ صبرَ علىٰ أكلِ الخبزِ البحتِ سنةً ،

---

(١) رواه أبو موسى المديني في « نزهة الحفاظ » (ص ٨٨) ، والإمام السهروردي في « عوارف المعارف » (٢/٥٧٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الجوع » (٢٢) .

لا يَخلطُ معَهُ شيئاً مِنَ الشَّهَواتِ ، ويأكلُ بنصفِ بطنِهِ . . رفعَ اللهُ تعالىٰ عنهُ مؤنةَ شهوةِ النِّساءِ) .

السَّادسةُ : خفَّةُ البدنِ للتَّهجُّدِ والعبادةِ ، وزوالُ النَّومِ المانعِ مِنَ العبادةِ ؛ فإنَّ رأسَ مالِ السَّعادةِ العمرُ ، والنَّومُ ينقصُ العمرَ ؛ إذ يمنعُ مِنَ العبادةِ ، وأصلُهُ كثرةُ الأكلِ .

قالَ أبو سليمانَ الدَّارانيُّ : (**مَنْ شبعَ . . دخلَ عليهِ ستُّ خصالٍ** : فقدُ حلاوةِ العبادةِ ، وتعذُّرُ حفظِ الحكمةِ ، وحرمانُ الشَّفقةِ على الخَلْقِ ؛ لأنَّه إذا شبعَ . . ظنَّ الخَلْقَ كلَّهُم شِباعاً ، وثِقَلُ العبادةِ ، وزيادةُ الشَّهَواتِ ، وأنَّ سائرَ المؤمنينَ يدورونَ حولَ المساجدِ ، وهو يدورُ حولَ المزابلِ)[1] .

السَّابعةُ : خفَّةُ المؤنةِ ، وإمكانُ القناعةِ بقليلٍ مِنَ الدُّنيا ، وإمكانُ إيثارِ الفقرِ ؛ فإنَّ مَنْ قَنِعَ . . تَخلَّصَ مِنْ شَرَهِ بطنِهِ ، ولم يَفتقِرْ إلىٰ مالٍ كثيرٍ ، فيسقطُ عنهُ أكثرُ همومِ الدُّنيا ، فمهما أرادَ أن يستقرضَ لقضاءِ شهوةِ البطنِ . . استقرضَ مِنْ نفسِهِ ، وتركَ شهوتَهُ ؛ كانَ إذا قيلَ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ في شيءٍ : إنَّه غالٍ . . قالَ : (**أرخصوهُ بالتَّركِ**)[2] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦١) .

(٢) كذا في « قوت القلوب » (٢/١٧٣) .

فَصْلٌ

[في كيفيَّةِ التقليلِ مِنَ الطعامِ]

لعلَّكَ تقولُ : قد صارَ الشِّبَعُ والإكثارُ مِنَ الأكلِ لي عادةً ، فكيفَ أتركُها ؟

فاعلمْ : أنَّ ذٰلكَ يَسهُلُ علىٰ مَنْ أرادَهُ بالتَّدريجِ ؛ وهوَ أن يَنقُصَ كلَّ يومٍ مِنْ طعامِهِ لقمةً ، حتَّىٰ يَنقُصَ رغيفاً في مقدارِ شهرٍ ، فلا يظهرُ أثرُهُ ، ويصيرُ التَّقليلُ عادةً .

ثـمَّ إذا رغبتَ بالتَّقليلِ . . فلكَ نظرٌ في القدرِ ، والوقتِ ، والجنسِ .

أمَّا القدْرُ . . فلهُ ثلاثُ درجاتٍ :

أعلاها ـ وهيَ درجةُ الصِّدِّيقينَ ـ : **الاقتصارُ علىٰ قَدْرِ القِوامِ** ؛ وهوَ الذي يُخافُ مِنَ النُّقصانِ منهُ على العقلِ أوِ الحياةِ ، وهوَ اختيارُ **سهلٍ التُّستَرِيِّ** ، وكانَ يرىٰ أنَّ الصَّلاةَ قاعداً لضعفِهِ بالجوعِ أفضلُ مِنَ الصَّلاةِ قائماً معَ قُوَّةِ الأكلِ (١) .

الثَّانيةُ : أنْ تقنعَ بنصفِ مُدٍّ كلَّ يومٍ ؛ وهوَ ثلثُ البطنِ ، وهوَ

---

(١) قال الحافظ الزبيدي رحمه الله تعالىٰ في « إتحاف السادة المتقين » (٧/٤٠٤) : (فعلم من هٰذا : أن المحافظة على العقل مقدمة علىٰ محافظة القوة ، فإن لم يصلح عقل المريد بالخبز البحت . . فلا بأس أن يأتدم ببعض الأدهان ، وقد كان سهل رحمه الله تعالىٰ يقول للمتقلِّلين من أهل عبَّادان ـ كما في « قوت القلوب » [٢/١٧٢] ـ : احفظوا عقولكم ، وتعاهدوا بالأدهان والدسم ؛ فإنه ما كان ولي لله ناقص العقل) .

عادةُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ وجماعةٍ مِنَ الصَّحابةِ [١] ؛ إذ كانَ قوتُ أحدِهِم في الأسبوعِ صاعاً مِنْ شعيرٍ [٢] .

الثَّالثةُ : المدُّ الواحدُ ، وما جاوزَ ذٰلكَ فهوَ مشاركةٌ معَ أهلِ العادةِ ، وميلٌ عن طريقِ السَّالكينَ مِنَ المسافرينَ إلى اللهِ تعالىٰ .

وقد يُؤثِّرُ في المقاديرِ اختلافُ الأحوالِ والأشخاصِ ، وعندَ ذٰلكَ فالأصلُ فيهِ [٣] : أن يمدَّ اليدَ إذا صدقَ جوعُهُ ، ويكفَّ وهوَ بَعدُ صادقُ الاشتهاءِ .

وعلامةُ صدقِ الجوعِ : أن تشتهيَ أيَّ خبزٍ كانَ مِنْ غيرِ أُدْمٍ ، فإذا استُثقِلَ الأكلُ بغيرِ أُدْمٍ . . فهوَ علامةُ الشِّبعِ .

وأمَّا الوقتُ . . ففيهِ أيضاً ثلاثُ درجاتٍ :

أعلاها : أن يطويَ ثلاثةَ أيَّامٍ فما فوقَها ؛ فقدْ كانَ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ يطوي ستَّةَ أيَّامٍ [٤] ، وإبراهيمُ بنُ أدهمَ والثَّوريُّ

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/١٦٩) .

(٢) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/١٦٧) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/٣٠٠) عن ابن سيرين : أن رجلاً قال لابن عمر : أجعل لك جوارش ؟ قال : (وأي شيء الجوارش ؟) قال : شيء إذا كظَّك الطعام ـ أي : امتلأت بطنك ـ فأصبت منه . . سهَّل عليك ، قال : فقال ابن عمر : (ما شبعت من الطعام أربعة أشهر ، وما ذاك ألا أكون له واجداً ، ولٰكني عهدت قوماً يشبعون مرة ويجوعون أخرىٰ) .

(٣) في (ح) : (فالأفضل فيه) بدل (فالأصل فيه) .

(٤) وفي « قوت القلوب » (٢/١٦٦) أن سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يطوي ستّاً ، ←

سبعاً[١] ، وبعضُهُمْ انتهىٰ إلىٰ أربعينَ يوماً ، وقيلَ : (مَنْ طوىٰ أربعينَ يوماً . . ظهرَتْ لهُ ـ لا محالةَ ـ أشياءُ مِنْ عجائبِ الملكوتِ)[٢] ، ولا يمكنُ ذٰلكَ إلَّا بالتَّدريجِ .

وأمَّا الأوسطُ : فأن يطويَ يومينِ .

والأدنىٰ : أن يأكلَ في اليومِ مرَّةً واحدةً ؛ فمَنْ أكلَ في اليوم مرَّتينِ . . لم تكنْ لهُ حالةُ جوعٍ أصلاً ، فيكونُ قد تركَ فضيلةَ الجوعِ .

وأمَّا الجنسُ :

فأعلاهُ : خبزُ البُرِّ معَ الإدامِ .

وأدناهُ : خبزُ الشَّعيرِ مِنْ غيرِ إدامٍ ، والمداومةُ على الإدامِ مكروهٌ جدّاً .

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لولدِهِ : (كُلْ مرَّةً خبزاً ولحماً ، ومرَّةً خبزاً وسمناً ، ومرَّةً خبزاً ولبناً ، ومرَّةً خبزاً ومِلحاً ، ومرَّةً خبزاً قَفاراً)[٣] ، فهٰذا تنبيهٌ على الأحسنِ في أهلِ العادةِ .

← وسيدنا عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما كان يطوي سبعاً ، وكذا أبو الجوزاء صاحب سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(١) جاء في « الرسالة القشيرية » (ص ١٣٢) : أن سهلاً التستري طوىٰ خمساً وعشرين ليلة وبقي علىٰ ذٰلك عشرين سنة .

(٢) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٦٦/٢) بنحوه .

(٣) القَفار : الخبز بلا أُدْمٍ .

وأمَّا السَّالكونَ الطَّريقَ : فقد بالغوا في تركِ الإدامِ ، بل في تركِ الشَّهَواتِ جملةً ، حتَّىٰ كانَ بعضُهُم يشتهي الشَّهوةَ عشرَ سنينَ وعشرينَ سنةً ، وهوَ يخالفُ نفسَهُ ويمنعُها شهوتَها ، وقد قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شِرَارُ أُمَّتِي . . ٱلَّذِينَ غُذُوا بِٱلنَّعِيمِ ، وَنَبَتَتْ عَلَيْهِ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنَّمَا هِمَّتُهُمْ أَلْوَانُ ٱلطَّعَامِ ، وَأَنْوَاعُ اللِّبَاسِ ، وَيَتَشَدَّقُونَ فِي ٱلْكَلَامِ »[1] .

وقد شرحنا طريقَ السَّلفِ في تركِ الشَّهَواتِ في (كتابِ كسرِ الشَّهوتينِ) مِنَ « الإحياءِ »[2] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٣١٨/٥) من حديث السيدة فاطمة عليها السلام ، ورواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠٧/٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩٠/٦) من حديث سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .
(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٣١٩/٥) ، ووقع في هامش (و) : (بلغ مقابلة) .

الأصل الثاني

في شره الكلام

وذلكَ لا بدَّ مِنْ قطعِهِ ؛ فإنَّ الجوارحَ كلَّها تُؤثِّرُ أعمالُها في القلبِ ، لكنَّ اللِّسانَ أخصُّ بهِ ؛ **لأنَّه يُؤدِّي عنِ القلبِ ما فيهِ مِنَ الصُّورِ** ، فتقتضي كلُّ كلمةٍ صورةً في القلبِ محاكيةً لها ؛ فلذلكَ إذا كانَ كاذباً . . حصلَ في القلبِ صورةٌ كاذبةٌ ، واعوجَّ بهِ وجهُ القلبِ ، وإذا كانَ في شيءٍ مِنَ الفضولِ مستغنىً عنهُ . . اسودَّ بهِ وجهُ القلبِ وأظلمَ ، حتَّىٰ تنتهيَ كثرةُ الكلامِ إلىٰ إماتةِ القلبِ .

ولذلكَ عظَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمرَ اللِّسانِ فقالَ : « مَنْ يَتَكَفَّلْ لِي بِمَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَرِجْلَيْهِ . . أَتَكَفَّلْ لَهُ بِٱلْجَنَّةِ »(١) .

وسُئِلَ عن أكثرِ ما يُدخِلُ النَّاسَ النَّارَ ، فقالَ : « ٱلْأَجْوَفَانِ : ٱلْفَمُ ، وَٱلْفَرْجُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وَهَلْ يَكُبُّ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ فِي ٱلنَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟! »(٣) .

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٤) ، والترمذي (٢٤٠٨) واللفظ له من حديث سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٤) ، وابن ماجه (٤٤١٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي (٢٦١٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦) من حديث سيدنا معاذ رضي الله عنه .

وقالَ : « مَنْ صَمَتَ . . نَجَا »[1] .

وقالَ لهُ معاذٌ رضيَ اللهُ عنهُ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فأخرجَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لسانَهُ ، ووضعَ عليهِ يدَهُ ، وقالَ : « إِنَّ أَكْثَرَ خَطَايَا ٱبْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . . فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ . . كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ . . كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ ، وَمَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ . . فَٱلنَّارُ أَوْلَىٰ بِهِ »[4] .

ولهٰذا كانَ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ يضعُ حجراً في فيهِ ؛ ليمنعَ نفسَهُ مِنَ الكلامِ[5] .

فَصْلٌ

[في بيانِ الاقتصارِ على المهمِّ مِنَ الكلامِ]

اعلمْ : أنَّ للِّسانِ عشرينَ آفةً ، شرحناها في (كتابِ آفاتِ

(١) رواه الترمذي (٢٥٠١) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٨) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٩٧/١٠) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٥٣٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧٤/٣) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(٥) قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٤٥٦/٧) : (قد اشتهر ذٰلك عنه ، وحكاه غير واحد من العلماء) .

اللِّسانِ) مِنَ « الإحياءِ » ويطولُ ذكرُها ها هنا[1] ، ويكفيكَ العملُ بآيةٍ واحدةٍ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴿١١٤﴾ ﴾ .

ومعناهُ : ألَّا تتكلَّمَ فيما لا يعنيكَ ، وتقتصرَ على المُهِمِّ ، ففيهِ النَّجاةُ .

قالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : استُشهِدَ غلامٌ منَّا يومَ أُحُدٍ ، فوُجِدَ علىٰ بطنِهِ صخرةٌ مربوطةٌ مِنَ الجوعِ ، فمسحَتْ أُمُّهُ التُّرابَ عن وجهِهِ ، وقالَتْ : هنيئاً لكَ الجنَّةُ يا بنيَّ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وَمَا يُدْرِيكِ ؟ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ ، وَيَمْنَعُ مَا لَا يَضُرُّهُ »[2] .

وحدُّ ما لا يعني : هوَ الذي لو تُرِكَ . . لم يَفُتْ بهِ ثوابٌ ، ولم ينجرَّ بهِ ضررٌ .

ومَنِ اقتصرَ مِنَ الكلامِ علىٰ هـٰذا . . قلَّ كلامُهُ ، فليُحاسِبِ العبدُ نفسَهُ عندَ ذكرِهِ ما لا يعنيهِ : أنَّه لو ذكرَ اللهَ تعالىٰ بدلاً عن تلكَ الكلمةِ . . لكانَ ذٰلكَ كنزاً مِنْ كنوزِ السَّعادةِ ، فكيفَ يسمحُ العاقلُ بتركِ كنزٍ مكنوزٍ وأخذِ مَدَرةٍ ؟! هـٰذا لو لم يكنْ فيهِ إثمٌ ،

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٣٨٩/٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٠١٧) ، وهو عند الترمذي (٢٣١٦) مختصراً .

فإن كانَ فيهِ إثمٌ . . فهوَ كتركِ كنزٍ وأخذِ شعلةٍ مِنْ نارٍ !!

ومِنْ جملةِ ما لا يعني : حكايةُ أحوالِ الأسفارِ ، وأحوالِ أطعمةِ البلادِ وعاداتِهِم ، وأحوالِ النَّاسِ ، وأحوالِ الصِّناعاتِ والتِّجاراتِ ، وهوَ مِنْ جملةِ ما ترى النَّاسَ يخوضونَ فيهِ .

فَصْلٌ

[في تفصيلِ بعضِ آفاتِ اللسانِ]

لعلَّكَ تريدُ أن تعرفَ تفصيلَ بعضِ هـٰذهِ الآفاتِ .

فاعلمْ : أنَّ الغالبَ على الألسنةِ مِنْ جملةِ العشرينَ آفةً خمسٌ : **الكذبُ ، والغِيبةُ ، والمماراةُ ، والمدحُ ، والمزاحُ .**

الأُولى : الكذبُ .

وقد قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا يَزَالُ ٱلْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى ٱلْكَذِبَ . . حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ ٱللهِ كَذَّاباً »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيَضْحَكَ مِنْهُ ٱلنَّاسُ ، وَيْلٌ لَهُ ، وَيْلٌ لَهُ »(٢) .

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيزني المؤمنُ ؟ أيسرقُ المؤمنُ ؟ قالَ :

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٦) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .
(٢) رواه أبو داوود (٤٩٥١) ، والترمذي (٢٣١٥) من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه .

« قَدْ يَكُونُ ذَٰلِكَ » ، فقيلَ لهُ : أيكذبُ ؟ فقالَ : « لَا ، ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۞ ﴾ »[1] .

وقالَ : « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ ٱلْكَبَائِرِ ؟ ٱلْإِشْرَاكُ بِٱللَّهِ ، وَعُقُوقُ ٱلْوَالِدَيْنِ » ، وكان مُتَّكئاً فقعدَ ، وقالَ : « أَلَا وَقَوْلُ ٱلزُّورِ »[2] .

وقالَ عليهِ السَّلامُ : « كُلُّ خَصْلَةٍ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَيْهَا ٱلْمُؤْمِنَ إِلَّا ٱلْخِيَانَةَ وَٱلْكَذِبَ »[3] .

فَصْلٌ

[في تفصيلِ أحكامِ الكذبِ]

اعلمْ : أنَّ الكذبَ حرامٌ في كلِّ شيءٍ إلَّا لضرورةٍ ، حتَّىٰ قالَتِ امرأةٌ لولدِها الصَّغيرِ : تعالَ حتَّىٰ أُعطِيَكَ ، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وَمَاذَا كُنْتِ تُعْطِينَهُ لَوْ جَاءَ ؟ » ، قالَتْ : تمرةً ، قالَ : « أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلِي . . كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ »[4] .

فليحذرِ الإنسانُ الكذبَ حتَّىٰ في التَّخيُّلِ وحديثِ النَّفسِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يُثبتُ في النَّفسِ صورةً مُعوَجَّةً حتَّىٰ تَكذِبَ الرُّؤيا ، فلا تنكشفُ لهُ في النَّومِ أسرارُ الملكوتِ ، والتَّجرِبةُ تشهدُ بذٰلكَ .

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٣٢) من حديث عبد الله بن جراد رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤) ، ومسلم (٨٧) من حديث سيدنا أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/٢٥٢) من حديث سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .
(٤) رواه أبو داوود (٤٩٥٢) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٤٠) من حديث سيدنا عبد الله بن عامر رضي الله عنه .

نعم ؛ إنَّما يُرخَّصُ في الكذبِ إذا كانَ الصِّدقُ يفضي إلىٰ محذورٍ آخرَ أشدَّ مِنَ الكذبِ ، فيُباحُ كما تُباحُ الميتةُ إذا أدَّىٰ تركُها إلىٰ محذورٍ آخرَ أشدَّ مِنْ أكلِها ؛ وهوَ فواتُ الرُّوحِ .

قالَتْ أمُّ كلثومٍ رضيَ اللهُ عنها : (**ما رَخَّصَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في شيءٍ مِنَ الكذبِ . . إلَّا في ثلاثٍ** : الرَّجلُ يقولُ القولَ يريدُ بهِ الإصلاحَ ، والرَّجلُ يقولُ القولَ في الحربِ ، والرَّجلُ يُحدِّثُ امرأتَهُ)[1] .

وهٰذا ؛ لأنَّ **أسرارَ الحربِ** لو وقفَ عليها العدوُّ . . اجترأَ ، وأسرارُ **الزَّوجِ** لو وقفَتْ عليها المرأةُ . . نشأَ منهُ فسادٌ أعظمُ مِنْ فسادِ الكذبِ ، وكذٰلكَ **المتخاصمانِ** تدومُ بينَهُما الخصومةُ والعداوةُ ، فإذا أمكنَ الإصلاحُ بكذبٍ . . فذٰلكَ أَولىٰ .

فهٰذا ما وردَ فيهِ الخبرُ .

وما في معناهُ : كذبُ الإنسانِ ليسترَ مالَ غيرِهِ عن ظالمٍ ، أو إنكارُهُ ليسترَ غيرَهُ ، بل إنكارُهُ لمعصيةِ نفسِهِ عن غيرِهِ ؛ فإنَّ المجاهرةَ بالفسقِ وإظهارَهُ حرامٌ ، وإنكارُهُ جنايةَ نفسِهِ علىٰ غيرِهِ لتطييبِ قلبِهِ ، وإنكارُهُ معَ زوجتِهِ أن تكونَ ضَرَّتُها أحبَّ إليهِ ، **وكلُّ ذٰلكَ يرجعُ إلىٰ دفعِ المضرَّاتِ .**

ولا يُباحُ لجلبِ زيادةِ مالٍ وجاهٍ ، وفيهِ يكونُ كذبُ أكثرِ النَّاسِ .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠٥) ، وأم كلثوم : هي بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها .

ثمَّ إذا اضطُرَّ إلى الكذبِ . . فليَعدِلْ إلى المعاريضِ ما أمكنَ ؛ حتَّىٰ لا تعتادَ نفسُهُ الكذبَ .

كانَ إبراهيمُ النخعي إذا طُلِبَ في الدَّارِ . . قالَ لخادمتِهِ : (قولي لهُ : اطلبْهُ في المسجدِ) .

وكانَ الشَّعبيُّ يَخُطُّ دائرةً ، ويقولُ لخادمتِهِ : (ضعي الإصبعَ فيها ، وقولي : ليسَ ها هنا) .

وكانَ بعضُهُم يعتذرُ عندَ الأميرِ ويقولُ : (منذُ فارقتُكَ ما رفعتُ جنبي مِنَ الأرضِ إلَّا ما شاءَ اللهُ تعالىٰ) .

وكانَ بعضُهُم ينكرُ ما قالَ ؛ فيقولُ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ ليَعلَمُ ما قلتُ مِنْ ذٰلكَ مِنْ شيءٍ) ، فيوهمُ النَّفيَ بحرفِ (ما) وهوَ يريدُ غيرَ ذٰلكَ [1] .

وتُباحُ المعاريضُ لغرضٍ خفيفٍ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا تَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ عَجُوزٌ » [2] ، و« نَحْمِلُكِ عَلَىٰ وَلَدِ ٱلْبَعِيرِ » [3] ، و« فِي عَيْنِ زَوْجِكِ بَيَاضٌ » [4] ؛ لأنَّ هٰذهِ الكلماتِ أوهمَتْ خلافَ

---

(١) فمراده من (ما) أن تكون اسماً موصولاً مفعولاً به لـ (يعلم) ، وليس مراده أن (ما) حرف نفي .

(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » (٢٤٦) عن الحسن مرسلاً .

(٣) رواه أبو داوود (٤٩٥٩) ، والترمذي (١٩٩١) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٤) قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٧/٥٠٠) : (قال العراقي : رواه الزبير بن بكار في كتاب « الفكاهة والمزاح » ، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبد الله بن سهم الفهري مع اختلاف) .

ما أرادَ ، فيُباحُ مثلُ ذٰلكَ معَ النِّساءِ والصِّبيانِ لتطييبِ قلوبِهِم بالمِزاحِ .

وكذٰلكَ مَنْ يمتنعُ عن أكلِ الطَّعامِ فلا ينبغي أن يَكذِبَ ويقولَ : (لا أشتهي) إذا كانَ يشتهي ، بل يعدلُ إلى المعاريضِ .

قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لامرأةٍ قالَتْ ذٰلكَ : « لَا تَجْمَعِي كَذِباً وَجُوعاً »[1] .

الآفةُ الثَّانيةُ : الغِيبةُ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْغِيبَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلزِّنَا »[2] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السَّلامُ : (مَنْ ماتَ تائباً مِنَ الغِيبةِ . . فهوَ آخرُ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ ، ومَنْ ماتَ مُصِرّاً عليها . . فهوَ أوَّلُ مَنْ يدخلُ النَّارَ)[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَىٰ قَوْمٍ

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٥٥/٢٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٤٨١) من حديث سيدتنا أسماء بنت عميس رضي الله عنها .

(٢) رواه هناد في « الزهد » (١١٧٨) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٦٥٨٦) من حديث سيدنا جابر وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما .

(٣) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٩٩) .

يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ بِأَظْفَارِهِمْ ، قُلْتُ : مَنْ هَٰؤُلَاءِ ؟ فَقِيلَ لِي : هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ يَغْتَابُونَ ٱلنَّاسَ »[1] .

واعلمْ : أنَّ حدَّ الغِيبةِ كما بيَّنَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : **أن تذكرَ أخاكَ بما يكرهُهُ لو بلغَهُ وإن كنتَ صادقاً** ؛ سواءٌ ذكرتَ نقصاناً في نفسِهِ ، أو عقلِهِ ، أو ثوبِهِ ، أو فعلِهِ ، أو قولِهِ ، أو نسبِهِ ، أو دارِهِ ، أو دابَّتِهِ ، أو شيئاً ممَّا يَتعلَّقُ بهِ ، حتَّىٰ قولُكَ : (إنَّهُ واسعُ الكُمِّ ، أو طويلُ الذَّيلِ) ، حتَّىٰ ذُكِرَ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ ، فقيلَ : ما أعجزَهُ !! فقالَ : « ٱغْتَبْتُمُوهُ »[2] .

وأشارَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها بيدِها إلى امرأةٍ ؛ **أنَّها قصيرةٌ !!** فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱغْتَبْتِهَا »[3] .

فبهٰذا يُعلَمُ : أنَّ الغِيبةَ لا تَقتصِرُ على اللِّسانِ ، بل لا فرقَ بينَ أن يحصلَ التَّفهيمُ باليدِ ، أو بالرَّمزِ ، أو بالإشارةِ ، أو بالحركةِ ، أو بالمحاكاةِ ، أوِ التَّعريضِ المُفهِمِ ؛ كقولِكَ : (إنَّ بعضَ أقربائِنا[4] وبعضَ أصدقائِنا كذا وكذا) .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٤٤) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٥) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن وهب في « جامعه » (٢٧٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٦١) ، وانظر « مجمع الزوائد » (١٣١٧١) ، وقد كان جالساً معه عليه السلام ، فرأوا له عند قيامه عجزاً ، فقالوا ما قالوا .

(٣) رواه أبو داوود (٤٨٤٢) ، والترمذي (٢٥٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٠٧) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٤) كذا في (ج) وهامش (هـ) ، وفي سائر النسخ : (من مرَّ بنا) بدل (أقربائنا) .

واعلمْ : أنَّ أخبثَ أنواعِ الغِيبةِ غِيبةُ القرَّاءِ ؛ يقولونَ مثلاً : (الحمدُ للهِ الذي لم يبتلِنا بالدُّخولِ على السلُّطانِ لطلبِ الدُّنيا) ، أو : (نعوذُ باللهِ مِنْ قلَّةِ الحياءِ) ، وهم يفهمونَ المقصودَ بذٰلكَ ، ويقولونَ : (ما أحسنَ أحوالَ فلانٍ لولا أنَّهُ بُلِيَ بمثلِ ما بُلِيَ بهِ أمثالُنا ـ وهوَ قلَّةُ الصَّبرِ عنِ الدُّنيا ـ فنسألُ اللهَ تعالىٰ أن يعافيَنا) ، وغرضُهُم بذٰلكَ الغِيبةُ .

فيجمعونَ بينَ الغِيبةِ والرِّياءِ وإظهارِ التَّشبُّهِ بأهلِ الصَّلاحِ في الحذرِ مِنَ الغِيبةِ ، وهٰذهِ خبائثُ ، ثمَّ يَغترُّونَ بها ويظنُّونَ أنَّهُم تركوا الغِيبةَ .

وكذٰلكَ قد يُغتابُ واحدٌ ، فيغفلُ عنهُ الحاضرونَ ، فيقولُ : (سبحانَ اللهِ !! ما أعجبَ هٰذا !!) حتَّىٰ ينتبهَ القومُ إلى الإصغاءِ ، فيستعملُ ذكرَ اللهِ تعالىٰ في تحقيقِ خُبثِهِ ، ويقولُ : (قلبي مشغولٌ بفلانٍ تابَ اللهُ علينا وعليهِ) وليسَ غرضُهُ الدُّعاءَ لهُ ، بلِ التَّعريفُ ، ولو قصدَ الدُّعاءَ . . لأخفاهُ ، ولوِ اغتمَّ قلبُهُ لأجلِهِ . . لكتمَ عيبَهُ ومعصيتَهُ .

وكذٰلكَ قد يُظهِرُ المستمعُ تعجُّباً مِنْ كلامِ المغتابِ حتَّىٰ يزيدَ نشاطُهُ في الغِيبةِ ، و« ٱلْمُسْتَمِعُ أَحَدُ ٱلْمُغْتَابَيْنِ » ؛ كذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ [١] ، فكيفَ إذا حرَّكَ نشاطَهُ بالتَّعجُّبِ ؟!

---

(١) روىٰ أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣١٢٢/٦) عن الحسن قال : (حدثني سبعة رهط من ←

وكذلكَ قد يقولُ : (دعْ غِيبةَ النَّاسِ) وهوَ بقلبِهِ غيرُ كارهٍ لغِيبتِهِ ، إنَّما غرضُهُ أن يُعرَفَ بالتَّورُّعِ ؛ وذلكَ لا يخرجُهُ عن إثمِ الغِيبةِ ما لم يَكرَهْها بقلبِهِ ، ويُورِّطُهُ في إثمِ الرِّياءِ ، بل إنَّما يخرجُ مِنَ الإثمِ : بأن يكرهَهُ بقلبِهِ ، ويُكذِّبَ المغتابَ ولا يُصدِّقَهُ بقلبِهِ ؛ لأنَّهُ فاسقٌ يَستحِقُّ التَّكذيبَ ، والمسلمُ المذكورُ بالغِيبةِ يَستحِقُّ إحسانَ الظَّنِّ بهِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ حَرَّمَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَعِرْضَهُ ، وَأَن يُظَنَّ بِهِ ظَنُّ ٱلسَّوْءِ »(١) .

فالغِيبةُ بالقلبِ حرامٌ ، كما أنَّها باللِّسانِ حرامٌ ، إلَّا أن يُضطَرَّ إلىٰ معرفتِهِ بحيثُ لا يمكنُهُ التَّجاهلُ .

فَصْلٌ

[في بيانِ المواضعِ التي تُباحُ الغِيبةُ فيها]

إنَّما يُرخَّصُ في الغِيبةِ في ستَّةِ مواضعَ :

الأوَّلُ منها : المُتظلِّمُ يذكرُ ظلمَ الظَّالمِ عندَ سلطانٍ ليدفعَ ظلمَهُ ، فأمَّا عندَ غيرِ السُّلطانِ ، وعندَ مَنْ لا يقدرُ على الدَّفعِ . . فغِيبةٌ .

← أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه نهىٰ عن النياحة وعن سماعٍ إلى النياحة ، ونهىٰ عن الغيبة والاستماع إلى الغيبة . . .) الخبر .

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٣١/١١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٢٨٠) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

اغتيبَ الحجَّاجُ عندَ بعضِ السَّلفِ ، فقالَ : (إنَّ اللهَ لينتقمُ للحجَّاجِ ممَّنِ اغتابَهُ ، كما ينتقمُ مِنَ الحجَّاجِ لمَنْ ظلمَهُ)[1] .

الثَّاني : الذي يُستعانُ بهِ علىٰ تغييرِ المُنكَرِ يجوزُ لهُ أن يَذكُرَ عندَهُ أيضاً .

الثَّالثُ : المستفتي إذا افتقرَ إلىٰ ذكرِهِ للسُّؤالِ ؛ كما قالَتْ هندٌ : إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ شحيحٌ ، لا يعطيني ما يكفيني وولدي ، أفآخذُ مِنْ غيرِ علمِهِ ؟ فقالَ : « خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِٱلْمَعْرُوفِ »[2] ، فذكرَتِ الشُّحَّ والظُّلمَ ولم يَزجُرْها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهٰذا كلُّهُ شِكايةٌ ، ولٰكنْ إنَّما يَحِلُّ إذا كانَتْ فيها فائدةٌ .

الرَّابعُ : تحذيرُ المسلمِ مِنْ شرِّ الغيرِ إذا عَلِمَ أنَّهُ لو لم يذكرْهُ . . لقُبِلَتْ شهادتُهُ ، كما يذكرُ المُزكِّي[3] ؛ أو يُعامِلُ ويُناكِحُ فيُتضرَّرُ بهِ ، فيذكرُهُ لمَنْ يَتوقَّعُ تضرُّرَهُ بهِ فقطْ .

الخامسُ : أن يكونَ معروفاً باسمٍ فيهِ عيبٌ ؛ كالأعمشِ والأعرجِ ، فلا إثمَ علىٰ مَنْ ذكرَ ذٰلكَ ، والعدولُ إلى اسمٍ آخرَ أَولىٰ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٤١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٢٥٤) ، وصاحب القول هو ابن سيرين رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه البخاري (٢٢١١) ، ومسلم (١٧١٤) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٣) وعبارة المصنف في « إحيائه » (٥/٥٣٩) : (وكذٰلك المزكي إذا سئل عن الشاهد . . فله الطعن فيه إن علم مطعناً) .

السَّادسُ : أن يكونَ مُجاهِراً بذٰلكَ العيبِ ، لا يكرهُ أن يُذكَرَ بهِ ؛ كالمُخنَّثِ وصاحبِ الماخورِ (١) .

قالَ الحسنُ : (ثلاثةٌ لا غِيبةَ لهُم : صاحبُ الهوىٰ ، والفاسقُ المُعلِنُ بالفسقِ ، والإمامُ الجائرُ) (٢) .

وهٰؤلاءِ يجمعُهُم : أنَّهم مُجاهِرونَ لا يكرهونَ الذِّكرَ ، والصَّحيحُ : أنَّ ذكرَ الفاسقِ بمعصيةٍ يخفيها ويكرهُ ذكرَها لا يجوزُ مِنْ غيرِ عذرٍ .

فَصْلٌ

[في بيانِ كيفيةِ العلاجِ مِنَ الغِيبةِ]

علاجُ النَّفسِ في كفِّها عنِ الغِيبةِ : أن يَتفكَّرَ في الوعيدِ الواردِ فيها في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلْغِيبَةَ أَسْرَعُ فِي حَسَنَاتِ ٱلْعَبْدِ مِنَ ٱلنَّارِ فِي ٱلْيَبَسِ » (٣) .

ووردَ : أنَّ حسناتِ المُغتابِ تُنقَلُ إلىٰ دِيوانِ المظلومِ بالغِيبةِ (٤) ،

---

(١) الماخور : مجلس الفسق والريبة والشراب والفساد .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٢٣) بنحوه عن إبراهيم النخعي .

(٣) روى ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٠٢) عن الحسن قوله : (إياكم والغيبة ، والذي نفسي بيده ؛ لهي أسرع في الحسنات من النار في الحطب) .

(٤) كما يفيده ما رواه مسلم (٢٥٨١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون ما المفلس ؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : « إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هٰذا ، وقذف هٰذا ، وأكل مال هٰذا ، وسفك دم هٰذا ، وضرب هٰذا ، فيُعطىٰ هٰذا من حسناته وهٰذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته قبل أن يُقضَىٰ ما عليه . . أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح في النار » .

فينظرُ في قلَّةِ حسناتِهِ ، وكثرةِ غِيبتِهِ ، وأنَّهُ ينتهي إلىٰ إفلاسِهِ على القربِ .

ثم يتفكَّرُ في عيوبِ نفسِهِ ؛ فإن كانَ فيهِ عيبٌ . . فيشتغلُ بنفسِهِ عن غيرِهِ ، وإن كانَ قدِ ارتكبَ صغيرةً . . فيعلمُ أنَّ ضررَهُ مِنْ صغيرةِ نفسِهِ أكبرُ مِنْ ضررِهِ مِنْ كبيرةِ غيرِهِ ، وإن لم يكنْ فيهِ عيبٌ . . فيعلمُ أنَّ جهلَهُ بعيوبِ نفسِهِ أعظمُ عيبٍ ، ومتىٰ يخلو الإنسانُ مِنْ عيبٍ ؟!

ثمَّ إن خلا عنهُ . . فليشكرِ اللهَ تعالىٰ بدلاً مِنَ الغِيبةِ ؛ فإنَّ ثلْبَ النَّاسِ كأكلِ لحمِ الميتةِ ، وأكلُ لحمِ الميتةِ مِنْ أعظمِ العيوبِ ، فليحذرْ منهُ .

ثمَّ مهما سبقَ لسانُهُ إلى الغِيبةِ . . فينبغي أن يستغفرَ اللهَ تعالىٰ ، ويذهبَ إلى المغتابِ ويقولَ : (ظلمتُكَ فاعفُ عنِّي) ، فيستحلَّهُ ، فإن لم يُصادِفْهُ . . فليُكثِرْ مِنَ الثَّناءِ عليهِ ، ومِنَ الدُّعاءِ لهُ ، ومِنَ الحسناتِ ، حتَّىٰ إذا نقلَ بعضُها إلىٰ دِيوانِ المظلومِ . . بقيَ لهُ ما يكفيهِ ، فهيَ كفَّارةُ الغِيبةِ .

الآفةُ الثَّالثةُ : المِراءُ والمجادلةُ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تَرَكَ ٱلْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ . . بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي أَعْلَى ٱلْجَنَّةِ ، وَمَنْ تَرَكَهُ وَهُوَ مُبْطِلٌ . . بُنِيَ لَهُ

بَيْتٌ فِي رَبَضِ ٱلْجَنَّةِ »[1] ؛ وهٰذا لأنَّ التَّركَ على المُحِقِّ أشدُّ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا يَسْتَكْمِلُ ٱلْعَبْدُ حَقِيقَةَ ٱلْإِيمَانِ . . حَتَّىٰ يَدَعَ ٱلْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ »[2] .

وحدُّ المِراءِ : هوَ الاعتراضُ علىٰ كلامِ الغيرِ بإظهارِ خَلَلٍ فيهِ ؛ إمَّا في اللَّفظِ ، وإمَّا في المعنىٰ .

والباعثُ عليهِ : زيادةُ التَّرفُّعِ بإظهارِ الفضلِ .

وسببُهُ : إمَّا خُبثُ الرُّعونةِ ، وإمَّا خبثُ السَّبُعيَّةِ التي في الطَّبعِ ، المُتشوِّفةِ إلىٰ تنقيصِ الغيرِ وقهرِهِ .

فالمراءُ والمجادلةُ تقويةٌ لهٰذينِ الخُبثينِ المهلكينِ ، بلِ الواجبُ : أن يُصدِّقَ ما سمعَهُ مِنَ الحقِّ ، ويسكتَ عمَّا سمعَهُ مِنَ الخطأِ ، إلَّا إذا كانَ في ذكرِهِ فائدةٌ دينيَّةٌ ، وكانَ يُسمَعُ منهُ ، فيذكرُهُ برفقٍ لا بعنفٍ .

الآفةُ الرَّابعةُ : المِزاحُ ، والإفراطُ فيهِ يُكثِرُ الضَّحكَ ، ويُمِيتُ القلبَ ، ويُورِثُ الضَّغينةَ ، ويُسقِطُ المهابةَ والوَقارَ .

---

(١) رواه الترمذي (١٩٩٣) ، وابن ماجه (٥٣) ، وربض الجنة : نواحيها ، أو أدناها وأسفلها .

(٢) قطعة من حديث رواه الطبراني بنحوه في « مسند الشاميين » (٢١١٥) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِٱلْكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِهَا جُلَسَاءَهُ ، فَيَهْوِي بِهَا أَبْعَدَ مِنَ ٱلثُّرَيَّا »[١] .

وقالَ : « لَا تُمَارِ أَخَاكَ وَلَا تُمَازِحْهُ »[٢] .

واعلمْ : أنَّ اليسيرَ منهُ في بعضِ الأوقاتِ لا بأسَ بهِ ، لا سيَّما معَ النِّساءِ والصِّبيانِ ؛ تطييباً لقلوبِهم ، نُقِلَ ذٰلكَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، لٰكنَّهُ قالَ : « إِنِّي لَأَمْزَحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقّاً »[٣] ، ويَعسُرُ علىٰ غيرِهِ ضبطُ ذٰلكَ .

وقد رُوِيَ : أنَّهُ سابقَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها بالعَدْوِ[٤] .

وقالَ لعجوزٍ : « لَا تَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ عَجُوزٌ »[٥] ؛ أي : لا تبقىٰ عجوزاً في الجنَّةِ .

وقالَ لصبيٍّ : « يَا أَبَا عُمَيْرٍ ؛ مَا فَعَلَ ٱلنُّغَيْرُ ؟ »[٦] ، والنُّغَيرُ : ولدُ العصفورِ كانَ يلعبُ بهِ الصَّبيُّ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لصهيبٍ وهوَ يأكلُ التَّمرَ : « أَتَأْكُلُ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي (١٩٩٥) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٣٩١/١٢) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، وبنحوه عند الترمذي (١٩٩٠) .

(٤) رواه أبو داوود (٢٥٧١) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٩٤) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٥) تقدم قريباً (ص ٢٢٤) .

(٦) رواه البخاري (٦١٢٩) ، ومسلم (٢١٥٠) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

ٱلتَّمْرَ وَأَنْـتَ رَمِـدٌ ؟ » ، فقالَ : إنَّما آكلُ بالشِّقِّ الآخرِ ، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنَ المفاكهةِ لا بأسَ بهِ ، بشرطِ ألَّا يُتَّخذَ عادةً .

الآفةُ الخامسةُ : المدحُ ؛ كما جرتْ بهِ عادةُ النَّاسِ والشُّعراءِ عندَ زيارةِ المحتشمينَ مِنْ أبناءِ الدُّنيا ، وكما جرتْ بهِ عادةُ القُصَّاصِ والمُذكِّرينَ ؛ فإنَّهُم يمدحونَ مَنْ يحضرُ مجالسَهُم مِنَ الأغنياءِ .

وفي المدحِ ستُّ آفاتٍ : أربعٌ على المادحِ ، واثنتانِ على الممدوحِ .

أمَّا المادحُ :

فالآفةُ الأُولىٰ فيهِ : أنَّهُ قد يفرطُ فيذكرُهُ بما ليسَ فيهِ ، فيكونُ كاذباً .

الثَّانيةُ : أنَّهُ قد يُظهِرُ لهُ مِنَ الحبِّ ما لا يعتقدُهُ ، فيكونُ منافقاً مرائياً .

الثَّالثةُ : أنَّهُ يقولُ ما لا يَتحقَّقُهُ ، فيكونُ مجازفاً ؛ كقولِهِ : إنَّهُ عَدْلٌ ، وإنَّهُ وَرِعٌ ، وغيرُ ذٰلكَ ممَّا لا يَتحقَّقُ فيهِ .

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٥٩١) من حديث سيدنا صهيب رضي الله عنه .

مَدحَ رجلٌ بينَ يديْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلاً ، فقالَ : « وَيْحَكَ ؛ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ ، إِنْ كَانَ لَا بُدَّ أَحَدُكُمْ مَادِحاً أَخَاهُ . . فَلْيَقُلْ : أَحْسِبُ فُلَاناً وَلَا أُزَكِّي عَلَى ٱللهِ أَحَداً ، حَسِيبُهُ ٱللهُ إِنْ كَانَ يَرَىٰ أَنَّهُ كَذَٰلِكَ »[1] .

الرَّابعةُ : أن يفرحَ الممدوحُ بهِ ، وربَّما كانَ ظالماً ، فيعصي بإدخالِ السُّرورِ علىٰ قلبِهِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللهَ لَيَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ ٱلْفَاسِقُ »[2] .

وقالَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ دعا لظالمٍ بالبقاءِ . . فقد أحبَّ أن يُعصى اللهُ تعالىٰ)[3] .

فالظَّالمُ الفاسقُ ينبغي أن يُذَمَّ ؛ لتفتُرَ رغبتُهُ في الظُّلمِ والفسقِ .

وأمَّا الممدوحُ : فإحدى الآفتينِ فيهِ : أن يُحدِثَ فيهِ كِبْراً أو إعجاباً ، وهما مهلكانِ .

ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ »[4] .

الثَّانيةُ : أن يفرحَ بهِ فيفتُرَ عنِ العملِ ، ويرضىٰ عن نفسِهِ .

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦٢) ، ومسلم (٣٠٠٠) من حديث سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٥٤٣) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٤) .
(٤) كما تقدم قريباً قبل أسطر .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَوْ مَشَىٰ رَجُلٌ إِلَىٰ رَجُلٍ بِسِكِّينٍ مُرْهَفٍ . . كَانَ خَيْراً لَهُ مِنْ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ »[1] .

وأمَّا إذا سَلِمَ المدحُ مِنْ هٰذهِ الآفاتِ في المادحِ والممدوحِ . . فلا بأسَ بهِ ، وربَّما نُدِبَ إليهِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَو وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بكرٍ بِإِيمَانِ ٱلْعَالَمِينَ . . لَرَجَحَ »[2] .

وقالَ : « لَوْ لَمْ أُبْعَثْ . . لَبُعِثْتَ يَا عُمَرُ »[3] .

وقد أثنىٰ علىٰ كثيرٍ من الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم ؛ إذ عَلِمَ أنَّ ذٰلكَ يزيدُ في نشاطِهِم ، ولا يُورِثُهُم عُجْباً[4] .

فَصْلٌ

[فيما ينبغي أن يفعلَهُ الممدوحُ]

حقٌّ على الممدوحِ أن يَتأمَّلَ في خطرِ الخاتمةِ ، ودقائقِ الرِّياءِ ، وآفاتِ الأعمالِ ، ويَتذكَّرَ ما يعرفُهُ مِنْ نفسِهِ مِنَ القبائحِ الباطنةِ ،

---

(١) كذا في « آداب النفوس » للمحاسبي (ص ١٠٠) دون سند .

(٢) رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٢٠١/٤) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ، ورواه موقوفاً عليه أحمد في « فضائل الصحابة » (٦٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٥) .

(٣) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (٦٧٦) بنحوه ، والترمذي (٣٦٨٦) بنحوه عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه .

(٤) روى الطبراني في « المعجم الكبير » (١٧٠/١) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٩٧/٣) من حديث سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنهما : « إذا مدح المؤمن من وجهه . . ربا الإيمان في قلبه » ، وقوله : (من وجهه) أي : في وجهه .

لا سيَّما في أفكارِهِ وحديثِ نفسِهِ ما لو عرفَهُ المادحُ . . لكفَّ عنِ المدحِ .

وينبغي أن يُظهِرَ كراهةَ المدحِ ، ويكرهَهُ بقلبِهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱحْثُوا فِي وُجُوهِ ٱلْمَدَّاحِينَ ٱلتُّرَابَ »[١] .

وقالَ بعضُهُم لمَّا أُثنِيَ عليهِ : (اللَّهمَّ ؛ إنَّ عبدَكَ هٰذا تَقرَّبَ إليَّ بمقتِكَ ، وأنا أُشهِدُكَ علىٰ مقتِهِ)[٢] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا أُثنِيَ عليهِ : (اللَّهمَّ ؛ اغفرْ لي ما لا يعلمونَ ، ولا تؤاخذْني بما يقولونَ ، واجعلْني خيراً ممَّا يظنُّونَ)[٣] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٢) من حديث سيدنا المقداد رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٢) .

(٣) بنحوه رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣٢/٣٠) عن الأصمعي يحليه عن الصديق رضي الله عنه ، وروى البخاري في « الأدب المفرد » (٧٦١) عن عدي بن أرطاة قال : كان الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا زُكِّيَ . . قال : (اللهم ؛ لا تؤاخذني بما يقولون ، واغفر لي ما لا يعلمون) .

الأصل الثالث
في الغضب

اعلمْ : أنَّ الغضبَ شعلةُ نارٍ اقتُبِسَتْ مِنْ نارِ اللهِ المُوقَدةِ ، التي تطَّلعُ على الأفئدةِ ، ومَنْ غلبَ عليهِ الغضبُ . . فقد نزعَ إلىٰ عرقِ الشَّيطانِ ؛ فإنَّهُ مخلوقٌ مِنَ النَّارِ .

وكسرُ شدَّةِ الغضبِ مِنَ المُهِمَّاتِ في الدِّينِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَيْسَ ٱلشَّدِيدُ بِٱلصُّرَعَةِ ، إِنَّمَا ٱلشَّدِيدُ ٱلَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ ٱلْغَضَبِ »(١) .

وقالَ عليهِ السلامُ : « ٱلْغَضَبُ يُفْسِدُ ٱلْإِيمَانَ كَمَا يُفْسِدُ ٱلصَّبِرُ ٱلْعَسَلَ »(٢) .

وقالَ عليهِ السلامُ : « مَا غَضِبَ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا أَشْفَىٰ عَلَىٰ جَهَنَّمَ »(٣) .

وقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ شيءٍ أشدُّ ؟ قالَ : « غَضَبُ ٱللهِ

---

(١) رواه البخاري (٦١١٤) ، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٤١٧/١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٤١) من حديث سيدنا معاوية بن حيدة رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن عدي في « الكامل » (٥١/٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٧٨) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه .

تَعَالَىٰ » ، قالَ : فما يُبعِدُني مِنْ غضبِ اللهِ تعالىٰ ؟ قالَ : « أَلَّا تَغْضَبَ »(١) .

وقالَ رجلٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : مُرْني بعملٍ وأقلِلْ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا تَغْضَبْ » ، فأعادَ عليهِ مِراراً وهوَ يقولُ : « لَا تَغْضَبْ »(٢) .

وكيفَ لا تعظُمُ آفةُ الغضبِ وهوَ يَحمِلُ في الظَّاهرِ على الضَّربِ والشَّتمِ وإطالةِ اللِّسانِ ، وفي الباطنِ على الحقدِ والحسدِ ، وإضمارِ السُّوءِ والشَّماتةِ ، والعزمِ علىٰ إفشاءِ السِّرِّ وهتكِ السِّترِ ، والفرحِ بمصيبةِ المغضوبِ عليهِ ، والغمِّ بمَسرَّتِهِ ، وكلُّ واحدةٍ من هٰذهِ الخبائثِ مُهلِكةٌ ؟!

فَصْلٌ

[في علاجِ الغضبِ]

عليكَ في صفةِ الغضبِ وظيفتانِ :

إحداهُما : كسرُهُ بالرِّياضةِ ، ولستُ أعني بكسرِهِ : إماطتَهُ ؛ فإنَّهُ لا يزولُ أصلُهُ ، ولا ينبغي أن يزولَ ، بل إن زالَ . . وجبَ تحصيلُهُ ؛ لأنَّهُ آلةُ القتالِ معَ الكُفَّارِ ، والمنعِ مِنَ المُنكَراتِ ، ويصلُ بهِ إلىٰ كثيرٍ مِنَ الخيراتِ ، وهوَ ككلبِ الصَّائدِ ؛ **إنَّما رياضتُهُ** : في تأديبِهِ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/١٧٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٢٩) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) رواه البخاري (٦١١٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

حتَّىٰ يَنقادَ للعقلِ والشَّرعِ ، فيهيجَ بإشارةِ العقلِ والشَّرعِ ، ويسكنَ بإشارتِهِما ، ولا يخالفَهُما ، كما يَنقادُ الكلبُ للصَّيَّادِ ، وهٰذا ممكنٌ بالمجاهدةِ ؛ وهوَ اعتيادُ الحِلْمِ والاحتمالِ معَ التَّعرُّضِ للمُغضِباتِ .

الثَّانيةُ : ضبطُ الغضبِ عندَ الهيجانِ بالكظمِ ، ويعينُ عليهِ علمٌ وعملٌ .

أمَّا العلمُ : فهوَ أن يعلمَ أنَّه لا سببَ لغضبِهِ إلَّا أنَّهُ أنكرَ أن يجريَ الشَّيءُ علىٰ مُرادِ اللهِ تعالىٰ لا علىٰ مُرادِهِ ، وهٰذا غايةُ الجهلِ .

والآخَرُ : أن يعلمَ أنَّ غضبَ اللهِ تعالىٰ عليهِ أعظمُ مِنْ غضبِهِ ، وأنَّ فضلَ اللهِ تعالىٰ أكبرُ ، وكم عصاهُ وخالفَ أمرَهُ ، فلِمَ يغضبُ إن خالفَهُ غيرُهُ ؟ فليسَ أمرُهُ ألزمَ علىٰ عبدِهِ وأهلِهِ ورفيقِهِ مِنْ أمرِ اللهِ تعالىٰ عليهِ .

وأمَّا العملُ : فهوَ أن يقولَ : (أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ) إذ يعلمُ أنَّ ذٰلكَ مِنَ الشَّيطانِ ، فإن لم يَسكُنْ . . فليجلسْ إن كانَ قائماً ، ويضطجعْ إن كانَ قاعداً ؛ كذٰلكَ وردَ الخبرُ [١] ، فاختلافُ الحالِ يُؤثِّرُ في التَّسكينِ .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٧٤٩) بنحوه من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

وإن لم يَسكُنْ . . فليتوضَّأْ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلْغَضَبَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ، وَإِنَّ ٱلشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ ٱلنَّارِ ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ ٱلنَّارُ بِٱلْمَاءِ ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ . . فَلْيَتَوَضَّأْ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَلَا إِنَّ ٱلْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ٱبْنِ آدَمَ ؛ أَلَا تَرَوْنَ إِلَىٰ حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَٱنْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَٰلِكَ شَيْئاً . . فَلْيُلْصِقْ خَدَّهُ بِٱلْأَرْضِ »(٢) ، وهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ تمكينِ أعزِّ الأعضاءِ مِنْ أذلِّ المواضعِ ؛ لينكسرَ الكِبْرُ ؛ فإنَّهُ السَّببُ الأعظمُ في الغضبِ ؛ ليَعلَمَ أنَّهُ عبدٌ ذليلٌ ، فلا يَليقُ بهِ الكِبْرُ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِٱلْحِلْمِ دَرَجَةَ ٱلْقَائِمِ ٱلصَّائِمِ ، وَإِنَّهُ لَيُكْتَبُ جَبَّاراً وَمَا يَمْلِكُ إِلَّا أَهْلَ بَيْتِهِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ . . مَلَأَ ٱللهُ تَعَالَىٰ قَلْبَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَمْناً وَإِيمَاناً »(٤) .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٧٥١) من حديث سيدنا عطية السعدي رضي الله عنه .

(٢) قطعة من حديث طويل رواه الترمذي (٢١٩١) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٢٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٨٩) من حديث سيدنا علي كرم الله وجهه .

(٤) قطعة من حديث رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٢/٤٥٣) ، و« الأوسط » (٦٠٢٣) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

وقـالَ : « مَـا مِـنْ جُـرْعَـةٍ أَحَـبَّ إِلَى ٱللهِ تَـعَـالَـىٰ مِـنْ جُـرْعَـةِ غَـيْـظٍ يَكْظِمُـهَا عَـبْـدٌ ، وَمَـا كَـظَـمَـهَا عَـبْـدٌ إِلَّا مَـلأَ ٱللهُ تَـعَـالَىٰ قَلْبَهُ إِيمَاناً »[1] .

۞ ۞

(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٨/٢٥) : (رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » من حديث ابن عباس) ، وروى ابن ماجه (٤٣٥١) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « ما من جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله » .

الأصل الرّابع

في الحسد

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْحَسَدُ يَأْكُلُ ٱلْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ ٱلنَّارُ ٱلْحَطَبَ »(١) .

وقالَ : « ثَلَاثٌ لَا يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ : ٱلظَّنُّ ، وَٱلطِّيَرَةُ ، وَٱلْحَسَدُ ، وَسَأُحَدِّثُكُمْ بِٱلْمَخْرَجِ مِنْ ذَٰلِكَ ؛ إِذَا ظَنَنْتَ .. فَلَا تُحَقِّقْ ، وَإِذَا تَطَيَّرْتَ .. فَٱمْضِ ، وَإِذَا حَسَدْتَ .. فَلَا تَبْغِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ ٱلْأُمَمِ قَبْلَكُمْ ؛ ٱلْحَسَدُ وَٱلْبَغْضَاءُ ، وَٱلْبُغْضَةُ هِيَ ٱلْحَالِقَةُ »(٣) .

وقالَ زكريَّا عليهِ السَّلامُ : (قالَ اللهُ تعالى : الحاسدُ عدوٌّ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٦٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وابن ماجه (٤٢١٠) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٨/٢) عن إسماعيل بن أمية معضلاً ، وفي « إتحاف السادة المتقين » (٥١/٨) : (رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « ذم الحسد » من حديث أبي هريرة) ، وروى الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٢٨/٣) من حديث سيدنا حارثة بن النعمان رضي الله عنه مرفوعاً : « ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة ، والحسد ، وسوء الظن ، فقال رجل : ما يذهبهن يا رسول الله ممن هو فيه ؟ قال : « إذا حسدت .. فاستغفر الله ، وإذا ظننت .. فلا تحقق ، وإذا تطيرت .. فامضِ) .

(٣) رواه الترمذي (٢٥١٠) من حديث سيدنا الزبير رضي الله عنه .

لنعمتي ، مُتسخِّطٌ لقضائي ، غيرُ راضٍ بقسمتي التي قسمتُ بينَ عبادي)[1] .

واعلمْ : أنَّ الحسدَ حرامٌ ؛ وهوَ : أن تُحِبَّ زوالَ النِّعمةِ مِنْ غيرِكَ ، أو تُحِبَّ نزولَ مصيبةٍ بهِ .

ولا تحرمُ المنافسةُ ؛ وهيَ : أن تغبطَهُ وتشتهيَ لنفسِكَ مثلَهُ ، ولا تُحِبَّ زوالَها منهُ .

ويجوزُ أن تُحِبَّ زوالَ النِّعمةِ ممَّنْ يستعينُ بها على الظُّلمِ والمعصيةِ ؛ لأنَّكَ لا تريدُ زوالَ النِّعمةِ ، وإنَّما تريدُ زوالَ الظُّلمِ ، وعلامتُهُ : أنَّهُ لو تركَ الظُّلمَ والمعصيةَ . . لم تُحِبَّ زوالَ نعمتِهِ .

وسببُ الحسدِ : إمَّا الكِبْرُ ، وإمَّا العداوةُ ، وإمَّا خُبثُ النَّفسِ ؛ إذ يبخلُ بنعمةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ مِنْ غيرِ غرضٍ لهُ فيهِ .

فَصْلٌ

[في علاجِ الحسدِ]

اعلمْ : أنَّ الحسدَ مِنَ الأمراضِ العظيمةِ للقلبِ ، ومرضُ القلبِ لا يُداوىٰ إلَّا بمعجونِ العلمِ والعملِ .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢١٣) عن الأصمعي رحمه الله تعالىٰ .

فأمَّا العلاجُ العلميُّ : فهوَ أن يعلمَ أنَّ حسدَهُ يضرُّهُ ولا يضرُّ محسودَهُ ، بل ينفعُهُ .

أمَّا أنَّهُ يضرُّهُ : فهوَ أنَّه يُبطِلُ حسناتِهِ ، ويُعرِّضُهُ لسخطِ اللهِ تعالىٰ ؛ إذ يَسخَطُ قضاءَ اللهِ ، ويَشَحُّ بنعمتِهِ التي وسعَها مِنْ خزائِنِهِ علىٰ عبادِهِ ، وهٰذا ضررُهُ في دِينِهِ .

وأمَّا ضررُهُ في دنياهُ : فهوَ أنَّهُ لا يزالُ في غمٍّ دائمٍ ، وكمدٍ لازمٍ ، وذٰلكَ مرادُ عدوِّهِ منهُ ؛ فإنَّ أهمَّ أغراضِ عدوِّهِ منهُ وأكملَ النِّعمةِ عليهِ . . حزنُ حاسِدِهِ ، فقد كانَ يريدُ المحنةَ لعدوِّهِ فحصلَتْ لهُ ، والحسودُ لا يخلو قطُّ مِنَ الغمِّ والمحنةِ ؛ إذ لا يزالُ أعداؤُهُ أو واحدٌ منهُم في نعمةٍ .

وأمَّا أنَّهُ ينفعُ عدوَّهُ ولا يضرُّهُ : لأنَّ النِّعمةَ لا تزولُ بحسدِهِ ، وإنَّما تتضاعفُ حسناتُهُ ؛ إذ تُنقَلُ إليهِ حسناتُ الحاسدِ ، لا سيَّما إذا طَوَّلَ اللِّسانَ فيهِ ؛ فإنَّه مظلومٌ مِنَ الحاسدِ ، فقد طلبَ الحاسدُ زوالَ نعمةِ الدُّنيا منهُ ، فأضافَ إليهِ نعمةَ الآخرةِ ، وحصَّلَ لنفسِهِ معَ عذابِ الدُّنيا عذابَ الآخرةِ ، فهوَ كمَنْ رمىٰ عدوَّهُ بحجارةٍ فلم تُصِبْ عدوَّهُ ، وعادَتْ إلىٰ عينِهِ فأعمتْهُ ، وزادَتْ عليهِ شماتةَ عدوِّهِ إبليسَ بهِ ؛ فإنَّهُ فاتَتْهُ النِّعمةُ ، وفاتَهُ الرِّضا بالقضاءِ ، ولو رضيَ بهِ . . لكانَ لهُ فيهِ ثوابٌ ، لا سيَّما إذا حسدَ على العلمِ والورعِ ؛ فإنَّ مُحِبَّ العالِمِ يعظُمُ ثوابُهُ .

وأمَّا العملُ : فهوَ أن يعرفَ حكمَ الحسدِ وما يتقاضاهُ مِنْ قولٍ وفعلٍ ، فيخالفَهُ ويعملَ بنقيضِهِ ، فيثنيَ على المحسودِ ، ويظهرَ الفرحَ بنعمتِهِ ، ويتواضعَ لهُ ، وبذلكَ يعودُ المحسودُ صديقاً لهُ ، ويزايلُهُ الحسدُ ، ويَتخلَّصُ مِنْ إثمِهِ وألمِهِ .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

فصلٌ

[في كيفيةِ التخلُّصِ مِنْ إثمِ الحسدِ]

لعلَّ نفسَكَ لا تطاوعُكَ على التَّسويةِ بينَ عدوِّكَ وصديقِكَ ، بل تكرهُ مَساءةَ الصَّديقِ دونَ العدوِّ ، وتُحِبُّ نعمةَ الصَّديقِ دونَ العدوِّ ، ولستَ مُكلَّفاً بما لا تطيقُ .

فإن لم تَقدِرْ على ذلكَ . . فعليكَ أن تَتخلَّصَ مِنَ الإثمِ بأمرينِ :

أحدُهُما : ألَّا تُظهِرَ الحسدَ بلسانِكَ وجوارحِكَ وأعمالِكَ الاختياريَّةِ ، بل تُخالِفُ مُوجَبَها .

والثَّاني : أن تكرهَ مِنْ نفسِكَ حبَّها زوالَ نعمةِ اللهِ تعالى عن عبدٍ مِنْ عبادِهِ ، فإذا اقترنَتِ الكراهةُ عن باعثِ الدِّينِ بحبِّ زوالِ

النّعمةِ الذي اقتضاهُ الطَّبعُ . . اندفعَ عنكَ الإثمُ ، وليسَ عليكَ تغييرُ الطَّبعِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ لا تَقدِرُ عليهِ في أكثرِ الأحوالِ .

وعلامةُ الكراهيَّةِ : أن تكونَ بحيثُ لو قَدرْتَ علىٰ إزالةِ نعمتِهِ . . لم تُقدِمْ على الإزالةِ معَ حبّكَ لها ، ولو قَدرْتَ علىٰ معونتِهِ في دوامِ نعمتِهِ أو في زيادتِها . . لفعلتَ معَ كراهيتِكَ لذٰلكَ ؛ فإذا كنتَ كذٰلكَ . . فلا إثمَ عليكَ فيما يتقاضاهُ طبعُكَ ؛ فإنَّ الطَّبعَ إنَّما يصيرُ مغموراً مقهوراً في حقِّ المُستهتَرِ باللهِ تعالىٰ ، الذي انقطعَ نظرُهُ عنِ الدُّنيا وعنِ الخَلْقِ ، بل عَلِمَ أنَّ المُنعَمَ عليهِ إن كانَ في النَّارِ . . فما تنفعُ هٰذهِ النِّعمةُ ، وإن كانَ في الجنَّةِ . . فأيُّ نسبةٍ لهٰذهِ النِّعمةِ إلى الجنَّةِ ؟

بل يرىٰ كلَّ الخَلْقِ عبادَ اللهِ تعالىٰ ، فيُحبُّهُم لأنَّهُم عبادُ محبوبِهِ ، ويُحِبُّ أن يَظهرَ أثرُ نعمةِ محبوبِهِ علىٰ عبادِهِ ، وهٰذهِ حالةٌ نادرةٌ لا تدخلُ تحتَ التَّكليفِ .

* * *

الأصل الخامس

في البخل وحب المال

اعلمْ : أنَّ البخلَ مِنَ المُهلِكاتِ العظيمةِ .

قـــالَ اللهُ تـعـالـىٰ : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِيَّاكُمْ وَٱلْبُخْلَ ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلسَّخَاءُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي ٱلْجَنَّةِ ، فَلَا يَلِجُ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا سَخِيٌّ ، وَٱلْبُخْلُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي ٱلنَّارِ ، فَلَا يَلِجُ ٱلنَّارَ إِلَّا بَخِيلٌ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : شُحٌّ مُطَاعٌ ،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه ، وفيه (الشح) بدل (البخل) ، وبلفظه هنا رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٣/٥٤٩) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) كذا أورده الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٣٥٤٣) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه .

وَهَوىً مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ ٱلْمَرْءِ بِنَفْسِهِ . . . » الحديثَ [1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شَرُّ مَا فِي ٱلرَّجُلِ : شُحٌّ هَالِعٌ ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ » [2] .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ يُبْغِضُ ٱلْبَخِيلَ فِي حَيَاتِهِ ، ٱلسَّخِيَّ عِنْدَ مَوْتِهِ » [3] .

وقالَ عليهِ السلامُ : « ٱلسَّخِيُّ ٱلْجَهُولُ أَحَبُّ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ مِنَ ٱلْعَابِدِ ٱلْبَخِيلِ » [4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خَصْلَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ : ٱلْبُخْلُ ، وَسُوءُ ٱلْخُلُقِ » [5] .

فَصْلٌ

[في بيانِ أصلِ البخلِ]

اعلمْ : أنَّ أصلَ البخلِ : حبُّ المالِ ، وهوَ مذمومٌ ؛ إذ مَنْ لا مالَ

---

(1) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(2) رواه أبو داوود (٢٥٠٣) ، وهالع : جازع ، يحمل صاحبه على الحرص على المال ، والجزع على ذهابه ، وخالع : شديد ، كأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه من الخلق .

(3) كذا هو في « الفردوس » (٦٢٧) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه ، وأشار السيوطي ـ كما في « فيض القدير » (٢٨٥/٢) ـ إلىٰ رواية الخطيب له في كتاب « البخلاء » . وبغض السخي حينئذ : فلأنه قد علم أن دنياه قد أدبرت ، وإمساك المال لا ينفعه ، فهو مضطر للجود لا مختار .

(4) رواه الترمذي (١٩٦١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(5) رواه الترمذي (١٩٦٢) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

لهُ . . لا يظهرُ بخلُهُ بالإمساكِ ، ولـٰكنْ يظهرُ بحبِّ المالِ .

وربَّ رجلٍ سخيٍّ لـٰكنَّهُ يحبُّ المالَ ، فيسخىٰ بهِ ليُذكَرَ بالسَّخاءِ ، وذٰلكَ أيضاً مذمومٌ ؛ لأنَّ حبَّ المالِ يُلهي عن ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويَصرِفُ وجهَ القلبِ إلى الدُّنيا ، ويُحكِمُ علاقتَهُ فيها ، حتَّىٰ يَثقُلَ عليهِ الموتُ الذي فيهِ لقاءُ اللهِ تعالىٰ .

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴿٩﴾ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا تَتَّخِذُوا ٱلضَّيْعَةَ فَتُحِبُّوا ٱلدُّنْيَا »[1] .

وقيلَ للنَّبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : أيُّ أُمَّتِكَ أشرُّ ؟ فقالَ : « ٱلْأَغْنِيَاءُ »[2] .

وقالَ : « مَنْ أَخَذَ مِنَ ٱلدُّنْيَا فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ . . أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي »[3] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٨) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه ، والضيعة : هي الأرض التي تدر علىٰ صاحبها مالاً .

(٢) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٧٠) ، وروى ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) من حديث السيدة فاطمة عليها السلام مرفوعاً : « شرار أمتي الذين غُذُوا بالنعيم ؛ الذين يأكلون ألوان الطعام ، ويلبسون ألوان الثياب ، ويتشدقون في الكلام » .

(٣) رواه تمام في « فوائده » كما في « الروض البسام » (١٦٢١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٥/١٩١) ، والحتف : الهلاك ، ورواه البزار في « مسنده » (٦٤٤٤) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

وقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي لا أحبُّ الموتَ ، قالَ عليهِ السَّلامُ : « هَل لَكَ مَالٌ ؟ » ، قالَ : نعم ، قالَ : « قَدِّمْ مَالَكَ ؛ فَإِنَّ قَلْبَ ٱلرَّجُلِ مَعَ مَالِهِ ، فَإِنْ قَدَّمَهُ . . أَحَبَّ أَن يَلْحَقَهُ ، وَإِنْ أَخَّرَهُ . . أَحَبَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ مَعَهُ »(١) .

وقالَ : « إِذَا مَاتَ ٱلْعَبْدُ . . قَالَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ : مَا قَدَّمَ ؟ وَقَالَ ٱلنَّاسُ : مَا خَلَّفَ ؟ »(٢) .

وقالَ عليهِ السلامُ : « تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّينَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّرْهَمِ وَعَبْدُ ٱلْخَمِيصَةِ ، تَعِسَ وَٱنْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ . . فَلَا ٱنْتَقَشَ »(٣) .

فَصْلٌ

[في بيانِ حقيقةِ المالِ مِنْ حيثُ الذمُّ والمدحُ]

اعلمْ : أنَّ المالَ ليسَ مذموماً مِنْ كلِّ وجهٍ ، وقد قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نِعْمَ ٱلْمَالُ ٱلصَّالِحُ لِلرَّجُلِ ٱلصَّالِحِ »(٤) ، وقالَ : « ٱلدُّنْيَا مَزْرَعَةُ ٱلْآخِرَةِ »(٥) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٣٤) عن عبد الله بن عبيد مرسلاً .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٨٥١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٩٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٢٨٨٧) ، وابن ماجه (٤٢٥٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والخميصة : ثوب أسود مربع له أعلام وخطوط ؛ والغالب في لبسها الخيلاء ، ومعنىٰ (فلا انتقش) : إذا أصابته شوكة لم يقدر علىٰ إخراجها .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٩٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢١٠) من حديث سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٥) رواه العقيلي في « الضعفاء » (٣/٨٤٣) من حديث طارق بن أشيم بنحوه .

وكيفَ يكونُ مذموماً مطلَقاً والعبدُ مسافرٌ إلى اللهِ تعالىٰ ، والدُّنيا منزلٌ مِنْ منازلِ سفرِهِ ، وبدنُهُ مَركَبُهُ ، ولا يمكنُهُ السَّفرُ إلى اللهِ إلَّا بهِ ، ولا يبقى البدنُ إلَّا بمَطعَمٍ ومَلبَسٍ ، ولا وصولَ إليهما إلَّا بالمالِ ؟!

لٰكنْ مَنْ فهمَ فائدةَ المالِ ، وعلمَ أنَّهُ آلةُ عَلْفِ الدَّابَّةِ لسلوكِ الطَّريقِ . . لم يُعرِّجْ عليهِ ، ولم يأخذْ منهُ إلَّا قدْرَ الزَّادِ ، فإنِ اقتصرَ علىٰ ذٰلكَ . . سعدَ بهِ ، كما قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « إِذَا أَرَدْتِ اللَّحَاقَ بِي . . فَٱقْنَعِي مِنَ ٱلدُّنْيَا بِزَادِ ٱلرَّاكِبِ ، وَلَا تَخْلَعِي قَمِيصاً حَتَّىٰ تَرْقَعِيهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافاً »[2] .

وإن زادَ علىٰ قدْرِ الكفايةِ . . هلكَ ، كما قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « مَنْ أَخَذَ مِنَ ٱلدُّنْيَا فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ . . أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ »[3] .

وكذٰلكَ المسافرُ ، إذا أخذَ ما يزيدُ علىٰ زادِ الطَّريقِ . . ماتَ تحتَ ثقلِهِ ، ولم يبلُغْ مَقصِدَ سفرِهِ ؛ فالزِّيادةُ علىٰ قَدْرِ الكفايةِ مُهلِكةٌ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

---

(١) رواه الترمذي (١٧٨٠) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣٤٣) واللفظ له من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) تقدم قريباً (ص ٢٥٠) .

أحدُها : أن يدعوَ إلى المعاصي ؛ فإنَّهُ يُمكِّنُ منها ، ومِنَ العصمةِ ألَّا تَقدِرَ[1] ، وفتنةُ السَّرَّاءِ أعظمُ مِنْ فتنةِ الضَّرَّاءِ ، والصَّبرُ معَ القدرةِ أشدُّ .

الثَّاني : أن يدعوَ إلى التَّنعُّمِ بالمباحاتِ ، وهوَ أقلُّ الدَّرجاتِ ؛ فيَنبُتُ على التَّنعُّمِ جسدُهُ ، ولا يمكنُهُ الصَّبرُ عنهُ ، وذٰلكَ لا يمكنُ استدامتُهُ إلَّا بالاستعانةِ بالخَلْقِ ، والالتجاءِ إلى الظَّلَمةِ ، وذٰلكَ يدعو إلى النِّفاقِ والكذبِ والرِّياءِ ، والعداوةِ والبغضاءِ ، ويَتشعَّبُ منهُ جملةٌ مِنَ المُهلِكاتِ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُبُّ ٱلدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ »[2] .

الثَّالثُ : أن يلهيَ عن ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ الذي هوَ أساسُ السَّعادةِ الأخرويَّةِ ؛ إذ يزدحمُ على القلبِ خصومةُ الفلَّاحينَ ، ومحاسبةُ الشُّركاءِ ، والتَّفكُّرُ في تدبيرِ الحذرِ منهُم ، وتدبيرُ استنماءِ المالِ ، وكيفيَّةُ تحصيلِهِ أوَّلاً ، وحفظِهِ ثانياً ، وإخراجِهِ ثالثاً ، وكلُّ ذٰلكَ ممَّا يُسوِّدُ القلبَ ، ويزيلُ صفاءَهُ ، ويلهي عنِ الذِّكرِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ . . . ﴾ إلىٰ آخرِ السُّورةِ .

---

(١) قوله : (ومن العصمة ألا تقدر) : رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/٢٠٨) ، والمعنىٰ : أنَّ عدم القدرة على المعصية لبعدها وعدم التمكن منها . . من عصمة الله لعباده ، وهي شبيهة بقول مَنْ قال : ليس بيننا وبين الوقوع في المعصية إلا عدم القدرة عليها .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩) عن الحسن مرسلاً .

فصل

[في بيانِ مقدارِ الكفايةِ]

لعلَّكَ تشتهي أن تعرفَ مقدارَ الكفايةِ وتقولُ : (ما مِنْ غنيٍّ إلَّا ويدَّعي أنَّ ما في يدِهِ دونَ مقدارِ كفايتِهِ) .

فاعلمْ : أنَّ الضَّرورةَ إنَّما تدعو إلى المَطعَمِ والمَلبَسِ فقطْ ، فإن تركتَ التَّجمُّلَ في المَلبَسِ . . فيكفيكَ في السَّنةِ دينارانِ لشتائِكَ وصيفِكَ ، فتتَّخذُ بهِما ثوباً خشناً يدفعُ عنك الحرَّ والبردَ .

وإن تركتَ التَّنعُّمَ في مَطعَمِكَ ، والشِّبعَ مِنَ الطَّعامِ في جميعِ أحوالِكَ . . فيكفيكَ في كلِّ يومٍ مُدٌّ ، فيكونُ في السَّنةِ خمسَ مئةِ رِطْلٍ ، ويكفيكَ لإدامِكَ إن لم تَتوسَّعْ فيهِ ، واقتصرتَ على القليلِ منهُ في بعضِ الأوقاتِ . . ثلاثةُ دنانيرَ على التَّقريبِ في السَّنةِ عندَ رخاءِ الأسعارِ .

فإذاً ؛ مبلغُ كفايتِكَ خمسةُ دنانيرَ ، وخمسُ مئةِ رِطْلٍ ، وهوَ القدْرُ الذي نُقدِّرُهُ إذا فرضنا نفقةَ العَزَبِ ، فإن كنتَ مُعْيلاً . . فخذْ لكلِّ واحدٍ منهُم مثلَ ذٰلكَ .

فإذا كنتَ كَسوباً ، وكَسَبتَ في اليومِ ما يكفيكَ ليومِكَ . . فانصرفْ واشتغلْ بعبادتِكَ ؛ فإنْ طلبتَ الزِّيادةَ . . صرتَ مِنْ أهلِ الدُّنيا .

وإن لم تكنْ كَسوباً ، وكنتَ مشغولاً بالعلمِ أوِ العبادةِ ، واقتنيتَ ضَيعةً يدخلُ منها هـٰذا القدرُ دائماً . . فأرجو ألَّا تصيرَ بذٰلكَ مِنْ أهلِ الدُّنيا ، لا سيَّما في هـٰذهِ الأعصارِ ، وقد تغيَّرَتِ القلوبُ ، واستولىٰ عليها الشُّحُّ ، وانصرفَتِ الهِممُ عن تفقُّدِ ذوي الحاجاتِ ، فاقتناءُ هـٰذا القَدْرِ أَولىٰ مِنَ السُّؤالِ .

وهـٰذا بشرطِ : أن يكونَ بودِّكَ أن تَتخلَّصَ مِنَ التَّعرُّضِ للجوعِ والبردِ لتطرحَ الضَّيعةَ وتتركَها[1] ، فلا تكونَ كارهاً للموتِ ، ولا مُحِبّاً للضَّيعةِ ، ولتكنِ الضَّيعةُ ـ وهيَ مَدخلُ طعامِكَ ـ كالخلاءِ الذي هوَ موضعُ فراغِكَ ، فإنَّما تريدُهُ للضَّرورةِ ، وبودِّكَ لو تَخلَّصتَ منهُ ؛ لتخرجَ عنِ النَّهيِ في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا تَتَّخِذُوا ٱلضَّيْعَةَ فَتُحِبُّوا ٱلدُّنْيَا »[2] .

فإنَّكَ إذا قصدتَ الفراغةَ للاستعانةِ بها على الدِّينِ . . كنتَ مُتزوِّداً مسافراً ، لا مُعرِّجاً على الضَّيعةِ .

وربَّما لا يَحتمِلُ بعضُ الأشخاصِ القناعةَ بالقَدْرِ الذي ذكرتُهُ . . إلَّا بشدَّةٍ ومَشقَّةٍ ، ولا حرجَ في الدِّينِ في ازديادِ الضِّعفِ علىٰ هـٰذا القَدْرِ ؛ إذ لا يصيرُ مِنْ أبناءِ الدُّنيا ، ولا يخرُجُ مِنْ حزبِ أبناءِ الآخرةِ والمسافرينَ إلى اللهِ تعالىٰ . . ما دامَ يقصدُ بذٰلكَ دفعَ الألمِ الشَّاغلِ عنِ الذِّكرِ والعبادةِ ، دونَ التَّلذُّذِ والتَّنعُّمِ في الدُّنيا ،

---

(١) الضيعة : هي الأرض التي تدر علىٰ صاحبها حالاً .

(٢) كما تقدم قريباً (ص ٢٥٠) .

ثـمَّ ما فَضَلَ مِنَ الطَّعامِ صرفَهُ إلى اللباسِ والإدامِ [١] .

ولا يبقىٰ بعدَ هٰذهِ الرُّخصةِ داعيةٌ إلى الزّيادةِ إلَّا للتَّنعُّمِ ، أو للتَّصدُّقِ ، أو للاستظهارِ لو أصابَ المالَ آفةٌ [٢] .

أمَّا التَّنعُّمُ : فإعراضٌ عنِ اللهِ تعالىٰ ، واشتغالٌ بالدُّنيا .

وأمَّا التَّصدُّقُ : فتركُ المالِ أفضلُ منهُ ؛ قالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : (يا طالبَ الدُّنيا لِتَبَرَّ ؛ تركُكَ الدُّنيا أبرُّ وأبرُّ) [٣] .

وأمَّا الاستظهارُ لخوفِ آفةٍ : فذٰلكَ لا مردَّ لهُ ، وهوَ سوءُ ظنٍّ لا آخرَ لهُ ، بل ينبغي أن يَدفَعَ ذٰلكَ بحسنِ الظَّنّ بتدبيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ وهوَ أنَّهُ إن تَصوَّرَ أن تُصيبَ المالَ آفةٌ مِنْ حيثُ لا يَتوقَّعُ . . فيتصوَّرُ أن ينفتحَ للرّزقِ أيضاً بابٌ مِنْ حيثُ لا يَحتسِبُ ؛ ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ۝٣ ﴾ .

وإن فُرِضَ على النُّدورِ خلافُهُ . . فلا ينبغي أن يعتقِدَ العبدُ أنَّ سلامتَهُ طولَ عمرِهِ عنِ البلاءِ محمودٌ ، بلِ البلاءُ هوَ الذي يَصقُلُ القلبَ ويُزكِّيهِ ، ويُخلِّصُهُ مِنَ الخبائثِ كلِّها ، ولهٰذا كانَ مُوكَّلاً بالأنبياءِ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ الأمثلِ فالأمثلِ ، فاتَّكِلْ علىٰ فضلِ اللهِ تعالىٰ ، واعلمْ أنَّهُ لا يصيبُكَ إلَّا ما فيهِ خيرُكَ وخيرتُكَ ؛ فإنَّ مُدبّرَ المُلْكِ والملكوتِ أعلمُ بمصالحِكَ .

---

(١) في (و) : (البأس والأرامل) بدل (اللباس والإدام) .
(٢) الاستظهار : الاحتياط .
(٣) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/٩٠) : (أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا ») .

فَصْلٌ

[في بيانِ حدِّ الكفايةِ والإسرافِ]

هٰذا الذي ذكرتُهُ تقريبٌ ، يمكنُ الزِّيادةُ عليهِ والنُّقصانُ منهُ بالاجتهادِ في بعضِ الأشخاصِ ، وفي بعضِ الأحوالِ ، ولٰكنِ اعتقدْ قطعاً أنَّ المالَ كالدَّواءِ ، النَّافعُ منهُ قَدْرٌ مخصوصٌ ، والإفراطُ فيهِ قاتلٌ ، والقُربُ مِنَ الإفراطِ مُمرِضٌ إن لم يقتلْ .

فعليكَ بالتَّقليلِ ، والحذرِ مِنَ الإفراطِ والرَّفاهيَّةِ ؛ **فذٰلكَ خطرٌ عظيمٌ** ، وليسَ في التَّقليلِ إلَّا مَشقَّةٌ قليلةٌ في أيَّامٍ قلائلَ ، وذو الحزمِ لا يثقلُ عليهِ أن يُجوِّعَ نفسَهُ لوليمةِ الفردوسِ ؛ لعلمِهِ بأنَّ اللَّذَّةَ علىٰ قدرِ الجوعِ .

فَصْلٌ

[في بيانِ حدِّ البخلِ]

لعلَّكَ ترغبُ في معرفةِ حدِّ البخلِ ؛ إذِ الشَّخصُ الواحدُ قد يَشُكُّ في أنَّهُ بخيلٌ أم لا ، ويختلفُ النَّاسُ فيهِ .

فاعلمْ : أنَّ حدَّ البخلِ : منعُ ما يُوجِبُهُ الشَّرعُ أوِ المروءةُ ، ولا تظنَّ أنَّ مَنْ سَلَّمَ إلىٰ زوجتِهِ وقريبِهِ ما فرضَهُ القاضي عليهِ ، وضايقَ وراءَ ذٰلكَ في لقمةٍ . . فليسَ ببخيلٍ ، وأنَّ مَنْ ردَّ الخبزَ واللَّحمَ إلى الخبَّازِ والقصَّابِ لنقصانِ قَدْرٍ منهُ يسيرٍ . . ليسَ ببخيلٍ ، وإن كانَ

لهُ ذٰلكَ في الشَّرعِ ؛ فإنَّ معنى الشَّرعِ في هـٰذهِ الأمورِ : قطعُ خصومةِ البخلاءِ بتقديرِ مقدارٍ يطيقُهُ البخيلُ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا ﴾ .

بل لا بدَّ مِنْ مراعاةِ المروءةِ ، ودفعِ قبحِ الأُحدوثةِ ، وذٰلكَ يختلفُ باختلافِ الأشخاصِ وقَدْرِ المالِ ، ومَنْ لهُ مالٌ وأمكنَهُ أن يقطعَ هجوَ شاعرٍ وذمَّهُ عن نفسِهِ بقَدْرٍ يسيرٍ فلم يفعلْهُ . . فهوَ بخيلٌ وإن لم يكنْ ذٰلكَ واجباً عليهِ ؛ إذ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا وَقَى ٱلْمَرْءُ بِهِ عِرْضَهُ . . فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ »[1] .

والتَّحقيقُ فيهِ : أنَّ المالَ خُلِقَ لفائدةٍ لأجلِها يُمسَكُ ، وفي بذلِهِ أيضاً فائدةٌ ، فمهما ظهرَ لهُ أنَّ فائدةَ البذلِ أعظمُ مِنْ فائدةِ الإمساكِ ، ثمَّ شَقَّ عليهِ البذلُ . . فهوَ بخيلٌ مُحِبٌّ للمالِ ، والمالُ لا ينبغي أن يُحَبَّ لذاتِهِ ، بل لفائدتِهِ ، فيُصرَفُ إلىٰ أقوىٰ فوائدِهِ ، وحفظُ المروءةِ أفضلُ وأقوىٰ مِنَ التَّنعُّمِ بالأكلِ الكثيرِ مثلاً .

وقد يحملُهُ البخلُ وحبُّ المالِ علىٰ أن يجهلَ أقوى الفائدتينِ وأَولاهما ، وذٰلكَ غايةُ البخلِ ، فإن عَلِمَ وعَسُرَ عليهِ البذلُ . . فهوَ بخيلٌ أيضاً ولو بذلَ تكلُّفاً ، بل إنَّما يبرأُ مِنَ البخلِ بألَّا يَثقُلَ عليهِ بذلُ المالِ فيما ينبغي أن يُبذَلَ فيهِ عقلاً وشرعاً .

---

(١) تقدم (ص ١٧٣) .

وأمَّـا درجـةُ السَّـخـاءِ : فلا تُـنـالُ إلَّا ببـذلِ ما يزيـدُ علىٰ واجبِ الشَّرعِ والمروءةِ جميعاً .

فَصْلٌ

[في بيانِ علاجِ البخلِ]

لعلَّكَ تريدُ أن تفهمَ علاجَ البخلِ .

فاعلمْ : أنَّ دواءَهُ معجونٌ مُركَّبٌ مِنَ العلمِ والعملِ .

أمَّا العلمُ : فهوَ أن تعلَمَ ما في البخلِ مِنَ الهلاكِ في الدَّارِ الآخرةِ ، والمَذَمَّةِ في الدُّنيا .

وتعلمَ : أنَّ المالَ لا يتبعُهُ ـ إن بقيَ ـ إلىٰ قبرِهِ ، وإنَّما المالُ للهِ تعالىٰ ، مكَّنَهُ منهُ ليصرفَهُ إلىٰ أهمِّ أمورِهِ .

وتعلمَ : أنَّ إمساكَ المالِ إن كانَ للتَّنعُّمِ في الشَّهَواتِ . . فحسنُ الأُحدوثةِ ، وثوابُ الآخرةِ ألذُّ منهُ ؛ فقضاءُ الشَّهوةِ سجيَّةُ البهائمِ ، وهٰذهِ سجيَّةُ العقلاءِ .

وإن كانَ يمسكُهُ ليتركَهُ لولدِهِ . . فكأنَّهُ يتركُ ولدَهُ بخيرٍ ، ويُقدِمُ علىٰ ربِّه بشرٍّ ، **وهٰذا عينُ الجهلِ** ، كيفَ وولدُهُ إن كانَ صالحاً . . فاللهُ تعالىٰ يكفيهِ ، وإن كانَ فاسقاً . . فيستعينُ بهِ على المعصيةِ ، ويكونُ هوَ سببَ تمكُّنِهِ منها ، فيتضرَّرُ هوَ ، ويتنعَّمُ غيرُهُ ؟!

وأمَّا العملُ : فهوَ أن يحملَ نفسَهُ على البذلِ تكلُّفاً ، ولا يزالُ يفعلُ ذٰلكَ حتَّىٰ يصيرَ لهُ عادةً .

ومِنْ نوافذِ حيلِهِ فيهِ : أن يخدعَ نفسَهُ بحسنِ الاسمِ ، وتوقُّعِ المكافأةِ ، حتَّىٰ يرغبَ في البذلِ ، ثمَّ بعدَ ذٰلكَ يتدرَّجُ أيضاً إلىٰ قمعِ هٰذهِ الصِّفاتِ .

* * *

الأصل السادس

في الرعونة وحب الجاه

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُبُّ ٱلْمَالِ وَٱلْجَاهِ يُنْبِتَانِ ٱلنِّفَاقَ فِي ٱلْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ ٱلْمَاءُ ٱلْبَقْلَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلَا فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَكْثَرَ فَسَاداً فِيهَا مِنْ حُبِّ ٱلْمَالِ وَٱلْجَاهِ فِي دِينِ ٱلرَّجُلِ ٱلْمُسْلِمِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في مدحِ الخمولِ : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى ٱللهِ . . لَأَبَرَّهُ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ أَهْلَ ٱلْجَنَّةِ كُلُّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ ، لَا يُؤْبَهُ لَهُ ؛ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱسْتَأْذَنُوا عَلَى ٱلْأُمَرَاءِ . . لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ ، وَإِذَا خَطَبُوا ٱلنِّسَاءَ . . لَمْ يُنْكَحُوا ، وَإِذَا قَالُوا . . لَمْ يُنْصَتْ

---

(١) انظر « إتحاف السادة المتقين » (٨/١٤٤) .

(٢) رواه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٦٢٧٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي (٣٨٥٤) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه ، وأصله عند مسلم (٢٦٢٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

لَهُمْ ، حَوَائِجُ أَحَدِهِمْ تَتَجَلْجَلُ فِي صَدْرِهِ ، لَوْ قُسِمَ نُورُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَلَى ٱلنَّاسِ . . لَوَسِعَهُمْ »[1] .

وقالَ سليمُ بنُ حنظلةَ : بينَما نحنُ حولَ أُبيِّ بن كعبٍ نمشي خلفَهُ . . إذ رآهُ عمرُ ، فعلاهُ بالدِّرَّةِ ، فقالَ : انظرْ يا أميرَ المؤمنينَ ما تصنعُ ، فقالَ : (إنَّ هـٰذا مذلَّةٌ للتَّابعِ ، وفتنةٌ للمتبوعِ)[2] .

وقالَ الحسنُ : (إنَّ خفقَ النِّعالِ خلفَ الرجالِ قلَّما تثبتُ معَهُ قلوبُ الحمقىٰ)[3] .

وقالَ أيُّوبُ : (واللهِ ؛ ما صدقَ اللهَ عَبدٌ إلَّا سرَّهُ ألَّا يُشعَرَ بمكانِهِ)[4] .

فقد عرفتَ بهـٰذا مذمَّةَ الشُّهرةِ والجاهِ ، إلَّا أن يَشهَرَ اللهُ تعالىٰ عبداً في الدِّينِ مِنْ غيرِ طلبٍ منهُ ، كما شَهرَ الأنبياءَ والخلفاءَ الراشدينَ والأولياءَ .

فصل

[في بيانِ حقيقةِ الجاهِ]

اعلمْ : أنَّ حقيقةَ الجاهِ هيَ مُلْكُ القلوبِ ؛ لتتسخَّرَ لذي الجاهِ

---

(١) رواه البيهقي في الشعب » « (١٠٠٠٤ ، ١٠٠٠٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وصدر الحديث : « إن ملوك أهل الجنة كلُّ أشعث . . . » .

(٢) رواه الدارمي في « سننه » (٥٤٠) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥١) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٣) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٥) ، وأيوب : هو السختياني .

علىٰ حَسَبِ مرادِهِ ، وتُطلِقَ اللِّسانَ بالثَّناءِ عليهِ ، وتسعىٰ في حاجتِهِ .

وكما أنَّ معنى المالِ مُلْكُ الدَّراهمِ ؛ ليتوصَّلَ بها إلى الأغراضِ . . فكذٰلكَ معنى الجاهِ مُلْكُ القلوبِ ، لٰكنَّ الجاهَ أحبُّ ؛ لأنَّ التَّوصُّلَ بهِ إلى المالِ أيسرُ مِنَ التَّوصُّلِ بالمالِ إلى الجاهِ ، ولأنَّهُ محفوظٌ عن أن يُسرَقَ ويُغصَبَ ، أو تَعرِضَ لهُ الآفةُ ، ولأنَّهُ يسري وينمو مِنْ غيرِ تكلُّفٍ ؛ فإنَّ مَنْ مَلَكَ قلبَهُ باعتقادِ التَّعظيمِ . . فلا يزالُ يُثنِي عليهِ ، ويَقتنِصُ قلوبَ سائرِ النَّاسِ لصاحبِهِ .

وفيهِ سِرٌّ آخَرُ : وهو أنَّ الجاهَ معناهُ العلوُّ والكبرياءُ والعزُّ ، وهيَ مِنَ الصِّفاتِ الإلٰهيَّةِ ، والصِّفاتُ الإلٰهيَّةُ محبوبةٌ للإنسانِ بالطَّبعِ ، بل هوَ ألذُّ الأشياءِ عندَهُ ؛ وذٰلكَ لِسرٍّ خفيٍّ في مناسبةِ الرُّوحِ للأمورِ الإلٰهيَّةِ ، وعنهُ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ .

فهوَ أمرٌ ربَّانيٌّ ، شغفَهُ مِنْ حيثُ الطَّبعُ الاستبدادُ والانفرادُ بالوجودِ ، وهوَ حقيقةُ الإلٰهيَّةِ ؛ إذ ليسَ معَ اللهِ موجودٌ ، بلِ الموجوداتُ كلُّها كالظِّلِّ مِنْ نورِ القدرةِ ، فلها رتبةُ التَّبعيَّةِ ، لا رتبةُ المعيَّةِ .

فليسَ في الوجودِ معَ اللهِ غيرُهُ ، وكأنَّ الإنسانَ يشتهي ذٰلكَ ، بل في كلِّ شيءٍ أن يقولَ : (أنا ربُّكُمُ الأعلىٰ) ، لٰكنْ أظهرَهُ فرعونُ ، وأخفاهُ غيرُهُ ، لٰكنْ إن فاتَهُ الانفرادُ بالوجودِ . . فيشتهي ألَّا يفوتَهُ الاستعلاءُ والاستيلاءُ على الموجوداتِ كلِّها ؛ ليتصرَّفَ فيها علىٰ حَسَبِ مرادِهِ ؛ وهوَ الإلٰهيَّةُ .

لـٰكنْ تَعذَّرَ على الإنسانِ ذٰلكَ في السَّماواتِ والكواكبِ والملائكةِ والبحارِ والجبالِ ، فاشتهى الاستيلاءَ علىٰ جميعِها بالعلمِ ؛ لأنَّ العلمَ نوعُ استيلاءٍ أيضاً ، كما أنَّ مَنْ عَجَزَ عن وضعِ الأشياءِ العجيبةِ . . فيشتهي أن يعرفَ كيفيَّةَ الوضعِ ، وكذٰلكَ يشتهي أن يعرفَ عجائبَ البحرِ ، وما تحتَ الجبالِ ، ويَتصوَّرُ أن يَتسخَّرَ لهُ الأعيانُ التي علىٰ وجهِ الأرضِ مِنَ الحيوانِ والنَّباتِ والمعادنِ ، فيُحِبُّ أن يَتملَّكَها ويَتموَّلَها ، ويَتصوَّرُ أن يَتسخَّرَ لهُ الإنسانُ ، فيُحِبُّ أن يستسخرَهُ بواسطةِ قلبِهِ ، ويَملِكَ قلبَهُ بإلقاءِ التَّعظيمِ فيهِ ، ويحصلُ التَّعظيمُ بأن يعتقدَ فيهِ كمالَ الخصالِ ؛ فإنَّ الإجلالَ يتبعُ اعتقادَ الكمالِ .

فلهـٰذا يُحِبُّ الإنسانُ أن يَتَّسعَ جاهُهُ ، وينتشرَ صيتُهُ ، حتَّىٰ إلى البلادِ التي يَعلَمُ قطعاً أنَّهُ لا يطؤُها ، ولا يرىٰ أهلَها ؛ لأنَّ كلَّ ذٰلكَ يناسبُ صفاتِ الربوبيَّةِ ، وكلَّما صارَ أعقلَ . . كانَتْ هـٰذهِ الصِّفةُ عليهِ أغلبَ ، وشهَواتُهُ البهيميَّةُ فيهِ أضعفَ [1] .

فَصْلٌ

[في بيانِ حقيقةِ الرِّفعةِ مِنْ حيثُ الذمُّ والمدحُ]

لعلَّكَ تقولُ : فإذا كانَ كذٰلكَ . . فلِمَ كانَ طلبُ الرِّفعةِ مذموماً وهوَ مِنْ نتائجِ العقلِ ، وخواصِّ الرُّوحِ ؛ لمناسبتِهِ الأمورَ الرَّبَّانيَّةَ ؟

---

(١) في هامش (و) : (بلغ مقابلة) .

فاعلمْ : أنَّ الرِّفعةَ الحقيقيَّةَ طلبُها محمودٌ غيرُ مذمومٍ ؛ إذ مطلوبُ الكلِّ هوَ القربُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ هوَ الرِّفعةُ والكمالُ ؛ إذ هوَ عِزٌّ لا ذلَّ فيهِ ، وغنىً لا فقرَ معَهُ ، وبقاءٌ لا فَناءَ بعدَهُ ، ولذَّةٌ لا كُدورةَ لها ، وطلبُ ذٰلكَ محمودٌ ، وإنَّما المذمومُ طلبُ الكمالِ الوهميِّ دونَ الحقيقيِّ .

والكمالُ الحقيقيُّ يرجعُ إلى العلمِ والقدرةِ والحُرِّيَّةِ ؛ وهوَ ألَّا يكونَ مُقيَّداً بغيرِهِ [1] ، ولا يُتصوَّرُ للعبدِ حقيقةُ القدرةِ ؛ فإنَّ قدرتَهُ إنَّما تكونُ بالمالِ والجاهِ ، وذٰلكَ كمالٌ وهميٌّ ؛ فإنَّه أمرٌ عارضٌ لا بقاءَ لهُ ، ولا خيرَ فيما لا بقاءَ لهُ ، بل قيلَ [2] : [من الوافر]

أَشَــدُّ ٱلْغَـمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ ... تَـيَقَّـنَ عَـنْـهُ صَاحِبُـهُ ٱنْتِقَـالَا

كيفَ وهٰذهِ القدرةُ العارضةُ معَ سرعةِ انقضائِها بالموتِ وبآفاتِها قبلَهُ . . لا تصفو عنِ المُكدِّراتِ ، فمَنْ توهَّمَها كمالاً . . فقد زلَّ .

بلِ الكمالُ في الباقياتِ الصَّالحاتِ التي يُنالُ بها القربُ مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، ولا تزولُ بالموتِ ، بل تتضاعفُ تضاعفاً غيرَ محدودٍ ؛ وذٰلكَ هوَ المعرفةُ الحقيقيَّةُ بذاتِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وهوَ العلمُ بكلِّ الموجوداتِ ؛ إذ ليسَ في الوجودِ إلَّا اللهُ تعالىٰ وأفعالُهُ ، لٰكنْ قد ينظرُ فيها النَّاظرُ لا مِنْ حيثُ إنَّها أفعالُ اللهِ

---

(١) أي : الكمال الحقيقي .

(٢) هو للمتنبي كما في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/٢٢٤) .

تعالىٰ ؛ كالذي ينظرُ في التَّشريحِ لغرضِ الطِّبِّ ، أو ينظرُ في هيئةِ العالَمِ لمعرفةِ الاستدلالِ بأحكامِ النُّجومِ ، فهٰذا لا قَدْرَ لهُ .

ومِنَ الكمالِ الحقيقيِّ : **الحُرِّيَّةُ** ؛ وهيَ انقطاعُ علاقتِكَ عن جميعِ علائقِ الدُّنيا ، بل عن كلِّ ما يُفارِقُكَ بالموتِ ، والاقتصارُ في الالتفاتِ إلىٰ لازمِكَ الذي لا بدَّ لكَ منهُ ؛ وهوَ اللهُ تعالىٰ ، كما أوحى اللهُ إلىٰ داوودَ عليهِ السَّلامُ : (يا داوودُ ؛ أنا بُدُّكَ اللَّازمُ ، فالزمْ بُدَّكَ)[1] .

فالعلمُ والحُرِّيَّةُ مِنَ الباقياتِ الصَّالحاتِ ، **وهما كمالانِ حقيقيَّانِ** ، والمالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا ، **وهما كمالان وهميَّانِ** .

والمَنكُوسونَ : هم الذينَ عكسوا الحقيقةَ ؛ فأعرضوا عن طلبِ الكمالِ الحقيقيِّ ، واشتغلوا بطلبِ الكمالِ الوهميِّ ، وهمُ الذينَ يحترقونَ عندَ الموتِ بنيرانِ الحسرةِ ؛ إذ يشاهدونَ أنَّهُم خسروا الدُّنيا والآخرةَ ؛ **أمَّا الآخرةُ** . . فلأنَّهُم لم يطلبوها ، ولم يُحصِّلوا أسبابَها مِنَ المعرفةِ والحرية ، **وأمَّا الدُّنيا** . . فلأنَّها ودَّعَتْهُم ، وانقلبَتْ إلىٰ أعدائِهِم ، وهم ورثتُهُم .

ولا تظنَّنَّ أنَّ العلمَ والإيمانَ يفارقانِكَ بالموتِ ؛ فالموتُ لا يَهدِمُ محلَّ العلمِ أصلاً ، وليسَ الموتُ عَدَماً حتَّىٰ تظنَّ أنَّكَ إذا عُدِمتَ . . عُدِمَتْ صفاتُكَ ، **بل معنى الموتِ** : قطعُ علاقةِ الرُّوحِ

---

(١) أورده بنحوه أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/٢٤٥) ، ورواه مرفوعاً الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢/٢٤٤) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه ، والبُدُّ : النصيبُ والعوض .

مِنَ البدنِ إلىٰ أن تُعادَ إليهِ (١) ، وإذا تَجرَّدَ عنِ البدنِ . . فهوَ علىٰ ما كانَ عليهِ قبلَ الموتِ مِنَ العلمِ والجهلِ ، وفهمُ هـٰذا يطولُ ، وتحتَهُ أسرارٌ لا يَحتمِلُ هـٰذا الكتابُ كشفَها .

فَصْلٌ

[في بيانِ علاجِ داءِ الجاهِ]

إذا عرفتَ حقيقةَ الجاهِ وماهيَّتَهُ ، وأنَّه كمالٌ وهميٌّ . . فقد عرفتَ طريقَ العلاجِ في قمعِ حبِّهِ مِنَ القلبِ ؛ إذ علمتَ : أنَّ أهلَ الأرضِ لو سجدوا لكَ مثلاً . . لَمَا بقيَ إلىٰ مُدَّةٍ قريبةٍ لا السَّاجِدُ ولا المسجودُ لهُ ، كيفَ ويَشَحُّ الدَّهرُ عليكَ بأن يَسْلَمَ لَك المُلْكُ في مَحلَّتِكَ فضلاً عن قريتِكَ أو بلدتِكَ ؟!

فكيفَ ترضىٰ أن تتركَ مُلْكَ الأبدِ والجاهَ الطَّويلَ العريضَ عندَ اللهِ تعالىٰ وعندَ ملائكتِهِ بجاهِكَ الحقيرِ المُنغَّصِ عندَ جماعةٍ مِنَ الحمقىٰ لا ينفعونَكَ ولا يضرُّونَكَ ، ولا يَملِكونَ لكَ موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، ولا رزقاً ولا أجلاً ؟!

---

(١) ولذا قال المصنف في « الإحياء » (٩/٤٧٠) : (ومعنى الموت : انقطاع تصرُّفه عن البدن ، وخروج البدن عن أن يكون آلة له ، كما أن معنى الزمانة : خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة ، فالموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلها . . . ، وإنما معنى الموت : سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلىٰ عالم آخر لا يناسب هـٰذا العالم ، فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه ويعتدُّ بوجوده . . فيعظم تحسُّره عليه بعد الموت . . . ، وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله تعالىٰ ولم يأنس إلا به . . عظم نعيمه وتمَّت سعادته) ، ومعنى الزمانة : المرض وتعطل القوىٰ ، ومنه : مرض مزمن أو علة مزمنة .

نعم ؛ مُلْكُ القلوبِ كمُلْكِ الأعيانِ ، وأنتَ محتاجٌ منهُ إلىٰ قَدْرٍ يسيرٍ ؛ لتَحرُسَ نفسَكَ عنِ الظُّلمِ والعُدوانِ ، وعمَّا يُشوِّشُ عليكَ سلامتَكَ وفراغَكَ اللَّذَينِ تستعينُ بهِما علىٰ دِينِكَ ، فطلبُكَ لهٰذا القَدْرِ مُباحٌ ؛ بشرطِ القناعةِ بقَدْرِ الضَّرورةِ كما في المالِ ، وبشرطِ ألَّا تكتسبَهُ بالمُراءاةِ بالعبادةِ ، فذٰلكَ حرامٌ كما سيأتي [1] ، وألَّا تكتسبَهُ بالتَّلبيسِ ؛ بأن تُظهِرَ مِنْ نفسِكَ ما أنتَ خالٍ عنهُ ؛ فلا فرقَ بينَ مُلْكِ القلوبِ بالتَّلبيسِ وبينَ مُلْكِ الأموالِ .

فإذا حصَّلتَ الجاهَ بطريقِهِ ، واقتصرتَ علىٰ قَدْرِ التَّحرُّزِ مِنَ الآفاتِ . . فتُرجىٰ لكَ السَّلامةُ ، إلَّا أنَّكَ في خطرٍ عظيمٍ أكثرَ مِنْ خطرِ المالِ ؛ لأنَّ قليلَ الجاهِ يدعو إلىٰ كثيرِهِ ؛ فإنَّهُ ألذُّ مِنَ المالِ ، ولذٰلكَ لا يَسلَمُ الدِّينُ غالباً إلَّا لخاملٍ مجهولٍ لا يُعرَفُ ، كما فهمتَ ذٰلكَ مِنَ الأخبارِ [2] .

فَصْلٌ

[في حبِّ المدحِ ، وأنَّهُ مِنَ البواعثِ علىٰ طلبِ الجاهِ]

مِنَ البواعثِ علىٰ طلبِ الجاهِ : حبُّ المدحِ ؛ فإنَّ الإنسانَ يَتلذَّذُ بهِ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

---

(١) انظر (ص ٣٠٦) .

(٢) فقد روىٰ مسلم (٢٩٦٥) من حديث سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله يحبُّ العبد التقي الغني الخفي » ، وفي « قوت القلوب » (١٢٣/٢) عن سفيان الثوري قال : (هٰذا زمان سوء ، لا يؤمن فيه على الخاملين ، فكيف بالمشهورين ؟!) .

أحدُها : أنَّهُ يُشعِرُ صاحبَهُ بكمالِ نفسِهِ ، والشُّعورُ بالكمالِ لذيذٌ ؛ لأنَّ الكمالَ مِنَ الصِّفاتِ الإلـٰهيَّةِ .

والثَّاني : أنَّهُ يُشعِرُ بمُلْكِ قلبِ المادحِ ، وقيامِ الجاهِ عندَهُ ، وكونِهِ مُسخَّراً لهُ .

والثَّالثُ : أنَّهُ يُشعِرُ صاحبَهُ بأنَّ المادحَ يُصغِىٰ إلىٰ مدحِهِ ، فينتشرُ بسببِهِ جاهُهُ ، فلذٰلكَ إذا صدرَ المدحُ مِنْ بصيرٍ بصفاتِ الكمالِ ، واسعِ الجاهِ والقدرةِ في نفسِهِ ، وكانَ علىٰ ملأٍ مِنَ النَّاسِ . . تضاعفَتْ لذَّةُ المدحِ .

وتزولُ اللَّذَّةُ الأُولىٰ : بأن يصدرَ عن غيرِ أهلِ البصيرةِ ؛ فإنَّه لا يُشعِرُ بالكمالِ .

وتزولُ الثَّانيةُ : بأن يصدرَ عن خسيسٍ لا قَدْرَ لهُ ؛ لأنَّ مُلْكَ قلبِهِ لا يُعتَدُّ بهِ .

وتزولُ الثَّالثةُ : بأن يُمدَحَ في الخلوةِ لا في الملأ ، إلَّا مِنْ حيثُ يَتوقَّعُ أنَّهُ أيضاً ربَّما يُمدَحُ في الملأ .

وأمَّا الذَّمُّ : فإنَّهُ مكروهٌ ؛ لنقيضِ هـٰذهِ الأسبابِ ، وأكثرُ الخَلْقِ أهلكَهُم حبُّ المدحِ وكراهيةُ الذَّمِّ ، ويحملُهُم ذٰلكَ على المراءاةِ وفنونِ المعصيةِ .

وعلاجُ ذٰلكَ : أن يَتفكَّرَ في اللَّذَّةِ الأُولىٰ ، فإن مُدِحَ بكثرةِ المالِ والجاهِ . . فليَعلَمْ أنَّهُ كمالٌ وهميٌّ ، وهوَ سببُ فواتِ الكمالِ الحقيقيِّ ، فهوَ جديرٌ بأن يحزنَ لأجلِهِ ، لا أن يفرحَ بهِ .

وإن مُدِحَ بكمالِ العلمِ والورعِ . . فينبغي أن يكونَ فرحُهُ بوجودِ تلكَ الصِّفاتِ وعلمِ اللهِ تعالىٰ بها ، لا بذكرِ غيرِهِ ، ويشكرَ اللهَ تعالىٰ عليها لا يشكرُ غيرَهُ ، هٰذا إن كانَ مُتَّصفاً بهِ .

وأمَّا إن كانَ غيرَ مُتَّصفٍ بهِ . . ففرحُهُ بهِ حماقةٌ ؛ كفرحِ مَنْ يُثنِي عليهِ غيرُهُ ويقولُ : ما أطيبَ العطرَ الذي في أحشائِكَ وأمعائِكَ !! وهوَ يعلمُ ما فيها مِنَ الأقذارِ والأنتانِ ، وهٰذا حالُ مَنْ يفرحُ بالمدحِ بالورعِ والزُّهدِ والعلمِ وهوَ يعلمُ مِنْ باطنِ نفسِهِ أنَّه خالٍ عنهُ !!

وأمَّا اللَّذَّةُ الثَّانيةُ والثَّالثةُ ـ وهوَ لذَّةُ الجاهِ عندَ المادحِ وغيرِهِ ـ : فعلاجُهُ ما ذكرناهُ في حبِّ الجاهِ .

الأصل السابع

في حب الدّنيا

اعلمْ : أنَّ حبَّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، وليسَ الدُّنيا عبارةً عنِ المالِ والجاهِ فقطْ ، بل هما حظَّانِ مِنْ حظوظِ الدُّنيا ، وشُعبتانِ مِنْ شُعَبِها ، وشُعَبُ الدُّنيا كثيرةٌ .

ودنياكَ عبارةٌ عن حالتِكَ قبلَ الموتِ ، وآخرتُكَ عبارةٌ عن حالتِكَ بعدَ الموتِ ، وكلُّ ما لكَ فيهِ حظٌّ قبلَ الموتِ . . فهوَ مِنْ دنياكَ ، إلَّا العلمَ والمعرفةَ والحُرِّيَّةَ ، وما يبقىٰ معَكَ بعدَ الموتِ ، فإنَّها أيضاً لذيذةٌ عندَ أهلِ البصائرِ ، ولـٰكنَّها ليسَتْ مِنَ الدُّنيا وإن كانَتْ في الدُّنيا .

ولهـٰذهِ الحظوظِ الدُّنيويةِ تعاونٌ وتعلُّقٌ بكَ ، وتعلُّقٌ بما فيهِ الحظُّ ، وتعلُّقٌ بأعمالِكَ المُتعلِّقةِ بإصلاحِها ؛ **فهيَ ترجعُ إلىٰ أعيانٍ موجودةٍ ، وإلىٰ حظِّكَ منها ، وإلىٰ شغلِكَ في إصلاحِها .**

أمَّا الأعيانُ : فهيَ الأرضُ وما عليها ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿١٨/٧﴾ ﴾ .

ومطلوبُ الآدميِّ مِنَ الأرضِ : إمَّا عينُها فللمَسكنِ والمَحرثِ ، وإمَّا نباتُها فللتَّداوي والاقتياتِ ، وإمَّا معادنُها فللنُّقودِ والأواني والآلاتِ ، وإمَّا حيواناتُها فللمَركبِ والمَأكلِ ، وإمَّا الآدميونَ منها

فللمَنكحِ والاستسخارِ ، وقد جمعَ اللهُ سبحانَهُ ذٰلكَ في قولِهِ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴿١٤﴾ . . . ﴾ الآيةَ .

وأمَّا حظُّكَ منها : فقد عبَّرَ القرآنُ الكريمُ عنهُ بالهوىٰ ؛ فقالَ : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ ، وقالَ مُفصِّلاً لهُ : ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴿٥٧﴾ . . . ﴾ الآيةَ .

وذٰلكَ يندرجُ فيهِ جميعُ المُهلِكاتِ الباطنةِ ؛ مِنَ الكِبْرِ والغِلِّ ، والحسدِ والسُّمعةِ ، والرِّياءِ والنِّفاقِ ، والتَّفاخرِ والتَّكاثرِ ، وحبِّ الدُّنيا وحبِّ الثَّناءِ ؛ وهيَ الدُّنيا الباطنةُ ، وإنَّما الأعيانُ هيَ الدُّنيا الظَّاهرةُ .

وأمَّا شغلُكَ في إصلاحِها : فهيَ جملةُ الحِرَفِ والصِّناعاتِ التي الخَلْقُ مشغولونَ بها ، وقد نَسُوا فيها أنفسَهُم ومبدأَهُم ومَعادَهُم ؛ لٱستغراقِهِم باشتغالِهِم بها ، وإنَّما شاغلُهُمُ العلاقةُ ؛ فإنَّ علاقةَ القلبِ بحبِّ حظوظِها ، وعلاقةَ البدنِ بشغلِ إصلاحِها .

فهٰذهِ هيَ حقيقةُ الدُّنيا التي حبُّها رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، وإنَّما خُلِقَتْ للتَّزوُّدِ منها إلى الآخرةِ ، ولٰكنْ كثرةُ أشغالِها وفنونُ شهَواتِها أنسَتِ الحمقىٰ سفرَهُم ومَقصِدَهُم ، فقصَروا عليها همَّتَهُم ، وكانوا كالحاجِّ في الباديةِ ، يشتغلُ بتعهُّدِ النَّاقةِ وعَلْفِها

وتسمينِها ، فيتخلَّفُ عنِ الرُّفقةِ حتَّىٰ يفوتَهُ الحجُّ ، وتُهلِكَهُ سِباعُ البادِيةِ .

فَصْلٌ

[في كونِ الدنيا مزرعةَ الآخرةِ]

هٰذهِ الدُّنيا المذمومةُ المُهلِكةُ هيَ بعينِها مزرعةُ الآخرةِ في حقِّ مَنْ عرفَها ؛ إذ يَعرِفُ أنَّها منزلٌ مِنْ منازلِ السَّائرينَ إلى اللهِ تعالىٰ ، وهيَ كرباطٍ بُنِيَ علىٰ قارعةِ الطَّريقِ ، أُعِدَّ فيها العَلَفُ والزَّادُ وأسبابُ السَّفرِ ، فمَنْ تَزوَّدَ منها لآخرتِهِ ، واقتصرَ منها علىٰ قَدْرِ الضَّرورةِ التي ذكرناها في المَطعَمِ والمَلبَسِ والمَنكَحِ وسائرِ الضَّروراتِ [١] . . فقد حرثَ وبذرَ ، وسيحصدُ في الآخرةِ ما زرعَ ، ومَنْ عَرَّجَ عليها واشتغلَ بلذَّاتِها . . هلكَ .

ومثلُ الخَلْقِ فيها كمثلِ قومٍ ركبوا سفينةً ، فانتهَتْ بهِم إلىٰ جزيرةٍ ، فأمرَهُمُ المَلَّاحُ بالخروجِ لقضاءِ الحاجةِ ، وخوَّفَهُمُ المُقامَ ، واستعجالَ السَّفينةِ ، فتفرَّقوا فيها .

فبادرَ بعضُهُم وقضىٰ حاجتَهُ ، ورجعَ إلى السَّفينةِ فوجدَ مكاناً خالياً واسعاً .

ووقفَ بعضُهُم ينظرُ في أزهارِ الجزيرةِ وأنوارِها ، وطرائفِ أحجارِها ، وعجائبِ غياضِها ، ونغماتِ طيورِها ، فرجعَ إلى السَّفينةِ فلم يجدْ إلَّا مكاناً ضيِّقاً حرجاً .

---

(١) انظر (ص ٣٥٩ ـ ٣٦٤) .

وأكبَّ بعضُهُم على تلكَ الأصدافِ والأحجارِ ، وأعجبَهُ حسنُها ، فلم تسمحْ نفسُهُ إلَّا بأن يستصحبَ شيئاً منها ، فلم يجدْ في السَّفينةِ إلَّا مكاناً ضيّقاً ، وزادَتْهُ الحجارةُ ثقلاً وضيقاً ، فلم يَقدِرْ علىٰ رميِها ، ولم يجدْ لها مكاناً ، فحملَها علىٰ عنقِهِ وهوَ ينوءُ بأعبائِها .

وتَولَّجَ بعضُهُمُ الغياضَ ، ونسيَ المَركَبَ ، واشتغلَ بالتَّفرُّجِ في تلكَ الأزهارِ ، والتَّناولِ مِنْ تلكَ الثِّمارِ ، وهوَ في تفرُّجِهِ غيرُ خالٍ مِنْ خوفِ السِّباعِ ، والحذرِ مِنَ السَّقَطاتِ والنَّكَباتِ ، فلمَّا رجعَ إلى السَّفينةِ . . لم يُصادِفْها ، فبقيَ على السَّاحلِ ، فافترسَتْهُ السِّباعُ ، ومَزَّقَتْهُ الهوامُّ .

فهٰذهِ صورةُ أهلِ الدُّنيا بالإضافةِ إلى الدُّنيا والآخرةِ ، فتأمَّلْها واستخرجْ وجهَ الموازنةِ فيها إن كنتَ ذا بصيرةٍ .

فَصْلٌ

[في كونِ الدُّنيا والآخرةِ ضَرَّتينِ]

مَنْ عرفَ نفسَهُ ، وعرفَ ربَّهُ ، وعرفَ زينةَ الدُّنيا ، وعرفَ الآخرةَ . . شاهدَ بنورِ البصيرةِ وجهَ عداوةِ الدُّنيا للآخرةِ ؛ إذ ينكشفُ لهُ قطعاً أن لا سعادةَ في الآخرةِ إلَّا لِمَنْ قدمَ على اللهِ تعالىٰ عارفاً بِهِ مُحِبّاً لهُ ؛ فإنَّ المحبَّةَ لا تُنالُ إلَّا بدوامِ الذِّكرِ ، وإنَّ المعرفةَ لا تُنالُ إلَّا بدوامِ الطَّلبِ والفكرِ ، ولا يتفرَّغُ لهُما

إلَّا مَنْ أعرضَ عن أشغالِ الدُّنيا ، ولا تستولي المعرفةُ والحبُّ على القلبِ ما لم يَفرُغْ مِنْ حبِّ غيرِ اللهِ تعالىٰ ، ففراغُ القلبِ مِنْ غيرِ اللهِ ضرورةُ اشتغالِهِ بحبِّ اللهِ تعالىٰ ومعرفتِهِ ، ولن يُتصوَّرَ ذٰلكَ إلَّا لمُعْرِضٍ عنِ الدُّنيا ، قانعٍ منها بقَدْرِ الزَّادِ والضَّرورةِ (١) .

فإن كنتَ مِنْ أهلِ البصيرةِ . . فقد صِرْتَ مِنْ أهلِ الذَّوقِ والمشاهدةِ ، وإن لم تكنْ كذٰلكَ . . فكنْ مِنْ أهلِ التَّقليدِ في الإيمانِ ، وانظرْ إلىٰ تحذيرِ اللهِ تعالىٰ إيَّاكَ بالكتابِ والسُّنَّةِ ؛ وقد قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴿١١/١٥﴾ . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ﴿١٦/١٠٧﴾ . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ عزَّ اسمُهُ : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٧٩/٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٧٩/٣٨﴾ ﴾ ، **ولعلَّ ثلثَ القرآنِ في ذمِّ الدُّنيا وذمِّ أهلِها .**

وقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا ، إِلَّا ذِكْرَ ٱللهِ تَعَالَىٰ » (٢) .

---

(١) وهو الموصوف كما روى البخاري (٦٤١٦) بالغريب ؛ فعن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ، وكان ابن عمر يقول : (إذا أمسيت . . فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت . . فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٢) ، وابن ماجه (٤٢٧٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَا عَجَباً كُلَّ ٱلْعَجَبِ لِلْمُصَدِّقِ بِدَارِ ٱلْخُلُودِ وَهُوَ يَسْعَىٰ لِدَارِ ٱلْغُرُورِ !! »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ ٱللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا ، فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقاً أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا مُنْذُ خَلَقَهَا »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَصْبَحَ وَٱلدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ . . فَلَيْسَ مِنَ ٱللهِ فِي شَيْءٍ ، وَأَلْزَمَ ٱللهُ قَلْبَهُ أَرْبَعَ خِصَالٍ : هَمّاً لَا يَنْقَطِعُ عَنْهُ أَبَداً ، وَشُغْلاً لَا يَتَفَرَّغُ عَنْهُ أَبَداً ، وَفَقْراً لَا يَبْلُغُ غِنَاهُ أَبَداً ، وَأَمَلاً لَا يَبْلُغُ مُنْتَهَاهُ أَبَداً »(٤) .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؛ أَلَا أُرِيكَ ٱلدُّنْيَا جَمِيعَهَا ؟ » ، قلتُ : نعمْ ، فأخذَ بيدي إِلَىٰ مزبلةٍ فيها رؤوسُ أناسٍ ، وعذراتٌ ، وخرقٌ ،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٠٣) ، وابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٦) عن أبي جعفر عبد الله بن مسور مرسلاً .

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٢) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠١٨) من حديث موسى بن يسار بلاغاً ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٨٣/٨) : (لم ينظر إليها نظر رضاً ، وإلا . . فهو ينظر إليها نظر تدبير ، ولولا ذٰلك . . لاضمحلت) .

(٤) أورده الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٥٨١٨) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، وروىٰ نحوه ابنُ أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٥) عن شعيب بن صالح رحمه الله تعالىٰ .

وعظامٌ ، وقالَ : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؛ هَـٰذِهِ ٱلرُّؤُوسُ كَانَتْ تَحْرِصُ كَحِرْصِكُمْ ، وَتَأْمُلُ آمَالَكُمْ ، ثُمَّ هِيَ ٱلْيَوْمَ عِظَامٌ بِلَا جِلْدٍ ، ثُمَّ هِيَ صَائِرَةٌ رَمَاداً ، وَهَـٰذِهِ ٱلْعَذِرَاتُ أَلْوَانُ أَطْعِمَتِهِمُ ، ٱكْتَسَبُوهَا مِنْ حَيْثُ ٱكْتَسَبُوهَا ، ثُمَّ قَذَفُوهَا مِنْ بُطُونِهِمْ ، فَأَصْبَحَتْ وَٱلنَّاسُ يَتَحَامَوْنَهَا ، وَهَـٰذِهِ ٱلْخِرَقُ ٱلْبَالِيَةُ كَانَتْ رِيَاشَهُمْ وَلِبَاسَهُمْ ، فَأَصْبَحَتْ وَٱلرِّيَاحُ تَصْفِقُهَا ، وَهَـٰذِهِ ٱلْعِظَامُ عِظَامُ دَوَابِّهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا يَنْتَجِعُونَ عَلَيْهَا أَطْرَافَ ٱلْبِلَادِ ، فَمَنْ كَانَ بَاكِياً عَلَى ٱلدُّنْيَا . . فَلْيَبْكِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَيَجِيئَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَأَعْمَالُهُمْ كَجِبَالِ تِهَامَةَ ، فَيُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى ٱلنَّارِ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ أمُصلُّونَ ؟ قالَ : « نَعَمْ ، كَانُوا يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ ، وَيَأْخُذُونَ هَنَةً مِنَ ٱللَّيْلِ ، فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ ٱلدُّنْيَا . . وَثَبُوا عَلَيْهِ »[٢] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : (لا يستقيمُ حبُّ الدُّنيا والآخرةِ في قلبِ مؤمنٍ ، كما لا يستقيمُ الماءُ والنَّارُ في إناءٍ واحدٍ)[٣] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱحْذَرُوا ٱلدُّنْيَا ؛ فَإِنَّهَا أَسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ »[٤] .

---

(١) أورده الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة » (١٤١) .

(٢) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (١٨٦٥) ، وهو عند الديلمي في « الفردوس » (٨٨٧٥) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/١٧٧) عن سيدنا سالم مولىٰ أبي حذيفة رضي الله عنهما ، والهنة : القليل من النوم .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٧٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٣٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٢٢) عن أبي الدرداء الرهاوي .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : (يا معشرَ الحوارِيِّينَ ؛ ارضَوا بدنيِّ الدُّنيا معَ سلامةِ الدِّينِ ، كما رضيَ أهلُ الدُّنيا بدنيِّ الدِّينِ معَ سلامةِ الدُّنيا)[1] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ أيضاً للحوارِيِّينَ : (لَأَكلُ خبزِ الشَّعيرِ بالمِلحِ الجريشِ ، ولُبْسُ المُسُوحِ ، والنَّومُ على المزابلِ . . كثيرٌ معَ عافيةِ الدُّنيا والآخرةِ)[2] .

ورُوِيَ : (أنَّ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ كُوشِفَ بالدُّنيا ، فرآها في صورةِ عجوزٍ شوهاءَ عليها مِنْ كلِّ زينةٍ ، فقالَ لها : كَمْ نكحتِ ؟ فقالَتْ : إنِّي لا أُحصيهِم ، فقالَ : يُطلِّقونَكِ أو ماتوا عنكِ ؟ فقالَتْ : بل قتلْتُ كلَّهُم ، فقالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : بؤساً لأزواجِكِ الباقينَ كيفَ لا يعتبرونَ بأزواجِكِ الماضينَ ؟!)[3] .

فَصْلٌ

[في أنَّ الغفلةَ سببٌ لدخولِ الدُّنيا إلى القلبِ]

اعلمْ : أنَّ مَنْ ظنَّ أنَّهُ يلابسُ الدُّنيا ببدنِهِ ، ويخلو عنها بقلبِهِ . . فهوَ مغرورٌ .

قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَثَلُ صَاحِبِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٤٩) عن زكريا بن عدي رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٨٢) ، وفي « الزهد » (٢٩٨) عن عمار بن سعيد رحمه الله تعالىٰ .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧) عن ليث بن أبي سليم رحمه الله تعالىٰ .

ٱلْمَاشِي فِي ٱلْمَاءِ ، هَلْ يَسْتَطِيعُ ٱلَّذِي يَمْشِي فِي ٱلْمَاءِ أَلَّا تَبْتَلَّ قَدَمَاهُ ؟! »[1] .

وكتبَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ سلمانَ الفارسيِّ رضيَ اللهُ عنهُ : (**مثلُ الدُّنيا مثلُ الحيَّةِ** ؛ يلينُ مَسُّها ، ويقتلُ سمُّها ، فأعرضْ عمَّا يُعجِبُكَ منها ؛ لقلَّةِ ما يصحبُكَ منها ، وضعْ عنكَ همومَها ؛ لِمَا أيقنتَ مِنْ فِراقِها ، وكنْ أسرَّ ما تكونُ بها أحذرَ ما تكونُ منها ؛ فإنَّ صاحبَها كلَّما اطمأنَّ منها إلىٰ سرورٍ . . أشخصَهُ عنهُ مكروهٌ)[2] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : (**مثلُ طالبِ الدُّنيا مثلُ شاربِ ماءِ البحرِ** ؛ كلَّما ازدادَ شرباً . . ازدادَ عطشاً حتَّىٰ يقتلَهُ)[3] .

واعلمْ : أنَّ مَنِ اطمأنَّ إلى الدُّنيا وهوَ يَتيقَّنُ أنَّهُ راحلٌ عنها . . فهوَ في غايةِ الحماقةِ ، بل مثلُ الدُّنيا مثلُ دارٍ هيَّأَها صاحبُها ، وزيَّنَها لضيافةِ الواردينَ والصَّادرينَ ، فدخلَ واحدٌ دارَهُ ، فقدَّمَ إليهِ طبقاً مِنْ ذهبٍ عليهِ بَخُورٌ وريحانٌ ليَشَمَّها ، ويتركَ الطَّبقَ لمَنْ يلحقُهُ لا ليتملَّكَهُ ، فجهلَ رسمَهُ ، فظنَّ أنَّهُ وهبَ ذٰلكَ لهُ ، فلمَّا تعلَّقَ بهِ قلبُهُ . . استُرجِعَ منهُ ، فضَجِرَ وتَوجَّعَ ، ومَنْ كانَ عالِماً برسمِهِ . . انتفعَ بهِ وشكرَهُ ، وردَّهُ بطِيبةِ قلبٍ ، وانشراحِ صدرٍ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٩) عن الحسن بلاغاً ، ووصله في « الشعب » (٩١٤١) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٧٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٤٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤٢) .

فكذٰلكَ سُنَّةُ اللهِ في الدُّنيا ، فإنَّها دارُ ضيافةٍ على المجتازينَ لا على المقيمينَ ؛ ليتزوَّدوا منها ما ينتفعونَ بهِ كما يُنتفَعُ بالعاريَّةِ ، ثمَّ يتركونَها لمَنْ يَلحَقُ بعدَهُم بطِيبةِ نفسٍ مِنْ غيرِ تعلُّقِ القلبِ بها .

فهٰذهِ أمثلةُ الدُّنيا وما خلقَ اللهُ فيها .

* * *

الأصل الثامن

في الكبر

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قَالَ ٱللهُ تَعَالَى : ٱلْعَظَمَةُ إِزَارِي ، وَٱلْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ؛ فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا .. قَصَمْتُهُ »(1) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا يَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ »(2) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُحْشَرُ ٱلْجَبَّارُونَ وَٱلْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِي صُوَرِ ٱلذَّرِّ ، يَطَؤُهُمُ ٱلنَّاسُ ؛ لِهَوَانِهِمْ عَلَى ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ »(3) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لبلالٍ : « إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِياً يُقَالُ لَهُ :

---

(1) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٨٨) ، من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(2) رواه مسلم (٩١) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(3) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد تقدم (ص ١٦٥) .

هَبْهَبُ ، حَقٌّ عَلَى ٱللهِ أَنْ يُسْكِنَهُ كُلَّ جَبَّارٍ ، فَإِيَّاكَ يَا بِلَالُ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَسْكُنُهُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ ٱلْكِبْرِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا يَنْظُرُ ٱللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ ، وَٱخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ . . لَقِيَ ٱللهَ تَعَالَىٰ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في فضيلةِ التَّواضعِ : « مَا زَادَ ٱللهُ عَبْداً بِعَفْوٍ . . إِلَّا عِزّاً ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلهِ إِلَّا . . رَفَعَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ »[5] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طُوبَىٰ لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ »[6] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السَّلامُ : (إنَّما أقبلُ صلاةَ

---

(١) رواه الدارمي في « سننه » (٢٨٥٨) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٣) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٧٢٤٩) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو داوود (٧٦٠) من حديث سيدنا جبير بن مطعم رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٣٦٦٥) ، ومسلم (٢٠٨٥) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (١١٨/٢) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٩) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(٥) رواه مسلم (٢٥٨٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٦) .

مَنْ تواضعَ لعظمتي ، ولم يَتعظَّمْ علىٰ خَلْقي ، وألزمَ قلبَهُ خوفي ، وقطعَ النَّهارَ بِذكْري ، وكفَّ نفسَهُ عنِ الشَّهواتِ مِنْ أجلي)[١] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا تَوَاضَعَ ٱلْعَبْدُ لِلهِ . . رَفَعَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ٱلسَّابِعَةِ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلتَّوَاضُعَ لَا يَزِيدُ ٱلْعَبْدَ إِلَّا رِفْعَةً ، فَتَوَاضَعُوا رَحِمَكُمُ ٱللهُ تَعَالَىٰ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَحْمِلَ ٱلرَّجُلُ ٱلشَّيْءَ فِي يَدِهِ ، فَيَكُونَ مِهْنَةً لِأَهْلِهِ ، يَدْفَعُ بِهِ ٱلْكِبْرَ عن نَفْسِهِ »[٤] .

فَصْلٌ

[في بيانِ حقيقةِ الكِبْرِ]

حقيقةُ الكِبْرِ : أن يرىٰ نفسَهُ فوقَ غيرِهِ في صفاتِ الكمالِ ، فيحصلُ فيهِ نفخةٌ وهِزَّةٌ مِنْ هٰذهِ الرَّذيلةِ والعقيدةِ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ ٱلْكِبْرِيَاءِ »[٥] .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٦) عن إسماعيل بن أمية رحمه الله تعالىٰ .
(٢) رواه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٧٧٩١) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .
(٣) رواه مسلم (٢٥٨٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وقوام السنة الأصبهاني في « الترغيب والترهيب » (٥٩٧) واللفظ له من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٦) عن عمر الهمذاني .
(٥) كما تقدم قريباً (ص ٢٨٢) .

ولذلكَ استأذنَ بعضُهُم عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ليعظَ النَّاسَ بعدَ الصُّبحِ ، فقالَ : (لا ، أخشىٰ أن تنتفخَ حتَّىٰ تبلغَ الثُّريَّا)[1] .

ثمَّ هٰذهِ النَّفخةُ يصدرُ منها أفعالٌ على الظَّاهرِ ؛ كالتَّرفُّعِ في المجالسِ ، والتَّقدُّمِ في الطَّريقِ ، والنَّظرِ بعينِ التَّحقيرِ والغضبِ إذا لم يُبدَأْ بالسَّلامِ ، وقُصِّرَ في حوائجِهِ وتعظيمِهِ ، ويحملُهُ علىٰ أن يأنفَ إذا وُعِظَ وعُلِّمَ ، ويُعنِّفَ إذا وَعَظَ وعَلَّمَ ، ويجحدَ الحقَّ إذا ناظرَ ، وينظرَ إلى العامَّةِ كأنَّهُ ينظرُ إلى الحميرِ .

وإنَّما عُظِّمَ الكِبْرُ حتَّىٰ لا يدخلُ في الجنَّةِ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ منهُ . . لأنَّ تحتَهُ ثلاثةَ أنواعٍ مِنَ الخبائثِ العظيمةِ :

أوَّلُها : أنَّهُ منازعةُ اللهِ تعالىٰ في خصوصِ صفتِهِ ؛ إذِ الكبرياءُ رداؤُهُ كما قالَ ؛ فإنَّ العظمةَ لا تليقُ إلَّا بهِ ، ومِنْ أينَ تليقُ العظمةُ بالعبدِ الذَّليلِ الذي لا يملكُ مِنْ أمرِ نفسِهِ شيئاً فضلاً عن أمرِ غيرِهِ ؟!

الثَّانيةُ : أنَّه يحملُهُ علىٰ جحدِ الحقِّ ، وازدراءِ الخلقِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بيانِ الكِبْرِ : « ٱلْمُتَكَبِّرُ : مَنْ سَفِهَ

(١) رواه الضياء في « الأحاديث المختارة » (١٠٦) ، وأحمد في « المسند » (١٨/١) بنحوه ، قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « إحياء علوم الدين » (٤٢٨/٦) معللاً : (إذ رأىٰ فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق) .

ٱلْحَقَّ ، وَغَمَصَ ٱلنَّاسَ »[1] ، والأنفةُ مِنَ الحقِّ تُغلِقُ بابَ السَّعادةِ ، وكذا استحقارُ الخَلْقِ .

وقالَ بعضُهُم : (إنَّ اللهَ سبحانَهُ خَبَأَ ثلاثاً في ثلاثٍ : خَبَأَ رضاهُ في طاعتِهِ ؛ فلا تَحقِرَنَّ شيئاً منها ؛ لعلَّ رضا اللهِ فيهِ ، وخَبَأَ سخطَهُ في معصيتِهِ ؛ فلا تَحقِرَنَّ شيئاً منها ، صغيرةً كانَتْ أو كبيرةً ؛ فلعلَّ سخطَ اللهِ تعالىٰ فيها ، وخَبَأَ ولايتَهُ في عبادِهِ ؛ فلا تَحقِرَنَّ أحداً منهُم ؛ فلعلَّهُ وليُّ اللهِ تعالىٰ)[2] .

الثَّالثةُ : أنَّهُ يَحُولُ بينَهُ وبينَ جميعِ الأخلاقِ المحمودةِ ؛ لأنَّ المُتكبِّرَ لا يَقدِرُ أن يُحِبَّ للنَّاسِ ما يُحِبُّ لنفسِهِ ، ولا يَقدِرُ على التَّواضعِ ، ولا علىٰ تركِ الأَنَفةِ والحسدِ والغضبِ ، ولا يَقدِرُ علىٰ كظمِ الغيظِ ، ولا على اللُّطفِ في النُّصحِ ، ولا علىٰ تركِ الرِّياءِ .

وبالجملةِ : فلا يبقىٰ خُلُقٌ مذمومٌ إلَّا ويُضطَرُّ المُتكبِّرُ إلى ارتكابِهِ[3] ، ولا خُلُقٌ محمودٌ إلَّا ويُضطَرُّ إلىٰ تركِهِ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٣٣/٤) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وهو عند مسلم (٩١) بلفظ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، وسَفِهَ الحقَّ : جهله ، وغَمَصَ النَّاسَ : ازدراهم واحتقرهم .

(٢) هو في « قوت القلوب » (٢٠٧/١) من كلام جعفر الصادق رحمه الله تعالىٰ ، ورواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٧٥٩) من كلام ذي النون المصري رحمه الله تعالىٰ .

(٣) في (هـ) زيادة : (لحفظ كبره) .

فَصْل

[في علاجِ الكِبْرِ بالإجمالِ]

العلاجُ الجُمْليُّ لقمعِ رذيلةِ الكِبْرِ : أن يعرفَ الإنسانُ نفسَهُ ، وأنَّ أوَّلَهُ نُطفةٌ مَذِرةٌ ، وآخرَهُ جِيفةٌ قَذِرةٌ ، وهوَ فيما بينَ ذٰلكَ يَحمِلُ العَذِرةَ ، ويفهمَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾ .

فليعلمْ : أنَّهُ خُلِقَ مِنْ كَتْمِ العَدَمِ [١] ، وأنَّهُ لم يكنْ شيئاً مذكوراً ، فلا شيءَ أقلُّ مِنَ العَدَمِ ، ثمَّ خلقَهُ مِنْ ترابٍ ، ثمَّ مِنْ نطفةٍ ، ثمَّ مِنْ علقةٍ ، ثمَّ مِنْ مضغةٍ ليسَ لها سمعٌ ولا بصرٌ ولا حياةٌ ولا قُوَّةٌ ، ثمَّ خلقَ لهُ ذٰلكَ كلَّهُ وهوَ بعدُ علىٰ غايةِ النُّقصانِ ، تستولي عليهِ الأمراضُ والعللُ ، وتتضادُّ فيهِ الطَّبائعُ ، فيهدمُ بعضُها بعضاً ، فيمرضُ كرهاً ، ويجوعُ كرهاً ، ويعطشُ كرهاً ، ويريدُ أن يَعلَمَ الشَّيءَ فيجهلَهُ ، ويريدُ أن ينسى الشَّيءَ فيذكرَهُ ، ويكرَهَ الشَّيءَ فينفعَهُ ، ويشتهيَ الشَّيءَ فيضرَّهُ ، لا يأمنُ في لحظةٍ مِنْ أن يُختلَسَ روحُهُ أو عقلُهُ أو صحَّتُهُ أو عضوٌ مِنْ أعضائِهِ .

ثمَّ آخرُهُ الموتُ ، والتَّعرُّضُ للعقابِ والحسابِ ؛ فإن كانَ مِنْ أهلِ النَّارِ . . فالخنزيرُ خيرٌ منهُ ، فمِنْ أينَ يليقُ بهِ الكِبْرُ وهوَ عبدٌ مملوكٌ ذليلٌ لا يَقدِرُ علىٰ شيءٍ ؟!

---

(١) أي من العدم المكتوم المستور .

قالَ الحسنُ البصريُّ رحمَهُ اللهُ لبعض مَنْ يتبخترُ في مِشيتِهِ : (ما هـٰذهِ مِشيةُ مَنْ في بطنِهِ خُرءٌ)[1] .

فكيفَ يليقُ الكِبْرُ بمَنْ يغسلُ العَذِرةَ بيدِهِ مرَّتينِ في كلِّ يومٍ وهوَ حاملٌ لها على الدَّوامِ ؟!

فَصْلٌ

[في علاجِ الكِبْرِ بالتفصيلِ]

علاجُ الكِبْرِ على التَّفصيلِ بالنَّظرِ إلىٰ ما بهِ التَّكبُّرُ ؛ وهوَ أربعُ خصالٍ :

الأوَّلُ : العلمُ .

قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « آفَةُ ٱلْعِلْمِ ٱلْخُيَلَاءُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ ٱلْعُلَمَاءِ ، فَلَا يَفِي عِلْمُكُمْ بِجَهْلِكُمْ »[3] .

وقلَّما يخلو العالِمُ مِنْ آفةِ الكِبْرِ ؛ فإنَّهُ يرىٰ نفسَهُ فوقَ النَّاسِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤١) عن طاووس رحمه الله تعالىٰ .

(٢) كذا ذكره المصنف أيضاً في « إحياء علوم الدين » (٥٠٣/٦) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٣٦٤/٦) : (قال العراقي : المعروف ما رواه مطين في « مسنده » من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف : « آفة العلم النسيان ، وآفة الجمال الخيلاء ») .

(٣) رواه ابن عدي في « الكامل » (٣٣٥/٤) ، وهو عند الديلمي في « الفردوس » (٢٣٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه موقوفاً علىٰ سيدنا عمر رضي الله عنه البيهقي في « الشعب » (١٦٥١) .

بالعلمِ الذي هوَ أشرفُ فضيلةٍ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فيتكبَّرُ تارةً بالدِّينِ ؛ بأن يرىٰ نفسَهُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ أفضلَ مِنْ غيرِهِ ، وتارةً في الدُّنيا ؛ بأن يرىٰ حقَّهُ واجباً على النَّاسِ ، ويتعجَّبَ منهُم إن لم يتواضعوا لهُ .

وهٰذا بأن يُسمَّىٰ جاهلاً أَولىٰ ؛ لأنَّ العلمَ الحقيقيَّ : ما يُعرِّفُهُ ربَّهُ ونفسَهُ ، وخطرَ خاتمتِهِ ، وحُجَّةَ اللهِ تعالىٰ عليهِ ، ويلاحظُ الخاتمةَ ؛ فلا يرىٰ جاهلاً إلَّا ويقولُ : (إنَّهُ عصى اللهَ تعالىٰ بجهلٍ ، وأنا عصيتُهُ بعلمٍ ، فحُجَّةُ اللهِ تعالىٰ عليَّ آكدُ) ، قالَ أبو الدَّرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنِ ازدادَ علماً . . ازدادَ وجعاً)[١] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢١٥ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَكُونُ قَوْمٌ يَقْرَؤُونَ ٱلْقُرْآنَ ، فَلَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، يَقُولُونَ : قَدْ قَرَأْنَا ٱلْقُرْآنَ ، فَمَنْ أَقْرَأُ مِنَّا ؟ وَمَنْ أَعْلَمُ مِنَّا ؟ » ، ثمَّ التفتَ وقالَ : « أُولَـٰئِكَ مِنْكُمْ أَيُّهَا ٱلْأُمَّةُ ، أُولَـٰئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ »[٢] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٦٣) عن سفيان الثوري ، وسبب الوجع : أن علومه تزيده خوفاً وتواضعاً وتخشُّعاً ، وتقتضي أن يرىٰ أن كل الناس خير منه ؛ لعظم حجة الله عليه بالعلم ، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم ، وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ : (كلما ازددتُ علماً . . ازددتُ علماً بجهلي) انظر « إحياء علوم الدين » (٦/٥٠٤) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٥٠) من حديث سيدنا العباس رضي الله عنه ، ولفظ المصنف في « الرعاية » للمحاسبي (ص ٣٩٠) .

ومِنْ هٰذا اشتدَّ حذرُ السَّلفِ ، حتَّىٰ إنَّهُ أَمَّ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنه مرَّةً بقومٍ ، فلمَّا سلَّمَ . . قالَ : (لتلتمسُنَّ إماماً غيري ، أو لتصلُّنَّ وحداناً ؛ إنِّي رأيتُ في نفسي أنَّهُ ليسَ في القومِ أفضلُ منِّي)[1] .

وينبغي أن يتذكَّرَ الإنسانُ أنَّه كم مِنْ مسلمٍ نظرَ إلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قبلَ إسلامِهِ فاستحقرَهُ ، ثمَّ كانَتْ خاتمةُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كما كانَتْ ، وذٰلكَ المسلمُ لعلَّهُ ارتدَّ بعدَهُ ، فكانَ المُتكبِّرُ مِنْ أهلِ النَّارِ ، والمُتكبَّرُ عليهِ مِنْ أهلِ الجنَّةِ !!

وما مِنْ عالِمٍ إلَّا ويَتصوَّرُ أن يُختَمَ لهُ بالسُّوءِ ، ويُختَمَ للجاهلِ بالسَّعادةِ ، فكيفَ يكونُ التكبُّرُ معَ معرفةِ ذٰلكَ وقد قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤْتَىٰ بِٱلْعَالِمِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، فَيُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ ٱلْحِمَارُ بِٱلرَّحَا ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ ٱلنَّارِ ، فَيَقُولُونَ : مَا لَكَ ؟! فَيَقُولُ : كُنْتُ آمُرُ بِٱلْخَيْرِ وَلَا آتِيهِ ، وَأَنْهَىٰ عَنِ ٱلشَّرِّ وَآتِيهِ » ؟![2]

فأيُّ عالِمٍ يَسلَمُ مِنْ ذٰلكَ ؟! فلِمَ لا يشغلُهُ خوفُهُ عنِ التَّكبُّرِ وقد قالَ اللهُ تعالىٰ في بَلْعامَ بنِ باعوراءَ وكانَ مِنْ أكابرِ العلماءِ : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴿١٧٦﴾ ﴾ ؛ لأنَّهُ

(١) هو بتمامه في « الرعاية » (ص ٣٩٢) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤١٣٧) .
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) عن سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنهما بلفظ (بالرجل) بدل (بالعالم) .

أخلدَ إلى الشَّهَواتِ[1] ، وقالَ اللهُ تعالىٰ لعلماءِ اليهودِ : ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ ؟!

فلينظرْ في الأخبارِ التي وردَتْ في علماءِ السُّوءِ ؛ حتَّىٰ يغلبَ خوفُهُ كِبْرَهُ ، وإنَّما يبقى الكِبْرُ معَ هٰذا لِمَنِ اشتغلَ بعلومٍ غيرِ نافعةٍ في الدِّينِ ؛ كالجَدَلِ واللُّغةِ وغيرِهِما ، أو لِمَنِ اشتغلَ بالعلمِ وهوَ خبيثُ الباطنِ ، فازدادَ خبثُهُ بسببِهِ .

السَّببُ الثَّاني : الورعُ والعبادةُ .

ولا يخلو المُتعبِّدُ في باطنِهِ عن كِبرٍ ، وقد تنتهي الحماقةُ ببعضِهِم إلىٰ أن يحملَ مصائبَ النَّاسِ ومَسرَّاتِهِم علىٰ كرامتِهِ ؛ فمَنْ آذاهُ وماتَ أو مرِضَ . . قالَ : (قد رأيتُم ما فعلَ اللهُ سبحانَهُ بهِ) ، وربَّما يقولُ عندَ الإيذاءِ : (سترَونَ ما يجري عليهِ) ، وليسَ يدري الأحمقُ أنَّ جماعةً مِنَ الكُفَّارِ ضربوا الأنبياءَ وآذوهُم ، ثمَّ مُتِّعوا في الدُّنيا ، فلم يُنتقَمْ منهُم ، بل ربَّما أسلمَ بعضُهُم فسَعِدَ في الدُّنيا والآخرةِ ، فكأنَّهُ يرىٰ نفسَهُ أفضلَ مِنَ الأنبياءِ ، ومُؤذيَهُ أخسَّ مِنَ الكُفَّارِ !!

وحقُّ العابدِ إذا نظرَ إلىٰ عالِمٍ أن يتواضعَ لهُ لجهلِهِ ، وإن نظرَ إلىٰ فاسقٍ أن يقولَ : لعلَّ فيهِ خُلُقاً باطناً يسترُ معاصيَهُ الظَّاهرةَ ،

(١) خبر بلعام أخرجه مجاهد في « تفسيره » (٤٨٦) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

ولعلَّ في باطني حسداً أو رياءً أو خبثاً خفيّاً مَقَتَني اللهُ تعالىٰ عليهِ ، فلا يَقبلُ أعمالي الظَّاهرةَ ، وإنَّ اللهَ سبحانَهُ ينظرُ إلى القلوبِ لا إلى الصُّورِ ، ومِنَ الخبثِ الباطنِ الكِبْرُ ؛ إذْ رُوِيَ : أنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيلَ ـ يُقالُ لهُ : خليعُ بني إسرائيلَ ؛ لكثرةِ فسادِهِ ـ جلسَ إلىٰ عابدِ بني إسرائيلَ ، وقالَ : لعلَّ اللهَ تعالىٰ يرحمُني ببركتِهِ ، فقالَ العابدُ في نفسِهِ : كيفَ يجلسُ معي مثلُ هٰذا الفاسقِ ؟! وقالَ لهُ : قمْ عنِّي ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّ زمانِهِ : مُرْهُما ليستأنفا العملَ ؛ فقد غفرتُ للخليعِ ، وأحبطتُ عملَ العابدِ [1] .

ورُوِيَ : أنَّ رجلاً وطئَ رقبةَ عابدٍ مِنْ بني إسرائيلَ وهوَ ساجدٌ ، فقالَ لهُ : ارفعْ ، فواللهِ ؛ لا يَغفِرُ اللهُ لكَ ، فأوحى اللهُ سبحانَهُ إليهِ : أيُّها المُتألِّي عليَّ ؛ بل أنتَ لا يَغفِرُ اللهُ لكَ [2] .

فالأكياسُ يحذرونَ مِنْ ذٰلكَ ، ويقولونَ ما كانَ يقولُهُ عطاءٌ السُّلَميُّ معَ شدَّةِ ورعِهِ ، كانَ إذا هبَّتْ ريحٌ عاصفٌ أو صاعقةٌ . . يقولُ : (ما يصيبُ النَّاسَ كلُّ ذٰلكَ إلَّا بسببي ، ولو ماتَ عطاءٌ . . لتخلَّصوا) [3] .

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٨٨) ، ورواه مختصراً أبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٢٦) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٨٨) ، ورواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٩/١٥٨) ، وبنحوه أبو داوود (٤٨٦٥) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٢١ ، ٢٢٥) .

وقالَ بعضُهُم في عرفاتٍ : (أنا أرجو الرَّحمةَ لجميعِهِم لولا كوني فيهِم)[1] .

فانظرْ كمْ بينَ مَنْ يُخلِصُ العملَ والورعَ ، ثمَّ يخافُ علىٰ نفسِهِ ، وبينَ مَنْ يَتكلَّفُ أعمالاً ظاهرةً لعلَّها لا تخلو عنِ الرِّياءِ والآفاتِ ، ثمَّ يَمُنُّ على اللهِ تعالىٰ بعملِهِ .

السَّببُ الثَّالثُ : الكِبْرُ بالنَّسَبِ .

وعلاجُهُ : أن ينظرَ في نسبِهِ ؛ فإنَّ أباهُ نُطفةٌ مَذِرةٌ ، وجدَّهُ التُّرابُ ، ولا أقذرُ مِنَ النُّطفةِ ، ولا أذلُّ مِنَ التُّرابِ .

ثمَّ المُفتخِرُ بالنَّسَبِ يفتخرُ بخصالِ غيرِهِ ، ولو نطقَ آباؤُهُ . . لقالوا : مَنْ أنتَ في نفسِكَ ؟! ما أنتَ إلَّا دودةٌ مِنْ بولِ مَنْ لهُ خصلةٌ حسنةٌ ، ولذٰلكَ قيلَ[2] : [من البسيط]

لَئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءٍ ذَوِي نَسَبٍ ... لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَـٰكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وكيفَ يَتكبَّرُ بنسبِ ذوي الدُّنيا ولعلَّهُم صاروا حُمَمَةً في النَّارِ[3] ، يَودُّونَ لو كانوا خنازيرَ وكلاباً يَتخلَّصونَ ممَّا هم فيهِ ؟! .

وكيفَ يَتكبَّرُ بنسبِ أهلِ الدِّينِ وهم في أنفسِهِم ما كانوا

(١) روى البيهقي في « الشعب » (٧٩٠٣) نحوه .
(٢) بيت مفرد في « ديوان ابن الرومي » (٨٠٨/٢) .
(٣) أي : صاروا فحماً ورماداً من الاحتراق .

يَتكبَّرونَ ؟! وكانَ شرفُهُم بالدِّينِ ، ومِنَ الدِّينِ التَّواضعُ ، وكانَ أحدُهُم يقولُ : (ليتَني كنتُ تِبْنةً)[1] ، و : (ليتَني كنتُ طائراً)[2] ، كلُّهُم قد شغلَهُم خوفُ العاقبةِ عنِ الكِبْرِ معَ عِظَمِ علمِهِم وعملِهِم ، فكيفَ يَتكبَّرُ بنسبِهِم مَنْ هوَ عاطلٌ عن خصالِهِم ؟!

السَّببُ الرَّابعُ : الكِبْرُ بالمالِ والجمالِ والأتباعِ .

والكِبْرُ بها جهلٌ ؛ فإنَّها أمورٌ خارجةٌ عنِ الذَّاتِ ؛ أعني : المالَ والأتباعَ ، وكيفَ يَتكبَّرُ بخصلةٍ تمتدُّ إليها يدُ السَّارقِ والغاصبِ ؟!

وكيفَ يفتخرُ بالجَمَالِ وحُمَّىٰ شهرٍ تفسدُهُ ، والجدريُّ يزيلُهُ ؟! بل لو تفكَّرَ الجميلُ في أقذارِ باطنِهِ . . لأدهشَهُ ذٰلكَ عن تزويقِ ظاهرِهِ ، ولو لم يتعهَّدِ الجميلُ بدنَهُ أسبوعاً بالغَسلِ والتَّنظيفِ . . لصارَ أقذرَ مِنَ الجِيفةِ ؛ مِنْ تغيُّرِ النَّكهةِ والصُّنانِ ورائحةِ العَذِرةِ ، وكثرةِ الوَسَخِ والمُخاطِ والرَّمَصِ[3] ، فمِنْ أينَ للمزبلةِ أن تفتخرَ بجمالِها والإنسانُ بالحقيقةِ مزبلةٌ ؛ فإنَّهُ مَنبَعُ الأقذارِ والنَّجاساتِ ؟!

* * *

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٣٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣١٣/٤٤) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » ، وهناد في « الزهد » (٤٤٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٦٨) عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٣) الرمص : هو الوسخ المجتمع في موق العين .

الأصل التّاسع

في العُجب

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴿٢٥﴾ . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوىً مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ ٱلْمَرْءِ بِنَفْسِهِ »(١) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (الهلاكُ في اثنينِ : القنوطُ والعجبُ)(٢) ، وإنَّما جمعَ بينَهُما ؛ لأنَّ القانطَ لا يطلبُ السَّعادةَ لقنوطِهِ ، والمُعجَبَ لا يطلبُها لظنِّهِ أنَّهُ قد ظفرَ بها .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا . . لَخِفْتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَٰلِكَ ؛ ٱلْعُجْبَ ٱلْعُجْبَ »(٣) .

---

(١) تقدم (ص ١٥٣) .

(٢) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٥٧٥) .

(٣) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٣٦) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٥٩٤) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

وقيلَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : متىٰ يكونُ الرَّجلُ مسيئاً ؟ فقالَتْ : (إذا ظنَّ أنَّهُ محسنٌ)[١] .

ونظرَ رجلٌ إلىٰ بشرِ بنِ منصورٍ وهوَ يطيلُ الصَّلاةَ ويُحسِنُ العبادةَ ، فلمَّا فرغَ . . قالَ : (لا يَغُرَّنَّكَ ما رأيتَ منِّي ؛ فإنَّ إبليسَ عبَدَ اللهَ تعالىٰ ، وصلَّىٰ آلافَ سنينَ ، ثمَّ صارَ إلىٰ ما صارَ إليهِ)[٢] .

فَصْلٌ

[في بيانِ حقيقةِ العُجْبِ]

حقيقةُ العُجْبِ : استعظامُ النَّفْسِ وخصالِها التي هيَ مِنَ النِّعمِ ، والرُّكونُ إليها معَ نسيانِ إضافتِها إلى المُنعِمِ ، والأمنِ مِنْ زوالِها ، فإنِ انضافَ إليهِ أن رأىٰ لنفسِهِ عندَ اللهِ حقّاً ومكاناً . . سُمِّيَ ذٰلكَ إدلالاً ، وفي الخبرِ : (إنَّ صلاةَ المُدِلِّ لا ترتفعُ فوقَ رأسِهِ)[٣] .

وعلامةُ إدلالِهِ : أن يَتعجَّبَ مِنْ ردِّ دعائِهِ ، ويَتعجَّبَ مِنِ استقامةِ حالِ مَنْ يؤذيهِ .

والعُجْبُ هوَ سببُ الكِبْرِ ، ولٰكنِ الكِبْرُ يستدعي مُتكبَّراً عليهِ ، والعُجْبُ يُتصوَّرُ على الانفرادِ .

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٣٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤١/٦) .

(٣) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٤٦) عن أيوب وداوود عليهما السلام ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٥٦/٧) عن سفيان عن راهب متعبد ، والمدلُّ : المُتكبِّر المُتغطرِس .

أمَّا مَنْ رأىٰ نعمةَ اللهِ علىٰ نفسِهِ بعملٍ أو علمٍ أو غيرِهِ ، وهوَ خائفٌ علىٰ زوالِـهِ ، وفرحَ بنعمةِ اللهِ تعالىٰ عليهِ مِنْ حيثُ إنَّها مِنَ اللهِ تعالىٰ . . فليسَ بمُعجَبٍ ، بلِ المُعجَبُ مَنْ يأمنُ وينسى الإضافةَ إلى المُنعِمِ .

فَصْلٌ

[في بيانِ علاجِ العُجْبِ]

العُجْبُ جهلٌ محضٌ ، فعلاجُهُ العلمُ المحضُ ؛ فإنَّهُ إن أُعجِبَ بقُوَّةٍ وبمالٍ وجمالٍ ، أو أمرٍ ممَّا ليسَ يَتعلَّقُ باختيارِهِ . . فهوَ جهلٌ أيضاً ؛ إذ ليسَ ذٰلكَ إليهِ ، فينبغي أن يَعجَبَ بمَنْ أعطاهُ ذٰلكَ مِنْ غيرِ استحقاقٍ ، وينبغي أن يَتفكَّرَ في أنَّ زوالَ ذٰلكَ مَخُوفٌ على القربِ بأدنىٰ مرضٍ وضَعفٍ .

وإن أُعجِبَ بعلمِهِ وعملِهِ ، وما يدخلُ تحتَ اختيارِهِ . . فينبغي أن يَتفكَّرَ في تلكَ الأعمالِ بماذا تَيسَّرَتْ لهُ ، وأنَّها لا تَتيسَّرُ إلَّا بعضوٍ وقدرةٍ ، وإرادةٍ ومعرفةٍ ، وأنَّ جميعَ ذٰلكَ مِنْ خَلْقِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وإذا خلقَ اللهُ تعالى العضوَ والقدرةَ ، وسلَّطَ الدَّواعيَ ، وصرفَ الصَّوارفَ . . كانَ حصولُ الفعلِ ضروريّاً ، فليسَ للمُضطَرِّ أن يَعجَبَ بما يحصلُ منهُ اضطراراً ؛ إذ هوَ مُضطَرٌّ إلى اختيارِهِ ؛ فإنَّهُ يفعلُ إن شاءَ أو لم يشأْ مهما خُلِقَتْ فيهِ المشيئةُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

فمفتاحُ العملِ : انجزامُ المشيئةِ ، وانصرافُ الدَّواعي الصَّارفةِ ، معَ كمالِ القدرةِ والأعضاءِ ، وكلُّ ذٰلكَ بيدِ اللهِ تعالىٰ .

أرأيتَ لو كانَ بيدِ مَلِكٍ مِفتاحُ خزانةٍ ، فأعطاكَ إيَّاهُ ، فأخذتَ منها أموالاً ؛ أتعجبُ بجودِهِ إذا أعطاكَ المِفتاحَ بغيرِ استحقاقٍ ، أو بكمالِكَ في أخذِهِ ؟ وأيُّ كمالٍ في الأخذِ بعدَ التَّمكينِ ؟!

فَصْلٌ

[فيمَنْ يجعلُ عطيَّةَ اللهِ تعالىٰ سبباً لاستحقاقِ عطيَّةٍ أخرىٰ]

مِنَ العجائبِ أن يُعجَبَ العاقلُ بعلمِهِ وعقلِهِ ، حتَّىٰ يَتعجَّبُ إن أفقرَهُ اللهُ تعالىٰ وأغنىٰ بعضَ الجُهَّالِ ، ويقولُ : كيفَ وَسَّعَ اللهُ النِّعمةَ على الجاهلِ وحرمَني ؟!

فيُقالُ لهُ : كيفَ رزقَكَ العلمَ والعقلَ وحرمَهُما الجاهلَ ؟ فهٰذِهِ عطيَّةٌ منهُ ، أفتجعلُها سبباً لاستحقاقِ عطيَّةٍ أخرىٰ ؟!

بل لو جمعَ لكَ بينَ العقلِ والغنىٰ ، وحرمَ الجاهلَ منهُما جميعاً . . كانَ ذٰلكَ أَولىٰ بالتَّعجُّبِ ، وما تعجُّبُ العاقلِ منهُ إلَّا كتعجُّبِ مَنْ أعطاهُ المَلِكُ فرساً ، وأعطىٰ غيرَهُ غلاماً ، فيقولُ : كيفَ يعطي الغلامَ لفلانٍ ولا فرسَ لهُ ، ويحرمُني وأنا صاحبُ الفرسِ ؟! وإنَّما صارَ صاحبَ الفرسِ بعطائِهِ ، فيجعلُ عطاءَهُ سبباً لاستحقاقِ عطاءٍ آخرَ !! وهوَ عينُ الجهلِ .

بلِ العاقلُ يكونُ أبداً تعجُّبُهُ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ وجودِهِ ؛ حيثُ

أعطاهُ العلمَ والعقلَ ، ووَفَّقَهُ للعبادةِ مِنْ غيرِ تقدُّمِ استحقاقٍ منهُ ، وحرمَ غيرَهُ ذٰلكَ ، وسلَّطَ عليهِ دواعيَ الفسادِ ، واضطرَّهُ إليهِ بصرفِ دواعي الخيرِ عنهُ ، وذٰلكَ بغيرِ جريمةٍ سابقةٍ منهُ .

وإذا شاهدَ ذٰلكَ تحقيقاً . . غلبَ عليهِ الخوفُ ؛ إذ يقولُ : قد أنعمَ اللهُ عليَّ في الدُّنيا مِنْ غيرِ وسيلةٍ ، وخصَّني بهِ دونَ غيري ، ومَنْ يفعلُ مثلَ هٰذا بغيرِ سببٍ فيوشكُ أن يُعذِّبَ ، ويسلبَ النِّعمَ أيضاً بغيرِ جنايةٍ وسببٍ ، فماذا أصنعُ إن كانَ ما أفاضَهُ عليَّ مِنَ النِّعمِ مَكْراً واستدراجاً ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴿٤٤﴾ ﴾ ، وكما قالَ تعالىٰ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ ؟[1] .

* * *

(١) في هامش (و) : (بلغ مقابلة) .

الأصل العاشر

في الرِّياء

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ۝ . . . ﴾ الآيةَ ، وأرادَ بهِ الإخلاصَ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ . . ٱلشِّرْكُ ٱلْأَصْغَرُ » ، قيلَ : وما هوَ ؟ قالَ : « ٱلرِّيَاءُ ، يَقُولُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِذَا جَازَى ٱلْعِبَادَ بِأَعْمَالِهِمُ : ٱذْهَبُوا إِلَى ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ ، فَٱنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمُ ٱلْجَزَاءَ ؟! »[(١)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثٍ طويلٍ : « يُقَالُ لِلْغَازِي وَٱلْعَالِمِ وَٱلْمُنْفِقِ إِذَا قَالَ : فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا : كَذَبْتَ ؛ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ : فُلَانٌ عَالِمٌ أَوْ شُجَاعٌ أَوْ جَوَادٌ ، فَيُذْهَبُ بِهِ إِلَى ٱلنَّارِ »[(٢)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱسْتَعِيذُوا بِٱللهِ مِنْ جُبِّ ٱلْحَزَنِ »

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٤٢٨/٥) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٥٣/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤١٢) من حديث سيدنا محمود بن لبيد بن رافع رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (١٩٠٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

قيلَ : ما هوَ ؟ قالَ : « وَادٍ فِي جَهَنَّمَ أُعِدَّ لِلْقُرَّاءِ ٱلْمُرَائِينَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : مَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي . . فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ ، وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ ، وَأَنَا أَغْنَى ٱلْأَغْنِيَاءِ عَنِ ٱلشِّرْكِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا يَقْبَلُ ٱللهُ عَمَلاً فِيهِ مِقْدَارُ ذَرَّةٍ مِنَ ٱلرِّيَاءِ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ أَدْنَى ٱلرِّيَاءِ شِرْكٌ »[4] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : (إذا كانَ يومُ صومِ أحدِكُم . . فليدهَنْ رأسَهُ ولحيتَهُ ، ويمسحْ شفتيهِ ؛ لكيلا يرى النَّاسُ أنَّهُ صائمٌ ، وإذا أعطىٰ بيمينِهِ . . فليُخْفِ عن شمالِهِ ، وإذا صلَّىٰ . . فليُرْخِ سِترَ بابِهِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يَقسِمُ الثَّناءَ كما يَقسِمُ الرِّزقَ)[5] .

ولهٰذا قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لرجلٍ طأطأَ رقبتَهُ : (يا صاحبَ الرَّقَبةِ ؛ ارفعْ رقبتَكَ ؛ ليسَ الخشوعُ في الرِّقابِ ، وإنَّما الخشوعُ في القلوبِ)[6] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٨٣) ، وابن ماجه (٢٧١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه هنا .
(٣) هو من كلام يوسف بن أسباط كما رواه عنه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٤٠) .
(٤) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠/٣٦) .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٠) عن هلال بن يساف رحمه الله تعالىٰ .
(٦) أورده الإسماعيلي في « مناقب عمر رضي الله عنه » كما في « إتحاف السادة المتقين » (٨/٢٦٧) .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلْمُرَائِيَ يُنَادَىٰ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِأَرْبَعَةِ أَسْمَاءٍ : يَا مُرَائِي ، يَا غَادِرُ ، يَا فَاجِرُ ، يَا خَاسِرُ ؛ ٱذْهَبْ فَخُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ عَمِلْتَ لَهُ ، فَلَا أَجْرَ لَكَ عِنْدَنَا »[١] .

وقالَ قتادةُ : (إذا راءى العبدُ . . يقولُ اللهُ تعالى : انظروا إلىٰ عبدي كيفَ يستهزئُ بي)[٢] .

وقالَ الحسنُ : (صحبتُ أقواماً إن كانَ أحدُهُم لتَعرِضُ لهُ الحكمةُ ؛ لو نطقَ بها . . نفعَتْهُ ونفعَتْ أصحابَهُ ، وما يمنعُهُ منها إلَّا الشُّهرةُ)[٣] .

فَصْلٌ

[في بيانِ أصنافِ الرِّياءِ]

حقيقةُ الرِّياءِ : طلبُ المنزلةِ في قلوبِ النَّاسِ بالعباداتِ وأعمالِ الخيرِ ، وما يُراءىٰ بهِ ستَّةُ أصنافٍ :

الأوَّلُ : الرِّياءُ مِنْ جهةِ البدنِ ؛ وهوَ إظهارُ النُّحولِ والصَّفارِ ؛ ليُظَنَّ بهِ السَّهرُ والصِّيامُ ، وإظهارُ الحزنِ ؛ ليُظَنَّ بهِ أنَّهُ شديدُ الاهتمامِ بأمرِ الدِّينِ ، وإظهارُ شَعَثِ الشَّعَرِ ؛ ليُظَنَّ بهِ أنَّهُ لشدَّةِ استغراقِهِ بالدِّينِ ليسَ يَتفرَّغُ لنفسِهِ ، وإظهارُ ذبولِ الشَّفتينِ ؛

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٦٣) ، ورواه أبو الليث السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ٣٣) بنحوه .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٦٩٢) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٨) .

ليُستدَلَّ بهِ علىٰ صومِهِ ، وخفضُ الصَّوتِ ؛ ليُستدَلَّ بهِ علىٰ ضَعفِهِ مِنْ شدَّةِ المجاهدةِ .

الثَّاني : الرِّياءُ بالهيئةِ ؛ كحلقِ الشَّاربِ ، وإطراقِ الرَّأسِ في المشيِ ، والهدوءِ في الحركةِ ، وإبقاءِ أثرِ السُّجودِ على الوجهِ ، وتغميضِ العينينِ ؛ ليُظَنَّ بهِ أنَّهُ في الوجدِ والمكاشفةِ ، أو غائصٌ في الفكرِ .

الثَّالثُ : الرِّياءُ في الثِّيابِ ؛ كلبسِ الصُّوفِ ، والثَّوبِ الخشنِ ، وتقصيرِهِ إلىٰ قريبٍ مِنْ نصفِ السَّاقِ ، وتقصيرِ الكُمَّينِ ، وتركِ الثَّوبِ مُخرَّقاً ووسخاً ؛ ليُظَنَّ أنَّهُ مُستغرِقُ الوقتِ عنِ الفراغِ لهُ ، ولبسِ المُرقَّعةِ ، والصَّلاةِ على السَّجَّادةِ ؛ ليُظَنَّ أنَّهُ مِنَ الصُّوفيَّةِ معَ إفلاسِهِ عن حقائقِ التَّصوُّفِ ، ولبسِ الدُّرَّاعةِ والطَّيلسانِ(١) ، وتوسيعِ الأكمامِ ؛ ليُظَنَّ أنَّهُ عالِمٌ ، والتَّقنُّعِ فوقَ العِمامةِ بإزارٍ ، ولبسِ الجواربِ ليُظَنَّ أنَّهُ مُتقشِّفٌ ؛ لشدَّةِ ورعِهِ مِنْ غبارِ الطَّريقِ .

ثمَّ منهُم مَنْ يطلبُ المنزلةَ في قلوبِ أهلِ الصَّلاحِ ، فيلازمُ الثَّوبَ الخَلَقَ ، ولو كُلِّفَ لبسَ ثوبٍ جديدٍ حسنٍ ممَّا يُباحُ في

---

(١) الدُّراعة : ثوب من صوف ، وجبة مشقوقة المقدم .

الشَّرعِ ولبسَهُ السَّلفُ . . لكانَ عندَهُ كالذَّبحِ ؛ إذ يخافُ أن يقولَ النَّاسُ : قد بدا لهُ مِنَ الزُّهدِ !!

ومنهُم مَنْ يطلبُ المنزلةَ مِنَ السَّلاطينِ والتُّجَّارِ بنفيسِ الثِّيابِ الصُّوفِ المُرقَّعةِ ، ولو لبسَ خُلْقانَ الثِّيابِ . . لٱزدرَوهُ ، ولو لبسَ فاخرَ الثِّيابِ . . لم يعتقدوا زهدَهُ ، فيطلبُ المُرقَّعاتِ المصبوغَةَ ، والفُوَطَ الرَّقيقةَ ، والأصوافَ الرَّفيعةَ ، فتكونُ ثيابُهُم في القيمةِ والنَّفاسةِ كثيابِ الأغنياءِ ، وفي اللَّونِ والهيئةِ كثيابِ الصُّلحاءِ ، ولو كُلِّفوا أن يَلبَسوا الخَلَقَ . . لكانَ عندَهُم كالذَّبحِ ؛ خيفةً مِنَ السُّقوطِ مِنْ أعينِ الأغنياءِ ، ولو كُلِّفوا لبسَ الخَزِّ والقصبيِّ والدَّبيقيِّ (١) وما يُباحُ لبسُهُ ، وقيمتُهُ دونَ قيمةِ ثيابِهِم . . لٱشتدَّ عليهِم ؛ خوفاً مِنْ سقوطِ منزلتِهِم مِنْ قلوبِ الصُّلحاءِ ؛ إذ يقولونَ : بدا لهُ مِنَ الزُّهدِ .

الرَّابعُ : الرِّياءُ بالقولِ ؛ كرياءِ أهلِ الوعظِ والتَّذكيرِ في تحسينِ الألفاظِ وتسجيعِها ، والنُّطقِ بالحكمةِ والأخبارِ وكلامِ السَّلفِ ، معَ ترقيقِ الصَّوتِ وإظهارِ الحزنِ ، معَ الخلوِّ عن حقيقةِ الصِّدقِ والإخلاصِ في الباطنِ ، بل ليُظَنَّ بهِ ذٰلكَ ، فهوَ يظهرُ الحزنَ في الملأ ، ويعصي اللهَ في الخلوةِ ، وكادِّعاءِ حفظِ الحديثِ ، ولقاءِ

---

(١) الخز : ثوب ينسج من صوف وإبريسم أو من إبريسم فقط ، والقصبي : ثوب من كتان رقيق ناعم ، والدبيقي : ثياب منسوبة إلىٰ دَبِيق ؛ قرية من أعمال دمياط بمصر ، كان يعمل فيها هٰذه الثياب المنسوجة بالحرير .

الشُّيوخِ ، والمبادرةِ إلى الحديثِ أنَّهُ صحيحٌ أو سقيمٌ ؛ ليُظَنَّ بهِ غزارةُ العلمِ ، وكتحريكِ الشَّفتينِ بالذِّكرِ ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ بمشهدِ النَّاسِ ، معَ خلوِّ القلبِ عنِ التَّفجُّعِ بالمعصيةِ ، وكإظهارِ الغضبِ على المُنكَراتِ ، والأسفِ على المعاصي ، معَ خلوِّ القلبِ عنِ التَّألُّمِ بهِ .

الخامسُ : الرِّياءُ بالعملِ ؛ كتطويلِ القيامِ ، وتحسينِ الرُّكوعِ والسُّجودِ ، وإطراقِ الرَّأسِ ، وقلَّةِ الالتفاتِ ، والتَّصدُّقِ ، والصَّومِ ، والحجِّ ، والإخباتِ في المشيِ ، وإرخاءِ الجفونِ ، معَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يعلمُ مِنْ باطنِهِ أنَّهُ لو كانَ خالياً . . لَمَا فعلَ شيئاً مِنْ ذٰلكَ ، بل تساهلَ في الصَّلاةِ ، وأسرعَ في المشيِ ، وقد يفعلُ ذٰلكَ في المشيِ ، فإذا شعرَ باطِّلاعِ غيرِهِ عليهِ . . عادَ إلى السَّكينةِ ؛ كي يُظَنَّ بهِ الخشوعُ .

السَّادسُ : الرِّياءُ بكثرةِ التَّلامذةِ والأصحابِ ، وكثرةِ ذكرِ الشُّيوخِ ؛ ليُظَنَّ أنَّهُ لقيَ شيوخاً كثيرةً ، وكمَنْ يُحِبُّ أن يزورَهُ العلماءُ والسَّلاطينُ ؛ ليُقالَ : إنَّهُ ممَّنْ يُتبرَّكُ بهِ .

فهٰذهِ مجامعُ ما يُراءىٰ بهِ في الدِّينِ ، وكلُّ ذٰلكَ حرامٌ ، بل هوَ مِنَ الكبائرِ .

وأمَّا طلبُ المنزلةِ في قلوبِ النَّاسِ بأفعالٍ ليسَتْ مِنَ العباداتِ وأعمالِ الدِّينِ . . فليسَتْ بحرامٍ ، ما لم يكنْ فيها تلبيسٌ ، كما ذكرناهُ في طلبِ الجاهِ[1] ؛ فأهلُ الدُّنيا قد يطلبونَ الجاهَ بكثرةِ المالِ والغلمانِ ، وحسنِ الثِّيابِ الفاخرةِ ، وحفظِ الأشعارِ ، وعلمِ الطِّبِ والحسابِ والنجومِ والنَّحوِ واللُّغةِ ، وغيرِ ذٰلكَ مِنَ الأعمالِ والأحوالِ ، ولم يحرمْ ذٰلكَ ما لم ينتهِ إلى الإيذاءِ بالتَّكبُّرِ ، وإلىٰ أخلاقٍ أخرىٰ مذمومةٍ ، وإنَّما استقصينا أقسامَ ما بهِ الرِّياءِ ؛ لأنَّهُ أغلبُ الأخلاقِ الذَّميمةِ على النُّفوسِ ، فمَنْ لا يعرفُ الشَّرَّ ومواقعَهُ . . لا يمكنُهُ أن يتَّقيَهُ .

فَصْلٌ

[في بيانِ درجاتِ الرِّياءِ]

الرِّياءُ علىٰ درجاتٍ :

إحداها : ألَّا يكونَ بالأمورِ الدِّينيَّةِ والعباداتِ ؛ كالذي يلبسُ عندَ الخروجِ ثياباً حسنةً خلافَ ما يلبسُهُ في الخلوةِ ، وكالذي ينفقُ في الضِّيافاتِ وعلى الأغنياءِ أموالاً ليُعتقَدَ أنَّهُ سخيٌّ ، لا ليُعتقَدَ أنَّهُ ورعٌ صالحٌ ، فذٰلكَ ليسَ بحرامٍ ؛ فإنَّ تملُّكَ القلوبِ كتملُّكِ الأموالِ .

نعم ؛ القليلُ منهُ صالحٌ نافعٌ ، والكثيرُ منهُ يلهي عن ذكرِ اللهِ

---

(١) انظر (ص ٢٦٨) .

تعالىٰ ؛ كالكثيرِ مِنَ المالِ ، ومهما انصرفَتِ الهمَّةُ إلىٰ سعةِ الجاهِ . . فيجرُّ ذٰلكَ إلى الغفلةِ والمعاصي ، فيكونُ محذوراً لذٰلكَ ، لا لنفسِهِ .

وأمَّا إظهارُ الشَّمائلِ التي ذكرناها ليَعتقِدَ النَّاسُ فيهِ الدِّينَ والورعَ . . فحرامٌ لشيئينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ تلبيسٌ إذا أرادَ أن يعتقدَ النَّاسُ أنَّهُ مُخلِصٌ مطيعٌ للهِ تعالىٰ مُحِبٌّ ، وهوَ بهٰذهِ النِّيَّةِ فاسقٌ ممقوتٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولو سلَّمَ الرَّجلُ دراهمَ إلىٰ جماعةٍ يُخيِّلُ إليهِم أنَّهُ يجودُ عليهِم بها وإنَّما هيَ دُيونٌ لازمةٌ . . عصىٰ بهِ لتلبيسِهِ وإن لم يطلبْ بهِ أن يُعتقَدَ صلاحُهُ ؛ لأنَّ ملكَ القلوبِ بالتَّلبيسِ حرامٌ .

الثَّاني : أنَّهُ إذا قصدَ بعبادةِ اللهِ تعالىٰ خَلْقَ اللهِ . . فهوَ مُستهزِئٌ ، ومَنْ وقفَ بينَ يدي مَلِكٍ في مَعرِضِ الخدمةِ وليسَ غرضُهُ ذٰلكَ ، بل غرضُهُ ملاحظةُ عبدٍ مِنْ عبيدِ الملِكِ ، أو جاريةٍ مِنْ جواريهِ . . فانظرْ ماذا يَستحِقُّهُ مِنَ النَّكالِ ؛ لاستهزائِهِ بالملِكِ ، فكأنَّهُ إذا قصدَ العبادَ بالعبادةِ . . فقدِ اعتقدَ أنَّ عبادَ اللهِ أقدرُ علىٰ نفعِهِ وخيرِهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذ عظمةُ العبادِ في قلبِهِ دعتْهُ إلىٰ أن يَتجمَّلَ عندَهُم بعبادةِ اللهِ تعالىٰ ، **ولهٰذا سُمِّيَ الرِّياءُ : الشِّركَ الأصغرَ .**

ثمَّ يزدادُ الإثمُ بزيادةِ فسادِ القصدِ والنِّيَّةِ ؛ إذ مِنَ المرائينَ مَنْ لا يطلبُ إلَّا مُجرَّدَ الجاهِ .

ومنهُم مَنْ يطلبُ أن يُودَعَ الودائعَ ، ويُوَلَّى الأوقافَ ومالَ الأيتامِ ؛ ليختزلَ منها ، وذٰلكَ أخبثُ لا محالةَ .

ومنهُم مَنْ يرائي ليقصدَ أن يَتقرَّبَ إليهِ النِّساءُ والصِّبيانُ ؛ ليَتمكَّنَ مِنَ الفُجورِ ، أو ليَكثُرَ عندَهُ المالُ ؛ ليَصرِفَهُ إلى الخمرِ والملاهي ، وهٰذا هوَ الأعظمُ ؛ إذ جعلَ عبادةَ اللهِ تعالىٰ وسيلةً لهُ إلىٰ مخالفتِهِ والعياذُ باللهِ مِنْ ذٰلكَ .

فصل

[في بيانِ ما تكونُ بهِ المراءاةُ]

كما يعظمُ الرِّياءُ ويَتغلَّظُ إثمُهُ بسببِ اختلافِ الغرضِ الباعثِ عليهِ ؛ فيعظمُ أيضاً بما بهِ المراءاةُ ، وبقُوَّةِ قصدِ الرِّياءِ .

أمَّا ما بهِ المراءاةُ . . فهو علىٰ ثلاثِ درجاتٍ :

أغلظُها : أن يرائيَ بأصلِ الإيمانِ ؛ كالمنافقِ يُظهِرُ أنَّهُ مسلِمٌ ولم يُسلِمْ بقلبِهِ ، وكالمُلحِدِ ومُعتقِدِ الإباحةِ يُظهِرُ أنَّهُ مستديمُ الإيمانِ وقدِ انسلَّ منهُ باطنُهُ .

الثَّانيةُ : الرِّياءُ بأصلِ العباداتِ ؛ كمَنْ يُصلِّي ويُخرِجُ الزَّكاةَ بينَ يَدَيِ النَّاسِ واللهُ يعلمُ مِنْ باطنِهِ أنَّهُ لو خلا بنفسِهِ . . لم يفعلْ ذٰلكَ .

الثَّالثةُ ـ وهيَ أدناها ـ : ألَّا يرائيَ بالفرائضِ ، بل بالنَّوافلِ ؛ كالذي يُكثِرُ النَّافلةَ ، ويُحسِنُ هيئةَ الفريضةِ ، ويُخرِجُ الزَّكاةَ مِنْ أجودِ مالِهِ ، أو يَتهجَّدُ ، أو يصومُ يومَ عرفةَ وعاشوراءَ واللهُ يعلمُ مِنْ باطنِهِ أنَّهُ لو خلا بنفسِهِ . . لم يفعلْ شيئاً مِنْ ذٰلكَ ، وهٰذا أيضاً حرامٌ وإن كانَ لا ينتهي شدَّةُ العقوبةِ فيهِ إلىٰ حدِّ الرِّياءِ بالأصولِ .

وأمَّا تغليظُهُ بدرجاتِ القصدِ : فهوَ أنَّهُ قد يَتجرَّدُ قصدُ الرِّياءِ حتَّىٰ يُصلِّيَ مثلاً علىٰ غيرِ طهارةٍ لأجلِ النَّاسِ ويصومَ ، ولو خلا بنفسِهِ . . لأفطرَ .

وقد ينضافُ إليهِ قصدُ العبادةِ أيضاً ، ولهُ ثلاثُ أحوالٍ :

إحداها : أن تكونَ العبادةُ باعثةً مُستقِلَّةً ؛ لوْ خلا بنفسِهِ . . لفعلَ ، ولٰكنْ زادَهُ رؤيةُ غيرِهِ ومشاهدتُهُ نشاطاً ، وخفَّ عليهِ العملُ بسببِهِ ، فأرجو ألَّا يُحبِطَ ذٰلكَ القدرُ عملَهُ ، بل تصحُّ عبادتُهُ ويُثابُ عليها ، ويُعاقَبُ علىٰ قصدِ الرِّياءِ ، أو يُنقَصُ مِنْ ثوابِهِ .

الثَّانيةُ : أن يكونَ قصدُ العبادةِ ضعيفاً ؛ بحيثُ لوِ انفردَ عنِ النَّاسِ . . ما استقلَّ بالحملِ على العبادةِ ، فهٰذا لا تصحُّ عبادتُهُ ، والقصدُ الضَّعيفُ لا ينفي عنهُ شدَّةَ المقتِ .

الثَّالثةُ : أن يتساوى القصدانِ ؛ بحيثُ يَستقِلُّ كلُّ واحدٍ بالحملِ لوِ انفردَ ، أو لا يَنبعِثُ الفعلُ بأحدِهِما بل بمجموعِهِما ، فهٰذا قد أصلحَ شيئاً وأفسدَ مثلَهُ بل أكثرَ منهُ ، فالغالبُ أنَّهُ لا يَسلَمُ رأساً برأسٍ ، ويحتملُ أن يُقالَ : إذا تساوى القصدانِ . . فأحدُهُما كفَّارةٌ للآخَرِ ، وقولُهُ تعالىٰ : « أَنَا أَغْنَى ٱلْأَغْنِيَاءِ عَنِ ٱلشِّرْكِ »[1] يدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يقبلُهُ ، ولا يثيبُهُ عليهِ ، أمَّا أنَّهُ يُعاقِبُهُ عليهِ . . ففيهِ نظرٌ ، فالأغلبُ عندي ـ والعلمُ عندَ اللهِ تعالىٰ ـ : أنَّهُ لا يخلو عن إثمٍ وعقابٍ .

فَصْلٌ

[في بيانِ أنَّ الرِّياءَ جليٌّ وخفيٌّ]

اعلمْ : أنَّ بعضَ الرِّياءِ جليٌّ ، وبعضَهُ خفيٌّ ، وبعضَهُ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النَّملِ .

أمَّا الجليُّ : فما يبعثُ على العملِ ، حتَّىٰ لولاهُ . . لم يرغبْ في العملِ .

وأمَّا الخفيُّ : ألَّا يَستقِلَّ بالحملِ عليهِ ، ولٰكنْ يُخفِّفُ العملَ ، ويزيدُ في نشاطِهِ ؛ كالذي يَتهجَّدُ كلَّ ليلةٍ ، وإذا كانَ عندَهُ ضيفٌ . . زادَ نشاطُهُ .

---

(١) تقدم قريباً (ص ٣٠٠) .

وأخفىٰ منهُ : ألَّا يزيدَ نشاطُهُ ، ولـٰكنْ لوِ اطَّلعَ غيرُهُ علىٰ تهجُّدِهِ قبلَ فراغِهِ أو بعدَهُ . . فرحَ بهِ ، ووجدَ في نفسِهِ هِزَّةً ، وذٰلكَ يدلُّ علىٰ أنَّ الرِّياءَ كانَ مُستكِنّاً في باطنِ القلبِ استكنانَ النَّارِ تحتَ الرَّمادِ ، حتَّىٰ تَرشَّحَ منهُ السُّرورُ عندَ الاطِّلاعِ ، وقد كانَ غافلاً عنهُ قبلَهُ .

وأخفىٰ منهُ : ألَّا يُسَرَّ بالاطِّلاعِ ، لـٰكنْ يَتوقَّعُ أن يُبدَأَ بالسَّلامِ ويُوقَّرَ ، ويَتعجَّبُ ممَّنْ يسيءُ إليهِ ، ولا يسامحُهُ في المعاملةِ ولا يحترمُهُ ، وذٰلكَ يدلُّ علىٰ أنَّهُ يَمُنُّ على النَّاسِ بعملِهِ ، فكأنَّهُ يَتوقَّعُ احترامَهُم وتوقيرَهُم لعبادتِهِ معَ إخفائِهِ عنهُم ، وأمثالُ هـٰذهِ الخفايا لا يخلو عنها إلَّا الصِّدِّيقونَ ، وجميعُ ذٰلكَ إثمٌ ، ويُخافُ منهُ إحباطُ العملِ .

نعم ؛ لا بأسَ أن يفرحَ باطِّلاعِ غيرِهِ عليهِ إذا كانَ فرحُهُ باللهِ تعالىٰ ؛ مِنْ حيثُ أظهرَ منهُ الجميلَ ، وسترَ منهُ القبيحَ ، معَ أنَّهُ قصدَ سَترَهُما جميعاً ، فيفرحُ بلطفِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، وكذٰلكَ يفرحُ لأنَّهُ يُبشِّرُهُ بأنَّهُ حيثُ أحسنَ صنعَهُ بهِ في الدُّنيا فكذٰلكَ يصنعُ بهِ في الآخرةِ ، أو يفرحُ ليقتديَ بهِ مَنْ يراهُ ، أو يطيعُ اللهَ بحملِهِ لهُ عليهِ ، **وعلامةُ هـٰذا** : أن يفرحَ أيضاً إذا اطُّلِعَ علىٰ غيرِهِ ممَّنْ تُرتجىٰ قدوتُهُ .

ومِنْ أجلِ خفاءِ أبوابِ الرِّياءِ ، وشدةِ استيلائِهِ على الباطنِ . .

احترزَ أُولُو الحزمِ ؛ فأخفَوا عبادتَهُم ، وجاهدوا أنفسَهُم ، وقد قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ للقُرَّاءِ يومَ القيامةِ : ألم يكنْ يُرخَّصُ عليكُم في السِّعرِ ؟ ألم تكونوا تُبدَؤُونَ بالسَّلامِ ؟ ألم تكنْ تُقضىٰ لكمُ الحوائجُ ؟ لا أجرَ لكم ؛ فقدِ استوفيتُم أجورَكُم)(١) .

فاجتهدْ إن أردتَ الخلاصَ أن يكونَ النَّاسُ عندَكَ كالبهائمِ والصِّبيانِ ، ولا تُفرِّقْ في حقِّ عبادتِكَ بينَ وجودِهِم وعدمِهِم ، وعلمِهِم بها أو غفلتِهِم عنها ، وتقنعَ بعلمِ اللهِ تعالىٰ وحدَهُ ، وتطلبَ الأجرَ منهُ ؛ فإنَّهُ لا يقبلُ إلَّا الخالصَ ؛ كي لا تُحرَمَ مِنْ فائدتِهِ في أحوجِ أوقاتِكَ إليهِ .

فصل

[في بيانِ أحكامِ واردِ الرياءِ]

لعلَّكَ تقولُ : ما أقدرُ على الانفكاكِ عنِ الرِّياءِ الخفيِّ كما وصفتَهُ وإن قدرتُ على الرِّياءِ الجليِّ ، فهل تنعقدُ عبادتي معَ ذٰلكَ ؟

فاعلمْ : أنَّ واردَ الرِّياءِ لا يخلو : إمَّا أن يَرِدَ معَ أوَّلِ العملِ ، أو في دوامِهِ ، أو بعدَ الفراغِ منهُ .

---

(١) روىٰ نحوه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٢٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أمَّا ما يقارنُ الابتداءَ : فيبطلُهُ ، ويمنعُ انعقادَهُ إن صارَ باعثاً مُؤثِّراً في الحملِ على العملِ ، بل أوَّلُ العقدِ يجبُ أن يكونَ خالصاً .

وإنَّما يبطلُ بالرِّياءِ الباعثِ علىٰ أصلِ العملِ ، **وأمَّا إذا لم يَحمِلْ إلَّا على المبادرةِ في أوَّلِ الوقتِ مثلاً** . . فأظنُّ ـ والعلمُ عندَ اللهِ تعالىٰ ـ أنَّ أصلَ الصَّلاةِ يصحُّ ، وإنَّما تفوتُهُ فضيلةُ المبادرةِ ، ويعصي بقصدِ المراءاةِ بهِ ، ولـٰكنْ يسقطُ الفرضُ عنهُ .

وأمَّا ما يَرِدُ في دوامِ الصَّلاةِ : إن أبطلَ باعثَ الصَّلاةِ . . فيبطلُ الصَّلاةَ ؛ مثالُهُ : أن يحضرَ في أثناءِ الصَّلاةِ نظَّارةٌ ، ويَتذكَّرَ نسيانَ شيءٍ ، ولو خلا . . لقطعَ الصَّلاةَ ، لـٰكنَّهُ أتمَّ حياءً مِنَ النَّاسِ ، فهـٰذا لا يسقطُ الفرضَ ؛ لأنَّ النِّيَّةَ قدِ انقطعَتْ ، وانقطعَ باعثُ العبادةِ .

وأمَّا إذا لم تنقطعْ نيَّتُهُ ، لـٰكنْ صارَ مغموراً مغلوباً ؛ كما لو حضرَ قومٌ ، فغلبَ علىٰ قلبِهِ الفرحُ باطِّلاعِهِم ، وانغمرَ باعثُ العبادةِ . . فغالبُ الظَّنِّ : أنَّهُ إنِ انقضىٰ ركنٌ ، ولم يعاودْهُ الباعثُ الأصليُّ . . فسدَتْ صلاتُهُ ؛ لأنَّا نستصحبُ نيَّةَ البدايةِ بشرطِ أَلَّا يطرأَ ما لو قارنَ ابتداءَها . . لمنعَ ، وإن لم ينغمر باعثُ العبادةِ ، ولـٰكنْ حصلَ مُجرَّدُ سرورٍ ، ولم يُؤثِّرْ في العملِ ، بل في تحسينِ الصَّلاةِ فقطْ . . فغالبُ الظَّنِّ ـ واللهُ أعلمُ ـ : أنَّ الصَّلاةَ لا تفسدُ ، ويتأدَّى الفرضُ .

وأمَّا ما يطرأُ بعدَ الصَّلاةِ مِنْ ذكرٍ وسرورٍ ومراءاةٍ : فلا ينعطفُ علىٰ ما مضىٰ ، ولـٰكنْ يعصي بهِ ويأثمُ ، ويكونُ عقابُهُ بقَدْرِ قصدِهِ وإظهارِهِ ، ومهما ظهرَتْ لهُ داعيةُ ذكرِ العبادةِ ؛ إمَّا بالتَّصريحِ ، وإمَّا بالتَّعريضِ . . فذٰلكَ يدلُّ علىٰ أنَّ الرِّياءَ كانَ خفيّاً في باطِنِهِ .

فَصْلٌ

[في علاجِ داءِ الرياءِ]

إذا عرفتَ حقيقةَ الرِّياءِ وكثرةَ مداخلِهِ . . فعليكَ بالتَّشمُّرِ لمعالجتِهِ ، وعلاجُهُ : دفعُ الأسبابِ الباعثةِ عليهِ ؛ وهيَ ثلاثةٌ : حبُّ المدحِ ، وخوفُ الذَّمِّ ، والطَّمعُ .

أمَّا حبُّ المدحِ : كمَنْ يهجمُ علىٰ صفِّ القتالِ ليُقالَ : إنَّهُ شجاعٌ ، أو يُظهِرُ العباداتِ ليُقالَ : إنَّهُ ورعٌ . . فعلاجُهُ : ما ذكرناهُ في علاجِ حبِّ الجاهِ ؛ وهوَ : أن يعلمَ أنَّهُ كمالٌ وهميٌّ لا حقيقةَ لهُ ، وعلاجُهُ في الرِّياءِ خاصَّةً : أن يُقرِّرَ علىٰ نفسِهِ ما فيهِ مِنَ الضَّررِ ؛ فإنَّ العسلَ وإن كانَ لذيذاً ، فإذا عَلِمَ أنَّ فيهِ سمّاً . . سَهُلَ تركُهُ ، فليُقرِّرْ علىٰ نفسِهِ : أنَّهُ يُقالُ لهُ في يومِ فقرِهِ بسببِ ريائِهِ : يا فاجرُ ، يا غاوي ؛ استهزأتَ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وراقبتَ العبادَ ، وتَحبَّبتَ إليهِم ، واشتريتَ حمدَهُم بذمِّ اللهِ تعالىٰ ، وطلبتَ رضاهُم بسخطِهِ ، أمَا كانَ أحدٌ أهونَ عليكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؟!

فلو لم يكنْ إلَّا هـٰذا الخِزْيُ والخَجْلةُ . . لكانَ كافياً في المنعِ عنهُ ، كيفَ وقدِ انضمَّ إليهِ العقوبةُ ، وإحباطُ العبادةِ ، وأنَّهُ ربَّما يَترجَّحُ بهِ كِفَّةُ السَّيِّئاتِ بعدَ أن قارنَتْ كِفَّةَ الحسناتِ ، فيكونُ سببَ هلاكِهِ ؟!

وليُقرِّرْ علىٰ نفسِهِ : أنَّ رضا النَّاسِ غايةٌ لا تُدرَكُ ، ومَنْ طلبَ رضا النَّاسِ بسخطِ اللهِ تعالىٰ . . أسخطَهُم عليهِ ، فكيفَ يتركُ رضا اللهِ بما لا يطمعُ في حصولِهِ ؟!

وأمَّا الباعثُ الثَّاني ـ وهوَ الخوفُ مِنْ ذمِّهِم ـ : فيُقرِّرُ علىٰ نفسِهِ : أنَّ ذمَّهُم لن يضرَّهُ إن كانَ محموداً عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلِمَ يَتعرَّضُ لذمِّ اللهِ ومقتِهِ خوفاً مِنْ ذمِّ الخَلْقِ ؟! ويكفيهِ : أنَّ النَّاسَ لو علموا ما في باطنِهِ مِنْ قصدِ الرِّياءِ . . لمقتوهُ ، ويأبى اللهُ إلَّا أن يكشفَ سرَّهُ حتَّىٰ يُعرَفَ نفاقُهُ ، فيمقتَهُ النَّاسُ أيضاً بعدَ أن مقتَهُ اللهُ تعالىٰ ، ولو أخلصَ وأعرضَ بقلبِهِ عنهُم ، وجَرَّدَ نظرَهُ إلى اللهِ تعالىٰ . . لكشفَ لهُم إخلاصَهُ لهُ فأحبُّوهُ .

وأمَّا باعثُ الطَّمعِ : فيدفعُهُ بأن يعلمَ أنَّ ذٰلكَ أمرٌ موهومٌ ، وفواتُ رضا اللهِ تعالىٰ ناجزٌ ، ويعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ المُسخِّرُ للقلوبِ ، وأنَّ مَنْ طَمِعَ في الخَلْقِ . . لم يَخلُ عنِ الذُّلِّ والمَهانةِ

والمِنَّةِ ، ومَنْ أعرضَ عنِ الطَّمعِ في الخَلْقِ . . كفاهُ اللهُ تعالىٰ ، وسَخَّرَ لهُ القلوبَ .

فإذا أحضرَ في قلبِهِ نعيمَ الآخرةِ ، والدَّرجاتِ الرَّفيعةَ ، وعَلِمَ أنَّ ذٰلكَ يفوتُ بالرِّياءِ . . أعرضَ قلبُهُ عنِ الخَلْقِ ، واجتمعَ همُّهُ ، وفاضَتْ عليهِ أنوارُ الإخلاصِ ، وأمدَّهُ اللهُ سبحانَهُ بمَعونتِهِ وتوفيقِهِ .

فَصْلٌ

[في علاجِ واردِ الرِّياءِ بغتةً]

لعلَّكَ تقولُ : إنِّي قرَّرتُ هٰذا كلَّهُ علىٰ نفسي ، ونفرَ عنِ الرِّياءِ قلبي ، ولٰكن ربَّما هجمَ عليَّ واردُ الرِّياءِ بغتةً في بعضِ العباداتِ عندَ اطِّلاعِ الخَلْقِ ، فما العلاجُ عندَ هجومِهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ أصلَ هٰذا العلاجِ : أن تُخفيَ عبادتَكَ كما تخفي فواحشَكَ ؛ ففيهِ السَّلامةُ ، رُوِيَ : أنَّ بعضَ أصحابِ أبي حفصٍ الحدَّادِ ذمَّ الدُّنيا وأهلَها ، فقالَ لهُ : (أظهرتَ ما كانَ سبيلُكَ أن تخفيَهُ ، لا تجالسْنا بعدَ هٰذا) .

واعلمْ : أنَّ إخفاءَ العبادةِ إنَّما يَشُقُّ في البدايةِ ، فإذا صارَ ذٰلكَ عادةً . . أَلِفَ الطَّبعُ لذَّةَ المناجاةِ في الخلوةِ ، **ومهما هجمَ واردُ الرِّياءِ . . فعلاجُهُ** : أن تُجدِّدَ علىٰ قلبِكَ ما رسخَ فيهِ مِنْ قبلُ مِنَ المعرفةِ بالتَّعرُّضِ لمقتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، معَ عجزِ النَّاسِ عن منفعتِكَ ومضرَّتِكَ ، حتَّىٰ تنبعثَ منهُ كراهيةٌ لداعيةِ الرِّياءِ .

ثمَّ الشَّهوةُ تدعو إلىٰ إجابةِ الرِّياءِ بتحسينِ العملِ والفرحِ بهِ ، والكراهيةُ تدعو إلىٰ ردِّهِ والإعراضِ عنهُ ، وتكونُ اليدُ للأقوىٰ ؛ فإن قويَتِ الكراهيةُ حتَّىٰ منعَتْكَ مِنَ الرُّكونِ إليه ، واستصحبتَ حالتَكَ التي كنتَ عليها ؛ فلم تزِدْ ولم تنقصْ ، ولم تتكلَّفْ إظهارَ الفعلِ وانتشارَهُ . . فقدِ اندفعَ عنكَ الإثمُ ، ولم تُكلَّفْ أكثرَ مِنْ ذٰلكَ .

وأمَّا دفعُ الخواطرِ ، ودفعُ الطَّبعِ عنِ الميلِ إلىٰ قَبُولِ النَّاسِ . . فلا يدخلُ تحتَ التَّكليفِ ، وإنَّما منتهى التكليفِ الكراهيةُ ، والإباءُ عن إجابةِ الدَّاعيةِ .

فَصْلٌ

[في إظهارِ الطاعاتِ لأجلِ الاقتداءِ ، أو إخفائِها خوفاً مِنَ الرِّياءِ]

يجوزُ إظهارُ الطَّاعاتِ لأجلِ اقتداءِ النَّاسِ وترغيبِهِم إذا صحَّتِ النِّيَّةُ ، ولم يكنْ معَهُ شهوةٌ خفيَّةٌ ، **وعلامتُهُ** : أن يُقدِّرَ أنَّ النَّاسَ لوِ اقتدَوا بأحدِ أقرانِهِ ، وكُفِيَ مؤونةَ التَّرغيبِ ، وأُخبِرَ بأنَّ أجرَهُ في الإسرارِ كأجرِهِ في الإظهارِ . . فلا يرغبُ في الإظهارِ .

فإن كانَ ميلُهُ إلىٰ أن يكونَ هوَ المقتدىٰ بهِ أكثرَ . . ففيهِ داعيةُ الرِّياءِ ؛ لأنَّهُ إن كانَ يطلبُ سعادةَ النَّاسِ وخلاصَهُم . . فقد حصلَ ذٰلكَ بغيرِهِ ، ولم يفتْهُ إلَّا إظهارُ نفسِهِ .

وكذٰلكَ يجوزُ كِتمانُ المعاصي والذُّنوبِ ، ولٰكنْ بشرطِ : ألَّا يكونَ غرضُهُ أن يُعتقَدَ فيهِ الورعُ ، بل ألَّا يُعتقَدَ فيهِ الفسقُ .

ولا بأسَ بفرحِهِ باستتارِ معاصيهِ ، وحزنِهِ بانكشافِها ؛ إمَّا فرحاً بسَترِ اللهِ تعالَىٰ عليهِ ، وإمَّا فرحاً بموافقةِ أمرِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ تعالىٰ يحبُّ كِتمانَ المعاصي ، وينهىٰ عنِ المجاهرةِ بها ، وإمَّا لأنَّهُ يكرهُ أن يُذَمَّ فيتألَّمَ بهِ ؛ إذِ التَّألُّمُ بذمِّ النَّاسِ ليسَ بحرامٍ ، بل يُوجِبُهُ الطَّبعُ ، وإنَّما الحرامُ الفرحُ بمدحِ النَّاسِ إيَّاهُ بالعبادةِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ كأجرٍ يأخذُهُ على العبادةِ ، وإمَّا لأنَّهُ يخافُ أن يُقصَدَ بسوءٍ إذا عُرِفَتْ معصيتُهُ ، وإمَّا لأنَّهُ يَستحيي مِنْ ظهورِها ، والحياءُ غيرُ الرِّياءِ ، ولٰكنَّهُ قد يمتزجُ بهِ .

وأمَّا تركُ الطَّاعةِ خوفاً مِنَ الرِّياءِ . . فلا وجهَ لهُ ، قالَ الفضيلُ : (مِنَ الرِّياءِ : تركُ العملِ خوفاً مِنَ الرِّياءِ ، أمَّا العملُ لأجلِ النَّاسِ . . فهوَ شركٌ)[1] .

بل ينبغي أن يعملَ ويُخلِصَ ، إلَّا إذا كانَ العملُ فيما يَتعلَّقُ بالخَلْقِ ؛ كالقضاءِ والإمامةِ والوعظِ ، فإذا عَلِمَ مِنْ نفسِهِ أنَّهُ بعدَ الخوضِ فيهِ لا يملكُ نفسَهُ ، بل يميلُ إلىٰ دواعي الهوىٰ . . فيجبُ عليهِ الإعراضُ والهربُ ، كذٰلكَ فعلَ جماعةٌ مِنَ السَّلفِ[2] .

وأمَّا الصَّلاةُ والصَّدقةُ . . فلا يتركُهُما إلَّا إذا لم تحضرْهُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٩٥) .

(٢) كما تقدم من حديث سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه (ص ٢٨٩) .

أصلاً نيَّةُ العبادةِ ، بل لو تَجرَّدَتْ نيَّةُ الرِّياءِ . . فلا يصحُّ عملُهُ ، فليتركْهُ .

أمَّا ما اعتادَ فعلَهُ ، فحضرَ جماعةٌ ، فخافَ علىٰ نفسِهِ مِنَ الرِّياءِ . . فلا ينبغي أن يتركَهُ ، بل ينبغي أن يستمرَّ علىٰ عادتِهِ ، ويجتهدَ في دفعِ باعثِ الرِّياءِ .

خَاتِمَة

في مجامع الأخلاق ومواقع الغرور فيها

اعلمْ : أنَّ الأخلاقَ الذَّميمةَ كثيرةٌ ، ولٰكنْ ترجعُ أصولُها إلىٰ ما ذكرناهُ ، ولا يكفيكَ تزكيةُ النَّفسِ عن بعضِها حتَّىٰ تَتزكَّىٰ عن جميعِها ، ولو تركتَ واحداً منها غالباً عليكَ . . فذٰلكَ يدعوكَ إلى البقيَّةِ ؛ لأنَّ بعضَها يرتبطُ بالبعضِ ، ويتقاضىٰ بعضُ الأخلاقِ الذَّميمةِ بعضاً ، ولا ينجو إلَّا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ، والسَّلامةُ المُطلَقةُ لا تُنالُ بدفعِ بعضِ الأمراضِ ، بل إنَّما تُنالُ بالصِّحَّةِ المُطلَقةِ ؛ كما أنَّ الحُسنَ لا يحصلُ بحسنِ بعضِ الأعضاءِ ما لم يَحسُنْ جميعُ الأطرافِ .

والنَّجاةُ في حُسْنِ الخُلُقِ ، وقد قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَثْقَلُ مَا يُوضَعُ فِي ٱلْمِيزَانِ . . ٱلْخُلُقُ ٱلْحَسَنُ »(١) .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ ٱلْأَخْلَاقِ »(٢) .

وقيلَ لهُ : ما الدِّينُ ؟ قالَ : « ٱلْخُلُقُ ٱلْحَسَنُ »(٣) .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٧٦٦) ، والترمذي (٢٠٠٣) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٨١) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٢٧٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/١٩١) برقم (٢٠٨١٩) واللفظ له ، من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٨٧٨) عن أبي العلاء بن الشخير رحمه الله تعالىٰ مرسلاً ، بنحوه .

وقالَ : « حُسْنُ ٱلْخُلُقِ خُلُقُ ٱللهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَفْضَلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً .. أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً »[2] .

وقد كثرَتِ الأقاويلُ في تحقيقِهِ وبيانِ حدِّه ، والأكثرونَ تَعرَّضوا لبعضِ ثمراتِهِ ، ولم يحيطوا بجميعِ تفصيلِهِ .

والذي يُطلِعُكَ علىٰ حقيقتِهِ : أن تعلمَ أنَّ الخَلْقَ والخُلُقَ عبارتانِ ، فيُرادُ بالخَلْقِ الصُّورةُ الظَّاهرةُ ، وبالخُلُقِ الصُّورةُ الباطنةُ ؛ وذٰلكَ لأنَّ الإنسانَ مُركَّبٌ مِنْ جسدٍ يُدرَكُ بالبصرِ ، ومِنْ رُوحٍ ونفْسٍ تُدرَكُ بالبصيرةِ لا بالبصرِ ، ولكلٍّ واحدٍ منهُما هيئةٌ ؛ إمَّا قبيحةٌ ، وإمَّا حسنةٌ .

والنَّفسُ المُدرَكةُ بالبصيرةِ أعظمُ قدراً ، ولذٰلكَ أضافَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ نفسِهِ ، وأضافَ البدنَ إلى الطِّينِ ، فقالَ : ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ۝٧٢ ﴾ ، ووصفَ الرُّوحَ بأمرٍ ربَّانيٍّ ، فقالَ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ۝٨٥ ﴾ ، وأعني بالرُّوحِ والنَّفسِ ها هنا معنىً واحداً ؛ وهوَ الجوهرُ العارفُ

(١) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٣٤٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/١٧٥) من حديث سيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنهما .

(٢) رواه أبو داوود (٤٦٤٤) ، والترمذي (١١٦٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وابن ماجه (٤٤٢٣) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

المُدرِكُ مِنَ الإنسانِ بإلهامِ اللهِ تعالَىٰ ، كما قالَ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ .

وكما أنَّ للحُسْنِ الظَّاهرِ أركاناً ؛ كالعينِ والأنفِ والفمِ والخدِّ ، ولا يُوصَفُ الظَّاهرُ بالحُسْنِ ما لم يَحسُنْ جميعُها . . فكذٰلكَ الصُّورةُ الباطنةُ لها أركانٌ ، لا بدَّ مِنْ حُسْنِ جميعِها حتَّىٰ يَحسُنَ الخُلُقُ ؛ وهيَ أربعةُ معانٍ : **قُوَّةُ العلمِ ، وقُوَّةُ الغضبِ ، وقُوَّةُ الشَّهوةِ ، وقُوَّةُ العدلِ بينَ هٰذهِ القوى الثَّلاثِ** ، فإذا استوتْ هٰذهِ الأركانُ الأربعةُ ، واعتدلَتْ وتناسقَتْ . . حصلَ حسنُ الخُلُقِ .

أمَّا قُوَّةُ العلمِ : فاعتدالُها وحسنُها : أن تصيرَ بحيثُ يُدرَكُ بها الفرقُ بينَ الصِّدقِ والكذبِ في الأقوالِ ، وبينَ الحقِّ والباطلِ في الاعتقاداتِ ، وبينَ الجميلِ والقبيحِ في الأعمالِ .

فإذا صلحَتْ هٰذهِ القُوَّةُ كذٰلكَ . . **حصلَتْ منها ثمرةُ الحكمةِ ، وهيَ رأسُ الفضائلِ** ، بل قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ .

وأمَّا قوَّةُ الغضبِ : فاعتدالُها : أن يقتصرَ انقباضُها وانبساطُها علىٰ موجبِ إشارةِ الحكمةِ والشَّرعِ ، **وكذٰلكَ قُوَّةُ الشَّهوةِ** .

وأمَّا قُوَّةُ العدلِ : فهيَ في ضبطِ قُوَّةِ الغضبِ وقُوَّةِ الشَّهوةِ تحتَ إشارةِ الدِّينِ والعقلِ ؛ فالعقلُ منزلتُهُ منزلةُ النَّاصحِ ، وقُوَّةُ

العدلِ هيَ القدرةُ ، ومنزلتُها منزلةُ المنفذِ الممضي لإشارةِ العقلِ ، والغضبُ والشَّهوةُ هما اللَّذانِ تَنفُذُ بهِما الإشارةُ ، وهما كالكلبِ والفرسِ للصَّيَّادِ[١] .

فإن حَسُنَ بعضُ هـٰذهِ دونَ بعضٍ . . كانَ كما لو حَسُنَ بعضُ أعضاءِ الوجهِ ، فلا يُطلَقُ اسمُ الحُسْنِ عليهِ إلَّا إذا حَسُنَ الجميعُ واعتدلَ ، فإذا حسنَتْ واعتدلَتْ . . انشعبَ منهُ جميعُ الأخلاقِ المحمودةِ[٢] .

أمَّا قُوَّةُ الغضبِ : فيُعبَّرُ عنِ اعتدالِها بالشَّجاعةِ ، واللهُ تعالىٰ يحبُّ الشَّجاعةَ ، وإن مالَتْ إلىٰ طرفِ الزِّيادةِ . . **سُمِّيَتْ تَهوُّراً** ، وإن مالَتْ إلى النُّقصانِ . . **تُسمَّىٰ جُبْناً** ، ويَنشعِبُ مِنِ اعتدالِها : خُلُقُ الكرَمِ والنَّجدةِ ، والشَّهامةِ والحِلمِ ، والثَّباتِ وكظمِ الغيظِ ، والوَقارِ والتُّؤَدَةِ .

وأمَّا إفراطُها : فيحصلُ منهُ خُلُقُ التَّهوُّرِ والصَّلَفِ[٣] ، والبذَخِ[٤] والاستشاطةِ ، والكِبْرِ والعُجْبِ[٥] .

وأمَّا تفريطُها : فيحصلُ منهُ الجبنُ والمَهانةُ ، والذِّلَّةُ والخَساسةُ ، وعدمُ الغَيرةِ ، وضَعفُ الحميَّةِ على الأهلِ ، وصِغَرُ النَّفسِ .

---

(١) تقدم هـٰذا التمثيل (ص ١٦٤) .

(٢) في هامش (و) : (بلغ مقابلة) .

(٣) الصَّلَف : مجاوزة القدر في الكياسة والبراعة والظَّرَف ، والادعاء فوق ذٰلك تكبراً .

(٤) البَذَخ : الافتخار والتطاول بالكلام تكبراً .

(٥) انظر « ميزان العمل » (ص ٢٧٩) .

وأمَّا الشَّهوةُ : فيُعبَّرُ عنِ اعتدالِها بالعِفَّةِ ، وعن إفراطِها بالشَّرَهِ ، وعن تفريطِها وضَعفِها بالخمودِ .

فيصدرُ مِنَ العفَّةِ : السَّخاءُ والحياءُ ، والصَّبرُ والسَّماحةُ والقناعةُ ، والورعُ والمساعدةُ ، والظَّرْفُ [1] وقِلَّةُ الطَّمعِ .

ويصدرُ عن إفراطِها : الحِرصُ والشَّرَهُ ، والوَقاحةُ والتَّبذيرُ ، والتَّقتيرُ والرِّياءُ ، والهُتكةُ والمَجَانَةُ [2] ، والمَلَقُ والحسدُ والشَّماتةُ ، والتَّذلُّلُ للأغنياءِ ، واستحقارُ الفقراءِ ، وغيرُ ذٰلكَ .

وأمَّا إذا مالَ إلى التفريطِ : فيصدرُ منهُ الخمودُ والتخنُّثُ .

وأمَّا قُوَّةُ العقلِ : فيصدرُ مِنِ اعتدالِها حُسْنُ التَّدبيرِ ، وجودةُ الذِّهنِ ، وثقابةُ الرَّأيِ ، وإصابةُ الظَّنِّ ، والتَّفطُّنُ لدقائقِ الأعمالِ ، وخفايا آفاتِ النَّفْسِ .

وأمَّا إفراطُها : فيحصلُ منهُ الجربزةُ والدَّهاءُ ، والمكرُ والخداعُ [3] .

ويحصلُ مِنْ تفريطِها وضَعفِها : البَلَهُ والحمقُ ، والغمارةُ [4] والبلادةُ والانخداعُ .

---

(١) الظَّرف : البراعة والكياسة وذكاء القلب .

(٢) المجانة : الهزل من الكلام .

(٣) انظر « ميزان العمل » (ص ٢٧٥) ، والجربزة : المكر والاحتيال ، وهي لفظة فارسية .

(٤) الغمارة : قلة التجربة في الأمور .

فهٰذهِ هيَ روابطُ الأخلاقِ ، وإنَّما معنىٰ حسنِ الخُلُقِ في الجميعِ . . توسُّطٌ بينَ الإفراطِ والتَّفريطِ ؛ فخيرُ الأمورِ أوسطُها ، وكلا طرفَيْ قصدِ الأمورِ ذميمٌ ، ولذٰلكَ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴿١٧/٢٩﴾ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٢٥/٦٧﴾ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴿٤٨/٢٩﴾ ﴾ .

ومهما مالَ واحدٌ مِنْ هٰذهِ الجملةِ إلى الإفراطِ والتَّفريطِ . . فبَعْدُ لم يكملْ حُسْنُ الخُلُقِ .

فَصْلٌ

[في إصلاحِ الأخلاقِ الذميمةِ بالمجاهدةِ]

طريقُ إصلاحِ هٰذهِ الأخلاقِ كلِّها المجاهدةُ والرِّياضةُ .

ومعنى المجاهدةِ : أن تُكلِّفَ الصِّفةَ المُفرِطةَ الغالبةَ خلافَ مقتضاها ، فتعملَ بنقيضِ موجبِها .

فإن غلبَ البخلُ . . فلا تزالُ تَتكلَّفُ البذلَ بالجهدِ ، وتداومُ عليهِ مرَّةً بعدَ أخرىٰ ، حتَّىٰ يسهلَ عليكَ البذلُ في محلِّهِ .

فإن غلبَ التَّبذيرُ . . فلا تزالُ تَتكلَّفُ الإمساكَ حتَّىٰ يصيرَ عادةً ، فيسهلُ عليكَ الإمساكُ في محلِّهِ ، وكذٰلكَ في خُلُقِ الكِبْرِ

وسائرِ الأخلاقِ ، وقد ذكرناهُ في (كتابِ رياضةِ النفسِ) على التَّفصيلِ [1] .

وينبغي أن تعلمَ : أنَّ مَنْ يبذلُ تكلُّفاً فليسَ بسخيٍّ ، وأنَّ مَنْ يَتواضعُ تكلُّفاً وهوَ ثقيلٌ علىٰ نفسِهِ فهوَ عاطلٌ عن خُلُقِ التَّواضعِ ، بلِ الخُلُقُ : عبارةٌ عن هيئةٍ للنَّفْسِ يصدرُ عنها الفعلُ بسهولةٍ مِنْ غيرِ رويَّةٍ وتكلُّفٍ ، لٰكنِ التَّكلُّفُ هوَ طريقُ تحصيلِ الخُلُقِ ؛ فإنَّهُ لا يزالُ يَتكلَّفُ أوَّلاً حتَّىٰ يصيرَ ذٰلكَ طبعاً وعادةً .

فيُفهَمُ مِنْ هٰذا : أنَّ البخيلَ قد يبذلُ ، وأنَّ السَّخيَّ قد يمسكُ ؛ فلا تنظرْ إلى الفعلِ ، بل إلى الهيئةِ الرَّاسخةِ التي تصدرُ منها الأفعالُ بيسرٍ وسرعةٍ مِنْ غيرِ تكلُّفٍ .

واعلمْ : أنَّ تفاوتَ النَّاسِ في الحُسْنِ الباطنِ كتفاوتِهِم في الحُسْنِ الظَّاهرِ ، ولن يَسلَمَ الحُسْنُ المُطلَقُ إلَّا على النُّدورِ ، وإنَّما سَلِمَ ذٰلكَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ حتَّىٰ أثنى اللهُ سبحانَهُ عليهِ فقالَ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ .

وليسَتِ النَّجاةُ موقوفةً على الكمالِ البالغِ ، لٰكنْ علىٰ أن يكونَ الميلُ إلى الحُسْنِ أكثرَ ؛ فإنَّ القبيحَ المُطلَقَ في الظَّاهرِ ممقوتٌ ،

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (١٧٣/٥) .

والحُسْنَ المُطلَقَ معشوقٌ ، وما بينَهُما درجاتٌ ؛ فالقريبُ مِنَ الحُسْنِ المُطلَقِ أسعدُ في الدُّنيا مِنَ القريبِ إلى القبيحِ المُطلَقِ ؛ فكذٰلكَ تَتفاوتُ سعادةُ الآخرةِ بحَسَبِ تفاوتِ حُسْنِ الصُّورةِ الباطنةِ .

فَصْلٌ

[في التحذيرِ مِنَ الغُرورِ]

اعلمْ : أنَّكَ قد تظنُّ بنفسِكَ حُسْنَ الخُلُقِ وأنتَ عاطلٌ عنهُ ، فإيَّاكَ أن تَغترَّ ، وينبغي أن تُحكِّمَ فيهِ غيرَكَ ، فتسألَ عنهُ صديقاً بصيراً لا يُداهِنُكَ .

وبالجملةِ : إذا نسبَكَ غيرُكَ إلىٰ سوءِ الخُلُقِ . . أوشكَ أن تكونَ كذٰلكَ ؛ لأنَّ أكثرَ الأخلاقِ يَتعلَّقُ بالغيرِ ، فينبغي أن تُظهِرَ لهُم .

ومِنْ مواقعِ الغُرورِ فيهِ مثلاً : أن تغضبَ فتظنَّ أنَّكَ تغضبُ للهِ تعالىٰ ، وتُظهِرَ العبادةَ وتظنَّ أنَّكَ تُظهِرُ للاقتداءِ ، أو تكفَّ عنِ الأكلِ ، أو عن طلبِ الدُّنيا ، أو تكظمَ الغيظَ ، وإنَّما يَهُونُ عليكَ ذٰلكَ أن تُعرَفَ بهِ ، فيكونُ الرِّياءُ هوَ الباعثَ على الجميعِ ، ولذٰلكَ يكثرُ مواقعُ الغُرورِ فيهِ علىٰ ما ذكرناهُ في (كتابِ الغُرورِ) مِنَ « الإحياء »[1] ، فإنَّ هٰذا الكتابَ لا يَحتمِلُ استقصاءَهُ .

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٦/٦٠٧) .

فَصْلٌ

[في بيانِ الأخلاقِ المذمومةِ في القلبِ]

ينبغي أن تَتفقَّدَ هٰذهِ الأخلاقَ في قلبِكَ ، وتبدأَ بالأهمِّ فالأهمِّ ، فتُقبِلَ على أغلبِ هٰذهِ الصِّفاتِ ، فتكسرَها على التَّدريجِ .

وأظنُّ أنَّ الأغلبَ عليكَ حبُّ الدُّنيا ، وسائرُ المعاصي والأخلاقِ المذمومةِ تتبعُها .

ولا يمكنُكَ الخلاصُ مِنْ حبِّ الدُّنيا : إلَّا بأن تطلبَ خلوةً خاليةً ، وتَتفكَّرَ في سببِ إقبالِكَ على الدُّنيا وإعراضِكَ عنِ الآخرةِ ، فلا تجدُ لهُ سبباً إلَّا محضَ الجهلِ والغفلةِ ؛ فإنَّ أقصىٰ عمرِكَ في الدُّنيا مئةُ سنةٍ ، فهَبْ أنَّ مملكةَ وجهِ الأرضِ تَسلَمُ لكَ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ في مئةِ سنةٍ ، أليسَ يفوتُكَ بها المملكةُ في مُدَّةٍ لا آخرَ لها وهيَ مملكةُ الآخرةِ ؟!

فإن كانَ لا يدخلُ في خيالِكَ طولُ الأبدِ . . فقدِّرِ الدُّنيا كلَّها مملوءةً ذُرَةً ، وقدِّرْ طائراً يأخذُ في كلِّ ألفِ ألفِ سنةٍ حبَّةً واحدةً ، فتفنى الذُّرَةُ ولم ينقصْ مِنَ الأبدِ شيءٌ ؛ لأنَّ الباقيَ أيضاً لا نهايةَ لهُ كما كانَ قبلَ ذٰلكَ .

وأنت ترىٰ نفسَكَ ترضىٰ بتعبِ الأسفارِ ؛ إمَّا في تجارةٍ ، أو في طلبِ رئاسةٍ ، وهٰذا التَّعَبُ النَّاجزُ لأجلِ شيءٍ موهومٍ ربَّما

يُدرِكُكَ الموتُ قبلَهُ ، وربَّما لا يصفو لكَ إن ظفرتَ بهِ ، وإنَّما ترضىٰ بذٰلكَ ؛ لأنَّكَ تَستحقِرُ التَّعبَ سنةً مثلاً بالإضافةِ إلىٰ بقيَّةِ العمرِ ، وجملةُ عمرِكَ بالإضافةِ إلى الأبدِ أقلُّ مِنْ سنةٍ بالإضافةِ إلىٰ عمرِكَ ، بل لا إضافةَ بينَهُما ، فتفكَّرْ فيهِ لينكشفَ لكَ جهلُكَ على القربِ .

ولعلَّكَ تقولُ : إنَّما أفعلُ ذٰلكَ علىٰ توقُّعِ العفوِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ كريمٌ رحيمٌ .

فأقولُ : ولِمَ لا تتركُ الحراثةَ والتِّجارةَ وطلبَ المالِ علىٰ توقُّعِ العثورِ علىٰ كنزٍ في خرابٍ ؟ فإنَّ اللهَ كريمٌ لا ينقصُ مِنْ ملكِهِ شيءٌ لو عَرَّفَكَ في منامِكَ كنزاً مِنَ الكنوزِ حتَّىٰ تأخذَهُ !!

فإن قلتَ : ذٰلكَ نادرٌ وإن كانَ داخلاً في قدرةِ اللهِ تعالىٰ .

فاعلمْ : أنَّ توقُّعَ العفوِ معَ خرابِ الأعمالِ والأخلاقِ كتوقُّعِ كنزٍ في خرابٍ ، بل أبعدُ منهُ وأندَرُ ، وقد نبَّهَكَ اللهُ تعالىٰ عليهِ فقالَ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ ، ورغَّبَكَ عن طلبِ المالِ ، فقالَ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴿٦﴾ ﴾ .

فما بالُكَ تُكذِّبُ بكرمِهِ في الدُّنيا ، ولا تَتَّكلُ عليهِ ، ثمَّ تخدعُ نفسَكَ بالكرمِ في الآخرةِ ، وأنتَ تعلمُ أنَّ ربَّ الدُّنيا والآخرةِ واحدٌ ؟!

فَصْلٌ

[في بيانِ أمرِ الآخرةِ ، وذكرِ أصنافِ الناسِ فيها]

لعلَّكَ تقولُ : عواقبُ أمورِ الدُّنيا قدِ انكشفَتْ لي بالعِيانِ ، واطمأنَّ قلبي إليها ، وأمَّا أمرُ الآخرةِ . . فلم أشاهدْهُ ، ولستُ أجدُ التَّصديقَ الحقيقيَّ في قلبي ، فلذلكَ فتَرَتْ رغبتي في تركِ الدُّنيا نقداً بما هوَ موعودٌ نسيئةً ، ولستُ أثقُ بهِ .

فأقولُ : لو كنتَ مِنْ أربابِ البصائرِ . . لانكشفَ لكَ أمرُ الآخرةِ صريحاً كما انكشفَ أمرُ الدُّنيا ، فإن لم تكنْ مِنْ أهلِهِ . . فتفكَّرْ في أقاويلِ أربابِ البصائرِ ؛ فإنَّ النَّاسَ في أمرِ الآخرةِ أربعةُ أصنافٍ :

صنفٌ أثبتوا الجنَّةَ والنَّارَ كما وردَ بهِ القرآنُ ، وقد سمعتَ أنواعَ نعيمِها ، وأنكالَ جحيمِها (١) .

وصنفٌ ثانٍ لم يثبتوا اللَّذَّاتِ والآلامَ الحِسِّيَّةَ ، بل أثبتوهُما على

---

(١) وهم عامة المُتشرِّعين من أهل الملل والأديان .

سبيلِ التَّخييلِ ، كما في المنامِ ، حتَّىٰ يكونُ كلُّ واحدٍ في جنَّةٍ أو نارٍ يراها وحدَهُ ، وزعموا أنَّ تأثيرَ ذٰلكَ فيهِ كتأثيرِ الحقيقةِ ؛ لأنَّ تألُّمَ النَّائمِ كتألُّمِ اليقظانِ ، وإنَّما يَخلُصُ عنهُ بالتَّنبُّهِ ، وذٰلكَ في الآخرةِ دائمٌ لا انقطاعَ لهُ[1] .

وصنفٌ ثالثٌ أثبتوا آلاماً عقليَّةً ولذَّاتٍ عقليَّةً ، وزعموا أنَّ ذٰلكَ أعظمُ مِنَ الحِسِّيَّةِ ، ومثَّلوا ذٰلكَ باستشعار لذَّةِ المُلْكِ ، واستشعارِ زوالِها ؛ فإنَّ زوالَ المُلْكِ يُورِثُ آلاماً كثيرةً بدنيَّةً علىٰ مَنْ يَظفَرُ بهِ عدوُّهُ ، ويأخذُ مملكتَهُ ويستسخِرُهُ ، معَ أنَّ ظفرَ العدوِّ لا يُؤلِمُ البدنَ .

وهٰؤلاءِ هم أصنافُ النُّظَّارِ ـ أعني : الأصنافَ الثَّلاثةَ ـ وفيهِمُ الأنبياءُ والأولياءُ والحكماءُ ، وكلُّهُمُ اتَّفقوا علىٰ إثباتِ سعادةٍ مُؤبَّدةٍ ، وشقاوةٍ مُؤبَّدةٍ ؛ فإنَّ السَّعادةَ لا تُنالُ إلَّا بتركِ الدُّنيا ، والإقبالِ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولو مرضتَ ولم تكنْ مِنْ أهلِ البصيرةِ في طبٍّ ، ورأيتَ أفاضلَ الأطبَّاءِ قدِ اتَّفقوا علىٰ شيءٍ . . لم تَتوقَّفْ في اتِّباعِهِم .

وصنفٌ رابعٌ ليسوا مِنَ النُّظَّارِ في الأمورِ الإلـٰهيَّةِ ، بل مِنَ الأطبَّاءِ

---

(١) وهم الفلاسفة بما فيهم الفلاسفة الإسلاميون علىٰ نزاع في بعضهم .

والمُنجِّمينَ ، اقتصرَ نظرُهُم على الطَّبائعِ الأربعِ ومِزاجِها ، ورأَوا قوامَ الرُّوحِ موقوفاً عليها ، ولم يتفطَّنوا لحقيقةِ الرُّوحِ الإلـٰهيِّ الحقيقيِّ الذي هوَ العارفُ باللهِ تعالىٰ ، بل لم يدركوا إلَّا الرُّوحَ الجسمانيَّ الذي هوَ بخارٌ أنضجَتْهُ حرارةُ القلبِ ، يَنتشِرُ في العُروقِ الضَّواربِ إلىٰ جميعِ البدنِ ، فيقومُ بهِ الحسُّ والحركةُ ، وهيَ الرُّوحُ التي تُوجدُ للبهائمِ أيضاً .

فأمَّا الرُّوحُ الخاصُّ الإنسانيُّ المنسوبُ إلى اللهِ سبحانَهُ حيثُ قالَ : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ .. فلم يَتفطَّنوا لهُ ، فظنُّوا أنَّ الموتَ عَدَمٌ ، وأنَّه يرجعُ إلىٰ فسادِ المِزاجِ[1] .

وأنتَ في حقِّ هـٰؤلاءِ بينَ أمرينِ : إمَّا أن تُجوِّزَ غلطَهُم ، أو تَعلَمَ قطعاً صحَّةَ قولِهِم .

فإن جَوَّزتَ خطأَهُم .. لزمَكَ الإعراضُ عنِ الدُّنيا بمُجرَّدِ الاحتمالِ ؛ فإنَّكَ لو كنتَ صادقَ الجوعِ ، وظفرتَ بطعامٍ ، وهممتَ بأكلِهِ ، فأخبركَ صبيٌّ أنَّ فيهِ سمّاً ، أو أنَّ حيَّةً ولغَتْ فيهِ .. قاسيتَ الجوعَ وتركتَ الأكلَ ؛ لأنَّكَ تقولُ : إن كانَ كاذباً .. ليسَ تفوتُني إلَّا لذَّةُ الأكلِ ، وإن كانَ صادقاً .. ففيهِ الهلاكُ !! وبمثلِ هـٰذا الاحتمالِ لا يمكنُ الهجومُ عليهِ .

فليتَ شعري !! معَ احتمالِ الخلودِ في النَّارِ كيفَ يستجرئُ

(١) وهـٰذا الصنف شامل للزندقة والملاحدة ونفاة اليوم الآخر .

العاقلُ الهجومَ عليهِ ؟! وكيفَ لا يكونُ كاليقينِ التَّامِّ في الحذرِ منهُ ؟! حتَّىٰ تنبَّهَ الشَّاعرُ معَ ركاكةِ عقلِهِ فقالَ :[1] [من الكامل]

زَعَمَ ٱلْمُنَجِّمُ وَٱلطَّبِيبُ كِلَاهُمَا ... لَا تُحْشَرُ ٱلْأَمْوَاتُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا

إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَٱلْخَسَارُ عَلَيْكُمَا

فإن قلتَ : إنِّي أعلمُ ضرورةً صدقَ هٰؤلاءِ ، وأنَّ الموتَ عَدَمٌ ، وأنَّهُ لا عقابَ ولا ثوابَ ، وأنَّ الأنبياءَ والأولياءَ كلَّهُم مغرورونَ أو مُلبِّسونَ ، وإنَّما الذي انكشفَتْ لهُ حقيقةُ الحقِّ هوَ هٰذا الطَّبيبُ الجاهلُ ، وزعمتَ أنِّي أعلمُ ذٰلكَ كما أعلمُ أنَّ الاثنينِ أكثرُ مِنَ الواحدِ ، حتَّىٰ لا يخالجُني فيهِ ريبٌ .

فيدلُّ هٰذا علىٰ فسادِ المِزاجِ ، وركاكةِ العقلِ ، والبعدِ عن قَبُولِ العلاجِ ، ولٰكنْ معَ هٰذا يُقالُ لكَ : إن كنتَ تطلبُ الرَّاحةَ في الدُّنيا . . فقد يتقاضاكَ عقلُكَ أيضاً مجاهدةَ الشَّهَواتِ وكسرِها ؛ فإنَّ الرَّاحةَ في الحُرِّيَّةِ والخلاصِ عن أسرِ الشَّهَواتِ ، لا في اتِّباعِها ؛ فإنَّها إذا تسلَّطَتْ على النَّفسِ . . فهيَ آلامٌ ناجزةٌ ، تحملُ النَّفسَ على احتمالِ كلِّ ذلٍّ ومَشقَّةٍ ، وما المستريحُ في الدُّنيا إلَّا تاركُها والزاهدُ فيها ، وأمَّا طالبُها . . فلا يزالُ منها في عَناءٍ .

---

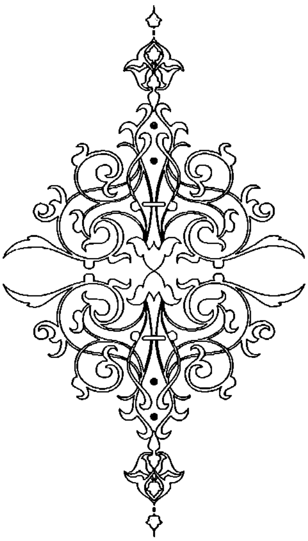
(١) وهو : أبو العلاء المعري . انظر « شرح اللزوميات » (٣/١٣٣) .

فالمُعطِّلُ [١] أيضاً إن عقلَ قليلاً . . تركَ الدُّنيا ؛ لكثرةِ عَنائِها ، وسرعةِ فنائِها ، وخِسَّةِ شركائِها .

فإن لم تكنْ في أمرِ الآخرةِ علىٰ تخمينٍ ، ولا مِنْ مشاهدةِ آفاتِ الدُّنيا علىٰ يقينٍ . . فما أنتَ إلَّا مِنَ الحمقى المغرورينَ ، ولتعلمُنَّ نبأَهُ بعدَ حينٍ ، ولمثلِكَ يُقالُ : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

* * *

(١) المعطِّل هنا : هو الإباحيُّ المعطِّل للشرائع .



القِسمُ الرَّابِعُ

في الأخلاق المحمودة

وهي أيضاً عشرة أصول

الأصل الأوّل

في التوبة

فإنَّها مَبدأُ طريقِ السَّالكينَ ، ومِفتاحُ سعادةِ المريدينَ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴿٣١﴾ ﴾ .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلتَّائِبُ حَبِيبُ ٱللهِ ، وَٱلتَّائِبُ مِنَ ٱلذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَلهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ ٱلْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ ، فَنَامَ نَوْمَةً ، فَٱسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ ، فَطَلَبَهَا حَتَّىٰ إِذَا ٱشْتَدَّ عَلَيْهِ ٱلْجُوعُ وَٱلْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ ٱللهُ . . قَالَ : أَرْجِعُ إِلَىٰ مَكَانِي ٱلَّذِي كُنْتُ فِيهِ ، فَأَنَامُ حَتَّىٰ أَمُوتَ .

فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَىٰ سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ ، فَٱسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَشَرَابُهُ ، فَٱللهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ ٱلْمُؤْمِنِ مِنْ هَـٰذَا بِرَاحِلَتِهِ »(٢) .

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/١٧٩) ، وروى ابن ماجه (٤٤١٤) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٤) من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

فَصْلٌ

[في بيانِ حقيقةِ التوبةِ]

حقيقةُ التَّوبةِ : الرُّجوعُ إلى اللهِ تعالىٰ عن طريقِ البعدِ إلىٰ طريقِ القربِ ، ولٰكنْ لها ركنٌ ومَبدأٌ وكمالٌ .

أمَّا مبدؤُها : فهوَ الإيمانُ .

ومعناهُ : سطوعُ نورِ المعرفةِ على القلبِ حتَّىٰ يَتَّضحَ فيهِ أنَّ الذُّنوبَ سُمومٌ مُهلِكةٌ ، فتشتعلُ منهُ نارُ الخوفِ والنَّدمِ ، ويَنبعِثُ مِنْ هٰذهِ النَّارِ صدقُ الرَّغبةِ في التَّلافي والحذرِ ؛ أمَّا في الحالِ . . فبتركِ الذُّنوبِ ، وأمَّا في الاستقبالِ . . فبالعزمِ على التَّركِ ، وأمَّا في الماضي . . فبالتَّلافي علىٰ حَسَبِ الإمكانِ ، وبذٰلكَ يَحصُلُ الكمالُ .

فَصْلٌ

[في كونِ التوبةِ واجبةً علىٰ كلِّ أحدٍ]

إذا عرفتَ حقيقةَ التَّوبةِ . . انكشفَ لكَ أنَّها واجبةٌ علىٰ كلِّ أحدٍ ، وفي كلِّ حالٍ .

ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، فخاطبَ الجميعَ مطلقاً .

أمَّا وجوبُها : فلأنَّ معناها معرفةُ كونِ الذُّنوبِ مُهلِكةً ، والانبعاثُ لتركِها وهوَ جزءٌ مِنَ الإيمانِ ؛ أعني : هـٰذهِ المعرفةَ ، فكيفَ لا تجبُ ؟!

وأمَّا وجوبُها علىٰ كلِّ واحدٍ : فهوَ أنَّ الإنسانَ مُركَّبٌ مِنْ صفاتٍ بهيميَّةٍ ، وسبُعِيَّةٍ ، وشيطانيَّةٍ ، ورُبوبيَّةٍ ؛ حيثُ يَصدُرُ مِنَ البهيميَّةِ الشَّهوةُ والشَّرَهُ والفُجورُ ، ومِنَ السَّبُعِيَّةِ الغضبُ والحسدُ والعداوةُ والبغضاءُ ، ومِنَ الشَّيطانيَّةِ المكرُ والحيلةُ والخداعُ ، ومِنَ الرُّبوبيَّةِ الكِبْرُ والعزُّ وحبُّ المدحِ والاستيلاءِ .

وأصولُ هـٰذهِ الأخلاقِ هـٰذهِ الأربعةُ ، وقد عُجِنَتْ في طينةِ الإنسانِ عجناً مُحْكَماً يكادُ لا يَتخلَّصُ منها ، وإنَّما ينجو مِنْ ظلماتِها بنورِ الإيمانِ المستفادِ مِنَ العقلِ والشَّرعِ .

وأَوَّلُ ما يُخلَقُ في الآدميِّ البهيميَّةُ ؛ فيَغلِبُ عليهِ الشِّرَّةُ والشَّهوةُ في الصِّبا ، ثمَّ يُخلَقُ فيهِ السَّبُعِيَّةُ ، فيَغلِبُ عليهِ المُعاداةُ والمنافسةُ ، ثمَّ يُخلَقُ فيهِ الشَّيطانيَّةُ ، فيَغلِبُ عليهِ المكرُ والخداعُ ؛ إذ تدعوهُ السَّبُعيَّةُ والبهيميَّةُ إلىٰ أن يستعملَ كِيَاستَهُ في حيلِ قضاءِ الشَّهوةِ وتنفيذِ الغضبِ ، ثمَّ يظهرُ فيهِ بعدَ ذٰلكَ صفاتُ الرُّبوبيَّةِ ؛ وهوَ الكِبْرُ والاستيلاءُ وطلبُ العُلوِّ .

ثمَّ بعدَ ذٰلكَ يُخلَقُ فيهِ العقلُ الذي يظهرُ فيهِ نورُ الإيمانِ ، وهوَ مِنْ حزبِ اللهِ تعالىٰ وجنودِ الملائكةِ ، وتلكَ الصِّفاتُ مِنْ جنودِ الشَّيطانِ .

وجنودُ العقلِ تَكمُلُ عندَ الأربعينَ ، ويبدو أصلُهُ عندَ البلوغِ ، وأمَّا سائرُ جنودِ الشَّيطانِ . . يكونُ قد سبقَ إلى القلبِ قبلَ البلوغِ ، واستولىٰ عليهِ ، وألفَتْهُ النَّفْسُ ، واسترسلَتْ في الشَّهَواتِ مُتابِعةً لها إلىٰ أن يَرِدَ نورُ العقلِ ، فيقومَ القتالُ والتَّطاردُ بينَهُما في معركةِ القلبِ .

فإن ضَعُفَ جندُ العقلِ ونورُ الإيمانِ . . لم يقوَ علىٰ إزعاجِ جنودِ الشَّيطانِ ، فتبقىٰ جنودُ الشَّيطانِ مُستقِرَّةً آخراً كما سبقَتْ إلى النُّزولِ أوَّلاً ، وقد سلمَ للشَّيطانِ مملكةُ القلبِ .

وهـٰذا القتالُ ضروريٌّ في فطرةِ الآدميّ ؛ إذ لا تَتَّسعُ خِلقةُ الولدِ لِمَا لا تَتَّسعُ لهُ خِلقةُ الأبِ ، وإنَّما حُكِيَ لكَ حالُ آدمَ صلواتُ اللهِ عليهِ(١) ؛ لتتنبَّهَ بهِ علىٰ أنَّ ذٰلكَ كانَ مكتوباً عليهِ ، وهوَ مكتوبٌ علىٰ جميعِ أولادِهِ في القضاءِ الأزليّ الذي لا يَقبلُ التَّبديلَ .

فإذاً ؛ لا يستغني أحدٌ عنِ التَّوبةِ .

فَصْلٌ

[في بيانِ أنَّ التوبةَ واجبةٌ في كلِّ حالٍ]

وأمَّا وجوبُها في كلِّ حالٍ : فلأنَّ الإنسانَ لا يخلو في جميعِ أحوالِهِ عن ذنبٍ في جوارحِهِ أو في قلبِهِ ، ولا يخلو عن خُلُقٍ مِنَ الأخلاقِ الذَّميمةِ ممَّا تجبُ تزكيةُ القلبِ عنهُ ؛ فإنَّهُ مُبعِدٌ عنِ اللهِ ،

---

(١) أي : في قوله تعالىٰ : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝ ﴾ .

والاشتغالُ بإماطتِهِ توبةٌ ؛ لأنَّهُ رجوعٌ عن طريقِ البعدِ إلىٰ طريقِ القربِ .

فإن خلا عن جميعِ ذٰلكَ . . فلا يخلو عن غفلةٍ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ أيضاً طريقُ البعدِ ، ويلزمُهُ الرُّجوعُ عنهُ بالذِّكرِ .

ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ .

وإن كانَ حاضراً على الدَّوامِ ـ وأنَّىٰ يُتصوَّرُ ذٰلكَ ؟! ـ فلا يخلو عن ملازمةِ مَقامٍ نازلٍ عنِ المَقاماتِ الرَّفيعةِ وراءَهُ ، وعليهِ أن يَترقَّىٰ منهُ إلىٰ ما فوقَهُ ، ومهما ترقَّىٰ منهُ . . استغفرَ عن مَقامِهِ الذي خلَّفَهُ ؛ لأنَّهُ تقصيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما أدركَهُ ، وذٰلكَ لا نهايةَ لهُ .

ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي حَتَّىٰ أَسْتَغْفِرُ ٱللهَ تَعَالَىٰ فِي ٱلْيَوْمِ وَٱللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً »[1] .

كلُّ ذٰلكَ كانَ توبةً منهُ ، إلَّا أنَّ توبةَ **العَوَامِّ** عنِ الذُّنوبِ الظَّاهرةِ ، وتوبةَ **الصَّالحينَ** عنِ الأخلاقِ الذَّميمةِ الباطنةِ ، وتوبةَ **المُتَّقينَ** عن مواقعِ الرِّيبةِ ، وتوبةَ **المُحبِّينَ** عنِ الغفلةِ المُنسيةِ للذِّكرِ ، وتوبةَ **العارفينَ** عنِ الوقوفِ علىٰ مَقامٍ يُتصوَّرُ أن يكونَ وراءَهُ مَقامٌ ، والمَقاماتُ في القربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ لا نهايةَ لها ، **فتوبةُ العارفِ لا نهايةَ لها أيضاً** .

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٢٠٣) من حديث سيدنا الأغر المزني رضي الله عنه ، وعنده (مئة) بدل (سبعين) ، والمثبت أورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٣٨) ، ونقل التفسير المذكور هنا عن شيخه أبي علي الدقاق رحمه الله تعالىٰ .

فَصْلٌ

[في بيانِ التوبةِ المقبولةِ]

التَّوبةُ إذا استجمعَتْ شرائطَها . . فهيَ مقبولةٌ لا محالةَ ، ولا يخفىٰ عليكَ ذٰلكَ إن فهمتَ معنى القَبُولِ .

فمعنى القَبُولِ : أن يَحصُلَ في قلبِكَ استعدادُ القَبُولِ لتجلِّي أنوارِ المعرفةِ ، وإنَّما قلبُكَ كالمرآةِ ؛ يَحجبُهُ عنِ التَّجلِّي كُدوراتُ الشَّهوةِ والرَّغبةُ فيها ، ويَرتفِعُ مِنْ كلِّ ذنبٍ ظلمةٌ إليهِ ؛ ومِنْ كلِّ حسنةٍ نورٌ إليهِ ؛ فالحسناتُ تصقيلٌ للقلبِ[1] ؛ ولذٰلكَ قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَتْبِعِ ٱلسَّيِّئَةَ ٱلْحَسَنَةَ تَمْحُهَا »[2]

ونسبةُ التَّوبةِ إلى القلبِ نسبةُ الصَّابونِ إلى الثَّوبِ ، ولا بدَّ أن يزولَ منهُ الوَسَخُ إذا استُعمِلَ فيهِ علىٰ وجهِهِ ، ومَنْ تابَ فإنَّما يَشُكُّ في قَبُولِ التَّوبةِ ؛ لأنَّهُ ليسَ يَستيقِنُ حصولَ تمامِ شروطِها ؛ كما أنَّ مَنْ شربَ المُسهِلَ لا يَستيقِنُ حصولَ الإسهالِ بهِ ؛ لأنَّهُ لا يدري وجودَ تمامِ الشُّروطِ في أدويتِها ، ولو تُصوِّرَ أن يُعلَمَ ذٰلكَ . . لتُصُوِّرَ أن يُعلَمَ القَبُولُ في حقِّ الشَّخصِ المُعيَّنِ ، ولٰكنْ هٰذا الشَّكُّ في الأعيانِ لا يُشكِّكُنا في أنَّ التَّوبةَ في نفسِها طريقُ القَبُولِ لا محالةَ .

---

(١) كذا في (ب) ، وفي (ج ، د ، و) : (تصقلُ النفسَ) بدل (تصقيل للقلب) ، ومعنى الصقل : إزالة الصدأ .

(٢) رواه الترمذي (١٩٨٧) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

فَصْلٌ

[في بيانِ أنَّ التوبةَ تَحصُلُ بتركِ الإصرارِ]

علاجُ التَّوبةِ : حَلُّ عُقدةِ الإصرارِ ؛ فإنَّهُ لا مانعَ منها سوى الإصرارِ ، ولا حاملَ عليهِ سوى الغفلةِ والشَّهوةِ ، وذٰلكَ مرضٌ في القلبِ ، وعلاجُهُ كعلاجِ أمراضِ البدنِ ، لٰكنْ هٰذا المرضُ أكبرُ مِنْ مرضِ الأبدانِ ؛ لثلاثةِ أسبابٍ :

أحدُها : أنَّهُ مرضٌ لا يَعرِفُ صاحبُهُ أنَّهُ مريضٌ ، وهوَ كبَرَصٍ علىٰ وجهِ مَنْ لا مرآةَ لهُ ، فإنَّهُ لا يُعالِجُهُ ؛ لأنَّهُ لا يَعرِفُهُ ، ولو أخبرَهُ غيرُهُ . . ربَّما لم يُصدِّقْهُ .

الثَّاني : أنَّ عاقبةَ هٰذا المرضِ لم يشاهدْها الإنسانُ ولم يُجرِّبْها ، فلذٰلكَ تراهُ يَتَّكلُ علىٰ عفوِ اللهِ تعالىٰ ، ويجتهدُ في علاجِ مرضِ البدنِ غايةَ الجَهدِ .

الثَّالثُ ـ وهوَ الدَّاءُ العُضالُ ـ : فقدُ الأطبَّاءِ ؛ فإنَّ الطبيبَ هوَ العالِمُ العاملُ ، وقد مرضَ العلماءُ في هٰذهِ الأعصارِ مرضاً عَسُرَ عليهِم علاجُ أنفسِهِم ؛ لأنَّ **الدَّاءَ المُهلِكَ هوَ حبُّ الدُّنيا** ، وقد غلبَ ذٰلكَ على العلماءِ ، واضطُرُّوا إلى الكَفِّ عن تحذيرِ الخَلْقِ مِنَ الدُّنيا ؛ كي لا تنكشفَ فضيحتُهُم ، فافتَضَحُوا لمَّا اصطلحوا

علىٰ الإقبالِ علىٰ الدُّنيا ، والتَّجاذُبِ لها والتَّكالُبِ عليها .

فبهٰذا السَّببِ عمَّ الدَّاءُ ، وانقطعَ الدَّواءُ ، واشتغلَ الأطبَّاءُ بفنونِ الإغواءِ ، فليتَهُم إذ لم يُصلِحوا . . لم يُفسِدوا ، وليتَهُم سكتوا وما نطقوا ، بل صارَ كلُّ واحدٍ كأنَّهُ صخرةٌ في فمِ الوادي ، لا هيَ تشربُ الماءَ ، ولا تتركُ الماءَ يشربُهُ غيرُها .

وجملةُ القولِ في علاجِهِ : أن تنظرَ في سببِ الإصرارِ ، وهوَ يرجعُ إلىٰ خمسةِ أسبابٍ :

أوَّلُها : أنَّ العقابَ الموعودَ ليسَ بنقدٍ ، والطَّبعُ يستهينُ بما لا يُوجَدُ مُحقَّقاً في الحالِ .

وعلاجُهُ : أن تَتفكَّرَ لتَعلَمَ أنَّ ما هوَ آتٍ قريبٌ ، وأنَّ البعيدَ ما ليسَ بآتٍ ، وأنَّ الموتَ أقربُ إلىٰ كلِّ أحدٍ مِنْ شراكِ نعلِهِ ، فما يُدريهِ لعلَّهُ في آخرِ أيَّامِهِ ، أو في آخرِ سنةٍ مِنْ عمرِهِ ؟

ثمَّ يَتفكَّرُ أنَّهُ كيفَ يَتعبُ في الأسفارِ ، فيركبُ الأخطارَ ؛ خوفاً مِنَ الفقرِ في الاستقبالِ .

الثَّاني : أنَّ اللَّذَّاتِ والشَّهَواتِ آخذةٌ بمُخَنَّقِهِ في الحالِ ، فليسَ يَقدِرُ علىٰ قلعِها .

وعلاجُهُ : أن يَتفكَّرَ أنَّهُ لو ذكرَ لهُ طبيبٌ نصرانيٌّ بأنَّ شُرْبَ الماءِ

البارِدِ يَضرُّهُ ، ويسوقُهُ إلى الموتِ ، وهوَ ألذُّ الأشياءِ عندَهُ . . كيفَ يَتركُهُ ؛ فليَعلَمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ ورسولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أصدقُ مِنَ الطَّبيبِ ، والخلودَ في النَّارِ أشدُّ مِنَ الموتِ بالمرضِ ، وليُقرِّرْ علىٰ نفسِهِ : أنَّهُ إذا كانَ يَشُقُّ عليهِ تركُ اللَّذَّاتِ أيَّاماً قلائلَ . . فكيفَ لا يَشُقُّ عليهِ ملابسةُ النَّارِ والحرمانُ عنِ الفردوسِ ونعيمِهِ أبدَ الدَّهرِ ؟!

الثَّالثُ : أنَّهُ يُسوِّفُ بالتَّوبةِ يوماً فيوماً .

وعلاجُهُ : أن يَتفكَّرَ ويَعلَمَ أنَّ بناءَ خطرِ السَّعادةِ والشَّقاوةِ علىٰ ما ليسَ إليهِ . . جهلٌ ، فمِنْ أينَ يَعلَمُ أنَّهُ يبقىٰ إلىٰ أن يتوبَ ؟! وأنَّ أكثرَ صياحِ أهلِ النَّارِ مِنَ التَّسويفِ ؛ لأنَّهُم سوَّفوا حتَّىٰ فاجأَهُم مرضٌ ساقَهُم إلى الموتِ .

وكيفَ وإنَّما يُسوِّفُ لأنَّهُ يَعجِزُ عن قمعِ الشَّهَواتِ في الحالِ ؟ فإن كانَ ينتظرُ يوماً يَسهُلُ فيهِ قمعُ الشَّهَواتِ . . فهٰذا يومٌ لم يُخلَقْ أصلاً .

بلْ مثالُهُ : مثالُ امرئٍ يريدُ أن يَقلَعَ شجرةً عَجَزَ عنها لضَعفِهِ وقُوَّةِ رسوخِ الشَّجرةِ ، فيُؤخِّرُ إلى السَّنةِ القابلةِ ، وهوَ يَعلَمُ أنَّ الشَّجرةَ تزدادُ كلَّ يومٍ رُسوخاً ، وقُوَّتَهُ تزدادُ كلَّ يومٍ قصوراً ونقصاناً ، وذٰلكَ غايةُ الجهلِ .

الرَّابعُ : أن يَعِدَ نفسَهُ بالكرمِ والعفوِ ، وذٰلك غايةُ الحمقِ ، أبرزَهُ الشَّيطانُ في مَعرِضِ الدِّينِ .

قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْكَيِّسُ : مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ ٱلْمَوْتِ ، وَٱلْأَحْمَقُ : مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّىٰ عَلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ »[١] .

الخامسُ : أن يكونَ ـ والعياذُ باللهِ ـ شاكّاً في أمرِ الآخرةِ ، وقد ذكرنا علاجَهُ في خاتمةِ الأخلاقِ الذَّميمةِ[٢]

فصل

[في الكلامِ على الصغائرِ مِنَ الذنوبِ]

التَّوبةُ عنِ الذُّنوبِ كلِّها مُهِمَّةٌ واجبةٌ ، وعنِ الكبائرِ أهمُّ ، والإصرارُ على الصَّغيرةِ أيضاً كبيرةٌ ؛ فلا صغيرةَ معَ إصرارٍ ، ولا كبيرةَ معَ رجوعٍ واستغفارٍ .

وتواترُ الصَّغائرِ عظيمُ التَّأثيرِ في تسويدِ القلبِ ، وهوَ كتواترِ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنه ، قال الإمام الترمذي : (ومعنىٰ قوله : « من دان نفسه » يقول : حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة ، ويروىٰ عن عمر بن الخطاب قال : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وتزينوا للعرض الأكبر » ، وإنما يخفُّ الحساب علىٰ من حاسب نفسه في الدنيا ، ويروىٰ عن ميمون بن مهران قال : « لا يكون العبد تقياً حتىٰ يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه ») .

(٢) تقدم (ص ٣٢٩ ـ ٣٣٣) .

قطراتِ الماءِ على الحَجَرِ ؛ فإنَّهُ يُحدِثُ فيهِ حفرةً ـ لا محالةَ ـ معَ لينِ الماءِ وصلابةِ الحجرِ .

وتعظمُ الصَّغيرةُ بأسبابٍ :

أحدُها : أنْ يَستصغِرَها العبدُ ، ويَستهِينَ بها ، فلا يَغتمَّ بسببِها .

قالَ بعضُهم : (الذَّنبُ الذي لا يُغفَرُ . . قولُ العبدِ : ليتَ كلَّ شيءٍ عملتُهُ مثلُ هٰذا)[1] .

الثَّاني : السُّرورُ بها ، والتَّبجُّحُ بسببِها ، واعتقادُ التَّمكُّنِ منها نعمةً ، حتَّىٰ إنَّ المذنبَ ليَفخَرُ فيقولُ : ما رأيتَني كيفَ شتمتُهُ ؟! وكيفَ مَزَّقتُ عِرْضَهُ ؟! وكيفَ خدعتُهُ في المعاملةِ ؟! وذٰلكَ عظيمُ التَّأثيرِ في تسويدِ القلبِ .

الثَّالثُ : أن يتهاونَ بسَترِ اللهِ تعالىٰ عليهِ ، ويظنَّ أنَّ ذٰلكَ لكرامتِهِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولا يدري أنَّهُ ممقوتٌ ، وقد أُمهِلَ ليزدادَ إثماً ، فيكونَ في الدَّركِ الأسفلِ مِنَ النَّارِ .

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٨١/١) وقال بعده : (فهٰذا كما قال بلال بن سعد : لا تنظر إلىٰ صغر الخطيئة ، ولٰكن انظر إلىٰ من عصيت) .

الرَّابِعُ : أن يُجاهِرَ بالذَّنبِ ويُظهِرَهُ ، أو يذكرَهُ بعدَ فعلِهِ ، وفي الخبرِ : « كُلُّ ٱلنَّاسِ مُعَافىً إِلَّا ٱلْمُجَاهِرِينَ »[1] .

الخامسُ : أن تَصدُرَ الصَّغيرةُ مِنْ عالِمٍ يُقتدَىٰ بهِ ، فذٰلكَ عظيمٌ ؛ لأنَّها تبقىٰ بعدَ موتِهِ ، فطُوبىٰ لِمَنْ ماتَ وماتَتْ معَهُ ذنوبُهُ ، ومَنْ سَنَّ سُنَّةً سيِّئةً . . فعليهِ وِزْرُها ووِزْرُ مَنْ عملَ بها إلىٰ يومِ القيامةِ .

ورُوِيَ : (أنَّ بعضَ علماءِ بني إسرائيلَ تابَ عن ذنوبهِ وبدعتِهِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيٍّ زمانِهِ : إنَّ ذنبَكَ لو كانَ فيما بيني وبينَكَ . . لغفرتُهُ لكَ ، ولٰكنْ كيفَ بمَنْ أضللتَ مِنْ عبادي فأدخلتَهُمُ النَّارَ ؟!)[2] .

وعلى الجملةِ : فلا باعثَ على التَّوبةِ إلَّا الخوفُ الصَّادرُ عنِ البصيرةِ والمعرفةِ ، فلنذكرْ فضيلةَ الخوفِ .

* *

(1) رواه البخاري (٦٠٦٩) ، ومسلم (٢٩٩٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(2) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣١٣) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٠٤٦) عن خالد الربعي .

الأصل الثاني

في الخوف

وقد جمعَ اللهُ تعالىٰ للخائفينَ الهدىٰ والرَّحمةَ والعلمَ والرِّضوانَ ، وناهيكَ بذٰلكَ فضلاً ؛ فقالَ تعالىٰ : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ .

وقالَ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رَأْسُ ٱلْحِكْمَةِ . . مَخَافَةُ ٱللهِ »[1] .

وقالَ : « مَنْ خَافَ ٱللهَ تَعَالَىٰ . . خَوَّفَ ٱللهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَمَنْ خَافَ غَيْرَ ٱللهِ تَعَالَىٰ . . خَوَّفَهُ ٱللهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ؛ لَا أَجْمَعُ عَلَىٰ عَبْدِي خَوْفَيْنِ ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ ؛ فَإِذَا أَمِنَنِي فِي ٱلدُّنْيَا . . أَخَفْتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، وَإِذَا خَافَنِي فِي ٱلدُّنْيَا . . أَمَّنْتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[3] .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٣٠) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، وهي فاتحة الزبور كما روىٰ ذٰلك ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٣) عن خالد الربعي .

(٢) رواه القضاعي في « مسنده » (٤٢٩) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنهما .

(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فَصْلٌ

[في بيانِ حقيقةِ الخوفِ]

اعلمْ : أنَّ حقيقةَ الخوفِ هوَ تألُّمُ القلبِ واحتراقُهُ بسببِ توقُّعِ مكروهٍ في الاستقبالِ ، وقد يكونُ ذٰلكَ الخوفُ مِنْ جريانِ ذنوبٍ ، وقد يكونُ الخوفُ مِنَ اللهِ تعالىٰ بمعرفةِ صفاتِهِ التي تُوجِبُ الخوفَ لا محالةَ ، وهٰذا أكملُ وأتمُّ ؛ لأنَّ مَنْ عرفَ اللهَ . . خافَهُ بالضَّرورةِ ؛ ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

وقد أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السَّلامُ : (خَفْني كما تخافُ السَّبُعَ الضَّاريَ)[1] .

ولذٰلكَ قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَنَا أَخْوَفُكُمْ لِلهِ تَعَالَىٰ »[2]

واعلمْ : أنَّ الواقعَ في مخالبِ السَّبُعِ إنَّما لا يَخافُهُ إذا لم يَعرِفِ السَّبُعَ ؛ فإنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ مِنْ صفةِ السَّبُعِ أنَّهُ يُهلِكُهُ ولا يبالي ، فإن

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/٢٤١) ، قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « الإحياء » (٧/٥٥٥) بعد نقل هٰذا الخبر : (لست أقول : « مثال الخوف من الله تعالىٰ . . الخوف من السبع » ، بل إذا كشف الغطاء . . علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالىٰ ؛ لأن المهلك بواسطة السبع هو الله تعالىٰ) .

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه بلفظ : « أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . . . » الحديث .

تركَهُ لمْ يكنْ لرقَّتِهِ عليهِ وشفقتِهِ ؛ فإنَّهُ أحقرُ عندَهُ مِنْ أن يُشفِقَ عليهِ . . فلا بدَّ مِنْ أن يَخافَهُ .

وللهِ المثلُ الأعلىٰ وهوَ العزيزُ الحكيمُ ، ولٰكنْ مَنْ عَرَفَ أنَّهُ لو أهلكَ العالَمينَ لم يُبالِ ، ولم يَنقُصْ شيءٌ مِنْ مُلكِهِ ؛ ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴿١٧﴾ ﴾ ، وكم أهلكَ مِنْ عبادِهِ في الدُّنيا ، وعرَّضَهُم لأنواعِ العذابِ ، ولم تأخذْهُ رِقَّةٌ ولا شفقةٌ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مُحالٌ عليهِ . . فلا بدَّ وأن يَخافَ .

فمعرفةُ الجلالِ والعزَّةِ والقهرِ والاستغناءِ . . يُورِثُ الهيبةَ بالضَّرورةِ ، وهٰذا أكملُ أنواعِ الخوفِ وأفضلُها .

فَصْلٌ

[في كيفيةِ تحصيلِ الخوفِ]

علاجُ الخوفِ وتحصيلُهُ علىٰ رتبتينِ :

إحداهُما : معرفةُ اللهِ تعالَىٰ ؛ فإنَّها تُوجِبُ الخوفَ بالضَّرورةِ ؛ فإنَّ الواقعَ في مخالبِ السَّبُعِ لا يحتاجُ إلىٰ علاجٍ ليَخافَ إن كانَ يَعرِفُ السَّبُعَ .

ومَنْ عرفَ جلالَ اللهِ تعالىٰ واستغناءَهُ ، وأنَّه خَلَقَ الجنَّةَ وخَلَقَ لها أهلاً ، وخَلَقَ النَّارَ وخَلَقَ لها أهلاً ، وأنَّهُ تمَّتْ كلمتُهُ بالسَّعادةِ والشَّقاوةِ في حقِّ كلِّ أحدٍ صِدقاً وعدلاً ، وأنَّ ذٰلكَ لا يُتصوَّرُ

لغيرِهِ ، ولا يَصرِفُهُ عن تنفيذِ قضائِهِ الأزليِّ صارفٌ ، وهوَ لا يدري ما الذي سَبَقَ بهِ القضاءُ في حقِّهِ ، ولا يدري ما الذي يُختَمُ لهُ بهِ ، واحتملَ عندَهُ أن يكونَ مَقضيّاً لهُ بشقاوةِ الأبدِ . . فهٰذا لا يُتصوَّرُ ألَّا يخافَ .

وأمَّا مَنْ عَجَزَ عن حقيقةِ المعرفةِ [1] : فعلاجُهُ النَّظرُ إلى الخائفينَ ، ومشاهدةُ أحوالِهِم ، أو سماعُ ذٰلكَ ؛ فإنَّ أخوفَ خَلْقِ اللهِ . . الأنبياءُ والأولياءُ والعلماءُ وأهلُ البصيرةِ ، وأعظمَ الخَلْقِ أمناً الغافلونَ الأغبياءُ ، الذينَ لا يَمتدُّ نظرُهُم لا إلى السَّابقةِ ، ولا إلى الخاتمةِ ، ولا إلىٰ معرفةِ جلالِ اللهِ تعالىٰ .

وهٰذا كما أنَّ الصَّبيَّ لا يَخافُ الحيَّةَ ما لم ينظرْ إلىٰ أبيهِ يَخافُها ويهربُ منها ، وترتعدُ فرائصُهُ إذا رآها ، فينظرُ إليهِ فيُقلِّدُهُ ، ويَستشعِرُ خوفَهُ وإن لم يَعرِفْ بالحقيقةِ صفةَ الحيَّةِ ، وقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا جَاءَنِي جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قَطُّ إِلَّا وَهُوَ يَرْتَعِدُ فَرَقاً مِنَ ٱلْجَبَّارِ » [2] .

وقيلَ : (لمَّا ظهرَ علىٰ إبليسَ ما ظهرَ . . طَفِقَ جبريلُ وميكائيلُ عليهِما السَّلامُ يبكيانِ ، فأوحى اللهُ سبحانَهُ إليهِما : ما لكما

---

(١) وهي الرتبة الثانية من رتبتي الخوف من الله جل جلاله .

(٢) روى البيهقي نحوه في « الشعب » (٨٨٧) عن أبي عمران الجوني رحمه الله تعالىٰ ، وروىٰ أبو الشيخ في « العظمة » (٣٦٣) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما نحوه أيضاً .

تبكيانِ ؟ قالا : يا ربِّ ؛ ما نأمنُ مكرَكَ ، فقالَ اللهُ تعالَىٰ : هٰكذا كونا ، لا تأمنا مكري ؛ فلا يأمنُ مكرَ اللهِ إلَّا القومُ الخاسرونَ)[1] .

وقيلَ : (لمَّا خَلَقَ اللهُ تعالى النَّارَ . . طارَتْ أفئدةُ الملائكةِ عن أماكنِها ، فلمَّا خَلَقَ بني آدمَ . . عادَتْ)[2] .

وكانَ أزيزُ قلبِ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ يُسمَعُ في الصَّلاةِ مِنْ مسيرةِ ميلٍ[3] .

وبقيَ داوودُ عليهِ السَّلامُ أربعينَ يوماً ساجداً لا يرفعُ رأسَهُ ، حتَّىٰ نبتَ الرِّعْيُ مِنْ دموعِهِ[4] .

وقالَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ لطائرٍ : (ليتَني مثلُكَ يا طائرُ ولم أُخلَقْ بَشَراً)[5] .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (وَدِدتُ لو أنِّي شجرةٌ تُعضَدُ)[6] .

وقالَتْ عائِشةُ رضيَ اللهُ عنها : (وَدِدتُ لوْ أنِّي كنتُ نسياً منسيّاً)[7] .

وقد حكينا أحوال الخائفينَ في (كتاب الخوفِ والرَّجاءِ) مِنْ

---

(١) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٥٠) ، ورواه بنحوه أبو الشيخ في « العظمة » (٣٨٣) عن عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/٥) من كلام طاووس بن كيسان رحمه الله تعالىٰ .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/٢١٨) بنحوه .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٧٤) عن مجاهد ضمن خبر ، والرِّعْيُ : الكلأ .

(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٦٩) .

(٦) رواه الترمذي (٢٣١٢) مرفوعاً وموقوفاً ، وتعضد : تقطع .

(٧) رواه البخاري (٤٧٥٣) .

كتبِ « إحياءِ علومِ الدِّينِ »(١) ، فليَتأمَّلِ القاصرُ عن ذُرْوةِ المعرفةِ أحوالَ الأنبياءِ والأولياءِ والعارفينَ ؛ ليَعلَمَ أنَّهُ أحقُّ بالخوفِ منهُم ، وإذا تأمَّلَ ذٰلكَ بالحقيقةِ . . غلبَهُ خوفُهُ .

فَصْلٌ

[في تقلُّبِ العبدِ بينَ الخوفِ والرجاءِ]

الخوفُ سوطٌ يسوقُ العبدَ إلى السَّعادةِ ، ولا ينبغي أن يُفرَطَ بحيثُ يُورِثُ القنوطَ ؛ فذٰلكَ مذمومٌ ، بل إذا غلبَ . . ينبغي أن يُمزَجَ الرَّجاءُ بهِ .

نعم ؛ ينبغي أن يَغلِبَ الخوفُ الرَّجاءَ ما دامَ العبدُ مُقارِفاً للذُّنوبِ ، فأمَّا المطيعُ المُتجرِّدُ للهِ تعالىٰ . . فينبغي أن يَعتدِلَ خوفُهُ ورجاؤُهُ ؛ مثلَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قالَ : (لو نُودِيَ : لَيَدخُلَنَّ الجنَّةَ جميعُ الخَلْقِ إلَّا رجلاً واحداً . . **لخفتُ أن أكونَ أنا ذٰلكَ الرَّجلَ** ، ولو نُودِيَ : لَيَدخُلَنَّ النَّارَ جميعُ الخَلْقِ إلَّا رجلاً واحداً . . **لرجَوتُ أن أكونَ أنا ذٰلكَ الرَّجلَ**)(٢) .

وأمَّا إذا قربَ الموتُ . . فالرَّجاءُ وحُسْنُ الظَّنِّ بربِّهِ ينبغي أن يَغلِبا عليهِ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ ٱلظَّنَّ بِرَبِّهِ »(٣) .

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٥٩٥/٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥٣/١) بنحوه .

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٧) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه .

والرَّجاءُ يخالفُ التَّمنِّيَ ؛ فإنَّ مَنْ لا يَتعهَّدُ الأرضَ ، ولا يَبُثُّ البَذْرَ ، ثمَّ ينتظرُ الزَّرعَ . . فهوَ مُتمنٍّ مغرورٌ ، وليسَ براجٍ ، إنَّما الرَّاجي مَنْ تَعهَّدَ الأرضَ وسقاها ، وبثَّ البَذْرَ ، وحصَّلَ كلَّ سببٍ يَتعلَّقُ باختيارِهِ ، ثمَّ بقيَ يرجو أن يدفعَ اللهُ الصَّواعقَ والقواطعَ ، وأن يُمكِّنَهُ مِنَ الحصادِ بعدَ الإنباتِ .

ولذٰلكَ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ .

وبالجملةِ : فثمرةُ الرَّجاءِ التَّرغيبُ في الطَّلبِ ، وثمرةُ الخوفِ التَّرغيبُ في الهربِ ، ومَنْ رجا شيئاً . . طلبَهُ ، ومَنْ خافَ شيئاً . . هربَ منهُ .

وأقلُّ درجاتِ الخوفِ : ما يَحمِلُ علىٰ تركِ الذُّنوبِ ، وعلى الإعراضِ عنِ الدُّنيا ، وما لا يَحمِلُ علىٰ ذٰلكَ . . فهوَ حديثُ نفسٍ وخواطرُ لا وزنَ لها ، تشبهُ رِقَّةَ النِّساءِ ولا ثمرةَ لها ، **بلِ الخوفُ إذا تمَّ . . أثمرَ الزُّهدَ في الدُّنيا ، فلنذكرِ الزُّهدَ ومعناهُ .**

الأصل الثالث

في الزهد

قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٢٠/١٣١﴾ ﴾.

وقالَ تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٤٢/٢٠﴾ ﴾.

وقالَ في حقِّ قارونَ: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٨/٧٩﴾ ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٢٨/٨٠﴾ ﴾، **فبيَّنَ أنَّ الزُّهدَ مِنْ ثمراتِ العلمِ.**

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « **مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ ٱلدُّنْيَا.. شَتَّتَ ٱللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ ٱلْآخِرَةُ.. جَمَعَ ٱللهُ لَهُ هَمَّهُ، وَحَفِظَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ ٱلدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ** »(١).

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه، وابن ماجه (٤٢٦٦) من حديث سيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه.

ولمَّا سُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ ، وعن معنى الشَّرحِ . . قالَ : « ٱلنُّورُ إِذَا دَخَلَ ٱلْقَلْبَ . . ٱنْشَرَحَ ٱلصَّدْرُ وَٱنْفَسَحَ » ، قيلَ : وهل لذٰلكَ مِنْ علامةٍ ؟ قالَ : « نَعَمِ ؛ ٱلتَّجَافِي عَنْ دَارِ ٱلْغُرُورِ ، وَٱلْإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ ٱلْخُلُودِ ، وَٱلِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوتِ قَبْلَ نُزُولِهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱسْتَحْيُوا مِنَ ٱللهِ حَقَّ ٱلْحَيَاءِ » ، قالوا : إنَّا نَستحيي ، فقالَ : « تَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ ، وَتَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ !! »[2] .

وقالَ : « مَنْ زَهِدَ فِي ٱلدُّنْيَا . . أَدْخَلَ ٱللهُ تَعَالَى ٱلْحِكْمَةَ قَلْبَهُ ، وَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ ، وَعَرَّفَهُ دَاءَ ٱلدُّنْيَا وَدَوَاءَهَا ، وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا سَالِماً إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَامِ »[3] .

وقالَ : « لَا يَسْتَكْمِلُ ٱلْعَبْدُ حَقِيقَةَ ٱلْإِيمَانِ حَتَّىٰ يَكُونَ أَلَّا يُعْرَفَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ ، وَحَتَّىٰ تَكُونَ قِلَّةُ ٱلشَّيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ »[4] .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٥/١٧٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٧/٩٧) عن أم الوليد بنت عمر رضي الله عنها وعن أبيها .

(٣) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/٢٥٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٩) عن صفوان بن سليم رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

(٤) كذا أورد أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/٢٥٦) حيث قال : (وروينا حديثاً مرسلاً عن علي بن معبد ، عن علي بن أبي طلحة) .

وقالَ : « إِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْراً . . زَهَّدَهُ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَرَغَّبَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ ، وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱزْهَدْ فِي ٱلدُّنْيَا . . يُحِبَّكَ ٱللهُ تَعَالَىٰ ، وَٱزْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ . . يُحِبَّكَ ٱلنَّاسُ »(٢) .

وقالَ : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يُؤْتِيَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ عِلْماً بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ ، وَهُدىً بِغَيْرِ هِدَايَةٍ . . فَلْيَزْهَدْ فِي ٱلدُّنْيَا »(٣) .

فَصْلٌ

[في بيانِ حقيقةِ الزهدِ وأصلِهِ وثمرتِهِ]

للزُّهدِ في الدُّنيا : حقيقةٌ ، وأصلٌ ، وثمرةٌ .

أمَّا حقيقتُهُ : فهوَ عزوفُ النَّفْسِ عنِ الدُّنيا ، وانزواؤُها عنها طوعاً معَ القدرةِ عليها .

وأصلُهُ : العلمُ والنُّورُ الذي يُشرِقُ في القلبِ حتَّىٰ ينشرحَ بهِ الصَّدرُ ، ويَتَّضحَ بهِ أنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقىٰ ، وأنَّ نسبةَ الدُّنيا إلى الآخرةِ أقلُّ مِنْ نسبةِ خزفةٍ إلىٰ جوهرةٍ .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٣) عن محمد بن كعب القرظي رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٦٣) من حديث سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٢/٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٨) من حديث الحسن رحمه الله تعالىٰ مرسلاً ضمن خبر .

وثمرتُهُ : القناعةُ مِنَ الدُّنيا بقَدْرِ الضَّرورةِ ، وهوَ قَدْرُ زادِ الرَّاكبِ .

فالأصلُ نورُ المعرفةِ ، فيُثمِرُ حالَ الانزواءِ ، ويَظهرُ على الجوارحِ بالكَفِّ إلَّا عن قَدْرِ الضَّرورةِ في زادِ الطَّريقِ ، والضَّروريُّ مِنْ زادِ الطَّريقِ : مَسكَنٌ ، ومَلبَسٌ ، ومَطعَمٌ ، وأثاثٌ .

أمَّا المَطعَمُ : فلهُ طُولٌ ، وعَرْضٌ .

أمَّا طُولُهُ : فبالإضافةِ إلى الزَّمانِ .

وأقصىٰ درجاتِهِ : الاقتصارُ علىٰ دفعِ الجوعِ في الحالِ ، فإذا دفعَهُ غُدوةً . . لم يَدَّخِر شيئاً لعَشائِهِ .

وأوسطُهُ : أن يَدَّخِرَ لشهرٍ إلىٰ أربعينَ يوماً فقطْ .

وأدناهُ : أن يَدَّخِرَ لسنةٍ ، فإن جاوزَ ذٰلكَ . . خرجَ عن جميعِ أبوابِ الزُّهدِ ، إلَّا أن يكونَ لهُ كسبٌ ولا يأخذَ مِنَ الأيدي ؛ كداوودَ الطَّائيِّ رحمَهُ اللهُ ؛ فإنَّهُ ملكَ عشرينَ ديناراً ، فأمسكَها وقَنِعَ بها عشرينَ سنةً [1] ، فذٰلكَ لا يُبطِلُ مَقامَ الزُّهدِ ودرجتَهُ في الآخرةِ ، إلَّا عندَ مَنْ شرطَ التَّوكُّلَ في الزُّهدِ .

وأمَّا عَرْضُهُ : فأقلُّهُ نصفُ رطلٍ ، وأوسطُهُ رطلٌ ، وأعلاهُ مُدٌّ ، والزِّيادةُ عليهِ تُبطِلُ رتبةَ الزُّهدِ .

---

(١) أورده ابن حبان في « الثقات » (٣٤٠/٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤٧/٧) .

وأمَّا الجنسُ : فأقلُّهُ ما يَقُوتُ ولو النُّخالةَ ، وأوسطُهُ خبزُ الشَّعيرِ ، وأعلاهُ خبزُ البُرِّ غيرَ منخولٍ ، فإن نُخِلَ . . فهوَ تنعُّمٌ لا زهدٌ .

وأمَّا الإدامُ : فأقلُّهُ الخَلُّ والبَقْلُ والمِلْحُ ، وأوسطُهُ الأدهانُ ، وأعلاهُ اللَّحمُ ، وذلك في الأسبوعِ مرَّةً أو مرَّتينِ ، فإذا دامَ . . لم يكنْ صاحبُهُ زاهداً .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ يأتي أربعونَ ليلةً وما يُوقَدُ في بيتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِصباحٌ ولا نارٌ)[1] .

وقيلَ : (ما شَبِعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منذُ قدمَ المدينةَ ثلاثةَ أيَّامٍ مِنْ خبزِ البُرِّ)[2] .

وأمَّا المَلبَسُ : فأقلُّهُ ما يَستُرُ العورةَ ، ويدفعُ الحرَّ والبردَ ، وأعلاهُ قميصٌ وسراويلُ ومِنديلٌ مِنَ الجنسِ الخَشِنِ ، ويكونُ بحيثُ لو غسلَ ثوبَهُ . . لم يجد غيرَهُ .

فإن كانَ صاحبَ قميصينِ . . لم يكنْ زاهداً .

قالَ أبو بُرْدةَ : أخرجَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها كساءً مُلبَّداً

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/١٠٦) .

(٢) رواه البخاري (٥٤١٦) ، ومسلم (٢٩٧٠) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

وإزاراً غليظاً ، فقالَتْ : (قُبِضَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في هـٰذينِ)[1] .

وصلَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في خميصةٍ لها أعلامٌ ، فلمَّا سلَّمَ . . قالَ : « شَغَلَنِي ٱلنَّظَرُ إِلَىٰ هَـٰذِهِ ، ٱذْهَبُوا بِهَا إِلَىٰ أَبِي جَهْمٍ . . . » الحديثَ[2] .

وكانَ شِراكُ نعلِهِ قد خَلُقَ ، فأُبدِلَ بسَيرٍ جديدٍ ، فلمَّا سَلَّمَ مِنْ صلاتِهِ . . قالَ : « أَعِيدُوا ٱلشِّرَاكَ ٱلْخَلَقَ ؛ فَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَيْهِ فِي ٱلصَّلَاةِ »[3] .

وكانَ عليهِ السَّلامُ قدِ احتذىٰ نعلينِ جديدينِ ، فأعجبَهُ حسنُهُما ، فخرَّ ساجداً ، فقالَ : « أَعْجَبَنِي حُسْنُهُمَا ، فَتَوَاضَعْتُ لِرَبِّي خَشْيَةَ أَنْ يَمْقُتَنِي » ، ثمَّ خرجَ بهِما فدفعَهُما إلىٰ أوَّلِ مسكينٍ رآهُ[4] .

وقد عُدَّ علىٰ قميصِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ اثنتا عشرةَ رُقعةً ، بعضُها مِنْ أَدَمٍ[5] .

واشترىٰ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في خلافتِهِ ثوباً بثلاثةِ دراهمَ ،

---

(١) رواه البخاري (٣١٠٨) ، ومسلم (٢٠٨٠) .
(٢) رواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٠٢) عن أبي النضر سالم بن أبي أمية رحمه الله تعالىٰ .
(٤) أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٠٥/٢) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٣٠) بنحوه .

وقطعَ كُمَّيْهِ مِنَ الرُّسغَينِ ، وقالَ : (الحمدُ للهِ الذي كساني هـٰذا مِنْ رِياشِهِ)[1] .

وقالَ بعضُهُم : (قوَّمتُ ثوبَ سفيانَ ونعلَهُ بدرهمٍ وأربعةِ دوانيقَ)[2] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أخذَ علىٰ أئمَّةِ الهدىٰ أن يكونوا في مثلِ أدنىٰ أحوالِ النَّاسِ ؛ ليقتديَ بهِمُ الغنيُّ ، ولا يُزرِيَ بالفقيرِ فقرُهُ)[3] .

وأمَّا المَسكَنُ : فأدناهُ أن يَقنَعَ بزاويةٍ في مسجدٍ أو رباطٍ ؛ كأهلِ الصُّفَّةِ ، وأعلاهُ أن يطلبَ لنفسِهِ موضعاً خاصّاً ـ وهيَ حُجْرةٌ ـ إمَّا بشراءٍ أو إجارةٍ ؛ بشرطِ : ألَّا تزيدَ سعتُهُ علىٰ قَدْرِ الحاجةِ ، ولا يَرفعَ بناءَهُ ، ولا يَهتمَّ بتجصيصِهِ ، وفي الأثرِ : (إنَّ مَنْ رفعَ بناءَهُ فوقَ ستَّةِ أذرعٍ . . ناداهُ منادٍ : إلىٰ أينَ يا أفسقَ الفاسقينَ ؟!)[4] .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/٤٨٣) ، والرياش : الخصب والمعاش .

(٢) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/٢٥٨) ، والدوانيق : جمع دانق ؛ وهو سدس الدرهم .

(٣) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/٢٥٧) .

(٤) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/٢٦٠) عن عمرو بن دينار ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣/٧٥) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا بنى الرجل المسلم سبعة أو تسعة أذرع . . ناداه منادٍ من السماء : أين تذهب يا أفسق الفاسقين ؟! » .

ومات رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولم يضعْ لَبِنةً علىٰ لَبِنةٍ ، ولا قَصَبةً علىٰ قَصَبةٍ (١) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : مرَّ بنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ونحنُ نُعالِجُ خُصّاً ، فقالَ : « إِنَّ ٱلْأَمْرَ أَعْجَلُ مِنْ ذَٰلِكَ » (٢) .

واتَّخذَ نوحٌ عليهِ السَّلامُ بيتاً مِنْ خُصٍّ ، فقيلَ لهُ : لو بنيتَ ؟ فقالَ : هـٰذا كثيرٌ لِمَنْ يموتُ (٣) .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ بَنَىٰ فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ . . كُلِّفَ أَنْ يَحْمِلَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » (٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كُلُّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَىٰ صَاحِبِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، إِلَّا مَا أَكَنَّ مِنْ حَرٍّ وَبَرْدٍ » (٥) .

---

(١) روىٰ نحوه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣٣٩) عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ ، وكان لا يبني بنياناً ، ويقول : (سنة رسول الله خير من الدنيا وما فيها ؛ لم يبن بنياناً ، ولم يضع لبنة علىٰ لبنة ، ولا قصبة علىٰ قصبة) ، والقصبة : نبات يكون ساقه مثل الأنابيب ، والفارسي منه صلب غليظ ، يسقف به البيوت ـ وهو المراد هنا ـ وتصنع منه المزامير والأقلام .

(٢) رواه أبو داوود (٥١٩٤) ، والترمذي (٢٣٣٥) ، وابن ماجه (٤٣٢١) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وكان قد مرَّ عليه صلى الله عليه وسلم وهو يطيِّن مع أمه حائطاً لهما .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٦٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٤٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٢٧) .

(٥) أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/٢٦١) ، وفي خبر رواه أبو داوود (٥١٩٥) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « أما إن كل بناء وبال علىٰ صاحبه إلا ما لا ، إلا ما لا » يعني : إلا ما لا بدَّ منه .

وأمَّا أثاثُ البيتِ : ففيهِ أيضاً درجاتٌ .

وأدناها : حالُ عيسى ابنِ مريمَ عليهِ السَّلامُ ؛ إذ لم يكنْ معَهُ إلَّا مُشطٌ وكُوزٌ ، فرأىٰ إنساناً يَمشُطُ بأصابعِهِ ، فرمى المُشطَ ، ورأىٰ آخرَ يشربُ بيدِهِ ، فرمى الكُوزَ .

وأوسطُهُ : أن يستعملَ مِنَ الجنسِ الخشِنِ واحداً في كلِّ غرضٍ ، ويجتهدَ أن يستعملَ واحداً في أغراضٍ .

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لعميرِ بنِ سعدٍ وهوَ أميرُ حمصَ : (ما معَكَ مِنَ الدُّنيا ؟) فقالَ : معي عصايَ أتوكَّأُ عليها ، وأقتلُ بها حيَّةً إن لقيتُها ، ومعي جرابي أحملُ فيهِ طعامي ، ومعي قصعتي آكلُ فيها ، وأغسلُ رأسي وثوبي ، ومعي مَطهرتي أحملُ فيها شرابي ووَضوئي ، فما كانَ بعدَ هٰذا مِنَ الدُّنيا . . فهوَ تبعٌ لِمَا معي ، فقالَ : (صدقتَ)[١] .

وقالَ الحسنُ : (أدركتُ سبعينَ مِنَ الأخيارِ ما لأحدِهِم إلَّا ثوبُهُ ، وما وضعَ أحدُهُم بينَهُ وبينَ الأرضِ ثوباً)[٢] .

وكانَ فِراشُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الذي ينامُ عليهِ . . وسادةً مِنْ أَدَمٍ حشوُها ليفٌ ، وعَباءةً مثنيَّةً خَشِنةً[٣] .

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢٥٧/١) ، ورواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٥١/١٧) ضمن خبر طويل .

(٢) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢٦٧/١) .

(٣) رواه الترمذي في « الشمائل » (٣٣٤ ـ ٣٣٥) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

فهٰذهِ سيرةُ الزُّهَّادِ في الدُّنيا ، فمَنْ حُرِمَ هٰذهِ الرُّتبةَ . . فلا أقلَّ مِنْ أن يَتحسَّرَ علىٰ فواتِها ، ويجتهدَ في أن يكونَ قربُهُ منهُم أكثرَ مِنْ قربهِ مِنَ المُتنعِّمينَ في الدُّنيا(١) .

فَصْلٌ

[في بيانِ درجاتِ الزهدِ]

الزُّهدُ علىٰ درجاتٍ :

إحداها : أن يزهدَ ونفسُهُ مائلةٌ إلى الدُّنيا ، ولٰكنْ يجاهدُها ، وهٰذا مُتزهِّدٌ وليسَ بزاهدٍ ، ولٰكنْ بدايةُ الزُّهدِ التَّزهُّدُ .

الثَّانيةُ : أن تَنفِرَ نفسُهُ عنِ الدُّنيا ولا تميلَ إليها ؛ لعلمِهِ أنَّ الجمعَ بينَها وبينَ نعيمِ الآخرةِ غيرُ ممكنٍ ، فتسمحُ نفسُهُ بتركِها ، كما تسمحُ نفسُ مَنْ يَبذُلُ درهماً ليشتريَ بهِ جوهرةً ، وإن كانَ الدِّرهمُ محبوباً عندَهُ ، وهٰذا زاهدٌ .

الثَّالثةُ : ألَّا تميلَ نفسُهُ إلى الدُّنيا ولا تَنفِرَ عنها ، بل يكونُ وجودُها وعدمُها عندَهُ بمثابةٍ واحدةٍ ، ويكونُ المالُ عندَهُ كالماءِ ، وخزانةُ اللهِ تعالىٰ كالبحرِ ، فلا يلتفتُ قلبُهُ إليهِ رغبةً ونفوراً ،

---

(١) في هامش (و) : (بلغ مقابلة) .

وهٰذا هوَ الأكملُ ؛ لأنَّ الذي يُبغِضُ شيئاً وهوَ مشغولٌ بهِ كالذي يُحِبُّهُ ، ولذٰلكَ ذمَّ الدُّنيا قومٌ عندَ رابعةَ العدويَّةِ ، فقالَتْ : (لولا قَدْرُها في قلوبِكم . . ما ذممتُمُوها)[1] .

وحُمِلَ إلىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها مئةُ ألفِ درهمٍ ، فلم تَنفِرْ عنها ، ولٰكنْ فرَّقَتْها في يومِها ، فقالَتْ خادمتُها : لوِ اشتريتِ بدرهمٍ لحماً تُفطرينَ عليهِ ؟! فقالتْ : (لو ذكَّرتِني . . لفعلتُ)[2] .

فهٰذا هوَ الغنىٰ ، وهوَ أكملُ مِنَ الزُّهدِ ، ولٰكنَّهُ مَظِنَّةُ غرورِ الحمقىٰ ؛ إذ كلُّ مغرورٍ يَستشعِرُ في نفسِهِ أن لا علاقةَ لقلبِهِ معَ الدُّنيا !! وعلامةُ ذٰلكَ : ألَّا يُدرِكَ الفرقَ بينَ أن يُسرَقَ جميعُ مالِهِ ، أو يُسرَقَ مالُ غيرِهِ ، فما دامَ يُدرِكُ التَّفرقةَ . . فهوَ مشغولٌ بهِ .

فَصْلٌ

[في بيانِ كمالِ الزهدِ]

كمالُ الزُّهدِ : هوَ الزُّهدُ في الزُّهدِ ؛ بألَّا يَعتدَّ بهِ ، ولا يراهُ مَنصِباً ؛ فإنَّ مَنْ تركَ الدُّنيا وظنَّ أنَّهُ تركَ شيئاً . . فقد عَظَّمَ الدُّنيا ؛ إذِ الدُّنيا عندَ ذوي البصائرِ . . لا شيءَ ، وصاحبُها كمَنْ منعَهُ عن دارِ المَلِكِ كلبٌ علىٰ بابِهِ ، فألقىٰ إليهِ لقمةَ خبزٍ ، وشغلَهُ بها ، ودخلَ دارَ المَلِكِ ، وجلسَ علىٰ سريرِ المَلِكِ ؛ فالشيطانُ كلبٌ علىٰ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٦٤) .
(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٠/٦٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٤٧) .

بابِ اللهِ تعالىٰ ، والدُّنيا كلُّها أقلُّ مِنْ لقمةٍ بالإضافةِ إلى المُلْكِ الأُخرويِّ ؛ إذِ اللُّقمةُ لها نسبةٌ إلى المُلْكِ ؛ إذ تفنىٰ بأمثالِها ، والآخرةُ لا يُتصوَّرُ أن تفنىٰ بأمثالِ الدُّنيا ؛ لأنَّها لا نهايةَ لها .

فَصْلٌ

[في بيانِ درجاتِ الزهدِ باعتبارِ الباعثِ عليهِ]

الزُّهدُ باعتبارِ الباعثِ عليهِ . . علىٰ ثلاثِ درجاتٍ :

إحداها : أن يكونَ باعثُهُ الخوفَ مِنَ النَّارِ ، **وهٰذا زهدُ الخائفينَ** .

الثَّانيةُ ـ وهيَ أعلىٰ منها ـ : أن يكونَ باعثُهُ الرَّغبةَ في نعيمِ الآخرةِ ، **وهٰذا زهدُ الرَّاجينَ** ، والعبادَةُ على الرَّجاءِ أفضلُ منها على الخوفِ ؛ لأنَّ الرَّجاءَ يقتضي المحبَّةَ (١) .

الثَّالثةُ ـ وهيَ أعلاها ـ : أن يكونَ الباعثُ عليهِ التَّرفُّعَ عنِ الالتفاتِ إلىٰ ما سوى الحقِّ ؛ تنزيهاً للنَّفْسِ عنهُ ، واستحقاراً لِمَا سوى اللهِ تعالىٰ ، **وهٰذا زهدُ العارفينَ** ، وهوَ الزُّهدُ المُحقَّقُ ،

---

(١) والكمال : الجمع بين الخوف والرجاء والمحبة ، وقد نقل الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « إحياء علوم الدين » (٥٤٦/٧) عن مكحول النسفي : (مَنْ عَبَدَ الله بالخوف . . فهو حروريٌّ ، ومَنْ عبده بالرجاء . . فهو مرجِئٌ ، ومَنْ عبده بالمحبة . . فهو زنديق ، ومَنْ عبده بالخوف والرجاء والمحبة . . فهو مُوحِّدٌ) وانظر « قوت القلوب » (٢٤٢/١) .

وما قبلَهُ معاملةٌ ؛ إذ ينزلُ صاحبُهُ عن شيءٍ عاجلاً ؛ ليعتاضَ عنه أضعافَهُ آجلاً .

فَصْلٌ

[في بيانِ درجاتِ الزهدِ باعتبارِ ما فيهِ الزُّهدُ]

الزُّهدُ باعتبارِ ما فيهِ الزُّهدُ . . علىٰ درجاتٍ :

وكمالُهُ : الزُّهدُ في كلِّ ما سوى اللهِ تعالىٰ في الدُّنيا والآخرةِ .

ودونَهُ : الزُّهدُ في الدُّنيا خاصَّةً دونَ الآخرةِ ، ثمَّ يدخلُ فيهِ كلُّ ما فيهِ حظٌّ عاجلٌ ، وتمتُّعٌ في الدُّنيا ؛ مِنْ مالٍ وجاهٍ وتنعُّمٍ .

ودونَ ذٰلكَ : أن يزهدَ في المالِ دونَ الجاهِ ، أو في بعضِ الأشياءِ دونَ البعضِ ، وذٰلكَ ضعيفٌ ؛ لأنَّ الجاهَ ألذُّ وأشهىٰ مِنَ المالِ ، فالزُّهدُ فيهِ أهمُّ .

فَصْلٌ

[في بيانِ فضلِ الفقيرِ وما جاءَ فيهِ مِن نصوصٍ]

الزُّهدُ : أن تنزويَ عنِ الدُّنيا طوعاً معَ القدرةِ عليها ، أمَّا إنِ انزوَتِ الدُّنيا عنكَ وأنتَ راغبٌ فيها . . فذٰلكَ فقرٌ وليسَ بزهدٍ .

ولٰكنْ للفقيرِ أيضاً فضلٌ على الغنيِّ ؛ لأنَّهُ مُنِعَ عنِ التَّمتُّعِ

بالدُّنيا قهراً ، وهوَ أفضلُ ممَّنْ مُكِّنَ مِنَ الدُّنيا والتَّمتُّعِ بها حتَّىٰ أَلِفَها واطمأنَّ إليها ، ولم يَتجافَ قلبُهُ عنها ، فيعظمُ عليهِ الألمُ والحسرةُ عندَ الموتِ ، وتكونُ الدُّنيا كأنَّها جَنَّتُهُ ، وتكونُ كأنَّها سجنٌ للفقيرِ (١) ؛ إذ يشتهي الخلاصَ مِنْ آلامِها .

والفقرُ مِنْ أسبابِ السَّعادةِ ؛ قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ يَحْمِي عَبْدَهُ ٱلْمُؤْمِنَ عَنِ ٱلدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ ٱلطَّعَامَ وَٱلشَّرَابَ » (٢) .

وقالَ : « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي ٱلْجَنَّةَ قَبْلَ ٱلْأَغْنِيَاءِ . . بِخَمْسِ مِئَةِ عَامٍ » (٣) .

وقالَ : « خَيْرُ هَـٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ فُقَرَاؤُهَا » (٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا رَأَيْتَ ٱلْفَقْرَ مُقْبِلاً . . فَقُلْ : مَرْحَباً بِشِعَارِ ٱلصَّالِحِينَ ، وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلْغِنَىٰ مُقْبِلاً . . فَقُلْ : ذَنْبٌ عُجِّلَتْ عُقُوبَتُهُ » (٥) .

---

(١) كما رواه مسلم (٢٩٥٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر » .

(٢) رواه الترمذي (٢٠٣٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٠٩/٤) من حديث سيدنا قتادة بن النعمان رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٥٣) ، وابن ماجه (٤٢٨٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢٦٣/١) ، ورواه الدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (١٣٨/٢) ، وهو عند الديلمي في « الفردوس » (٢٩٢١) عن جدٍّ أو عمٍّ زياد بن النضر رحمهم الله تعالىٰ .

(٥) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٩٤/٢) ، وهو عند الديلمي في « الفردوس » (٤٤٦٩) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وقالَ موسىٰ عليهِ السَّلامُ : (يا ربِّ ؛ مَنْ أحبَّاؤُكَ مِنْ خَلْقِكَ ؛ حتَّىٰ أحبَّهُم لأجلِكَ ؟ فقالَ : كلُّ فقيرٍ فقيرٍ)[١] .

واعلمْ : أنَّ الفقيرَ إن كانَ قانعاً بما أُعطِيَ ، غيرَ شديدِ الحرصِ على الطَّلبِ . . فدرجتُهُ قريبةٌ مِنْ درجةِ الزَّاهدِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طُوبَىٰ لِمَنْ هُدِيَ لِلْإِسْلَامِ ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافاً ، وَقَنِعَ بِهِ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « **ٱلْفُقَرَاءُ ٱلصُّبَّرُ** : هُمْ جُلَسَاءُ ٱللهِ تَعَالَىٰ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَحَبُّ ٱلْعِبَادِ إِلَى ٱللهِ . . **ٱلْفَقِيرُ ٱلْقَانِعُ** »[٤] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ إسماعيلَ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ :

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٩٤/٢) ، وقال : (التكرار فيه لمعنيين : أحدهما : المتحقق بالفقر ، والثاني : الشديد الحاجة والضرّ) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٩) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٧٩٣) من حديث سيدنا فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، وعند مسلم (١٠٥٤) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٥٧١) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ، ورواه السلفي في « معجم السفر » (١٤١٥) من حديث سيدنا سلمان رضي الله عنه .

(٤) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٩٤/٢) ، وروى ابن ماجه (٤٢٨٢) من حديث سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما مرفوعاً : « إن الله يحب عبده المؤمن الفقير المتعفف أبا العيال » .

(اطلبْني عندَ المُنكسِرةِ قلوبُهُم ، قالَ : ومَنْ هم ؟ قالَ : الفقراءُ الصَّادقونَ)[1] .

وعلى الجملةِ : إنَّما يَعظُمُ ثوابُ الفقيرِ عندَ القناعةِ والصَّبرِ والرِّضا ، والصَّبرُ على الفقرِ مَبدأُ الزُّهدِ ، ولا تَتِمُّ هٰذهِ المَقاماتُ إلَّا بالصَّبرِ ، فلنذكرْهُ .

* *

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٩٢/١) .

الأصل الرّابع

في الصّبر

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

وجمعَ للصَّابرينَ بينَ أمورٍ لم يجمعْها لغيرِهِم ؛ فقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ .

وذكرَ اللهُ سبحانَهُ في القرآنِ الصَّبرَ في نَيِّفٍ وسبعينَ موضعاً .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « **ٱلصَّبْرُ نِصْفُ ٱلْإِيمَانِ** »(١)

وقالَ : « **مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُمْ . . ٱلْيَقِينُ ، وَعَزِيمَةُ ٱلصَّبْرِ ، وَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْهُمَا . . لَمْ يُبَالِ بِمَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ ٱللَّيْلِ وَصِيَامِ ٱلنَّهَارِ** »(٢) .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤/٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٢٧/١٣) من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٩٤/١) من حديث سيدنا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه .

وقالَ : « ٱلصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ ٱلْجَنَّةِ »(١) .

وسُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مَرَّةً عنِ الإيمانِ ، فقالَ : « هُوَ ٱلصَّبْرُ »(٢) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : (إنَّكُم لا تُدرِكونَ ما تُحِبُّونَ إلَّا بصبرِكُم علىٰ ما تكرهونَ)(٣) .

فَصْلٌ

[في بيانِ أنَّ الصبرَ خاصٌّ بالإنسانِ]

حقيقةُ الصَّبرِ : ثباتُ باعثِ الدِّينِ في مقابلةِ باعثِ الهوىٰ ، وهوَ مِنْ خاصِّيَّةِ الآدميِّ ، الذي هوَ كالمُركَّبِ مِنْ شُعَبٍ ملَكيَّةٍ وبهيميَّةٍ ؛ لأنَّ البهيمةَ لم تُسلَّطْ عليها إلَّا دواعي الشَّهوةِ ، والملائكةَ لم تُسلَّطْ عليهِمُ الشَّهوةُ ، بل جُرِّدوا للشَّوقِ إلىٰ مطالعةِ جمالِ الحضرةِ الرُّبوبيةِ ، والابتهاجِ بدرجةِ القربِ منها ، فهُم يُسبِّحونَ اللَّيلَ والنَّهارَ لا يَفتُرونَ ، فليسَ فيهِم داعيةُ الشَّهوةِ ، فلم يُتصوَّرِ الصَّبرُ لمَلَكٍ ولا بهيمةٍ ، بلِ الإنسانُ سُلِّطَ عليهِ جُندانِ يَتطارَدانِ : أحدُهما مِنْ حزبِ اللهِ وملائكتِهِ ؛ وهوَ العقلُ وبواعثُهُ ،

---

(١) روى الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٧/٧) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه نحوه .

(٢) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٨٥٤) ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » (٣١) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه ، وزاد : (والسماحة) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٨٦) .

والثَّاني مِنْ جنودِ الشَّيطانِ ؛ وهيَ الشَّهوةُ ودواعيها .

وبعدَ البلوغِ تظهرُ بواعثُ الدِّينِ والعقلِ ؛ إذ يَحملُ على النَّظرِ إلى العواقبِ ، ويَبتدئُ بقتالِ جندِ الشَّيطانِ ؛ فإن ثبتَ باعثُ الدِّينِ في مقابلةِ باعثِ الهوىٰ حتَّىٰ غلبَهُ . . فقد حصلَ مَقامُ الصَّبرِ ؛ إذ لا يُتصوَّرُ الصَّبرُ إلَّا عندَ تعارضِ الباعثينِ على التَّناقضِ ، وذٰلكَ كالصَّبرِ علىٰ شربِ الدَّواءِ البشعِ ؛ إذ تدعو إليهِ دواعي العقلِ ، ويمنعُ منهُ دواعي الشَّهوةِ ، وكلُّ مَنْ غلبَتْهُ شهوتُهُ . . لم يُقدِمْ عليهِ ، ومَنْ غلبَ عقلُهُ شهوتَهُ . . صبرَ علىٰ مرارتِهِ ؛ لينالَ الشِّفاءَ .

وشطرُ الإيمانِ إنَّما يَتِمُّ بالصَّبرِ ؛ ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلصَّبْرُ نِصْفُ ٱلْإِيمَانِ »[١] ؛ لأنَّ الإيمانَ يُطلَقُ على المعارفِ والأعمالِ جميعاً .

وسائرُ الأعمالِ ـ في طرفيِ الكَفِّ والإقدامِ والتَّزكيةِ والتَّحليةِ ـ لا تَتِمُّ إلَّا بالصَّبرِ ؛ لأنَّ جملةَ أعمالِ الإيمانِ علىٰ خلافِ باعثِ الشَّهوةِ ، فلا يَتِمُّ إلَّا بثباتِ باعثِ الدِّينِ في مقابلتِهِ ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلصَّوْمُ نِصْفُ ٱلصَّبْرِ »[٢] ؛ لأنَّ الصَّبرَ تارةً يكونُ في مقابلةِ دواعي الشَّهوةِ ، وتارةً في مقابلةِ دواعي الغضبِ ، والصَّومُ هوَ كسرٌ لدواعي الشَّهوةِ .

---

(١) تقدم تخريجه قريباً (ص٣٧٢) .

(٢) رواه الترمذي (٣٥١٩) عن رجل من بني سليم .

فَصْلٌ

[في بيانِ درجاتِ الصبرِ]

الصَّبرُ لهُ ثلاثُ درجاتٍ بحَسَبِ ضَعفِهِ وقُوَّتِهِ :

الدَّرجةُ العُليا : أن يقمعَ داعيةَ الهوىٰ بالكُلِّيَّةِ ؛ حتَّىٰ لا تبقىٰ لها قُوَّةُ المنازعةِ .

ويُتوصَّلُ إليها بدوامِ الصَّبرِ ، وطُولِ المجاهدةِ ، وهُمُ الذينَ قيلَ فيهِم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ ، وإيَّاهُم ينادي : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ .

الدَّرجةُ السُّفلىٰ : أن تقوىٰ داعيةُ الهوىٰ ، وتسقطَ منازعةُ باعثِ الدِّينِ ، ويغلبَ الهوىٰ ، ويَسلَمَ القلبُ لجندِ الشَّيطانِ ، وهـٰذا مِنَ الذينَ قيلَ فيهِم : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، **وعلامتُهُ شيئانِ :**

أحدُهُما : أن يقولَ : أنا مُشتاقٌ إلى التَّوبةِ ، ولـٰكنَّها تَعذَّرَتْ عليَّ ، فلستُ أطمعُ فيها ، وهـٰذا هوَ القانطُ ، وهوَ هالكٌ .

الثَّاني : ألَّا يبقىٰ فيهِ أيضاً شوقٌ إلى التَّوبةِ ، ولـٰكنْ يقولُ : اللهُ كريمٌ رحيمٌ ، وهوَ مُستغنٍ عن توبتي ، فلا تضيقُ الجنَّةُ الواسعةُ والمغفرةُ الشَّاملةُ عنِّي .

وهٰذا المسكينُ قد صارَ عقلُهُ أَسِيرَ شهوتِهِ ؛ فلا يستعملُهُ إلَّا في استنباطِ حيلِ قضاءِ الشَّهوةِ ، فصارَ عقلُهُ كمُسلِمٍ أسيرٍ بينَ الكُفَّارِ ، يستسخرونَهُ في رعايةِ الخنازيرِ ، وحفظِ الخمورِ ، وحملِها على العنقِ والظَّهرِ إلىٰ بيوتِهِم .

فانظرْ كيفَ يكونُ حالُ العبدِ إذا أخذَ أعزَّ أولادِ المَلِكِ ، وسلَّمَهُ إلىٰ أخسِّ أعدائِهِ ، حتَّى استرقَّهُ واستسخرَهُ ؟!

ففي مثلِ هٰذهِ الحالةِ كيفَ يكونُ قدومُ هٰذا الغافلِ المُنهمِكِ على اللهِ تعالىٰ ؟! نعوذُ باللهِ منهُ .

الدَّرجةُ الوسطىٰ : أَلَّا يَفتُرَ عنِ المحاربةِ ، ولٰكنْ يكونُ الحربُ بينَهُما سِجالاً ؛ تارةً لهُ اليدُ ، وتارةً عليهِ اليدُ ، وهٰذا مِنَ المجاهدينَ الذينَ خلَطوا عملاً صالحاً ، وآخَرَ سيِّئاً .

وعلامةُ هٰذا : أن يتركَ مِنَ الشَّهَواتِ ما هوَ أضعفُ ، ويَعجِزَ عمَّا هوَ أغلبُ ، وربَّما يغلبُها في بعضِ الأوقاتِ دونَ بعضٍ ، وهوَ في جميعِ الأحوالِ مُتحسِّرٌ علىٰ عجزِهِ ، ومُتشمِّرٌ للمعاودةِ إلىٰ مجاهدتِهِ وقتالِهِ ، وذٰلكَ هوَ الجهادُ الأكبرُ ، ومهما اتَّقىٰ وصدَّقَ بالحسنىٰ . . فسنيسِّرُهُ لليسرىٰ .

وبالجملةِ : فقد قَصَرَ عنِ البهيمةِ إنسيٌّ لم يُقاوِمْ بقُوَّةِ عقلِهِ شهوتَهُ وقد أُمِدَّ بالعقلِ وحُرِمَتْ عنهُ البهيمةُ ؛ ولذٰلكَ

قالَ اللهُ تعالَىٰ : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

فَصْلٌ

[في بيانِ الحاجةِ إلى الصبرِ في جميعِ الأحوالِ]

اعلمْ : أنَّ الحاجةَ إلى الصَّبرِ عامَّةٌ في جميعِ الأحوالِ ؛ لأنَّ جميعَ ما يَلقى العبدُ في هٰذهِ الحياةِ **لا يخلو عن نوعينِ ؛ فإنَّهُ إمَّا أن يوافقَ هواهُ ، أو يخالفَهُ** .

فإن وافقَ هواهُ ؛ كالصِّحَّةِ والسَّلامةِ ، والثَّروةِ والجاهِ ، وكثرةِ العشيرةِ . . فما أحوجَهُ إلى الصَّبرِ معَها ؛ فإنَّهُ إن لم يضبطْ نفسَهُ . . طغىٰ واسترسلَ في التَّنعُّمِ واتِّباعِ الهوىٰ ، ونسيَ المبدأَ والمنتهىٰ .

ولذٰلكَ قالَتِ الصَّحابةُ رضوانُ اللهِ عليهِم أجمعينَ : (بُلِينا بفتنةِ الضَّرَّاءِ فصبرنا ، وبُلِينا بفتنةِ السَّرَّاءِ فلم نصبرْ)(1) .

ولذٰلكَ قيلَ : (يصبرُ على البلاءِ كلُّ مؤمنٍ ، ولا يصبرُ على العافيةِ إلَّا صدِّيقٌ) .

ومعنى الصَّبرِ فيها : ألَّا يَركَنَ إليها ، وأن يعلمَ أنَّ كلَّ ذٰلكَ وديعةٌ عندَهُ تُسترجَعُ على القُرْبِ ، وألَّا يَنهمِكَ في الغفلةِ والتَّنعُّمِ ، وأن يُؤدِّيَ حقَّ شكرِ النِّعمةِ ، وذٰلكَ ممَّا يطولُ شرحُهُ .

---

(1) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٢١٩) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه .

النَّوعُ الثَّاني : ما يخالفُ الهوىٰ ؛ وذٰلكَ أربعةُ أقسامٍ :

الأوَّلُ : الطَّاعاتُ ، والنَّفسُ تَنفِرُ عن بعضِها بمُجرَّدِ الكسلِ ؛ كالصَّلاةِ ، وعن بعضِها بالبخلِ ؛ كالزَّكاةِ ، وعن بعضِها بهِما جميعاً ؛ كالحجِّ والجهادِ ، **فالصَّبرُ على الطَّاعةِ مِنَ الشَّدائدِ** .

ويحتاجُ المطيعُ إلى الصَّبرِ في ثلاثةِ أحوالٍ :

أحدُها : أوَّلَ العبادةِ بتصحيحِ الإخلاصِ ، والصَّبرِ عن شوائبِ الرِّياءِ ، ومكايدِ الشَّيطانِ ، ومكايدِ النَّفْسِ وغرورِها .

الثَّانيةُ : حالةَ العملِ ؛ كي لَا يَتكاسلَ عن تحقيقِ أدائِهِ بفروضِهِ وسننِهِ ، ويدومَ علىٰ شرطِ الأدبِ ، معَ حضورِ القلبِ ونفيِ الوسواسِ .

الثَّالثةُ : بعدَ الفراغِ ؛ وهوَ أن يصبرَ عن ذكرِهِ وإفشائِهِ للتَّظاهرِ بهِ رياءً وسمعةً ، **وكلُّ ذٰلكَ مِنَ الصَّبرِ الشَّديدِ على النَّفسِ** .

القسمُ الثَّاني : المعاصي ، وقد قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ هَوَاهُ ، وَٱلْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ ٱلسُّوءَ »(١) .

والصَّبرُ عنِ المعاصي أشدُّ ، لا سيَّما عن معصيةٍ صارَتْ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ١١) بنحوه هنا ضمن خطبة له صلى الله عليه وسلم من حديث سيدنا فضالة رضي الله عنه .

عادةً مألوفةً ؛ إذ يتظاهرُ فيهِ علىٰ باعثِ الدِّينِ جندانِ : جُندُ الهوىٰ ، وجُندُ العادةِ ، فإنِ انضمَّ إلىٰ ذٰلكَ سهولةُ فعلِهِ ، وخفَّةُ المؤنةِ فيهِ . . لم يصبرْ عنها إلَّا صدِّيقٌ ؛ وذٰلكَ كمعاصي اللِّسانِ ، فإنَّها هيِّنةٌ سهلةٌ ؛ وذٰلكَ كالغِيبةِ والكذبِ والمراءِ والثَّناءِ على النَّفسِ ، ويحتاجُ في دفعِ ذٰلكَ إلىٰ أشدِّ أنواعِ الصَّبرِ .

القسمُ الثَّالثُ : ما لا يرتبطُ باختيارِ العبدِ ، ولٰكنْ لهُ اختيارٌ في دفعِهِ وتداركِهِ ؛ كالذي ينالُهُ مكروهٌ مِنْ غيرِهِ بيدٍ أو لسانٍ ، فالصَّبرُ علىٰ ذٰلكَ بتركِ المكافأةِ تارةً يجبُ ، وتارةً يُستحَبُّ ، قالَ بعضُ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم : (ما كنَّا نعدُّ إيمانَ الرَّجلِ إيماناً إذا لم يصبرْ على الأذىٰ)[1] .

وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ خبراً عن قولِ الأنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۝٤٨ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ ﴾ .

(١) أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/١٩٥) بنحوه .

القسمُ الرَّابعُ : ما لا يدخلُ أوَّلُهُ وآخرُهُ تحتَ الاختيارِ ؛ كالمصائبِ بموتِ الأعزَّةِ ، وهلاكِ الأموالِ ، والمرضِ ، وذهابِ بعضِ الأعضاءِ ، وسائرِ أنواعِ البلاءِ ، فالصَّبرُ عليهِ مِنْ أعلى المَقاماتِ .

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (الصَّبرُ في القرآنِ علىٰ ثلاثِ مَقاماتٍ : صبرٌ علىٰ أداءِ الفرائضِ ولهُ ثلاثُ مئةِ درجةٍ ، وصبرٌ عن محارمِ اللهِ تعالىٰ ولهُ ستُّ مئةِ درجةٍ ، وصبرٌ في المصيبةِ عندَ الصَّدمةِ الأُولىٰ ولهُ تسعُ مئةِ درجةٍ)(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : إِذَا ٱبْتَلَيْتُ عَبْدِي بِبَلَاءٍ فَصَبَرَ وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَىٰ عُوَّادِهِ . . أَبْدَلْتُهُ لَحْماً خَيْراً مِنْ لَحْمِهِ ، وَدَماً خَيْراً مِنْ دَمِهِ ، فَإِنْ أَبْرَأْتُهُ . . أَبْرَأْتُهُ وَلَا ذَنْبَ لَهُ ، وَإِنْ تَوَفَّيْتُهُ . . فَإِلَىٰ رَحْمَتِي »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ اللهِ تعالىٰ : « إِذَا وَجَّهْتُ إِلَىٰ عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ، ثُمَّ ٱسْتَقْبَلَ ذَٰلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ . . ٱسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ مِيزَاناً ، أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَاناً »(٣) .

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/١٩٨) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/٣٤٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو عند مالك في « الموطأ » (٢/٩٤٠) عن عطاء بن يسار رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

(٣) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٩٥٦) ، وابن عدي في « الكامل » (٧/١٥٠) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱنْتِظَارُ ٱلْفَرَجِ بِٱلصَّبْرِ . . عِبَادَةٌ »[١] .

وقالَ : « مِنْ إِجْلَالِ ٱللهِ تَعَالَىٰ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ . . أَلَّا تَشْكُوَ وَجَعَكَ ، وَلَا تَذْكُرَ مُصِيبَتَكَ »[٢] .

فقد عرفتَ أنَّكَ لا تستغني عنِ الصَّبرِ في جميعِ أحوالِكَ ، وبهِ يَظهَرُ أنَّهُ شطرُ الإيمانِ ، وشطرُهُ الآخَرُ فيما يَتعلَّقُ بالأعمالِ . . الشُّكرُ ؛ فقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْإِيمَانُ نِصْفَانِ : نِصْفٌ صَبْرٌ ، وَنِصْفٌ شُكْرٌ »[٣] ، وهٰذا باعتبارِ النَّظرِ إلى الأعمالِ والتَّعبيرِ بالإيمانِ عنها .

* *

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٤٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٥٣١) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٩/٦) بنحوه مختصراً من كلام سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٢٦٤) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

الأصل الخامس

في الشّكر

قالَ اللهُ تعالَىٰ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ .

وقالَ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

وقالَ : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .

وقالَ : ﴿ وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

وقالَ : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لِلطَّاعِمِ ٱلشَّاكِرِ مَنْزِلَةُ ٱلصَّائِمِ ٱلصَّابِرِ عِنْدَ ٱللهِ »(١) .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يبكي في تهجُّدِهِ ، فقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : وما يبكيكَ وقد غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ ؟ فقالَ : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ؟ »(٢) .

وقالَ : « يُنَادَىٰ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ : لِيَقُمِ ٱلْحَمَّادُونَ ، فَتَقُومُ زُمْرَةٌ ، فَيُنْصَبُ لَهُمْ لِوَاءٌ ، فَيَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ » ، فقيلَ : ومَنِ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٦) ، وابن ماجه (١٨٥٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري (٤٨٣٧) ، ومسلم (٢٨٢٠) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

الحَمَّادونَ ؟ قالَ : « ٱلَّذِينَ يَشْكُرُونَ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ »[1] .

وقالَ : « ٱلْحَمْدُ لِلهِ . . رِدَاءُ ٱلرَّحْمَـٰنِ »[2] .

فَصْلٌ

[في بيانِ حقيقةِ الشكرِ]

اعلمْ : أنَّ الشُّكرَ مِنَ المَقاماتِ العاليةِ ، وهوَ أعلىٰ مِنَ الصَّبرِ والخوفِ والزُّهدِ وجميعِ المَقاماتِ التي سبقَ ذكرُها ؛ لأنَّها ليسَتْ مقصودةً في أنفسِها ، وإنَّما تُرادُ لغيرِها ؛ فالصَّبرُ يُرادُ منهُ قهرُ الهوىٰ ، والخوفُ سوطٌ يسوقُ الخائفَ إلى المَقاماتِ المقصودةِ المحمودةِ ، والزُّهدُ هرَبٌ مِنَ العلائقِ الشَّاغلةِ عنِ اللهِ تعالىٰ .

وأمَّا الشُّكرُ . . فمقصودٌ في نفسِهِ ، ولذٰلكَ لا ينقطعُ في الجنَّةِ ، وليسَ فيها توبةٌ ولا خوفٌ ، ولا صبرٌ ولا زهدٌ ، والشُّكرُ دائمٌ في الجنَّةِ .

ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠ ﴾ .

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢٠٦/١) ، ورواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٩/١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦٩/٥) .

(٢) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢٠٥/١) ، ورواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢٦/١) عن الضحاك ولم يرفعه .

وتَعرِفُ ذٰلكَ ؛ بأن تعرفَ حقيقةَ الشُّكرِ ، **وأنَّهُ يَنتظِمُ مِنْ علمٍ ، وحالٍ ، وعملٍ .**

أمَّا العلمُ : فهوَ الأصلُ ، فيُثمِرُ الحالَ ، والحالُ يُثمِرُ العملَ ، **فهٰذهِ ثلاثةُ أركانٍ :**

الأوَّلُ : **العلمُ بالنِّعمةِ والمُنعِمِ** ، معَ العلمِ بأنَّ النِّعَمَ كلَّها مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ المُنفرِدُ بجميعِها ، والوسائطُ كلُّهُم مُسخَّرونَ مقهورونَ ، وهٰذهِ المعرفةُ وراءَ التَّقديسِ والتَّوحيدِ ؛ فإنَّهُما داخلانِ فيها ، **بلِ الرُّتبةُ الأُولىٰ في معارفِ الإيمانِ . . التَّقديسُ .**

ثمَّ إذا عرفتَ ذاتاً مُقدَّسةً ، وعرفتَ أنَّهُ لا مُقدَّسَ إلَّا واحدٌ . . فهوَ التَّوحيدُ ، ثمَّ إذا علمتَ أنَّ كلَّ ما في العالَمِ هوَ موجودٌ مِنْ ذٰلكَ الواحدِ ، والكلَّ نعمةٌ منهُ خاصَّةً . . فهوَ الحمدُ .

وإلىٰ هٰذا التَّرتيبِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قَالَ : (سُبْحَانَ ٱللهِ) . . فَلَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ، وَمَنْ قَالَ : (لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللهُ) . . فَلَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً ، وَمَنْ قَالَ : (ٱلْحَمْدُ لِلهِ) . . فَلَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً »[1] .

وهٰذا ؛ لأنَّ التَّقديسَ والتَّوحيدَ داخلانِ في الحمدِ ، **والحمدُ تقديسٌ وتوحيدٌ وزيادةٌ** ، وهٰذهِ الدَّرجاتُ بإزاءِ هٰذهِ المعارفِ .

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢٠٥/١) ، وروى النسائي نحوه في « السنن الكبرىٰ » (١٠٦٠٨) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وأمَّا حركةُ اللِّسانِ : ففضلُها بحَسَبِ صدورِها عنِ المعرفةِ ، أو تجديدِها للاعتقادِ في القلبِ ؛ فإنَّ الفمَ آلةٌ لإزالةِ الغفلةِ لينمحيَ أثرُها ، فإنِ انضمَّ إليهِ الغفلةُ . . انمحىٰ أثرها .

واعلمْ : أنَّكَ إذا اعتقدتَ أنَّ لغيرِ اللهِ تعالىٰ دَخْلاً في النِّعمةِ الواصلةِ إليكَ . . لم يصحَّ حمدُكَ ، ولم تَتِمَّ معرفتُكَ وشكرُكَ ، وكنتَ كمَنْ يَخلَعُ عليهِ المَلِكُ وهوَ يرىٰ أنَّ لعنايةِ الوزيرِ دَخْلاً في خِلعةِ المَلِكِ ، أو في إيصالِها إليهِ ، أو في تيسيرِها ، وكلُّ ذٰلكَ إشراكٌ في النِّعمةِ ، ويَتوزَّعُ فرحُكَ بالنِّعمةِ عليهِما !!

نعمْ ؛ لو رأيتَ الخِلعةَ الواصلةَ إليكَ بتوقيعِ المَلِكِ بقلمِهِ . . فذٰلكَ لا يَنقُصُ مِنْ شكرِكَ ؛ لأنَّكَ تعلمُ أنَّ القلمَ مُسخَّرٌ لهُ ، لا دَخْلَ لهُ في النِّعمةِ بنفسِهِ ، ولذٰلكَ لا يَلتفِتُ قلبُكَ إلى الفرحِ بالقلمِ والشُّكرِ لهُ ، وكذٰلكَ قد لا يَلتفِتُ إلى الخازنِ والوكيلِ ؛ إذ تَعلَمُ أنَّهُما مُضطَرَّانِ إلى العطاءِ بعدَ الأمرِ ، مُسخَّرانِ لا مَدخلَ لهُما بأنفسِهِما في النِّعمةِ .

فكذٰلكَ مَنِ انفتحَتْ بصيرتُهُ . . عَلِمَ أنَّ الشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ والأرضَ مُسخَّراتٌ بأمرِ اللهِ تعالىٰ ؛ كالقلمِ والكاغَدِ والحبرِ في التَّوقيعِ .

وأنَّ قلوبَ الخَلْقِ خزائنُ اللهِ تعالىٰ ، ومفاتيحَها بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فيفتحُها بأن يُسلِّطَ عليها دواعيَ جازمةً ، حتَّىٰ تَعتقِدَ أنَّ خيرَها في البذلِ مثلاً ، وعندَ ذٰلكَ لا يستطيعُ تركَ البذلِ ، فيكونُ

مُضطَرّاً إلى الاختيارِ ؛ لِمَا سُلِّطَ عليهِ مِنْ دواعي الاختيارِ ؛ فإنَّهُ لا يعطيكَ أحدٌ شيئاً إلَّا لغرضِ نفسِهِ ؛ ليستفيدَ بهِ في الآجلِ ثواباً ، أو في العاجلِ ثناءً وذكراً ، أو غيرَ ذٰلكَ ، وما لم يَعلَمْ أنَّ منفعتَهُ في منفعتِكَ . . فلا يعطيكَ .

فإذاً ؛ ليسَ هوَ مُنعِماً عليكَ ؛ إذ يسعىٰ لنفسِهِ ، إنَّما المُنعِمُ عليكَ مَنْ سخَّرَهُ بتسليطِ هٰذهِ الدَّواعي عليهِ ، وقرَّرَ في نفسِهِ أنَّ غرضَهُ مَنوطٌ بالأداءِ والإنعامِ .

فإن عرفتَ الأمورَ كذٰلكَ . . كنتَ مُوحِّداً ، وتُصُوِّرَ منكَ الشُّكرُ ، بل هٰذهِ المعرفةُ هيَ عينُ الشُّكرِ .

قالَ موسىٰ عليهِ السَّلامُ في مناجاتِهِ : (إلٰهي ؛ كيفَ خلقتَ آدمَ بيدِكَ ، وفعلتَ وفعلتَ ، فكيفَ شَكرَكَ ؟ قالَ : علمَ أنَّ ذٰلكَ منِّي ، فكانَتْ معرفتُهُ شكراً)[1] .

الرُّكنُ الثَّاني للشكرِ : الحالُ المُستثمَرَةُ مِنَ المعرفةِ ؛ وهيَ الفرحُ بالمُنعِمِ معَ هيئةِ الخضوعِ والإجلالِ ، ومَنْ يُرسِلُ إليهِ بعضُ الملوكِ فرساً . . فيُتصَوَّرُ أن يَفرحَ بهِ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ : مِنْ حيثُ إنَّهُ يَنتفِعُ بالفَرَسِ ، أو مِنْ حيثُ إنَّهُ يَستدِلُّ بهِ علىٰ عنايةِ المَلِكِ

(١) أورده الإمام القشيري رحمه الله تعالىٰ في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٧) ، ورواه بنحوه هناد في « الزهد » (٧٧٧) .

بشأنِهِ ، وأنَّهُ سيُنعِمُ عليهِ بما هوَ أعظمُ منهُ ، أو مِنْ حيثُ إنَّ الفَرَسَ يكونُ مَركباً لهُ ، حتَّىٰ يُسافِرَ إلىٰ حضرةِ المَلِكِ ويَخدُمَهُ .

والأوَّلُ ليسَ مِنَ الشُّكرِ في شيءٍ ؛ فإنَّهُ فرَحٌ بالنِّعمةِ لا بالمُنعِمِ ، والثَّاني داخلٌ في الشُّكرِ شيئاً ، لـٰكنَّه ضعيفٌ بالإضافةِ إلى الثَّالثِ .

فكمالُ الشُّكرِ : أن يكونَ الفرحُ بما يفتحُ اللهُ تعالَىٰ مِنْ نعمِهِ ، لا بالنِّعمةِ مِنْ حيثُ هيَ نعمةٌ ، بل بها مِنْ حيثُ إنَّها وسيلةٌ إليهِ ؛ إذ بنعمتِهِ تَتِمُّ الصَّالحاتُ .

وعلامةُ هـٰذا : ألَّا يَفرحَ بكلِّ نعمةٍ تُلهيهِ عن ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، بل يَغتمُّ بها ، ويَفرَحُ بما زوى اللهُ تعالىٰ عنهُ مِنْ شغلِ الدُّنيا وفضولِها ، وهـٰذا أكملُ الشُّكرِ ، فمَنْ لم يستطعْ . . فعليهِ بالثَّاني ، وأمَّا الأوَّلُ . . ففرَحٌ بالنِّعمةِ لا بالمُنعِمِ ، وليسَ ذٰلكَ مِنَ الشُّكرِ في شيءٍ .

الرُّكنُ الثَّالثُ : العملُ ؛ وذٰلكَ بأن يستعملَ نعمَهُ في مَحابِّهِ ، لا في معاصيهِ ، وهـٰذا لا يقومُ بهِ إلَّا مَنْ يعرفُ حكمةَ اللهِ تعالىٰ في جميعِ خلقِهِ ، وأنَّه لماذا خَلَقَ كلَّ شيءٍ ، وشرحُ ذٰلكَ يطولُ ، وقد ذكرنا منهُ طرفاً في « الإحياءِ »(١) .

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٧/٣٠٢) ، وهـٰذه الحِكَم عزيزة ، فقد قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ فيه (٧/٣١١) : (ولـٰكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوبٍ هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين ، بل لا يتذكر إلا أولو الألباب) .

وجملتُهُ : أن يعلمَ مثلاً أنَّ عينَهُ نعمةٌ منهُ ، فشُكرُها أن يستعملَها في مطالعةِ كتابِ اللهِ ، وكتبِ العلمِ ، ومطالعةِ السَّماواتِ والأرضِ ليعتبرَ بهِما ، ويُعظِّمَ خالقَهُما ، وأن يسترَ كلَّ عورةٍ يراها مِنَ المسلمينَ .

ويستعملُ أذنَهُ في سماعِ الذِّكرِ ، وما ينفعُهُ في الآخرةِ ، ويُعرِضُ عنِ الإصغاءِ إلى الهُجْرِ والفضولِ .

ويستعملُ اللِّسانَ في ذِكرِ اللهِ تعالىٰ ، والحمدِ لهُ في إظهارِ الشُّكرِ منهُ دونَ الشَّكوىٰ ، ومَنْ سُئِلَ عن حالهِ فشكا . . فهوَ عاصٍ ؛ لأنَّهُ شكا مِلكَ الملوكِ إلىٰ عبدٍ ذليلٍ لا يَقدِرُ علىٰ شيءٍ ، فإن شكرَ . . فهوَ مطيعٌ .

وأمَّا شكرُ القلبِ . . فاستعمالُهُ في الفكرِ والذُّكرِ والمعرفةِ ، وإضمارِ الخيرِ للخَلْقِ ، وحسنِ النِّيَّةِ ، وكذٰلكَ في اليدِ والرِّجْلِ وسائرِ الأعضاءِ والأموالِ ، وغيرِ ذٰلكَ ممَّا لا يَنحصِرُ .

فَصْلٌ

[فيمَن لم يَتمكَّنْ مِنْ كمالِ الشكرِ]

اعلمْ : أنَّهُ إنَّما يَتمكَّنُ مِنْ كمالِ الشُّكرِ . . مَنْ شرحَ اللهُ صدرَهُ للإسلامِ ، فهوَ علىٰ نورٍ مِنْ ربِّهِ ، يرىٰ في كلِّ شيءٍ حكمتَهُ وسِرَّهُ ومحبوبَ اللهِ تعالىٰ فيهِ .

ومَنْ لم يَنكشفْ لهُ ذٰلكَ . . فعليهِ باتِّباعِ السُّنَّةِ ، وحدودِ الشَّرعِ ؛ فتحتَها أسرارُ الشُّكرِ .

ولْيَعلَمْ : أنَّهُ لو نظرَ إلىٰ غيرِ مَحْرَمٍ مثلاً[1] . . فقد كفرَ نعمةَ العينِ ، ونعمةَ الشَّمسِ ، وكلَّ نعمةٍ لا يَتِمُّ النَّظرُ إليها إلَّا بها ؛ فإنَّ الإبصارَ إنَّما يَتِمُّ بالعينِ ونورِ الشَّمسِ ، والشَّمسُ إنَّما تَتِمُّ بالسَّماواتِ ، فكأنَّهُ كفرَ نِعَمَ اللهِ تعالىٰ في السَّماواتِ والأرضِ .

وقسْ علىٰ هٰذا كلَّ معصيةٍ ؛ فإنَّها إنَّما تمكنُ بأسبابٍ يستدعي وجودُ جميعِها خلقَ السَّماواتِ والأرضِ ، ولهٰذا غورٌ عميقٌ ، أشرنا إليهِ في (كتابِ الشُّكرِ) مِنْ كتبِ « الإحياءِ »[2] .

ويكفيكَ ها هنا مثالٌ واحدٌ ؛ وهوَ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ الدَّراهمَ والدَّنانيرَ لتكونَ حاكمةً في الأموالِ كلِّها ، تُعدَلُ بها القِيَمُ ، ولولاهُما . . لتَعذَّرَتِ المعاملاتُ ؛ إذ لا يُدرىٰ كيفَ تُشترى الثِّيابُ بالزَّعفرانِ ، والدَّوابُّ بالأطعمةِ ؛ فإنَّها لا مناسبةَ بينَهُما ، وإنَّما يَشترِكانِ في رُوحِ الماليَّةِ ، ومعيارُ مقدارِ رواجِهِما هوَ النَّقدانِ ، فمَنْ كنزَهُما . . كانَ كمَنْ حبسَ حاكماً مِنْ حُكَّامِ المسلمينَ حتَّىٰ تَعطَّلَتِ الأحكامُ .

ومَنِ اتَّخذَ منهُما آنيةً . . كانَ كمَنِ استعملَ حاكماً مِنْ حُكَّامِ

---

(١) أي : من محارم الإنسان ؛ كالأم والأخت والبنت ونحوهن .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٧/٣٠٢ ، ٣٠٥) وما بعدها .

المسلمينَ في الحِياكةِ والفِلاحةِ التي يَقدِرُ عليها كلُّ أحدٍ حتَّىٰ يَتعطَّلَ الحكمُ ، وذٰلكَ أشدُّ مِنَ الحبسِ .

ومَنْ أربىٰ فيهما ، وجعلَهُما مَقصِدَ تجارتِهِ بالمصارفةِ بينَ جيِّدِهما ورديئِهما . . كانَ كمَنْ شغلَ الحاكمَ عنِ الحكمِ ، فاتَّخذَهُ سُخْرَةً لنفسِهِ ؛ ليحتطبَ لهُ ، ويَكنُسَ لهُ ، ويَكتسِبَ لهُ القوتَ ، وكلُّ ذٰلكَ ظلمٌ وتغييرٌ لحِكَمِ اللهِ عزَّ وجلَّ في خَلقِهِ وعبادِهِ ، ومعاداةٌ للهِ تعالىٰ في مَحابِّهِ (١) .

ومَنْ لا يَنكشِفُ لهُ بنورِ البصيرةِ هٰذهِ الأسرارُ . . عَرَفَ علىٰ لسانِ الشَّرعِ صورتَهُ دونَ معناهُ ، وقيلَ لهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ تعالَىٰ : ﴿ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢) .

وقيلَ لهُ : « مَنْ شَرِبَ فِي إِنَاءٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ . . فَكَأَنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ » (٣) .

وقيلَ لهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ .

فالصَّالحونَ يقفونَ على الحدودِ ، ولا يعرفونَ أسرارَها ،

---

(١) إشارة لقوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ .

(٢) تمام الآية : ﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

(٣) رواه البخاري : (٥٦٣٤) ، ومسلم (٢٠٦٥) من حديث سيدتنا أم سلمة رضي الله عنها .

والعارفونَ إذا اطَّلعوا على الأسرارِ بأنفسِهم ، وشاهدوا شواهدَ الشَّرعِ . . ازدادوا نوراً على نورٍ ، والعُميانُ الجاهلونَ يُحرَمونَ الوقوفَ على الحدودِ والعثورَ على الأسرارِ جميعاً ، فلا هم كعبيدٍ أتقياءَ ، ولا هم كأحرارٍ كرامٍ ، وهمُ الذينَ قالَ فيهِم : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ . . . الآيةَ [1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ .

وآياتُ اللهِ عزَّ وجلَّ : حكمتُهُ في خلقِهِ ، وقد أُلقِيَتْ إلى الخَلْقِ علىٰ لسانِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِم أجمعينَ ، كما فُصِّلَتْ في جملةِ الشَّريعةِ مِنْ أوَّلِها إلىٰ آخرِها ، وما مِنْ حدٍّ مِنْ حدودِ الشرعِ إلَّا وفيهِ سِرٌّ وخاصِّيَّةٌ وحكمةٌ ، يَعرِفُها مَنْ يَعرِفُها ، ويُنكِرُها مَنْ يَجهلُها ، وشرحُ ذٰلكَ يطولُ ، فليُطلَبْ مِنْ (كتابِ الشُّكرِ) [2] .

ولا يُتصوَّرُ تمامُ الشُّكرِ إلَّا ممَّنْ قامَ للهِ تعالىٰ وحدَهُ ، مُخلِصاً لا رغبةَ فيهِ لغيرِهِ ، فلنذكرِ الإخلاصَ والصِّدقَ .

(١) تمامها : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

(٢) إحياء علوم الدين (٧/٢٧٢) وما بعدها .

الأصل السّادس

في الإخلاص والصّدق

اعلمْ : أنَّ للإخلاصِ : حقيقةً ، وأصلاً ، وكمالاً ، فهٰذهِ ثلاثةُ أركانٍ ، وأصلُهُ : النِّيَّةُ ؛ إذ فيها الإخلاصُ ، وحقيقتُهُ : نفيُ الشَّوبِ عنِ النِّيَّةِ ، وكمالُهُ : الصِّدقُ .

الرُّكنُ الأوَّلُ : النِّيَّةُ .

قالَ اللهُ تعالَىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

ومعنى النِّيَّةِ : إرادةُ وجهِهِ تعالىٰ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّمَا ٱلْأَعْمَالُ بِٱلنِّيَّاتِ . . . » الحديثَ[1] .

وقالَ : « إِنَّ ٱلْمَلَائِكَةَ تَرْفَعُ صَحِيفَةَ عَمَلِ ٱلْعَبْدِ ، فَيَقُولُ ٱللهُ تَعَالَىٰ : أَلْقُوهَا ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهَا وَجْهِي ، وَٱكْتُبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا ، فَتَقُولُ ٱلْمَلَائِكَةُ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ مِنْهَا شَيْئاً ، فَيَقُولُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِنَّهُ نَوَاهُ ، إِنَّهُ نَوَاهُ »[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلنَّاسُ أَرْبَعَةٌ : رَجُلٌ

---

(١) رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
(٢) رواه الدارقطني في « سننه » (١/٥١) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

آتَاهُ ٱللهُ عِلْماً وَمَالاً ، فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ ، فَيَقُولُ رَجُلٌ : لَوْ آتَانِي ٱللهُ تَعَالَىٰ مَا آتَاهُ . . لَعَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ ، فَهُمَا فِي ٱلْأَجْرِ سَوَاءٌ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ ٱللهُ مَالاً ، وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْماً ، فَهُوَ يَخْبِطُ بِجَهْلِهِ فِي مَالِهِ ، فَيَقُولُ رَجُلٌ : لَوْ آتَانِي ٱللهُ تَعَالَىٰ مَا آتَاهُ . . لَعَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ ، فَهُمَا فِي ٱلْوِزْرِ سَوَاءٌ »(١) .

وقالَ : « مَنْ غَزَا وَهُوَ لَا يَنْوِي إِلَّا عِقَالاً . . فَلَهُ مَا نَوَىٰ »(٢) .

ورُوِيَ : (أنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيلَ مرَّ بكُثْبانٍ مِنْ رملٍ في أيَّامِ قحطٍ ، فقالَ في نفسِهِ : لو كانَ هٰذا الرَّملُ طعاماً . . لقَسَمتُهُ بينَ النَّاسِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِم : قلْ لهُ : إنَّ اللهَ تعالىٰ قد قَبِلَ صدقتَكَ ، وشكرَ حسنَ نيَّتِكَ ، وأعطاكَ ثوابَ ما لو كانَ طعاماً فتصدَّقتَ بهِ)(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا ٱلْتَقَى ٱلْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا . . فَٱلْقَاتِلُ وَٱلْمَقْتُولُ فِي ٱلنَّارِ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هٰذا القاتلُ ، فما بالُ المقتولِ ؟ قالَ : « أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ »(٤) .

وقالَ : « مَنْ تَزَوَّجَ ٱمْرَأَةً عَلَىٰ صَدَاقٍ وَهُوَ لَا يَنْوِي أَدَاءَهُ . . فَهُوَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٥) ، وابن ماجه (٤٢٢٨) من حديث سيدنا أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه .

(٢) رواه النسائي (٢٤/٦) من حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

(٣) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢٦١/٢) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٨/١٠) : (وهو في كتاب « الإخلاص » لابن أبي الدنيا) .

(٤) رواه البخاري (٣١) ، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث سيدنا أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه .

زَانٍ ، وَمَنِ ٱدَّانَ دَيْناً وَهُوَ لَا يَنْوِي قَضَاءَهُ . . فَهُوَ سَارِقٌ »[1] .

فَصْلٌ

[في بيانِ حقيقةِ النيَّةِ]

حقيقةُ النِّيَّةِ : هيَ الإرادةُ الباعثةُ للقدرةِ ، المُنبعِثةُ عنِ المعرفةِ .

وبيانُهُ : أنَّ جميعَ أعمالِكَ لا تصحُّ إلَّا بقدرةٍ وإرادةٍ وعلمٍ ، والعلمُ يُهيِّجُ الإرادةَ ، والإرادةُ باعثةٌ للقدرةِ ، والقدرةُ خادمةٌ للإرادةِ بتحريكِ الأعضاءِ .

مثالُهُ : أنَّهُ خَلَقَ فيكَ شهوةَ الطَّعامِ ، إلَّا أنَّها قد تكونُ فيكَ راكدةً ، كأنَّها نائمةٌ ، فإذا وقعَ بصرُكَ علىٰ طعامٍ . . حصلَتِ المعرفةُ بالطَّعامِ ، فانتهضَتِ الشَّهوةُ للطَّعامِ ، فامتدَّتْ إليهِ اليدُ ، وإنَّما امتدَّتْ بالقُوَّةِ التي فيها ، المطيعةِ لإشارةِ الشَّهوةِ ، وانتهضَتِ الشَّهوةُ بحصولِ المعرفةِ المستفادةِ مِنْ طليعةِ الحِسِّ[2] .

وكما خَلَقَ فيكَ شهوةً إلى الأشياءِ الحاضرةِ . . خَلَقَ فيكَ أيضاً ميلاً إلى اللَّذَّاتِ الآجلةِ ، يَنتهِضُ ذٰلكَ الميلُ بإشارةِ المعرفةِ الحاصلةِ مِنَ العقلِ ، والقدرةُ أيضاً تَخدُمُ هٰذا الميلَ بتحريكِ الأعضاءِ .

فالنِّيَّةُ : عبارةٌ عنِ الميلِ الجازمِ الباعثِ للقدرةِ ، والذي يغزو قد

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٨٧٢١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) **الطليعة** : القوم يبعثون أمام الجيش ليتعرَّفوا طِلْع العدو ؛ أي : خبره ، وفي (ح) : (طبيعة) بدل (طليعة) .

يكونُ الباعثُ لهُ ميلاً إلى المالِ ؛ فذٰلكَ نيَّتُهُ ، وقد يكونُ الباعثُ ميلاً إلىٰ ثوابِ الآخرةِ ؛ فذٰلك نيَّتُهُ .

فإذاً ؛ النِّيَّةُ عبارةٌ عنِ الإرادةِ الباعثةِ ، ومعنىٰ **إخلاصِها** : **تصفيةُ** الباعثِ عنِ الشَّوبِ .

فَصْلٌ

[في أنَّ المقصودَ مِنَ الأعمالِ تأثيرُها في القلبِ]

إذا حصلَ العملُ بباعثِ النِّيَّةِ . . **فالنِّيَّةُ والعملُ بهما تمامُ العبادةِ** ، فالنِّيَّةُ أحدُ جزأيِ العبادةِ ، لٰكنَّها خيرُ الجزأينِ ؛ لأنَّ الأعمالَ بالجوارحِ ليسَتْ مرادةً إلَّا لتأثيرِها في القلبِ ؛ ليميلَ إلى الخيرِ ، وينفِرَ عنِ الشَّرِّ ، فيَتفرَّغُ للفكرِ والذِّكرِ المُوصِلَينِ لهُ إلى الأُنسِ والمعرفةِ ، اللَّذَينِ هما سببُ سعادتِهِ في الآخرةِ .

فليسَ المقصودُ مِنْ وضعِ الجبهةِ على الأرضِ . . وضعَ الجبهةِ على الأرضِ ، **بل خضوعُ القلبِ** ، ولٰكنَّ القلبَ يَتأثَّرُ بأعمالِ الجوارحِ .

وليسَ المقصودُ مِنَ الزَّكاةِ إزالةَ المُلْكِ ، **بل إزالةُ رذيلةِ البخلِ** ؛ وهوَ قطعُ علاقةِ القلبِ مِنَ المالِ .

وليسَ المقصودُ مِنَ الأُضْحِيَّةِ لحومَها ولا دماءَها ، **ولٰكنِ استشعارُ القلبِ للتَّقوىٰ بتعظيمِ شعائرِ اللهِ تعالىٰ** .

والنِّيَّةُ : عبارةٌ عن نفسِ ميلِ القلبِ إلى الخيرِ ، فهوَ مُتمكِّنٌ

مِنْ حَدَقَةِ المقصودِ ، فهوَ خيرٌ مِنْ عملِ الجوارحِ الذي إنَّما يُرادُ منهُ سِرايةُ أثرِهِ إلىٰ محلِّ المقصودِ ؛ وهوَ القلبُ ؛ ولذٰلكَ تُؤثِّرُ جميعُ أعمالِ القلبِ دونَ الجوارحِ فيهِ أثراً ما ، وعملُ الجارحةِ دونَ حضورِ القلبِ هباءٌ ولا أثرَ لهُ .

ومهما قصدَ معالجةَ المَعِدةِ . . فما يَصِلُ مِنَ الأدويةِ بالشُّربِ إليها أنفعُ ـ لا محالةَ ـ ممَّا يُطلَىٰ بهِ ظاهرُ المَعِدةِ ليسريَ إليها أثرُهُ ، وكذٰلكَ إذا لم يَسْرِ أثرُ الطِّلاءِ إلى المَعِدةِ . . كانَ باطلاً .

وبهٰذا التَّحقيقِ : يُعرَفُ سِرُّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نِيَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ »(١) .

فصل

[في تعدُّدِ النِّيَّاتِ]

إذا عرفتَ فضلَ النِّيَّةِ ، وأنَّها تَحُلُّ حَدَقَةَ المقصودِ فتُؤثِّرُ فيهِ . . فاجتهدْ أن تَستكثِرَ مِنَ النِّيَّةِ في جميعِ أعمالِكَ ؛ حتَّىٰ تنويَ بعملٍ واحدٍ نيَّاتٍ كثيرةً ، ولو صدقَتْ رغبتُكَ . . لهُدِيتَ لطريقةِ رشدِكَ .

ويكفيكَ مثالٌ واحدٌ ؛ وهوَ أنَّ الدُّخولَ في المسجدِ والقعودَ

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٥٩٤٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٥٥) من حديث سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنه ، وروىٰ تفسيرَهُ البيهقي في « الشعب » (٦٤٤٧) عن ابن الأعرابي قال : (لأن النية لا يدخلها الفساد ، والعمل يدخله الفساد) ، ثم قال : (النية دون العمل قد تكون طاعة ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من همَّ بحسنة فلم يعملها . . كتبت له حسنة » ، قالوا : والعمل دون نية لا يكون طاعة) .

فيهِ عبادةٌ واحدةٌ ، ويمكنُ أن تنويَ بها ثمانيةَ أمورٍ :

أَوَّلُها : أن يَعتقدَ أنَّهُ بيتُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأنَّ داخلَهُ زائرُ اللهِ تعالىٰ ، فينويَ ذٰلكَ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قَعَدَ فِي ٱلْمَسْجِدِ . . فَقَدْ زَارَ ٱللّٰهَ تَعَالَىٰ ، وَحَقٌّ عَلَى ٱلْمَزُورِ إِكْرَامُ زَائِرِهِ »(١) .

وثانيها : نيَّةُ المرابطةِ ؛ لقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ ، قيلَ : معناهُ : انتظارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ(٢) .

وثالثُها : الاعتكافُ ؛ ومعناهُ : كفُّ السَّمعِ والبصرِ والأعضاءِ عنِ الحركاتِ المعتادةِ ؛ فإنَّهُ نوعُ صومٍ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي . . ٱلْقُعُودُ فِي ٱلْمَسَاجِدِ »(٣) .

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/١٥٤) ، ورواه ابن حبان في « المجروحين » (٢/٦٢) من حديث سيدنا سلمان رضي الله عنه .

(٢) روى الحاكم في « المستدرك » (٢/٣٠١) ـ وبنحوه عند مسلم (٢٥١) ـ عن داوود بن صالح قال : قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمٰن : يا بن أخي ؛ هل تدري في أي شيء نزلت هٰذه الآية : ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ ؟ قال : قلت : لا ، قال : يا بن أخي ؛ إني سمعت أبا هريرة يقول : (لم يكن في زمان النبي صلى الله عليه وسلم غزوٌ يرابط فيه ، ولٰكن انتظار الصلاة بعد الصلاة) .

(٣) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/١٥٤) ، ورواه أبو نعيم في « معرفة ←

ورابعُها : الخلوةُ ودفعُ الشَّواغلِ ؛ للزومِ السِّرِّ للفكرِ في الآخرةِ ، وكيفيَّةِ الاستعدادِ لها .

وخامسُها : التَّجرُّدُ للذِّكرِ وسماعِهِ أو إسماعِهِ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ غَدَا إِلَى ٱلْمَسْجِدِ يَذْكُرُ ٱللهَ تَعَالَىٰ أَوْ يُذَكِّرُ بِهِ . . كَانَ كَٱلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ ٱللهِ تَعَالَىٰ »(١) .

وسادسُها : أن يقصدَ إفادةَ عِلْمٍ ؛ تنبيهاً لِمَنْ يسيءُ الصَّلاةَ ، ونهياً عن مُنكَرٍ ، وأمراً بمعروفٍ ، حتَّىٰ يتيسَّرَ بسببِهِ خيراتٌ ، ويكونَ شريكاً فيها .

وسابعُها : أن يتركَ الذُّنوبَ حياءً مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ بأن يَحبِسَ نفسَهُ في بيتِهِ حتَّىٰ يستحييَ منهُ أن يُقارِفَ ذنباً .

وثامنُها : أن يستفيدَ أخاً في اللهِ ؛ فإنَّ ذٰلك غنيمةٌ وذخيرةٌ لدارِ

← الصحابة » (١٩٥٧/٤) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه ضمن خبر لسيدنا عثمان بن مظعون رضي الله عنه .

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٥٤/٢) ، ورواه أحمد في « المسند » (٣٥٠/٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٨٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « من دخل مسجدنا هـٰذا ليتعلم خيراً أو ليعلمه . . كان كالمجاهد في سبيل الله ، ومن دخله لغير ذٰلك . . كان كالناظر إلىٰ ما ليس له » .

الآخرةِ ، والمسجدُ مُعَشَّشُ أهلِ الدِّينِ المُحبِّينَ للهِ وفي اللهِ .

وقِسْ علىٰ هٰذا سائرَ الأعمالِ ؛ فباجتماعِ هٰذهِ النِّيَّاتِ تزكو الأعمالُ ، ويُلتحَقُ بأعمالِ المُقرَّبينَ ، كما أنَّهُ بنقيضِها يُلتحَقُ بأعمالِ الشَّياطينِ ؛ كمَنْ يَقصِدُ مِنَ القعودِ في المسجدِ التَّحدُّثَ بالباطلِ ، والتَّفكُّهَ بأعراضِ النَّاسِ ، ومجالسةَ أخدانِ اللَّهوِ واللَّعبِ ، وملاحظةَ مَنْ يَجتازُ فيهِ مِنَ النِّسوانِ والصِّبيانِ ، ومناظرةَ مَنْ يُنازِعُهُ مِنَ الأقرانِ علىٰ سبيلِ المُباهاةِ والمُراءاةِ باقتناصِ قلوبِ المُستمعِينَ لكلامِهِ ، وما يجري مَجراهُ .

وكذٰلكَ لا ينبغي أن يَغفُلَ في المباحاتِ عن حُسْنِ النِّيَّةِ ؛ ففي الخبرِ : « إِنَّ ٱلْعَبْدَ يُسْأَلُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ حَتَّىٰ عَنْ كَحْلِ عَيْنَيْهِ ، وَعَنْ فُتَاتِ ٱلطِّينِ بِإِصْبَعَيْهِ ، وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ أَخِيهِ »(١) .

ومثالُ النِّيَّةِ في المباحاتِ : أنَّ مَنْ يَتطيَّبُ يومَ الجمعةِ يمكنُهُ أن يَقصِدَ التَّنعُّمَ بلذَّتِهِ ، والتَّفاخرَ بإظهارِ ثروتِهِ ، أوِ التَّزيُّنَ للنِّساءِ وأخدانِ الفسادِ ، ويُتصوَّرُ أن ينويَ اتِّباعَ السُّنَّةِ ، وتعظيمَ بيتِ اللهِ تعالىٰ ، واحترامَ يومِ الجمعةِ ، ودفعَ الأذىٰ عن غيرِهِ بدفعِ الرَّائحةِ

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٦٢/٢) ، وقد رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٧١٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٦/١) من حديث سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه .

الكريهةِ ، وإيصالَ الرَّاحةِ إليهِم بالرَّائحةِ الطَّيّبةِ ، وحسْمَ بابِ الغِيبةِ إذا شمُّوا منهُ رائحةً كريهةً .

وإلى الفَريقَينِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تَطَيَّبَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ . . جَاءَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ ٱلْمِسْكِ ، وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ ٱللهِ تَعَالَىٰ . . جَاءَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ ٱلْجِيفَةِ »[1] .

فَصْلٌ

[في أنَّ النيَّةَ لا تدخلُ تحتَ الاختيارِ]

اعلمْ : أنَّ النِّيَّةَ لا تدخلُ تحتَ الاختيارِ ، فلا ينبغي أن تَغترَّ فتقولَ بلسانِكَ وقلبِكَ : نويتُ مِنَ القعودِ في المسجدِ كذا وكذا ، وتظنَّ أنَّكَ قد نويتَ ؛ إذ عرفتَ مِنْ قبلُ **أنَّ النِّيَّةَ هيَ الباعثُ المُحرِّكُ الذي لولاهُ لم يُتصوَّرْ وجودُ العملِ** .

والنِّيَّةُ المُتكلَّفةُ كقولِ القائلِ : نويتُ أن أُحِبَّ فلاناً وأَعشقَهُ وأُعظِّمَهُ ، أو نويتُ أن أعطَشَ أو أجوعَ أو أشبعَ ؛ فإنَّ لكلِّ هٰذهِ دواعيَ وصوارفَ ، وتُحقِّقُها أسبابُها ؛ إذ لا يُتصوَّرُ حصولُها دونَ أسبابِها .

وقولُ القائلِ : (نويتُها) دونَ تحقُّقِها . . حديثُ نفْسٍ لا نيَّةٌ ؛

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣١٩/٤) عن إسحاق بن أبي طلحة رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

فمَنْ وَطِئَ لغلبةِ شهوةِ الوِقاعِ مِنْ أينَ ينفعُهُ قولُهُ : (نويتُ الوطءَ لحراثةِ الولدِ ، وتكثيرِ عددِ مَنْ بهِ المُباهاةُ) ؟!

بل لا تظفرُ بانبعاثِ هٰذه النِّيَّاتِ مِنْ قلبِكَ إلَّا إذا قويَ إيمانُكَ ، وتمَّتْ معرفتُكَ بحقارةِ الحظوظِ العاجلةِ ، وعِظَمِ ثوابِ الآخرةِ ، حتَّىٰ إذا غلبَ ذٰلكَ عليكَ . . انبعثَتْ منكَ الرَّغبةُ ضرورةً في كلِّ ما هوَ وسيلةٌ إلىٰ ثوابِ الآخرةِ ، وإن لم تنبعثْ . . فلا نيَّةَ لكَ .

ولمثلِ هٰذا تَوقَّفَ السَّلفُ في جملةٍ مِنَ الخيراتِ ؛ حتَّىٰ رُوِيَ : أنَّ محمَّدَ بنَ سيرينَ لم يُصَلِّ علىٰ جِنازةِ الحسنِ البصريِّ ، وقالَ : (ليسَ تحضرُني النِّيَّةُ)[1] .

وقيلَ لطاووسٍ : ادعُ لنا ، فقالَ : (حتَّىٰ أجدَ لهُ نيَّةً)[2] .

وقالَ بعضُهُم : (أنا في طلبِ نيَّةٍ لعيادةِ رجلٍ منذُ شهرٍ ، فما صحَّتْ لي نيَّةٌ بعدُ) .

ومَنْ عرفَ حقيقةَ النِّيَّةِ ، وعَلِمَ أنَّها رُوحُ العملِ . . فلا يُتعِبُ نفسَهُ بعملٍ لا رُوحَ لهُ .

ويُحقِّقُ ذٰلكَ : أنَّ المُباحَ قد يصيرُ أفضلَ مِنَ العبادةِ إذا حضَرَتْ فيهِ نيَّةٌ ؛ فمَنْ لهُ نيَّةٌ في الأكلِ والشُّربِ ليقوىٰ على العبادةِ ، وليسَ تنبعثُ لهُ نيَّةُ الصَّومِ في الحالِ . . فالأكلُ أَولىٰ لهُ .

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٥٢/٢) ، وبنحوه رواه أحمد في « العلل » (٢٧٤٨) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٩) .

ومَنْ ملَّ العبادةَ ، وعَلِمَ أنَّهُ لو نامَ لعادَ نشاطُهُ . . فالنَّومُ أفضلُ لهُ ، بل لو عَلِمَ مثلاً أنَّ التَّرفُّهَ بدُعابةٍ وحديثٍ مُباحٍ في ساعةٍ يَرُدُّ نشاطَهُ . . فذٰلكَ أفضلُ لهُ مِنَ الصَّلاةِ معَ المَلالِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا »[1]

وقالَ أبو الدَّرداءِ : (إنِّي لأَستجِمُّ نفسي بشيءٍ مِنَ اللَّهوِ ، فيكونُ ذٰلك عوناً لي على الحقِّ)[2] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (رَوِّحوا القلوبَ ؛ فإنَّها إذا أُكرِهَتْ . . عَمِيَتْ)[3] .

وهٰذهِ دقائقُ يستثقلُها الظَّاهريُّونَ مِنَ الفقهاءِ ، كما يستثقلُ الضَّعيفُ مِنَ الأطبَّاءِ معالجةَ المحرورِ باللَّحمِ ، والحاذقُ منهُم قد يَأمرُ بهِ ؛ ليُعِيدَ قُوَّةَ المريضِ الضعيفِ حتَّىٰ يَحتمِلَ الدَّواءَ النَّافعَ بعدَهُ .

الرُّكنُ الثَّاني : في إخلاصِ النِّيَّةِ :

وقد قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴿٥﴾ ﴾ .

---

(١) رواه البخاري (٤٣) ، ومسلم (٧٨٢) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها .
(٢) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/٢٤٧) .
(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧١٩) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٢/١٨٣) بنحوه .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ .

وقالَ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قَالَ ٱللهُ تَعَالَى : ٱلْإِخْلَاصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي ، ٱسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادِي »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمعاذٍ : « أَخْلِصِ ٱلْعَمَلَ . . يُجْزِكَ ٱلْقَلِيلُ مِنْهُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يُخْلِصُ ٱلْعَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْماً . . إِلَّا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ ٱلْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَىٰ لِسَانِهِ »(٣) .

فَصْلٌ

[في حقيقةِ الإخلاصِ]

حقيقةُ الإخلاصِ : تجرُّدُ الباعثِ الواحدِ ، ويُضادُّهُ الإشراكُ ؛ وهوَ أن يشتركَ باعثانِ ، وهوَ كلُّ ما يُتصوَّرُ أن يُمازجَهُ غيرُهُ ، فإن صفا عن كلِّ شَوبٍ منهُ . . سُمِّيَ خالصاً .

وقد عرفتَ أنَّ النِّيَّةَ هيَ الباعثُ ، فمَنْ لا يعملُ إلَّا للرِّياءِ . .

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٤٧٧) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

(٢) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٧٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٤٤) من حديث سيدنا معاذ رضي الله عنه .

(٣) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٥) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠١٤) من حديث مكحول رحمه الله تعالىٰ يرفعه .

فهوَ مُخلِصٌ ، ومَنْ لا يعملُ إلَّا للهِ . . فهوَ مُخلِصٌ ، ولـٰكنْ خُصِّصَ الاسمُ بأحدِ الجانبَينِ بالعادةِ(١) ؛ كالإلحادِ فإنَّهُ ميلٌ ، ولـٰكنْ خُصِّصَ بالميلِ إلى الباطلِ .

وزوالُ الإخلاصِ بشوائبِ الرِّياءِ قد ذكرناهُ(٢) ، ولـٰكنْ قد يزولُ بأغراضٍ أُخرَ ؛ فإنَّ الصَّائمَ قد يَقصِدُ معَ العبادةِ أن يَنتفِعَ بالحِمْيةِ الصحَّةَ الحاصلةَ بالصَّومِ .

وقد يَقصِدُ المُعتِقُ بالعِتْقِ أن يَتخلَّصَ مِنْ مُؤْنةِ العبدِ وسوءِ خُلُقِهِ .

والحاجُّ يَحُجُّ ليصحَّ مِزاجُهُ بحركةِ السَّفرِ ، أو يَهرُبَ مِنْ مَشقَّةِ تعهُّدِ العِيالِ ، أو مِنْ إيذاءِ الأعداءِ ، أو مِنَ التَّبرُّمِ بالمُقامِ معَ الأهلِ .

والمُتعلِّمُ يَتعلَّمُ العلمَ ليَسهُلَ عليهِ طلبُ المَعاشِ ، أو يكونَ محروساً بعِزِّ العلمِ عَنِ الظُّلمِ ، أو يكتبُ مُصحفاً ليُجَوِّدَ خطَّهُ ، أو يَحُجُّ ماشياً ليُخفِّفَ مؤنةَ الكِراءِ ، أو يَتوضَّأُ ليتنظَّفَ أو يَتبرَّدَ ، أو يغتسلُ لتطيبَ رائحتُهُ ، أوْ يَعتكفُ ليَخِفَّ عليهِ كِراءُ المَسكَنِ ، أو يصومُ ليُخَفِّفَ عن نفسِهِ تعبَ الطَّبخِ وشراءَ الطَّعامِ ، أو يَتصدَّقُ ليدفعَ عن نفسِهِ إبرامَ السَّائلِ ، أو يعودُ مريضاً ليُعادَ إذا مرضَ .

---

(١) في (و ، ح) : (بالعبادة) بدل (بالعادة) .
(٢) انظر (ص ٤٠٥) .

فهٰذهِ الأغراضُ قد تَتجرَّدُ ، وقد تشوبُ قصدَ العبادةِ شوباً خفيّاً ، فإذا خطرَ شيءٌ مِنْ هٰذهِ الأغراضِ في الفعلِ . . فقد ذهبَ الإخلاصُ ، وذٰلكَ عسيرٌ جدّاً ؛ ولذٰلكَ قالَ بعضُهُم : (في إخلاصِ ساعةٍ نجاةُ الأبدِ ، ولٰكنْ ذٰلكَ عزيزٌ)[1] .

وقالَ أبو سليمانَ الدَّارانيُّ : (طُوبىٰ لِمَنْ صحَّتْ لهُ خطوةٌ واحدةٌ لا يريدُ بها إلَّا اللهَ عزَّ وجلَّ)[2] .

وكانَ معروفٌ الكرخيُّ يَضرِبُ نفسَهُ ويقولُ : (يا نفسُ ؛ أخلصي . . تتخلَّصي)[3] .

فَصْلٌ

[في بيانِ مراتبِ شوائبِ الإخلاصِ]

اعلمْ : أنَّ امتزاجَ هٰذهِ الشَّوائبِ علىٰ مراتبَ ؛ فإنَّها قد تَغلِبُ ، وقد تكونُ مغمورةً ، وقد تكونُ مساويةً لقصدِ العبادةِ ، ولا تمحو أصلَ الثوابِ في المباحاتِ ؛ فمهما بقيَ شوبٌ مِنْ إرادةِ وجهِ اللهِ تعالىٰ . . فلهُ ثوابٌ بقَدْرِ ذٰلكَ الشَّوبِ ، والباقي لا ثوابَ عليهِ .

فأمَّا إذا كانَ في عبادةٍ . . أُمِرَ بأن يُخلِصَها للهِ تعالىٰ ، فإن كانَ

(١) ذكره الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٣) .
(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٤٧/١٠) : (نقله صاحب « القوت ») .
(٣) ذكره الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٥) ، ورواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١٩٤/١) .

الشَّوبُ غالباً . . بطلَتِ العبادةُ ، وإن كانَ مساوياً أو مغلوباً . . بطلَ الإخلاصُ .

ولٰكنْ هل يَتوقَّفُ انعقادُ العبادةِ وحصولُ أصلِها على انتفاءِ الشَّوائبِ كلِّها ؟ فيهِ نظرٌ أشرنا إليهِ في (الرِّياءِ)[1] ، ويُطلَبُ استقصاؤه مِنْ كتابِ « الإحياءِ »[2] .

الرُّكنُ الثَّالثُ : الصِّدقُ : وهوَ كمالُ الإخلاصِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ﴾ .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « **إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى ٱلصِّدْقَ . . حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ ٱللهِ صِدِّيقاً** »[3] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴾ .

ويكفي فضيلةَ الصِّدقِ أنَّهُ يُدرَكُ بهِ درجاتُ الصِّدِّيقينَ .

واعلمْ : أنَّ للصِّدقِ ستَّ مراتبَ ، مَنْ بلغَ في جميعِها رتبةَ الكمالِ . . استحقَّ اسمَ الصِّدِّيقِ :

أوَّلُها : الصِّدقُ في القولِ في جميعِ الأحوالِ ، ممَّا يتعلَّقُ

---

(١) تقدم (ص ٣١١ ـ ٣١٣) .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٦/٣٦٨) .

(٣) رواه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

بالماضي والمستقبل والحالِ ، ولهٰذا **الصِّدقِ كمالانِ** :

أحدُهُما : الحذرُ عنِ المعاريضِ أيضاً ؛ فإنَّهُ وإن كانَ صدقاً في نفسِهِ . . فيُفهِمُ خلافَ الحقِّ ، والمحذورُ مِنَ الكذبِ تفهيمُ خلافِ الحقِّ ؛ إذْ يَكتسِبُ القلبُ صورةً مُعْوَجَّةً كاذبةً بإزاءِ كذبِ اللِّسانِ ، وإذا مالَ وجهُ القلبِ عنِ الصِّحَّةِ إلى الاعوجاجِ . . لم يَتجلَّ الحقُّ لهُ على الصِّحَّةِ ، حتَّىٰ لا تصدقُ رؤياهُ أيضاً .

والمعاريضُ لا تُوقِعُ في هٰذا المحذورِ ؛ لأنَّهُ صدقٌ في نفسِهِ ، لٰكنْ تُوقِعُ في المحذورِ الثَّاني ؛ وهوَ تجهيلُ المعنىٰ [1] ، فلا ينبغي أن يُفعَلَ ذٰلكَ إلَّا لغرضٍ صحيحٍ .

وكمالُه **الثَّاني : أن يراعيَ الصِّدقَ في أقاويلِهِ معَ اللهِ تعالىٰ** ؛ فإذا قالَ : (وجَّهتُ وجهي . . .) [2] وفي قلبِهِ في تلكَ الحالةِ شيءٌ سوى اللهِ عزَّ وجلَّ . . فهوَ كاذبٌ ، وإذا قالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ۝٥ ﴾ وهوَ معَ ذٰلكَ عبدٌ للدُّنيا أو لنفسِهِ أو لغيرِهِ . . لم يُمكِنْهُ تحقيقُ صدقِ هٰذهِ الكلمةِ في القيامةِ .

ولذٰلكَ قالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : (يا عبيدَ الدُّنيا . . .) [3] ، وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تَعِسَ عَبۡدُ ٱلدِّرۡهَمِ وَٱلدِّينَارِ » [4]

---

(١) ليخفىٰ عن المخاطب ، وفي (ب ، ج ، هـ) : (الغير) بدل (المعنىٰ) .
(٢) أي : ما ورد في دعاء الاستفتاح : « وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض . . . » .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٦٠/٤٧) ضمن خبر طويل .
(٤) تقدم (ص ٢٥١) .

الصِّدقُ الثَّاني : في النِّيَّةِ ؛ وهوَ أن تَتمحَّضَ فيهِ داعيةُ الخيرِ ، فإن كانَ فيهِ شَوْبٌ . . فقد فاتَ الصِّدقُ ؛ يُقالُ : هٰذا صادقُ الحُموضةِ ، وصادقُ الحلاوةِ ؛ إذا كان محضاً ، فيرجعُ هٰذا إلىٰ نفسِ الإخلاصِ .

الصِّدقُ الثَّالثُ : في العزمِ : فإنَّ العبدَ قد يَعزِمُ على التَّصدُّقِ إن رُزِقَ مالاً ، وعلى العدلِ إن رُزِقَ ولايةً ، وعزمُهُ : تارةً يكونُ معَ ضَعفٍ وتَردُّدٍ ، وتارةً يكونُ جزماً قويّاً لا تَردُّدَ فيهِ ؛ فالجزمُ القويُّ يُسمَّىٰ عزماً صادقاً ، كما وجدَهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ مِنْ نفسِهِ حيثُ قالَ : (لَأَنْ أُقدَّمَ فيُضرَبَ عُنُقي . . أحبُّ إليَّ مِنْ أن أتأمَّرَ علىٰ قومٍ فيهِم أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ)(١) .

ودرجاتُ عزمِ الصِّدِّيقينَ في القُوَّةِ قد تَتفاوتُ ، وأقصاها أن ينتهيَ إلى الرِّضا بضربِ الرَّقَبةِ دونَ تحقيقِهِ .

الصِّدقُ الرَّابعُ : في الوفاءِ بالعَزْمِ ؛ فإنَّ النَّفسَ قد تسخو بالعزمِ أوَّلاً ، ولٰكنْ عندَ الوفاءِ ربَّما تتوانىٰ عن كمالِ التَّحقيقِ ؛ لأنَّ المؤنةَ في العزمِ هيِّنةٌ ، وإنَّما الشِّدَّةُ في تحقيقِ الإيفاءِ .

ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

---

(١) رواه البخاري (٦٨٣٠) ضمن خبر طويل .

وقالَ : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴿٧٥﴾ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

الصِّدقُ الخامسُ : في الأعمالِ ؛ بأن يكونَ بحيثُ لا يدلُّ علىٰ شيءٍ مِنَ الباطنِ إلَّا والباطنُ مُتَّصِفٌ بهِ .

ومعناهُ : استواءُ السَّريرةِ والعلانيةِ ؛ فالماشي علىٰ هدوءٍ يدلُّ بذٰلكَ علىٰ أنَّه ذو وقارٍ في باطنِهِ ، فإن لم يكنْ كذٰلكَ في الباطنِ ، والتفتَ قلبُهُ إلىٰ أن يُخيِّلَ إلى النَّاسِ أنَّهُ ذو وقارٍ في باطنِهِ . . **فذٰلكَ الرِّياءُ** ، وإن لم يَلتفِتْ إلى الخَلْقِ قلبُهُ ، ولٰكنَّهُ غافلٌ . . فليسَ **ذٰلكَ برياءٍ ، ولٰكنْ يفوتُ بهِ الصِّدقُ** .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱجْعَلْ سَرِيرَتِي خَيْراً مِنْ عَلَانِيَتِي ، وَٱجْعَلْ لِي عَلَانِيَةً صَالِحَةً »(١) .

وقالَ عبدُ الواحدِ : (كانَ الحسنُ البصريُّ إذا أمرَ بشيءٍ . . **كانَ مِنْ أعملِ النَّاسِ بهِ** ، وإذا نهىٰ عن شيءٍ . . **كانَ مِنْ أتركِ النَّاسِ لهُ** ، ولم أرَ قطُّ أحداً أشبهَ سريرةً بعلانيةٍ منهُ)(٢) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٦) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/١٤٧) عن خالد بن صفوان رحمه الله تعالىٰ ، وهو عند ابن أبي الدنيا في « الأمر بالمعروف » (ص ٩١) عند وصية الحسن نفسه رحمه الله تعالىٰ .

الصِّدقُ السَّادسُ ـ وهوَ أعلىٰ أبوابِ الصِّدقِ ـ : في مَقاماتِ الدِّينِ ؛ كالخوفِ والرَّجاءِ والحبِّ والرِّضا ، والتَّوكُّلِ وغيرِها ؛ **فإنَّ لهٰذهِ المَقاماتِ أوائلَ يَنطلِقُ الاسمُ بها ، ولها حقائقُ وغاياتٌ ؛** إذ يُقالُ : هٰذا هوَ الخوفُ الصَّادقُ ، وهٰذهِ هيَ الشهوةُ الصَّادقةُ .

ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴿١٧٧﴾ . . . ﴾ الآيةَ .

فهٰذهِ درجاتُ الصِّدقِ ؛ فمَنْ تحقَّقَ في جميعِها . . **فهوَ صدِّيقٌ ،** ومَنْ لم يُصِبْ إلَّا بعضَها . . **فمرتبتُهُ بقَدْرِ صدقِهِ .**

ومِنْ جملةِ الصِّدقِ : تحقيقُ القلبِ بأنَّ اللهَ هوَ الرَّزَّاقُ ، وعليهِ التوكُّلُ ، فلنذكرْهُ .

* * *

الأصل السّابع

في التّوكل

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « **لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى ٱللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ . . لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ ٱلطَّيْرَ ؛ تَغْدُو خِمَاصاً ، وَتَرُوحُ بِطَاناً** »[1] .

وقالَ : « **مَنِ ٱنْقَطَعَ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ . . كَفَاهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ كُلَّ مُؤْنَةٍ ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنِ ٱنْقَطَعَ إِلَى ٱلدُّنْيَا . . وَكَلَهُ ٱللهُ إِلَيْهَا** »[2] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٤) ، وابن ماجه (٤٣٥٥) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٣٨٣) ، و« الصغير » (١١٦/١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٤٤) من حديث سيدنا عمران بن الحصين رضي الله عنهما .

وكـانَ رســولُ اللهِ صــلَّى اللهُ عـليـهِ وسـلَّـمَ إذا أصــابَ أهـلَـهُ خَصَاصةٌ[1] . . قالَ : « قُومُوا إِلَى ٱلصَّلَاةِ » ، ويقولُ : « بِهَـٰذَا أَمَرَنِي رَبِّـي ، فَقَـالَ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ »[2] .

فَصْلٌ

[في بيانِ حقيقةِ التوكُّلِ]

حقيقةُ التَّوكُّلِ : عبارةٌ عن حالةٍ تَصدُرُ عنِ التَّوحيدِ ، ويظهرُ أثرُها على الأعمالِ ؛ فهيَ ثلاثةُ أركانٍ : المعرفةُ ، والحالُ ، والعملُ .

الرُّكنُ الأوَّلُ : المعرفةُ ؛ وهيَ الأصلُ ، وأعني بها : التَّوحيدَ ؛ فإنَّهُ إنَّما يَتوكَّلُ على اللهِ . . مَنْ لا يرىٰ فاعلاً سوى اللهِ .

وكمالُ هـٰذهِ المعرفةِ يُترجِمُها قولُكَ : (لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ المُلْكُ ، ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ) إذ فيهِ إيمانٌ بالتَّوحيدِ ، وكمالِ القدرةِ والجُودِ ، والحِكَمِ التي بها يَستحِقُّ الحمدَ .

فمَنْ قالَ ذٰلكَ صادقاً مُخلِصاً . . فقد تمَّ توحيدُهُ ، وثبتَ في

(١) الخصاصة : الفقر والحاجة .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/١٧٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩١١) من حديث سيدنا عبد الله بن سلام رضي الله عنه .

قلبِهِ الأصلُ الذي منهُ يَنبعِثُ حالُ التَّوكُّلِ عنهُ ، وأعني بالصِّدقِ فيهِ : أن يصيرَ معنىٰ هـٰذا القولِ وصفاً لازماً لذاتِهِ ، غالباً علىٰ قلبِهِ ، لا يَتَّسعُ لتقديرِ غيرِهِ .

فَصْلٌ

[في بيانِ طبقاتِ التوحيدِ الأربعةِ]

هـٰذا التَّوحيدُ لهُ لُبَّانِ وقِشرانِ ، وطبقاتُهُ أربعٌ ؛ كاللَّوزِ لهُ لُبٌّ ، ثمَّ الدُّهنُ لُبُّ لبِّهِ ، والقِشرةُ العُليا قِشرُ قِشرِهِ .

فالقِشرةُ العُليا : القولُ باللِّسانِ المُجرَّدُ ؛ وهوَ إيمانُ المنافقينَ .

والثَّانيةُ : الاعتقادُ بالقلبِ جزماً ؛ وهوَ درجةُ عوامِّ الخَلْقِ ، ودرجةُ المُتكلِّمينَ ؛ إذ لا يَتميَّزونَ عنِ العوامِّ إلَّا بمعرفةِ الحِيلةِ في دفعِ تشويشِ المُبتدِعةِ عن هـٰذهِ الاعتقاداتِ .

الثَّالثةُ ـ وهيَ اللُّبُّ ـ : أن يَنكشِفَ لهُ بنورِ اللهِ تعالىٰ حقيقةُ هـٰذا التَّوحيدِ وسرُّهُ بالحقيقةِ ؛ وذٰلكَ بأن يرى الأشياءَ الكثيرةَ ويَعلَمَ أنَّها بجملتِها صادرةٌ عن فاعلٍ واحدٍ على التَّرتيبِ ؛ وذٰلكَ بأن يَعرِفَ سلسلةَ الأسبابِ وكيفيَّةَ تسلسلِها ، وارتباطَ أوَّلِ السِّلسلةِ بمُسبِّبِ الأسبابِ (١) .

وصاحبُ هـٰذا المَقامِ بَعدُ في تَفرِقةٍ ؛ لأنَّهُ يرى الأفعالَ وكثرتَها وارتباطَها بالفاعلِ .

---

(١) كما تقدم في حديثه عن صندوق الساعات (ص ٧١ ـ ٧٣) .

الرَّابعةُ ـ وهيَ لُبُّ اللُّبِّ ـ : أَلَّا يرىٰ في الوجودِ إلَّا واحداً ، ويَعلَمَ أنَّ الموجودَ بالحقيقةِ واحدٌ ، وإنَّما الكثرةُ فيهِ في حقِّ مَنْ تَفرَّقَ نظرُهُ ؛ كالذي يرىٰ مِنَ الإنسانِ مثلاً رِجلَهُ ، ثمَّ يدَهُ ، ثمَّ وجهَهُ ، ثمَّ رأسَهُ ، فَتغلِبُ عليهِ كثرتُهُ ، فإن رأى الإنسانَ جملةً واحدةً . . لم يَخطُرْ ببالِهِ الآحادُ ، بل كانَ كمُدْرِكِ الشَّيءِ الواحدِ .

فكذٰلكَ المُوحِّدُ ، لا يُفرِّقُ نظرَهُ رؤيةُ السَّماءِ والأرضِ وسائرِ الموجوداتِ ، بل يرى الكلَّ في حكمِ الشَّيءِ الواحدِ .

وهٰذا لهُ غورٌ ، ويستدعي كشفُهُ تطويلاً ، فاطلبْهُ مِنْ (كتابِ التَّوحيدِ والتَّوكُّلِ) مِنْ كتبِ « الإحياءِ » لتقفَ علىٰ تلويحاتٍ منهُ [١] .

والفَناءُ في التَّوحيدِ إنَّما يقعُ في هٰذا التَّوحيدِ ؛ وذٰلكَ بأن يصيرَ مُستغرِقاً بالواحدِ الحقِّ ، حتَّىٰ لا يَلتفِتَ قلبُهُ إلىٰ غيرِهِ ، ولا إلىٰ نفسِهِ ، فإنَّ نفسَهُ ـ مِنْ حيثُ هيَ نفسُهُ ـ غيرُ اللهِ ، وإن لم يَتحقَّقْ لهُ معنى الغيريَّةِ في الحالِ . . يَتحقَّقْ لهُ بنظرٍ آخَرَ ، واعتبارٍ علىٰ وجهٍ آخَرَ .

فَصْلٌ

[في بيانِ أنَّ الأفعالَ كلَّها مرتبطةٌ بمُسبِّبِ الأسبابِ]

حقيقةُ التَّوكُّلِ إنَّما يستدعي توحيدَ الفعلِ ، ولا يستدعي الفَناءَ

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٢٠١/٨) .

في توحيدِ الذَّاتِ ، بلِ المُتوكِّلُ يجوزُ أن يرى الكثرةَ والأسبابَ والمُسبَّباتِ ، ولٰكن ينبغي أن يشاهدَ ارتباطَ السِّلسلةِ بمُسبِّبِها .

وما عندي أنَّ ذٰلكَ يخفىٰ عليكَ فيما لا يدخلُ فيهِ اختيارُ الآدميّينَ ؛ فإنَّكَ إن رأيتَ المطرَ سبباً في النَّباتِ . . فتَعلَمُ أنَّ المطرَ مُسخَّرٌ بوَسَاطةِ الغيمِ ، والغيمَ مُسخَّرٌ بوَسَاطةِ الرِّيحِ وأبخرةِ البحارِ ، وكذٰلكَ البحارُ جماداتٌ مُسخَّرةٌ . . . إلىٰ أن ينتهيَ إلى الأوَّلِ لا محالةَ ، وإن كنتَ لا تَعرِفُ عددَ الوسائطِ . . فلا يَضرُّكَ ذٰلكَ .

وإنَّما الذي يخفىٰ عليكَ . . أفعالُ الآدميّينَ ؛ فإنَّكَ تقولُ : مَنْ أطعمَني طعاماً . . فإنَّما يُطعِمُني باختيارِهِ ؛ إن شاءَ . . أعطىٰ ، وإن شاءَ . . منعَ ، فكيفَ لا أَراهُ فاعلاً ؟!

وإنَّما مَثَلُكَ في الالتفاتِ إليهِ . . مَثَلُ النَّملةِ ؛ ترىٰ سوادَ الخطِّ على البياضِ يَحصُلُ مِنْ حركةِ القلمِ ، فتضيفُ ذٰلكَ إلى القلمِ ؛ إذ حدقتُها الصَّغيرةُ الضَّعيفةُ لا تمتدُّ إلى الإصبَعِ ، ومنها إلى اليدِ ، ومنها إلى القدرةِ المُحرِّكة لليدِ ، ومنها إلى الإرادةِ التي القدرةُ مُسخَّرةٌ لها ، ومنها إلى المعرفة التي يَتوقَّفُ انبعاثُ الإرادةِ وانجزامُها عليها ، ومنها إلىٰ صاحبِ القدرةِ والعِلْمِ والإرادةِ .

فكذٰلكَ أنتَ تضيفُ أفعالَ العبادِ إلىٰ إرادتِهِم ومعرفتِهِم وقدرتِهِم ؛ إذ ليسَ يَمتدُّ نظرُكَ إلى القلمِ الذي بهِ تنسطرُ المعرفةُ في ألواحِ القلوبِ ، ومنهُ إلى الأصابعِ التي بينَها قلوبُ العبادِ ،

ومنها إلى اليدِ التي بها خُمِّرَتْ طينةُ آدمَ ، ومنها إلى القدرةِ التي بها تَتحَّركُ اليدُ لتخميرِ الطِّينةِ ، ومنها إلى القادرِ الذي منهُ تبدأُ وإليهِ تعودُ .

وذٰلك لأنَّكَ لا تَعرِفُ معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ »[1] ، ولا معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : « خَمَّرْتُ طِينَةَ آدَمَ بِيَدِي »[2] ، ولا معنىٰ قولِهِ تعالى : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ .

فإنَّك لا تعلمُ قلماً إلَّا مِنْ قَصَبٍ ، ولا يداً ولا أصابعَ إلَّا مِنْ لحومٍ وعظامٍ ، ولا صورةً إلَّا مِنَ الألوانِ والأشكالِ .

فإنِ انكشفَ لكَ ذٰلكَ . . علمتَ أنَّكَ ما رميتَ إذ رميتَ ، ولٰكنَّ اللهَ رمىٰ ؛ حيثُ سلَّطَ عليكَ دواعيَ جازمةً ، ومعرفةً حاكمةً على القطعِ بأنَّ نجاتَكَ في الرَّمي مثلاً ، حتَّى انبعثَتِ القدرةُ التي انفردَ أيضاً بخلقِها خادمةً للإرادةِ ، والإرادةُ خادمةٌ للمعرفةِ خدمةً بالتَّسخيرِ والاضطرارِ ، وعلمتَ أنَّكَ مُضطَرٌّ إلىٰ عينِ الاختيارِ ، فتفعلُ إن شئتَ ذٰلكَ ، ولٰكنْ تشاءُ إذا شاءَ اللهُ تعالىٰ ، شئتَ أم أبيتَ .

وهٰذا الآنَ فيهِ سِرٌّ يُحرِّكُ قاعدةَ الجبرِ والاختيارِ ، ويُوهِمُ

---

(١) رواه البخاري (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٦١٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/ ١٠) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٢٦٣) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٣٠٩) موقوفاً علىٰ سيدنا سلمان وابن مسعود رضي الله عنهما .

تناقضَ التَّوحيدِ وتكليفِ الشَّرعِ ، وقد شرحناهُ في (كتابِ التَّوحيدِ والتَّوكُّلِ) و(كتابِ الشُّكرِ) مِنْ كُتُبِ « الإحياءِ » ، فاطلبْهُ منهُ إن كنتَ مِنْ أهلِهِ (١) .

فَصْلٌ

[فيما ينضافُ إلى الإيمانِ بتوحيدِ الفعلِ في إثارةِ التوكُّلِ]

لا يكفي الإيمانُ بتوحيدِ الفعلِ والذَّاتِ في إثارةِ حالةِ التَّوكُّلِ . . حتَّىٰ ينضافَ إليه الإيمانُ بالرَّحمةِ ، والجُودِ والحكمةِ ؛ إذ بهِ تَحصُلُ الثِّقةُ بالوكيلِ الحقِّ .

وهوَ أن تَعتقِدَ جزماً ، أو يَنكشِفَ لكَ بالبصيرةِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ لو خَلَقَ الخلائقَ كلَّهُم علىٰ عقلِ أعقلِهِم ، بل علىٰ أكملِ ما يُتصوَّرُ أن يكونَ عليهِ حالُ العقلِ ، ثمَّ زادَهُم أضعافَ ذٰلكَ علماً وحكمةً ، ثمَّ كشفَ لهُم عواقبَ الأمورِ ، وأطلعَهُم علىٰ أسرارِ الملكوتِ ، ولطائفِ الحكمةِ ، ودقائقِ الخيرِ والشَّرِّ ، ثمَّ أمرَهُم أن يُدبِّروا المُلْكَ والملكوتَ . . لَمَا دبَّروهُ بأحسنَ ممَّا هوَ عليهِ (٢) ، ولم يُمكِنْهُم أن يزيدوا عليهِ أو يَنقُصوا منهُ جَناحَ بعوضةٍ ، ولم يستصوبوا ألبتَّةَ دفعَ مرضٍ وعيبٍ ونقصٍ ، وفقرٍ وضُرٍّ ، وجهلٍ

---

(١) انظر « الإحياء » (٣٢٧/٢) ، (٥٨٤/٦) ، (٢٠٨/٨ ، ٢٣٧) .

(٢) هٰذا موطن ـ من مواطن كثيرة في كتب الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ ـ يشرح ويؤكد فيه أن ليس في الإمكان أبدعُ مما كان ، وهي في (كتاب التوحيد والتوكل) في « الإحياء » (٢٤٤/٨) بلفظ : (وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتمُّ ولا أكمل) ، وانظر « المقصد الأسنىٰ » (ص ٤٩) .

وكفرٍ ، ولا أن يُغيِّروا قسمةَ اللهِ تعالىٰ مِنْ رزقٍ وأَجَلٍ ، وقدرةٍ وعجزٍ ، وطاعةٍ ومعصيةٍ .

بل شاهدوا جميعَ ذٰلكَ عَدْلاً محضاً لا جورَ فيهِ ، وحقّاً صِرْفاً لا نقصَ فيهِ ، واستقامةً تامَّةً لا فطورَ فيها ولا تفاوتَ ، بل كلُّ ما يرَونَهُ نقصاً . . فيرتبطُ بهِ كمالٌ آخَرُ أعظمُ منهُ ، وما ظنُّوهُ ضرراً فتَحْتَهُ نفعٌ أعظمُ منهُ ، لا يُتوصَّلُ إلىٰ ذٰلكَ النَّفعِ إلَّا بهِ .

وعلموا قطعاً أنَّ اللهَ تعالىٰ حكيمٌ ، جوادٌ رحيمٌ ، لم يبخلْ على الخَلْقِ أصلاً ، ولم يَدَّخرْ في إصلاحِهِم أمراً .

وهٰذا الآنَ بحرٌ آخرُ في المعرفةِ ، يُحرِّكُ أمواجَهُ سِرُّ القَدَرِ الذي مُنِعَ مِنْ ذكرِهِ المُكاشَفونَ ، وتَحيَّرَ فيهِ الأكثرونَ ، ولا يَعقِلُهُ إلَّا العالِمونَ ، ولا يُدرِكُ تأويلَهُ إلَّا الرَّاسخونَ .

وإنَّما حظُّ العوامِّ : أن يعتقدوا أنَّ كلَّ ما يُصِيبُهُم لم يكنْ ليُخطِئَهُم ، وما يُخطِئُهُم لم يكنْ ليُصيبَهُم ، وأنَّ ذٰلكَ واجبُ الحصولِ بحكمِ المشيئةِ الأزليَّةِ ، وأنَّهُ لا رادَّ لحكمِهِ ، ولا مُعقِّبَ لقضائِهِ ، بل كلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مُستَطَرٌ ، وحصولُهُ بقَدْرٍ معلومٍ مُنتظَرٍ ، ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

الرُّكنُ الثَّاني : حالُ التَّوكُّلِ ؛ ومعناهُ : أن تَكِلَ أمرَكَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويثقَ بهِ قلبُكَ ، وتطمئنَّ بالتَّفويضِ إليهِ نفسُكَ ، ولا تَلتفِتَ

إلىٰ غيرِ اللهِ أصلاً ، ويكونَ مثالُكَ مثالَ مَنْ وَكَّلَ في خصومتِهِ في مجلسِ القاضي مَنْ عَلِمَ أنَّهُ أشفقُ النَّاسِ عليهِ ، وأقواهُم علىٰ كشفِ الباطلِ ، وأعرفُهُم بهِ ، وأحرصُهُم عليهِ ؛ فإنَّهُ يكونُ ساكناً في بيتِهِ ، مطمئنَّ القلبِ ، غيرَ مُتفكِّرٍ في حِيَلِ الخصومةِ ، غيرَ مستعينٍ بآحادِ النَّاسِ ؛ لعلمِهِ بأنَّ وكيلَهُ حَسْبُهُ وكافيهِ في غرضِهِ ، وأنَّهُ لا يُقاوِمُهُ غيرُهُ .

فمَنْ تحقَّقَتْ معرفتُهُ بأنَّ الرِّزقَ والأَجَلَ والخَلْقَ والأمرَ بيدِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ مُنفرِدٌ بهِ لا شريكَ لهُ ، وأنَّ جُودَهُ وحكمتَهُ ورحمتَهُ لا نهايةَ لها ، ولا يوازيها رحمةُ غيرِهِ وجُودُهُ . . اتَّكلَ قلبُهُ بالضَّرورةِ عليهِ ، وانقطعَ نظرُهُ عن غيرِهِ .

فإن لم ينقطعْ . . فلا يكونُ ذٰلكَ إلَّا لأحدِ أمرينِ :

أحدُهُما : ضَعفُ اليقينِ بما ذكرناهُ ؛ وضَعفُ اليقينِ إنَّما يكونُ لتطرُّقِ شكٍّ إليهِ ، أو لعدمِ استيلائِهِ على القلبِ ؛ فإنَّ الموتَ يقينٌ لا شكَّ فيهِ ، ولٰكنَّهُ إذ لا يستولي على القلبِ . . فهوَ كشكٍّ لا يقينَ فيهِ .

الأمرُ الثَّاني : أن يكونَ القلبُ في الفطرةِ جباناً ضعيفاً ؛ فالجُبْنُ والجرأةُ فطرتانِ ، والجُبْنُ يُوجِبُ كونَ النَّفسِ مطيعةً للأوهامِ التي لا شكَّ في بطلانِها ، حتَّىٰ قد يخافُ الإنسانُ أن يبيتَ معَ الميِّتِ في فراشٍ أو بيتٍ ، معَ علمِهِ بأنَّ اللهَ تعالىٰ لا يحييهِ ، وأنَّ قدرتَهُ

عليهِ كقدرتِهِ على أن يَقلِبَ القلمَ في يدِهِ حيَّةً ، وهوَ لا يخافُ ذلكَ .

بل قد يُشبِّهُ العسلَ بالعَذِرةِ ، فيَتعذَّرُ عليهِ تناولُهُ معَ علمِهِ بأنَّه تشبيهٌ كاذبٌ ، ولكنْ ذلكَ لخوَرِ النَّفسِ ، وطاعتِها للأوهامِ .

فقلَّما يخلو الإنسانُ عن شيءٍ منهُ وإن ضعفَ ؛ فكذلكَ لا يَبْعدُ أن يَحصُلَ اليقينُ بالتَّوحيدِ بحيثُ لا يُخالِجُهُ ريبٌ ، ومعَ ذلكَ فيَفزَعُ القلبُ إلى الأسبابِ .

فَصْلٌ

[في بيانِ درجاتِ التوكُّلِ]

إذا عرفتَ أنَّ التَّوكُّلَ عبارةٌ عن حالةٍ للقلبِ في الثِّقةِ بالوكيلِ الحقِّ ، وقطعِ الالتفاتِ إلى غيرِهِ . . **فاعلمْ : أنَّ فيهِ ثلاثَ درجاتٍ :**

إحداها : ما ذكرناهُ ؛ وهوَ كالثِّقةِ بالوكيلِ في الخصومةِ بعدَ اعتقادِ كمالِهِ في الهدايةِ والقدرةِ والشَّفقةِ .

والثَّانيةُ ـ وهيَ أقوى منها ـ : تضاهي حالةَ الصَّبيِّ في ثقتِهِ بأُمِّهِ ، وفزعِهِ إليها في كلِّ ما يُصيبُهُ ؛ وذلكَ لثقتِهِ بشفقتِها وكفالتِها ، ولكنَّهُ في توكُّلِهِ فانٍ عن توكُّلِهِ ؛ فإنَّهُ ليسَ يُحصِّلُهُ بفكرٍ وكسبٍ وإن كانَ لا يخلو توكُّلُهُ عن نوعِ إدراكٍ .

وأمَّا التَّوكُّلُ على الوكيلِ بالخصومةِ . . فكالمُكتسَبِ بالفكرِ والنَّظرِ .

والثَّالثةُ ـ وهيَ الأعلىٰ ـ : أن يكونَ بينَ يديِ اللهِ تعالىٰ كالميتِ بينَ يديِ الغاسلِ ، لا كالصَّبيِّ ؛ فإنَّهُ يَزعَقُ بأُمِّهِ ، ويَتعلَّقُ بذيلِها ، بل هٰذا كصبيٍّ عَلِمَ أنَّهُ وإن لم يَزعَقْ بأُمِّهِ . . فإنَّها تطلبُهُ ، وإن لم يَتعلَّقْ بذيلِها . . فهيَ تَحمِلُهُ ، وإن لم يسألْها اللَّبنَ . . فهيَ تبتدئُ بإرضاعِهِ ، فيكونُ هٰذا الشَّخصُ في حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ ساقطَ الاختيارِ ؛ لعلمِهِ بأنَّهُ مَجرى القدرِ ، فلا يَبقىٰ فيهِ مُتَّسعٌ لغيرِ الانتظارِ لِمَا يجري عليهِ .

وهٰذا المَقامُ يأبى الدُّعاءَ والسُّؤالَ ، ولا يَمتنِعُ الدُّعاءُ في المَقامِ الثَّاني والأوَّلِ .

ويَمتنِعُ التَّدبيرُ في المَقامِ الأخيرِ ، ويَمتنِعُ في الثَّاني أيضاً ، إلَّا في التَّعلُّقِ بالوكيلِ فقطْ ، وفي الأوَّلِ يَمتنِعُ التَّدبيرُ بالتَّعلُّقِ بغيرِهِ ، ولا يَمتنِعُ بالطَّريقِ الذي رسمَهُ الوكيلُ ، وسنَّهُ لهُ وأمرَهُ بهِ .

الرُّكنُ الثَّالثُ : في الأعمالِ ؛ وقد يظنُّ الجُهَّالُ : أنَّ شرطَ التَّوكُّلِ تركُ الكسبِ ، وتركُ التَّداوي ، والاستسلامُ للمُهلِكاتِ ، وذٰلك خطأٌ ؛ لأنَّ ذٰلكَ حرامٌ في الشَّرعِ ، والشَّرعُ قد أثنىٰ على التَّوكُّلِ ، ونَدَبَ إليهِ ، فكيفَ يُنالُ ذٰلكَ بمحظورِهِ ؟!

وتحقيقُهُ : أنَّ سعيَ العبدِ لا يعدو أربعةَ أوجهٍ ؛ وهوَ جلبُ ما ليسَ بموجودٍ مِنَ المنفعةِ ، أو حفظُ الموجودِ ، أو دفعُ الضَّررِ كي لا يحصلَ ، أو قطعُهُ كي يزولَ .

الأوَّلُ : جلبُ المنافعِ .

وأسبابُهُ ثلاثةٌ : إمَّا مقطوعٌ بهِ ، وإمَّا مظنونٌ ظنّاً ظاهراً يُوثَقُ بهِ ، وإمَّا موهومٌ .

أمَّا المقطوعُ بهِ : فمثالُهُ : ألَّا تمتدَّ اليدُ إلى الطَّعامِ وهوَ جائعٌ ، ويقولَ : هـٰذا سعيٌ ، وأنا مُتوكِّلٌ !! أو يريدَ الولدَ ولا يُواقِعَ أهلَهُ !! أو يريدَ الزَّرعَ ولا يَبُثَّ البَذْرَ !!

وهـٰذا جهلٌ ؛ لأنَّ سنَّةَ اللهِ تعالىٰ لا تَتغيَّرُ ، وقد عرَّفَكَ أنَّ ارتباطَ هـٰذهِ المُسبَّباتِ بهـٰذهِ الأسبابِ . . مِنَ السُّنَّةِ التي لا تجدُ لها تبديلاً .

وإنَّما التَّوكُّلُ فيهِ بأمرينِ :

أحدُهُما : أن يَعلَمَ أنَّ اليدَ والطَّعامَ ، والبَذْرَ وقدرةَ التَّناولِ ، وجميعَ ذٰلكَ . . مِنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ .

والثَّاني : ألَّا يَتَّكِلَ عليها بقلبِهِ ، بل علىٰ خالقِها ، وكيفَ يَتَّكِلُ على اليدِ وربَّما يُفلَجُ في الحالِ ، أو يَهلِكُ الطَّعامُ ؟! وذٰلكَ تحقيقُ قولِكَ : (لا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ) ، فالحولُ هوَ الحركةُ ، والقُوَّةُ هيَ القدرةُ ، فإذا كانَ هـٰذا حالَكَ . . فأنتَ مُتوكِّلٌ وإن سعيتَ .

وأمَّا المظنونُ : فكاستصحابِ الزَّادِ في البوادي والأسفارِ ، فليسَ تركُهُ شرطاً في التَّوكُّلِ ، بل هيَ سنَّةُ الأوَّلينَ ، بل يكونُ الاعتمادُ

علىٰ فضلِ اللهِ تعالىٰ بدفعِ السُّرَّاقِ ، وإبقاءِ الزَّادِ والحياةِ ، والقدرةِ على التَّناولِ .

وأمَّا الموهوماتُ : فكالاستقصاءِ في حيلِ المعيشةِ ، واستنباطِ دقائقِ الأمورِ فيها ، وذٰلكَ ثمرةُ الحرصِ ، وقد يَحمِلُ علىٰ أخذِ الشُّبهةِ ، **وكلُّ ذٰلكَ يناقضُ التَّوكُّلَ** .

والدَّليلُ عليهِ : **أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وصفَ المُتوكِّلينَ** بأنَّهُمُ الذينَ لا يَكْتَوُونَ ولا يَسْتَرْقونَ[1] ، ولم يَصِفْهُم بأنَّهُم لا يسكنونَ الأمصارَ ولا يكتسبونَ ، فما نسبتُهُ إلى السَّببِ كنسبةِ الرُّقيةِ والكَيِّ . . فتركُهُما مِنْ شروطِ التَّوكُّلِ .

الفنُّ الثَّاني من تدبيرِ الأسبابِ : الادِّخارُ .

فالمُتوكِّلُ إذا وَرِثَ مالاً ، **وادَّخرَ لسَنَةٍ فما فوقَها . . أبطلَ توكُّلَهُ ، وإن قَنِعَ بقُوتِ يومِهِ** ، وفرَّقَ الباقيَ . . **فهوَ تامُّ التَّوكُّلِ ، وإنِ ادَّخرَ لأربعينَ يوماً** . . قالَ سهلٌ التُّستَريُّ : (بطلَ توكُّلُهُ ؛ فلا ينالُ المَقامَ المحمودَ الذي وُعِدَ للمُتوكِّلينَ) ، وقالَ الخوَّاصُ : (لا يَبطُلُ)[2] .

واتَّفقوا علىٰ أنَّ الزِّيادةَ عليهِ تُبطِلُ التَّوكُّلَ ، إلَّا إذا كانَ مُعْيلاً . .

---

(1) رواه البخاري (٥٧٠٥) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، ومسلم (٢١٨) من حديث سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما .
(2) انظر « قوت القلوب » (٢/٢٠) .

فلهُ أن يَدَّخِرَ قُوتَ عيالِهِ لسنةٍ ؛ كذٰلكَ فعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حقِّ عيالِهِ(١) ، وفي حقِّ نفسِهِ كانَ لا يَدَّخِرُ مِنْ غَدائِهِ لعَشائِهِ(٢) ، ولا شكَّ أنَّ طُولَ الأملِ يُناقِضُ التَّوكُّلَ .

ومهما قَلَّتْ مُدَّةُ الادِّخارِ . . كانَتِ الرُّتبةُ أعظمَ ، ولٰكنْ سُنَّةُ اللهِ تعالىٰ جاريةٌ بتكرُّرِ الأرزاقِ عندَ تكرُّرِ السَّنةِ ، فالادِّخارُ لأكثرَ مِنْ سَنةٍ غايةُ الضَّعفِ ، وليسَ مِنَ التَّوكُّلِ في شيءٍ .

فأمَّا ادِّخارُ الكُوزِ وأثاثِ البيتِ . . فذٰلكَ جائزٌ ؛ لأنَّ سُنَّةَ اللهِ تعالىٰ لم تَجْرِ بتكرُّرِها كتكرُّرِ الأرزاقِ ، ويُحتاجُ إليها في كلِّ وقتٍ ، وليسَ كثوبِ الشِّتاءِ ؛ فإنَّهُ لا يُحتاجُ إليهِ في الصَّيفِ ، وادِّخارُهُ علىٰ خلافِ التَّوكُّلِ .

قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في فقيرٍ دُفِنَ : « إِنَّهُ يُحْشَرُ يَوْمَ ٱلْقِيَامةِ وَوَجْهُهُ كَٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ ٱلْبَدْرِ ، وَلَوْلَا خَصْلَةٌ . . كَانَ كَٱلشَّمْسِ ٱلضَّاحِيَةِ ؛ كَانَ إِذَا جَاءَ ٱلشِّتَاءُ . . ادَّخرَ حُلَّةَ ٱلصَّيْفِ لِصَيْفِهِ »(٣) .

---

(١) كما في « البخاري » (٢٩٠٤) ، و« مسلم » (١٧٥٧) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان ينفق علىٰ أهله نفقة سنة .

(٢) روى الترمذي (٢٣٦٢) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئاً لغدٍ) .

(٣) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/٢٠) من حديث شهر بن حوشب عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .

الفنُّ الثَّالثُ : في مباشرةِ الأسبابِ الدَّافعةِ .

كالفِرارِ مِنَ السَّبُعِ ، ومِنَ الجِدارِ المائلِ ، ومَجرى السَّيلِ ، ودفعِ الأمراضِ بالأدويةِ ، وذٰلكَ أيضاً لهُ درجاتٌ ، فاستنبطْها بالقياسِ إلىٰ ما ذكرناهُ ، وقد فسَّرناهُ في « الإحياءِ » في (كتابِ التَّوكُّلِ)[1] .

فَصْلٌ

[في حكمِ تركِ الادِّخارِ]

اعلمْ : أنَّ تركَ الادِّخارِ محمودٌ لِمَنْ غلبَ يقينُهُ ، وقَوِيَ قلبُهُ ، وأمَّا الضعيفُ الذي يَضطَرِبُ قلبُهُ ، ولو لم يَدَّخِرْ لم يَتفرَّغْ للعبادةِ . . فالأفضلُ لهُ أن يَدَعَ طريقَ المُتوكِّلينَ ، ولا يُحمِّلَ نفسَهُ ما لا يطيقُهُ ؛ إذ فسادُ ذٰلكَ في حقِّهِ أكثرُ مِنْ صلاحِهِ ، بل يُعالَجُ كلُّ واحدٍ علىٰ حسَبِ حالِهِ وقُوَّتِهِ .

وقد تنتهي القُوَّةُ ببعضِهِم إلىٰ أن يُجَوِّزَ السَّفرَ في البوادي مِنْ غيرِ زادٍ ؛ وذٰلكَ لِمَنْ يَصبِرُ عنِ الطَّعامِ أُسبوعاً ، ويَقنَعُ بالحشيشِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ لا يُعوِزُهُ غالباً في الباديةِ[2] .

فأمَّا الضَّعيفُ إذا فعلَ ذٰلكَ . . فهوَ عاصٍ ، مُلْقٍ نفسَهُ في التَّهلُكةِ ، والقويُّ إن حبسَ نفسَهُ في كهفِ جبلٍ ليسَ فيهِ حشيشٌ ،

---

(١) انظر الفنَّ الثالث في « إحياء علوم الدين » (٣١١/٨) ، والفنَّ الرابع فيه (٣٢٦/٨) .

(٢) كإبراهيم الخوَّاص كما ذكره الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « إحياء علوم الدين » (٢٦٨/٨) وما بعدها .

ولا يَجتازُ بهِ إنسانٌ . . فذٰلكَ أيضاً حرامٌ ؛ لأنَّهُ خالفَ سُنَّةَ اللهِ تعالىٰ في خَلْقِهِ[1] ، وإنَّما جازَ لهُ ذٰلكَ في البوادي ؛ لأنَّ سنَّةَ اللهِ تعالىٰ جاريةٌ بأنَّها لا تخلو عنِ الحشيشِ ، وقد يجتازُ بها الآدميُّونَ ، فإذا قويَ . . كانَ هلاكُهُ نادراً ، فلم يكنْ بذٰلكَ عاصياً ، فلهُ أن يسافرَ في الباديةِ مُتَّكلاً علىٰ لطيفِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، وغيرَ قاصرٍ التفاتَهُ على الأسبابِ الجليَّةِ الواضحةِ .

❊

(١) وحكىٰ أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٩٦/٢) عن رجل فعل مثل هٰذا ، فكاد يتلف ، فقال : (يا رب ؛ إن أحييتني . . فأتني برزقي الذي قسمت لي ، وإلا . . فاقبضني إليك ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : وعزتي ؛ لا أرزقك حتىٰ تدخل الأمصار وتقيم بين الناس ، ففعل ، فجاءه رزقه ، فأكل وشرب ، فأوجس في نفسه من ذٰلك ، فأوحى الله إليه : أردت أن تذهب بحكمتي بزهدك في الدنيا ، أما علمت أني أرزق عبدي بأيدي عبادي أحبُّ إلي من أن أرزقه بيد القدرة ؟!) .

الأصل الثامن

في المحبة

قالَ اللّهُ تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ .

وقالَ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ ٱللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا »[1] .

وقالَ : « أَحِبُّوا ٱللّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ ٱللّهِ عَزَّ وَجَلَّ »[2] .

وقالَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضيَ اللّهُ عنهُ : (مَنْ ذاقَ مِنْ خالصِ محبَّةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ . . منعَهُ ذٰلكَ مِنْ طلبِ الدُّنيا ، وأوحشَهُ مِنْ جميعِ البشرِ)[3] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/٢٠٧) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه ، وعند البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) من حديثه أيضاً : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون اللّهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذفَ في النار » .

(٢) رواه الترمذي (٤٧٨٩) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٥) .

وقالَ الحسنُ البصريُّ رحمَهُ اللهُ : (مَنْ عرفَ اللهَ تعالىٰ . . أحبَّهُ ، وَمَنْ عرفَ الدُّنيا . . زَهِدَ فيها ، والمؤمنُ لا يلهو حتَّىٰ يَغفُلَ ، فإذا تَفكَّرَ . . حَزِنَ)[1] .

فَصْلٌ

[فيمَنْ أنكرَ محبَّةَ اللهِ تعالىٰ]

اعلمْ : أنَّ أكثرَ المُتكلِّمينَ أنكروا محبَّةَ اللهِ تعالىٰ وأوَّلوها ، وقالوا : لا معنىٰ لها إلَّا امتثالُ أوامرِهِ ، وإلَّا . . فما لا يُشبِهُهُ شيءٌ ، ولا يُشبِهُ شيئاً ، ولا يُناسِبُ طباعَنا بوجهٍ . . فكيفَ نُحِبُّهُ ؟! وإنَّما يُتصوَّرُ منَّا أن نُحِبَّ مَنْ هوَ مِنْ جنسِنا .

وهٰؤلاءِ محرومونَ ؛ لجهلِهم بحقائقِ الأمورِ ، وقد كشفنا الغطاءَ عن هٰذا في (كتابِ المحبَّةِ) مِنْ كُتُبِ « الإحياءِ »[2] ، فطالِعْها ؛ لتُصادِفَ منها أسراراً تخلو الكتبُ عنها ، واقنَعْ في هٰذا المختصرِ بتلويحاتٍ وإشاراتٍ .

فَصْلٌ

[في بيانِ معنىٰ كونِ الشيءِ محبوباً]

اعلمْ : أنَّ كلَّ لذيذٍ محبوبٌ ، ومعنىٰ كونِهِ محبوباً : ميلُ النَّفْسِ إليهِ ، فإن قَوِيَ الميلُ . . سُمِّيَ عشقاً ، ومعنىٰ كونِهِ مبغوضاً :

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الهم والحزن » (٩٣) .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٨/٣٧٢) .

نَفرةُ النَّفسِ عنهُ ؛ لكونِهِ مُؤلِماً ، فإن قويَ البغضُ والنَّفرةُ . . سُمِّيَ مَقْتاً .

واعلمْ : أنَّ الأشياءَ التي تُدرِكُها بحواسِّكَ وجميعِ مشاعرِكَ : إمَّا أن تكونَ مُوافِقةً لكَ ملائمةً ؛ وهوَ اللَّذيذُ ، أو تكونَ منافيةً مخالفةً ؛ وهوَ المُؤلِمُ ، أو لا موافِقةً ولا مخالِفةً ؛ وهيَ التي لا ألمَ فيها ولا لذَّةَ ، وكلُّ لذيذٍ محبوبٌ ، وللنَّفسِ المُلتذَّةِ بهِ ميلٌ ـ لا محالةَ ـ إليهِ .

واعلمْ : أنَّ اللَّذَّةَ تَتبَعُ الإدراكَ ، والإدراكُ إدراكانِ : ظاهرٌ ، وباطنٌ .

أمَّا الظَّاهرُ : فبالحواسِّ الخمسِ ؛ فلا جرمَ لذَّةُ العينِ في الصُّورِ الجميلةِ ، ولذَّةُ الأُذُنِ في النَّغماتِ الموزونةِ الطَّيِّبةِ ، ولذَّةُ الذَّوقِ والشَّمِّ في الطُّعومِ والرَّوائحِ الملائمةِ الموافقةِ ، ولذَّةُ جملةِ البدنِ في ملامسةِ النَّاعمِ اللَّيِّنِ ، وجملةُ ذٰلكَ محبوبةٌ للنَّفسِ ؛ أي : للنَّفسِ ميلٌ إليها .

وأمَّا الإدراكُ الباطنُ : فهوَ اللَّطيفةُ التي محلُّها القلبُ ، تارةً يُعبَّرُ عنها بالعقلِ ، وتارةً بالنُّورِ ، وتارةً بالحسِّ السَّادسِ ، ولا تنظرْ إلى العباراتِ فتَغلَطَ ، بل قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُبِّبَ

إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ : ٱلطِّيبُ ، وَٱلنِّسَاءُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ »[1] .

فتعلمُ : أنَّ الطِّيبَ والنِّساءَ فيهِما حظُّ الشَّمِّ واللَّمسِ والبصرِ ، والصَّلاةُ لا حظَّ فيها للحواسِّ الخمسِ ، بل للإدراكِ السَّادسِ الذي محلةُّ القلبُ ، ولا يُدرِكُها مَنْ لا قلبَ لهُ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ قد يَحُولُ بينَ المرءِ وقلبِهِ .

ومَنِ اقتصرَ مِنْ لذَّتِهِ على الحواسِّ الخمسِ . . فهوَ بهيمةٌ ؛ لأنَّ البهيمةَ تشاركُهُ فيها ، وإنَّما خاصِّيَّةُ الإنسانِ التَّمييزُ بالبصيرةِ الباطنةِ ؛ فلذَّةُ البصرِ الظَّاهرِ . . في الصُّورِ الجميلةِ الظاهرةِ ، ولذَّةُ البصيرةِ الباطنةِ . . في الصُّورِ الجميلةِ الباطنةِ .

فَصْلٌ

[في بيانِ معنى الصورِ الجميلةِ الباطنةِ]

لعلَّكَ تقولُ : ما معنى الصُّورِ الجميلةِ الباطنةِ ؟

فأقولُ : ما عندي أنَّكَ لا تُحِسُّ مِنْ نفسِكَ حبَّ الأنبياءِ والعلماءِ والصَّحابةِ ، ولا تُدركُ في نفسِكَ تفرقةً بينَ المَلِكِ العادلِ العالِمِ الشُّجاعِ ، الكريمِ العَطُوفِ على الخَلْقِ ، وبينَ الظَّالمِ الجاهلِ ، البخيلِ الفَظِّ الغليظِ .

---

(١) رواه النسائي في « المجتبىٰ » (٦١/٧) ، وأحمد في « المسند » (١٢٨/٣) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

وما عندي أنَّكَ إذا حُكِيَ لكَ صدقُ أبي بكرٍ ، وسياسةُ عمرَ ، وسخاوةُ عثمانَ ، وشجاعةُ عليٍّ رضوانُ اللهِ عليهِم . . لا تجدُ في نفسِكَ هِزَّةً وارتياحاً وميلاً إلىٰ هـٰؤلاءِ ، وإلىٰ كلِّ موصوفٍ بخِلالِ الكمالِ ؛ مِنْ نبيٍّ وصِدِّيقٍ وعالِمٍ .

وكيفَ تُنكِرُ هـٰذا وفي النَّاسِ مَنْ يَفدي بنفسِهِ أربابَ المذاهبِ ، ويحملُهُ حبُّهُ لهُم على البذلِ بالمالِ والنَّفْسِ في الذَّبِّ عنهُم ، ويُجاوِزُ ذٰلكَ حدَّ العشقِ ؟!

وأنتَ تَعلَمُ أنَّ حبَّكَ لهـٰؤلاءِ ليسَ لصورِهِمُ الظَّاهرةِ ؛ فإنَّكَ لم تشاهدْها ، ولو شاهدتَها . . ربَّما لم تستحسنْها ، وإنِ استحسنتَها ؛ فلو تَشوَّهَتْ صورُهُمُ الظَّاهرةُ ، وبقيَتْ صفاتُهُمُ المعنويَّةُ الباطنةُ . . لبقيَ حبُّك لهُم .

وإذا فتَّشتَ عن محبوبِكَ منهُم . . رجعَ بعدَ التَّفصيلِ الطَّويلِ الذي لا يَحتمِلُهُ هـٰذا الكتابُ إلىٰ ثلاثِ صفاتٍ : **العلمِ ، والقدرةِ ، والنَّزاهةِ عنِ العيوبِ** .

أمَّا العلمُ : فكعلمِهِم باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ، وعجائبِ ملكوتِهِ ودقائقِ شريعةِ أنبيائِهِ .

وأمَّا القدرةُ : فكقدرتِهِم علىٰ أنفسِهِم بكسرِ شهوتِها ، وحملِها على الصِّراطِ المستقيمِ ، وقدرتِهِم على العبادِ بسياستِهِم وإرشادِهِم إلى الحقِّ .

وأمَّا النَّزاهةُ : فبسلامةِ باطنِهم مِنْ عيبِ الجهلِ والبخلِ ، والحسدِ وخبائثِ الأخلاقِ ، واجتماعُ كمالِ العِلمِ والقدرةِ معَ حُسْنِ جميعِ الأخلاقِ . . هوَ حسنُ الباطنِ ، وهيَ الصُّورةُ الباطنةُ التي لا تُدرِكُها البهيمةُ ومَنْ في مثلِ حالِها بالبصرِ الظَّاهرِ .

ثمَّ إذا أحببتَ هٰؤلاءِ لهٰذهِ الصِّفاتِ ، وعلمتَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ أجمعَ منهُم لهٰذهِ الخِصالِ . . كانَ حبُّكَ لهُ أشدَّ بالضَّرورةِ ، **فارفعْ نظرَكَ الآنَ مِنَ النَّبيِّ إلىٰ مُرسِلِ النَّبيِّ وخالقِهِ** ، والمُتفضِّلِ على الخَلْقِ ببعثِهِ ؛ لتَعلَمَ أنَّ بِعثةَ الأنبياءِ حسنةٌ مِنْ حسناتِهِ .

ثمَّ انسُبْ قدرةَ الأنبياءِ وعلمَهُم وطهارتَهُم إلىٰ عِلْمِ اللهِ سبحانَهُ وقدرتِهِ وقدسِهِ ؛ لتَعلَمَ أنَّهُ لا قُدُّوسَ سوى الواحدِ الحقِّ ، وأنَّ غيرَهُ لا يخلو مِنْ عيبٍ ونقصٍ .

بلِ العبوديَّةُ أعظمُ أنواعِ النَّقصِ ؛ فأيُّ كمالٍ لِمَنْ لا قِوامَ لهُ بنفسِهِ ، ولا يملكُ لنفسِهِ موتاً ولا حياةً ، ولا رزقاً ولا أجلاً ؟!

وأيُّ عِلْمٍ لِمَنْ تُشكِلُ عليهِ صفاتُ باطنِهِ في مرضِهِ وصحَّتِهِ ، بل لا يَعلَمُ جميعَ جوارحِهِ الباطنةِ ، وتفصيلَها وحكمتَها بالتَّحقيقِ ، فضلاً عن ملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ ؟!

وانسُبْ هٰذا إلى العِلْمِ الأزليِّ المحيطِ بجميعِ الموجوداتِ

والمعلوماتِ التي لا نهايةَ لها ، الذي لا يَعزُبُ عنهُ مثقالُ ذرَّةٍ في السَّماواتِ ولا في الأرضِ ، وإلىٰ قدرةِ خالقِ السَّماواتِ والأرضِ ، الذي لا يَخرُجُ موجودٌ عن قبضةِ قدرتِهِ ، في وجودِهِ وبقائِهِ وعدمِهِ .

وانسُبْ نزاهتَهُ مِنَ العيوبِ إلىٰ قدسِهِ ؛ لتعلَمَ أنَّهُ لا قدسَ ولا قدرةَ ولا عِلْمَ إلَّا للواحدِ الحقِّ ، وإنَّما لغيرِهِ القدرةُ التي أعطاهُ ، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ ، ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ .

فانظرِ الآنَ هل يُمكِنُكَ أن تُنكِرَ أنَّ هٰذهِ الصِّفاتِ والمحامدَ محبوبةٌ ، أو تُنكِرَ أنَّ الموصوفَ بكمالِ الجلالِ هوَ اللهُ تعالىٰ ؟! وانظرْ كيفَ تُنكِرُ حبَّهُ بعدَ ذٰلكَ ؟!

فَصْلٌ

[في ميلِ بصيرةِ الإنسانِ إلى المُنعِمِ جلَّ وعلا]

إن قصُرَتْ بصيرتُك الباطنةُ عن إدراكِ الجلالِ والكمالِ ، والميلِ إلىٰ مطالعتِهِ ، والفرحِ بهِ والعشقِ لهُ . . فلا تقصُرْ عنِ الميلِ إلى المُنعِمِ المُحسِنِ إليكَ ، ولا تكونَنَّ أقلَّ مِنَ الكلبِ ؛ فإنَّهُ يُحِبُّ صاحبَهُ الذي يُحسِنُ إليهِ .

وتأمَّلْ هٰذا في العالَمِ ، هل لأحدٍ إحسانٌ إليكَ سوى اللهِ تعالىٰ ؟ وهل لكَ حظٌّ ولذَّةٌ ، وتنعُّمٌ في شيءٍ ، وحرصٌ علىٰ

نعمةٍ . . إلَّا واللهُ تعالىٰ خالقُها ومبديها ومبقيها ، وخالقُ الشَّهوةِ إليها والتَّلذُّذِ بها ؟

وتفكَّرْ في أعضائِكَ ، ولطفِ صنعِ اللهِ تعالىٰ بكَ فيها ؛ لتُحِبَّهُ بإحسانِهِ إليكَ ، فتكونَ مِنْ عوامِّ الخَلْقِ إن لم تَقدِرْ أن تُحِبَّهُ لجمالِهِ وجلالِهِ ، كما تُحِبُّهُ الملائكةُ لذٰلكَ ، وامتثلْ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَحِبُّوا ٱللهَ تَعَالَىٰ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ ٱللهِ »[1] .

وعندَ هٰذا تكونُ كالعبدِ السُّوءِ ، يُحِبُّ ويعملُ للأجرةِ والنَّفقةِ ، فلا جَرَمَ يزيدُ حبُّكَ ويَنقُصُ بزيادةِ الإحسانِ ونقصانِهِ ، وذٰلكَ ضعيفٌ جدّاً .

بلِ الكاملُ : مَنْ يُحِبُّ اللهَ تعالىٰ لجلالِهِ وجمالِهِ ، ومحامدِ صفاتِهِ التي لا يُتصوَّرُ أن يُشارَكَ فيها ؛ ولذٰلكَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السَّلامُ : (إنَّ أَوَدَّ الأوِدّاءِ إليَّ . . مَنْ عبدَني بغيرِ نوالٍ ، لٰكنْ ليُعطِيَ الرُّبوبيَّةَ حقَّها)[2] .

وفي الزَّبُورِ : (مَنْ أظلمُ ممَّنْ عبدَني لجنَّةٍ أو نارٍ ؟! لو لم أَخلُقْ جنَّةً ولا ناراً . . ألم أكنْ أهلاً أن أُطاعَ ؟!)[3] .

ومرَّ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ بطائفةٍ مِنَ العُبَّادِ قد نحَلوا ، وقالوا :

---

(١) تقدم قريباً (ص ٤٢٧) .
(٢) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/٥٦) .
(٣) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/٥٦) .

(نخافُ النَّارَ ، ونرجو الجنَّةَ ، فقالَ : مخلوقاً خِفتُم ، ومخلوقاً رجَوتُم) .

ومرَّ بقومٍ آخَرينَ كذٰلكَ ، فقالوا : (نعبدُهُ حبّاً لهُ ، وتعظيماً لجلالِهِ ، فقالَ : أنتُم أولياءُ اللهِ تعالىٰ حقّاً ، ومعكُم أُمِرتُ أن أُقِيمَ)[1] .

فَصْلٌ

[في المحبةِ عندَ العارفِ باللهِ]

العارفُ لا يُحِبُّ إلَّا اللهَ تعالىٰ ، فإن أحبَّ غيرَهُ . . **فيُحِبُّهُ للهِ** ؛ إذ قد يُحِبُّ المُحِبُّ عبدَ المحبوبِ وأقاربَهُ ، وبلدَهُ وثيابَهُ ، وصنعتَهُ وتصنيفَهُ ، وكلَّ ما هوَ منهُ وإليهِ بسببٍ ، وكلُّ ما في الوجودِ . . صنعُ اللهِ عزَّ وجلَّ وتصنيفُهُ ، وكلُّ الخَلْقِ . . عبادُ اللهِ تعالىٰ .

فإن أحبَّ الرَّسولَ . . أحبَّهُ لأنَّهُ رسولُ محبوبِهِ .

وإن أحبَّ الصَّحابةَ . . فلِأَنَّهُم محبوبو رسولِهِ ، ولأنَّهُم مُحِبُّوهُ وعبيدُهُ ، والمواظبونَ علىٰ طاعتِهِ .

وإن أحبَّ طعاماً . . فلِأَنَّهُ يُقوِّي مَركبَهُ الذي بهِ يَصِلُ إلىٰ محبوبِهِ ؛ أعني : البدنَ .

وإن أحبَّ الدُّنيا . . فلِأَنَّها زادُهُ إلىٰ محبوبِهِ .

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٥٦/٢) ، ورواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٨) .

وإنْ أحبَّ النَّظرَ إلى الأزهارِ والأنهارِ ، والأنوارِ والصُّورِ الجميلةِ . . فلِأَنَّها صنعةُ محبوبِهِ ، وهيَ دلالاتٌ علىٰ جمالِهِ وجلالِهِ ، ومُذكِّراتٌ لصفاتِ المحامدِ التي هيَ المحبوبةُ في ذاتِها .

وإن أحبَّ المُحسِنَ إليهِ ، والمُعلِّمَ إيَّاهُ علومَ الدِّينِ . . فيُحِبُّهُ لأنَّهُ واسطةٌ بينَهُ وبينَ محبوبِهِ في إيصالِ علمِهِ وحكمتِهِ إليهِ ، ويَعلَمُ أنَّهُ الذي قَيَّضَهُ لتعليمِهِ وإرشادِهِ ، والإنفاقِ عليهِ مِنْ مالِهِ ، وأنَّهُ لولا تسليطُ الدَّواعي إليهِ واضطرارُهُ بسلسلةِ البواعثِ والأغراضِ إلىٰ إرشادِهِ والإنفاقِ عليهِ . . لَمَا فعلَهُ .

وأعظمُ الخَلْقِ إحساناً إلينا . . رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وللهِ المِنَّةُ والفضلُ بخلقِهِ وبعثِهِ ، كما قالَ : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴿١٦٤﴾ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴿٢﴾ ﴾ .

فما الرَّسولُ إلَّا عبدٌ مُسخَّرٌ مبعوثٌ ، محمولٌ علىٰ تبليغِ الرِّسالةِ بالاضطرارِ ؛ ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

وتأمَّلْ (سورةَ النَّصرِ) ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ ، فقد أنزلَهُ منزلةَ النَّظَّارةِ ، وقالَ : إذا رأيتَ عبادَ اللهِ

يدخلونَ في دينِ اللهِ . . فقلْ بحمدِ اللهِ لا بحمدي ، وهوَ معنى التَّسبيحِ بحمدِ ربِّهِ ، فإنِ التفتَ قلبُكَ إلىٰ نفسِكَ وسعيِكَ . . فاستغفرْهُ ليتوبَ عليكَ ، واعلمْ أنَّهُ ليسَ لكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ .

ومِنْ ها هنا نظرَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ وصلَ كتابُ خالدٍ رضيَ اللهُ عنهُ بعدَ فتحِ اليمامةِ : (مِنْ خالدٍ سيفِ اللهِ المسلولِ على المشركينَ ، إلىٰ أبي بكرٍ أميرِ المؤمنينَ) . . فقالَ : إن نصرَ اللهُ المسلمينَ . . نظرَ خالدٌ إلىٰ تلقيبِ نفسِهِ وتسميتِها سيفاً مسلولاً على المشركينَ ، ولو لاحظَ الحقَّ كما هوَ . . لعَلِمَ أن ليسَ ذٰلكَ بسيفِهِ ، ولٰكنْ للهِ تعالىٰ سِرٌّ في إرادتِهِ نُصْرَةَ الإسلامِ ، فينصرُهُ بخَطْرةٍ واحدةٍ ، وهوَ خاطرُ رعبٍ يلقيهِ في قلبِ كافرٍ فيَنهزِمُ ، وينظرُ إليهِ غيرُهُ فيَنهزِمُ وتَعُمُّ الهزيمةُ ، فيَظُنُّ خالدٌ ومَنْ هوَ في مثلِ حالِهِ أنَّهُ أعلىٰ كلمةَ الإسلامِ بصرامتِهِ وحِدَّةِ سيفِهِ[1] .

ويَطَّلِعُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ومَنْ هوَ في مثلِ حالِهِ مِنَ الصِّدِّيقينَ والأولياءِ علىٰ حقيقةِ الحالِ ، ويَعلَمُ حاجةَ خالدٍ إلى الاستغفارِ ، وأن يُسبِّحَ بحمدِ ربِّهِ إذا رأىٰ ذٰلكَ ، كما أُمِرَ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

---

(١) هٰذه حكايةُ المعنى الذي كان سببَ عزل سيدنا عمر لسيدنا خالد رضي الله عنهما ؛ وقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٤٥٣٤) عن الحسن قال : (لما بلغَ عمرَ قولُ خالد بن الوليد . . قال : لأنزعنَّ خالداً ولأنزعنَّ المثنىٰ ؛ حتىٰ يعلما أن الله ينصر دينه ، ليس إياهما) ، وروىٰ أيضاً (٣٤٥٣٢) أنه لما كان القائد أبا عبيدة رضي الله عنه . . جاءه بشير فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أبشر بنصر الله والفتح ، فقال عمر : (الله أكبر ، رب قائل : لو كان خالد بن الوليد !!) .

فإذاً ؛ لا مُوجِبَ للمحبَّةِ إلَّا أمرانِ :

أحدُهُما : الإحسانُ .

والآخَرُ : غايةُ الجلالِ والجمالِ بكمالِ الجودِ والحكمةِ ، والعلمِ والقدرةِ ، والتَّقديسِ مِنَ العيبِ والنَّقصِ .

ولا إحسانَ إلَّا منهُ ، ولا جلالَ ولا جمالَ ولا قدسَ إلَّا لهُ ؛ فكلُّ ما في العالَمِ مِنْ حُسْنٍ وإحسانٍ . . فهوَ حسنةٌ مِنْ حسناتِ جُودِهِ ، يسوقُها إلىٰ عبادِهِ بخَطْرةٍ واحدةٍ يخلقُها في قلبِ المُحسَنِ ، فكلُّ ما في العالَمِ مِنْ صورٍ مليحةٍ ، وهيئةٍ جميلةٍ ، تُدرَكُ بعينٍ أو سمعٍ أو شمٍّ . . فأثرٌ مِنْ آثارِ قدرتِهِ ، ولَمَّةٌ مِنْ أنوارِ حضرتِهِ [١] ، وهيَ بعضُ معاني جمالِهِ وجلالِهِ .

فليتَ شِعري !! مَنْ عَرفَ بالمشاهدةِ المُحقَّقةِ والبرهانِ القاطعِ جميعَ هٰذا . . كيفَ يُتصوَّرُ أن يَلتفِتَ إلىٰ غيرِ اللهِ تعالىٰ ، أو يُحِبَّ غيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟!

فصل

[في أنَّ غايةَ لذَّةِ العارفِ في المعرفةِ باللهِ تعالىٰ]

اعلمْ : أنَّ لذَّةَ كلِّ عينٍ النَّظرُ ، ولذَّةَ العارفِ في الدُّنيا في مطالعةِ جمالِ الحضرةِ الرُّبوبيَّةِ ؛ إذ هيَ أعظمُ مِنْ كلِّ لذَّةٍ يُتصوَّرُ أن تكونَ

(١) اللَّمَّةُ : الهمَّة والخطرة تقع في القلب .

في الدُّنيا سواها ؛ وذٰلكَ لأنَّ اللَّذَّةَ علىٰ قَدْرِ الشَّهوةِ ، وقوَّةَ الشَّهوةِ علىٰ قَدْرِ الملاءمةِ والموافقةِ معَ المُشتهَىٰ .

وكما أنَّ أوفقَ الأشياءِ للأبدانِ الأغذيةُ . . فأوفقُ الأشياءِ للقلوبِ المعرفةُ ؛ **فالمعرفةُ غذاءُ القلبِ** ، وأعني بالقلبِ : الرُّوحَ الرَّبَّانيَّ الذي قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ ، فأضافَهُ إلىٰ نفسِهِ .

وهٰذا الرُّوحُ لا يكونُ للبهائمِ ولِمَنْ هوَ في مثلِ حالِها مِنَ الإنسِ ، بل يَختصُّ بهِ الأنبياءُ والأولياءُ .

ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ .

والمعرفةُ أوفقُ الأشياءِ لهٰذا الرُّوحِ ؛ لأنَّ الأوفقَ لكلِّ شيءٍ خاصِّيَّتُهُ ، فالصَّوتُ الطَّيِّبُ لا يُوافِقُ البصرَ ؛ لأنَّهُ ليسَ مِنْ خاصِّيَّتِهِ ، **وخاصِّيَّةُ الرُّوحِ الإنسانيِّ معرفةُ الحقائقِ** .

وكلَّما كانَ المعلومُ أشرفَ . . كانَ العلمُ بهِ ألذَّ ، ولا أشرفَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ولا أجلَّ منهُ ، فمعرفتُهُ ومعرفةُ صفاتِهِ وذاتِهِ ، وعجائبِ مُلكِهِ وملكوتِهِ . . ألذُّ الأشياءِ عندَ القلبِ ؛ لأنَّ شهوةَ ذٰلكَ أشدُّ الشَّهواتِ ؛ ولذٰلكَ تُخلَقُ آخراً بعدَ سائرِ الشَّهواتِ ، **وكلُّ شهوةٍ تأخَّرَتْ فهيَ أقوىٰ ممَّا قبلَها** .

فأوَّلُ ما يُخلَقُ شهوةُ الطَّعامِ ، ثمَّ تُخلَقُ شهوةُ الوِقاعِ ، فيتركُ

شهوةَ الطَّعامِ لأجلِها ، ويَستحقِرُها فيها ، ثمَّ تُخلَقُ شهوةُ الرِّئاسةِ والجاهِ والغَلَبةِ ، ويَستحقِرُ فيها شهوةَ المَنكَحِ والمَطعَمِ ، ثمَّ تُخلَقُ شهوةُ المعرفةِ التي هيَ استيلاءٌ علىٰ كلِّ الموجوداتِ ، فيَستحقِرُ فيها الجاهَ والرِّئاسةَ ، وهيَ آخرُ شهَواتِ الدُّنيا وأقواها[1] .

وكما أنَّ الصَّبيَّ يُنكِرُ شهوةَ الوِقاعِ ، ويَتعجَّبُ ممَّنْ يَتحمَّلُ مؤنةَ النِّكاحِ لأجلِها ، فإذا بلغَ شهوةَ الوقاعِ . . أكبَّ عليها ، وأنكرَ شهوةَ الجاهِ والرِّئاسةِ ، ولم يُبالِ بفواتِها في قضاءِ شهوةِ الفرجِ . . فكذٰلكَ المشغوفُ بشهوةِ الجاهِ والرِّئاسةِ ، يُنكِرُ لذَّةَ المعرفةِ ؛ إذ لم تُخلَقْ فيهِ بعدُ شهوتُها .

وقد تنتهي شهوةُ شرهِهِ على الجاهِ والرِّئاسةِ إلىٰ مرضِ قلبِهِ ، حتَّىٰ لا يَقبلَ شهوةَ معرفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ أصلاً ، كما يَفسُدُ مِزاجُ المريضِ ، فتسقطُ شهوتُهُ للغذاءِ حتَّىٰ يموتَ ، وقد يَنعكِسُ طبعُهُ ، فيشتهي الطِّينَ والأشياءَ المُضِرَّةَ المُهلِكةَ ، وهيَ مُقدِّماتُ الموتِ .

فكذٰلكَ مرضُ القلبِ ؛ قد ينتهي إلىٰ حدٍّ يُنكِرُ المعرفةَ ويُبغِضُها ، ويُبغِضُ أهلَها والمُقبِلينَ عليها ، ولا يُدرِكُ إلَّا لذَّةَ الرِّئاسةِ والمَطعَمِ والمَنكَحِ ؛ وذٰلكَ هوَ الميتُ الذي لا يَقبَلُ العلاجَ ، وفي مثلِهِ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ

---

(1) قال المصنف في « جواهر القرآن » (ص ٨٢) : (واعلم : أنه لو خُلِقَ فيك شوق إلىٰ لقاء الله ، وشهوة إلىٰ معرفة جلاله ، أصدقَ وأقوىٰ من شهوتك للأكل والنكاح . . لكنت تؤثر جنة المعارف ورياضها وبساتينها على الجنة التي فيها قضاء الشهوات المحسوسة) .

ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ، وفيهم قال تعالىٰ : ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

فَصْلٌ

[في بيانِ غايةِ المَلذَّاتِ في الدارِ الآخرةِ]

هٰذهِ المعرفةُ وإن عظمَتْ لذَّتُها . . فلا نسبةَ لها إلىٰ لذَّةِ النَّظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ الكريمِ في الدَّارِ الآخرةِ ، وذٰلكَ لا يُتصوَّرُ في الدُّنيا ؛ لسِرٍّ لا يُمكِنُ الآنَ كشفُهُ .

ولا ينبغي أن يُفهَمَ مِنَ النَّظرِ ما يفهمُهُ العوامُّ وبعضُ المُتكلِّمينَ ، فيحتاجُ في تقديرِهِ إلىٰ جهةٍ ومقابلةٍ ؛ فذٰلكَ نظرُ مَنْ أقعدَهُ القصورُ في بُحبوحةِ عالَمِ الشَّهادةِ ، حتَّىٰ لم يُجاوِزِ المحسوساتِ التي هيَ مُدركاتُ البهائمِ .

لٰكنْ ينبغي أن تفهمَ : أنَّ الحضرةَ الرُّبوبيَّةَ تنطبعُ صورتُها وترتيبُها العجيبُ علىٰ ما هيَ عليهِ مِنَ البهاءِ والعَظَمةِ والجلالِ والمجدِ . . في قلبِ العارفِ ، كما تنطبعُ مثلاً صورةُ العالَمِ المحسوسِ في دماغِكَ ، فكأنَّكَ تنظرُ إليهِ وإن غمَّضتَ عينَكَ ، فإن فتحتَ العينَ . . وجدتَ الصُّورةَ المُبصَرةَ مثلَ الصُّورةِ المُتخيَّلَةِ قبلَ فتحِ العينِ ، لا تُخالِفُها في شيءٍ ، **إلَّا أنَّ الإبصارَ في غايةِ الوضوحِ بالنِّسبةِ إلى التَّخيُّلِ** .

وكذٰلكَ ينبغي أن تعلمَ أنَّ في إدراكِ ما لا يَدخُلُ في الخيالِ والحسِّ أيضاً . . درجتينِ متفاوتتينِ في الوضوحِ غايةَ التَّفاوتِ ، ونسبةُ الثَّانيةِ إلى الأولىٰ كنسبةِ الإبصارِ إلى التَّخيُّلِ ، فتكونُ الثَّانيةُ غايةَ الكشفِ ، فتُسمَّىٰ لذٰلكَ مشاهدةً ورؤيةً ، والرُّؤيةُ لم تُسَمَّ رؤيةً لأنَّها في العينِ ؛ إذ لو خُلِقَتْ في الجبهةِ . . لكانَتْ رؤيةً ، بل لأنَّها غايةُ الكشفِ .

وكما أنَّ تغميضَ الأجفانِ حجابٌ عن غايةِ الكشفِ في المُبصَرِ . . فكدورةُ الشَّهَواتِ وشواغلُ هٰذا القالَبِ المُظلِمِ حجابٌ عن غايةِ المشاهدةِ ؛ ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ .

فإذا ارتفعَ هٰذا الحجابُ بعدَ الموتِ . . انقلبَتِ المعرفةُ بعينِها مشاهدةً ، وتكونُ لكلِّ واحدٍ علىٰ قَدْرِ معرفتِهِ ؛ فلذٰلكَ تزيدُ لذَّةُ أولياءِ اللهِ سبحانَهُ في النَّظرِ علىٰ لذَّةِ غيرِهِم ، ولذٰلكَ يَتجلَّى اللهُ تعالىٰ لأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنه خاصَّةً ، ويَتجلَّىٰ للنَّاسِ عامَّةً .

وكذٰلكَ لا يراهُ إلَّا العارفونَ ؛ لأنَّ المعرفةَ بَذْرُ النَّظرِ ، بل هيَ التي تَنقلِبُ مشاهدةً ، كما يَنقلِبُ التَّخيُّلُ إبصاراً ؛ فلذٰلكَ لا يقتضي مقابلةً وجهةً .

وسِرُّ هٰذا طويلٌ ، فاطلبْهُ مِنْ (كتابِ المحبَّةِ) مِنْ كُتُبِ « الإحياءِ »[1] .

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٨/٤٢٢) .

فَصْلٌ

[في أنَّ تمامَ التجلِّي لحدقةِ القلبِ في الآخرةِ]

لو كانَ لكَ معشوقٌ وأنتَ تراهُ مِنْ وراءِ سِترٍ رقيقٍ في وقتِ الإسفارِ ، وفي حالةِ ضَعفِ الضَّوءِ ، وفي حالةِ ضَعفِ العِشقِ ، وفي حالةٍ اجتمعَ عليكَ تحتَ ثوبِكَ عقاربُ وزنابيرُ تَلدغُكَ وتَشغَلُكَ . . فلا يخفىٰ أنَّ لذَّتَكَ مِنْ مشاهدةِ معشوقِكَ تَضعُفُ .

فلو أشرقَتِ الشَّمسُ دَفعةً واحدةً ، وارتفعَ السِّترُ الرَّقيقُ ، وانصرفَتْ عنكَ العقاربُ والزَّنابيرُ ، وهجمَ عليكَ العشقُ المُفرِطُ البليغُ . . فلا نسبةَ لهٰذهِ اللَّذةِ العظيمةِ التي تَحصُلُ الآنَ إلىٰ ما كانَ قبلَ ذٰلكَ .

وكذٰلكَ فافهمْ أنَّهُ لا نسبةَ للذَّةِ النَّظرِ إلىٰ لذَّةِ المعرفةِ ، بل هيَ أعظمُ منها كثيراً ؛ فالسِّترُ الرَّقيقُ قالَبُكَ ، والعقاربُ شواغلُ الدُّنيا وغمومُها وشهَواتُها ، وهجومُ العشقِ شدَّةُ الشَّهوةِ ؛ لانقطاعِ المُضعِفاتِ والمُنغِّصاتِ عنها ، وإشراقُ الشَّمسِ هوَ استعدادُ حدقةِ القلبِ لاحتمالِ تمامِ التَّجلِّي ، فإنَّها في هٰذهِ الحياةِ لا تَحتمِلُهُ ، كما لا يَحتمِلُ بصرُ الخُفَّاشِ نورَ الشَّمسِ .

فَصْلٌ

[في تمييزِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ]

إنَّما ضعفَتْ شهوةُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ لزحمةِ سائرِ الشَّهَواتِ ،

وإنَّما خفيَتْ معرفةُ اللهِ تعالىٰ معَ جلائِها لشدَّةِ ظهورِها .

ومثالُهُ : أنَّكَ تَعلَمُ أنَّ أظهرَ الأشياءِ المحسوساتُ ، ومنها المُبصَراتُ ، ومنها النُّورُ الذي بهِ تَظهَرُ كلُّ الأشياءِ ، ثمَّ لو كانَتِ الشَّمسُ دائمةً لا تغيبُ ، ولا يقعُ لها ظلٌّ . . لكنتَ لا تَعرِفُ وجودَ النُّورِ ، وكنتَ تنظرُ إلى الألوانِ فلا ترىٰ إلَّا الحُمرةَ والسَّوادَ والبياضَ .

فأمَّا النُّورُ . . فلا تُدرِكُهُ إلَّا بأن تغيبَ الشَّمسُ ، أو يقعَ لها حجابٌ بما لهُ ظلٌّ ، فتُدرِكُ ـ باختلافِ الأحوالِ بينَ الظُّلمةِ والضِّياءِ ـ أنَّ النُّورَ شيءٌ آخَرُ ، يَعرِضُ للألوانِ فتصيرُ مُبصَرةً بهِ .

ولو تُصوِّرَ للهِ سبحانَهُ غَيبةٌ ، أو لأنوارِ قدرتِهِ حجابٌ عن بعضِ الأشياءِ . . لأدركتَ مِنَ التَّفاوتِ ما تُضطَرُّ معَهُ إلى المعرفةِ ، ولٰكنَّ الموجوداتِ كلَّها لمَّا تساوَتْ في الشَّهادةِ لخالقِها بالوَحدانيَّةِ مِنْ غيرِ تفاوتٍ . . خفيَ الأمرُ لشدَّةِ جلائِهِ .

ولو تُصوِّرَ انقطاعُ أنوارِ قدرتِهِ عنِ السَّماواتِ والأرضِ . . لانهدَّتْ وانمحقَتْ ، وأدركتَ في الحالِ مِنَ التَّفاوتِ ما تُضطَرُّ إلى المعرفةِ بالقدرةِ والقادرِ .

وهٰذا مثالٌ ذكرناهُ ، وتحتَهُ أسرارٌ ، وفيهِ مواقعُ غلطٍ ، فاجتهدْ لعلَّكَ تَقِفُ علىٰ أسرارِهِ ، ولا تَرتبِكْ في مواقعِ غلطِهِ ، فمنهُ غلطُ مَنْ قالَ : (إنَّهُ في كلِّ مكانٍ) ، وكلُّ مَن نسبَهُ إلىٰ مكانٍ أو جهةٍ

فقد زلَّ وضلَّ ، ورجعَ غايةُ نظرِهِ إلى التَّصرُّفِ في محسوساتِ البهائمِ ، ولم يُجاوِزِ الأجسامَ وعلائقَها ، وأوَّلُ درجاتِ الإيمانِ مجاوزتُها ، فبهِ يصيرُ الإنسانُ إنساناً ، فضلاً عن أن يصيرَ مؤمناً .

فَصْلٌ

[في بيانِ بعضِ علاماتِ المحبَّةِ]

اعلمْ : أنَّ للمحبَّةِ علاماتٍ كثيرةً يطولُ إحصاؤُها .

ومِنْ علاماتِها : تقديمُ أمرِ اللهِ تعالىٰ علىٰ هوى النَّفْسِ ، والتَّوقِّي بالورعِ ، ورعايةُ حدودِ الشَّرعِ .

ومِنْ علاماتِها : الشَّوقُ إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، والخلوُّ عن كراهيَّةِ الموتِ إلَّا مِنْ حيث يَتشوَّقُ إلىٰ زيادةِ المعرفةِ ؛ فإنَّ لذَّةَ المشاهدةِ بقَدْرِ كمالِ المعرفةِ ، فإنَّها بَذْرُ المشاهدةِ ، فتَختلِفُ ـ لا محالةَ ـ باختلافِها .

ومِنْ علاماتِها : الرِّضا بالقضاءِ ومواقعِ قَدَرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلنذكرْ معنى الرِّضا ؛ حتَّىٰ لا يَغترَّ الإنسانُ بما يُصادِفُ في نفسِهِ مِنْ خطَراتٍ تَخطرُ ، فيظنَّ أنَّها حقيقةُ الحبِّ للهِ تعالىٰ ، فإنَّ ذٰلكَ عزيزٌ جدّاً .

❊ ❊ ❊

الأصل التّاسع

في الرّضا بالقضاء

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴿١١٩﴾ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا أَحَبَّ ٱللهُ عَبْداً . . ٱبْتَلَاهُ ؛ فَإِنْ صَبَرَ . . ٱجْتَبَاهُ ، وَإِنْ رَضِيَ . . ٱصْطَفَاهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱعْبُدِ ٱللهَ تَعَالَىٰ بِٱلرِّضَا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ . . فَفِي ٱلصَّبْرِ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لطائفةٍ : « مَا أَنْتُمْ ؟ » فقالوا : مؤمنونَ ، فقالَ : « وَمَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ ؟ » فقالوا : نَصبرُ على البلاءِ ، ونشكرُ عندَ الرَّخاءِ ، ونرضىٰ بمواقعِ القضاءِ ، فقالَ : « مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ ٱلْكَعْبَةِ »(٣) ، وفي روايةٍ أنَّهُ قالَ : « حُكَمَاءُ عُلَمَاءُ ، كَادُوا مِنْ فِقْهِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ »(٤) .

وممَّا أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السَّلامُ : (ما لأوليائي

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/٥٣) ، وهو عند الديلمي في « الفردوس » (٩٧١) من حديث سيدنا علي كرم الله وجهه .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٥٢٨) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ضمن الوصية المشهورة بنحوه .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٤٢٣) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٧٩) من حديث سيدنا سويد بن الحارث رضي الله عنه .

وٱلهَمَّ بالدُّنيا ؟ إنَّ الهَمَّ يُذهِبُ حلاوةَ مُناجاتي مِنْ قلوبِهِم ، يـا داوودُ ؛ إنَّ محبَّتي مِنْ أوليائي أنْ يكونوا رُوحانيِّينَ لا يَغتمُّونَ)(١) .

وقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : أَنَا ٱللهُ ، لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا ، فَمَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَىٰ بَلَائِي ، وَلَمْ يَشْكُرْ نَعْمَائِي ، وَلَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي . . فَلْيَطْلُبْ رَبّاً سِوَايَ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : خَلَقْتُ ٱلْخَيْرَ وَخَلَقْتُ لَهُ أَهْلاً ، وَخَلَقْتُ ٱلشَّرَّ وَخَلَقْتُ لَهُ أَهْلاً ؛ فَطُوبَىٰ لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلْخَيْرِ وَيَسَّرْتُ ٱلْخَيْرَ عَلَىٰ يَدَيْهِ ، وَوَيْلٌ لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلشَّرِّ وَيَسَّرْتُ ٱلشَّرَّ عَلَىٰ يَدَيْهِ ، وَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ لِمَنْ قَالَ : لِمَ وَكَيْفَ ؟ »(٣) .

وأوحى اللهُ سبحانَهُ إلىٰ داوودَ عليهِ السَّلامُ : (يا داوودُ ؛ تُريدُ وأُريدُ ، وإنَّما يكونُ ما أُريدُ ؛ فإن سلَّمتَ لِمَا أُريدُ . . كفيتُكَ ما تُريدُ ، وإن لم تُسلِّمْ لِمَا أُريدُ . . أتعبتُكَ فيما تُريدُ ، ثمَّ لا يكونُ إلَّا ما أُريدُ)(٤) .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٧٩) .
(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٢/٣٢٠) من حديث سيدنا أبي هند الداري رضي الله عنه بنحوه .
(٣) أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/٤١) ، ورواه دون الجملة الأخيرة منه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٢/١٧٣) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .
(٤) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/٦٥٣) : (نقله صاحب « القوت ») .

فَصْلٌ

[في بيانِ أنَّ علامةَ المحبةِ الرِّضا بالبلاءِ]

قد أنكرَ الرِّضا جماعةٌ ، وقالوا : لا يُتصوَّرُ الرِّضا بما يُخالِفُ الهوىٰ ، وإنَّما يُتصوَّرُ الصَّبرُ فقطْ ، وإنَّما أُتُوا مِنْ إنكارِ المحبَّةِ ، ونحنُ نُحقِّقُها .

وعلامتُها : الرِّضا بالبلاءِ ، وبما يُخالِفُ الطَّبعَ والهوىٰ ؛ **وذٰلكَ يُتصوَّرُ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ** :

أحدُها : أن تُدهِشَهُ مشاهدةُ الحِبِّ وإفراطُها عنِ الإحساسِ بالألمِ : وذٰلكَ مُشاهَدٌ في حُبِّ المخلوقينَ ، وفي غلبةِ الشَّهوةِ والغضبِ ، حتَّىٰ إنَّ الغضبانَ تصيبُهُ الجراحةُ فلا يُحِسُّ بها في الحالِ ، وحتَّىٰ إنَّ الحريصَ تصيبُهُ شوكةٌ في رِجْلِهِ فلا يُحِسُّ بها ، ثمَّ إذا سكنَ حرصُهُ ، وظَفِرَ بمرادِهِ . . عَظُمَ ألمُهُ .

وإذا تُصوِّرَ أن يَنغمِرَ ألمٌ يسيرٌ بحبٍّ يسيرٍ . . تُصوِّرَ أن يَنغمِرَ ألمٌ كثيرٌ بحبٍّ قويٍّ بالغٍ ؛ **فإنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ الحُبِّ والألَمِ يقبلُ الزِّيادةَ والشِّدَّةَ** .

ومهما تُصوِّرَ هٰذا في عشقٍ يرجعُ إلى الميلِ إلىٰ صورةٍ مُركَّبةٍ مِنْ لحمٍ ودمٍ ، مشحونةٍ بالأقذارِ والخبائثِ ، وإنَّما تُدرَكُ بعينٍ ظاهرةٍ يَغلِبُ الغلطُ عليها ، حتَّىٰ قد ترى الكبيرَ صغيراً ، والبعيدَ قريباً ، والقبيحَ جميلاً . . فكيفَ لا يُتصوَّرُ في إدراكِ جمالِ

الحضرةِ الرُّبوبيَّةِ ، والجلالِ الأزليِّ الأبديِّ ، الذي لا يُتصوَّرُ انقطاعُهُ ونقصانُهُ ، المُدرَكُ بالبصيرةِ الباطنةِ ، التي هيَ أصدقُ وأوضحُ عندَ أهلِها مِنَ البصرِ الظَّاهِرِ ؟!

ومِنْ هٰذا الأصلِ قالَ الجنيدُ رحمَهُ اللهُ : قلتُ لسريٍّ السَّقَطيِّ رحمَهُ اللهُ : **هل يجدُ المُحِبُّ ألمَ البلاءِ** ؟ قالَ : (لا) قلتُ : وإن ضُرِبَ بالسَّيفِ ؟ قالَ : (لا ، وإن ضُرِبَ بالسَّيفِ سبعينَ ضربةً)[١] .

وقالَ بعضُهُم : (أحببتُ كلَّ شيءٍ لحبِّهِ ، حتَّىٰ لو أحبَّ النَّارَ . . أحببتُ الدُّخولَ في النَّارِ) .

وأنشدوا في هٰذا المعنىٰ[٢] : [من الطويل]

دَعِ ٱلْحِبَّ يَصْلَىٰ بِٱلْأَذَىٰ مِنْ حَبِيبِهِ فَكُلُّ أَذىً مِمَّنْ يُحِبُّ سُرُورُ
غُبَارُ قَطِيعِ ٱلشَّاءِ فِي عَيْنِ ذِئْبِهَا إِذَا مَا قَفَا آثَارَهُنَّ ذَرُورُ

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (ما بقيَ لي فرحٌ إلَّا في مواقعِ قَدَرِ اللهِ تعالىٰ)[٣] .

وضاعَ لبعضِ الصُّوفيَّةِ ولدٌ صغيرٌ ثلاثةَ أيَّامٍ ، فقيلَ لهُ : لو

---

(١) بنحوه أورده الطوسي في « اللمع » (ص ٣٨١) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٤٣) .
(٢) البيتان لأحمد بن أبي سلمة الكاتب كما رواهما له الصولي في « الأوراق » (٢٥٣/١) ، وفيه : (الصب) بدل (الحب) ، والذَّرور : عطر يجاء به من الهند .
(٣) ذكره الحارث المحاسبي في « الرعاية » (ص ٢٦٢) ، وبنحوه رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٤٦) .

سألتَ اللهَ تعالىٰ أن يَردَّهُ عليكَ ، فقالَ : (اعتراضي عليهِ فيما قضىٰ . . أشدُّ عليَّ مِنْ ذهابِ ولدي)[1] .

الوجهُ الثَّاني مِنَ الرِّضا : أن يُحِسَّ بالألمِ ، ويَكرَهَهُ بالطَّبعِ ، ولٰكنْ يرضىٰ بهِ بعقلِهِ وإيمانِهِ ؛ لمعرفتِهِ بجزالةِ الثَّوابِ على البلاءِ ، كما يرضى المريضُ بألمِ الفصدِ وشربِ الدَّواءِ ؛ لعلمِهِ بأنَّهُ سببُ الشِّفاءِ ، حتَّىٰ إنَّهُ ليَفرَحُ بمَنْ يُهدي إليهِ الدَّواءَ وإن كانَ بَشِعاً ، وكذٰلكَ يرضى التَّاجرُ بمَشقَّةِ السَّفرِ وهوَ خلافُ طبعِهِ ، وهٰذا أيضاً يُشاهَدُ مثلُهُ في الأعراضِ الدُّنيويَّةِ ، فكيفَ يُنكَرُ في السَّعادةِ الأخرويَّةِ ؟!

ورُوِيَ : أنَّ امرأةَ فتحٍ المَوْصليِّ عَثَرَتْ ، فانقطعَ ظُفُرُها فضَحِكَتْ ، فقيلَ لها : أمَا تجدينَ ألمَ الوَجَعِ ؟ فقالَتْ : (إنَّ لذَّةَ ثوابِهِ أزالَتْ عن قلبي مَرارةَ وجعِهِ)[2] .

فإذاً ؛ مَنْ أيقنَ أنَّ ثوابَ البلاءِ أعظمُ ممَّا يقاسيهِ . . لم يَبْعُدْ أن يرضىٰ بهِ .

الوجهُ الثَّالثُ : أن يعتقدَ أنَّ للهِ تعالىٰ تحتَ كلِّ أُعجوبةٍ لطيفةً ، بل لطائفَ ؛ وذٰلكَ يُخرِجُ عن قلبِهِ الاعتراضَ بـ (لِمَ ؟)

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/٤٣) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٠٦١) .

و(كيفَ ؟) حتَّىٰ لا يَتعجَّبَ ممَّا يجري على العالَمِ ممَّا يظنُّهُ الجاهلُ تشويشاً واضطراباً وميلاً عنِ الاستقامةِ ، ويَعلمَ أنَّ تعجُّبَهُ كتعجُّبِ موسىٰ مِنَ الخَضِرِ ـ عليهِما السَّلامُ ـ لمَّا خرقَ سفينةَ الأيتامِ ، وقتلَ الغلامَ ، وأعادَ بناءَ الجِدارِ ، كما في (سورةِ الكهفِ) [1] ، فلمَّا كشفَ الخَضِرُ عنِ السِّرِّ الذي أُطلِعَ عليهِ . . سقطَ تعجُّبُهُ ، وكانَ تعجُّبُهُ بناءً علىٰ ما أُخفِيَ عنهُ مِنْ تلكَ الأسرارِ ، وكذٰلكَ أفعالُ اللهِ تعالىٰ .

مثالُهُ : ما حُكِيَ عن رجلٍ مِنَ الرَّاضينَ : أنَّهُ كانَ يقولُ في كلِّ ما يصيبُهُ : (الخِيرةُ فيما قَدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ) ، وكانَ في باديةٍ ومعَهُ أهلُهُ ، وليسَ لهُ إلَّا حمارٌ يَحمِلُ عليهِ خِباءَهُ ، وكلبٌ يَحرُسُهُمْ ، وديكٌ يُوقِظُهُمْ .

فجاءَ ثعلبٌ وأخذَ الدِّيكَ ، فحزنَ أهلُهُ ، فقالَ : (خِيرةٌ) .

وجاءَ ذئبٌ ، فقتلَ الحمارَ ، فحزنَ أهلُهُ ، فقالَ : (خِيرةٌ) .

ثمَّ أُصيبَ الكلبُ فماتَ ، فقالَ : (خِيرةٌ) .

فتَعجَّبَ أهلُهُ مِنْ ذٰلكَ .

حتَّىٰ أصبحوا وقد سُبِيَ مَنْ حولَهُم ، واستُرِقَّ أولادُهُمْ ، وكانَ قد عُرِفَ مكانُهُم بصوتِ الدِّيكِ ، ومكانُ بعضِهِم بنُباحِ الكلبِ ، ومكانُ بعضِهِم بنهيقِ الحمارِ ، فقالَ : (قد رأيتُم أنَّ الخِيرَةَ

(١) سورة الكهف ؛ الآيات (٦٥ ـ ٨٢) .

فيما قَدَّرَهُ اللهُ سبحانَهُ ، فلو لم يُهلِكْهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ . . لهلكتُم وهلكنا)[1] .

ورُوِيَ : أنَّ نبيّاً كانَ يَتعبَّدُ في جبلٍ ، وكانَ بالقربِ منهُ عينٌ ، فاجتازَ بها فارسٌ وشربَ ، ونسيَ عندَها صُرَّةً فيها ألفُ دينارٍ ، وجاءَ آخَرُ فأخذَ الصُّرَّةَ ، ثمَّ جاءَ رجلٌ فقيرٌ ، علىٰ ظهرِهِ حِزْمَةُ حطبٍ ، فشَرِبَ واستلقىٰ ليستريحَ ، فرَجَعَ الفارسُ في طلبِ الصُّرَّةِ فلم يرها ، فأخذَ الفقيرَ ، فطالبَهُ وعذَّبَهُ ، فلم يَجِدْها عندَهُ فقتلَهُ .

فقالَ ذٰلكَ النَّبيُّ : (إلٰهي ؛ ما هٰذا أخذَ الصُّرَّةَ ، إنَّما أخذَها ظالمٌ آخَرُ ، وسلطتَ هٰذا الظَّالمَ علىٰ هٰذا الفقيرِ حتَّىٰ قتلَهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : اشتغِلْ بعبادتِكَ ؛ فليسَ معرفةُ أسرارِ المُلْكِ مِنْ شأنِكَ ، إنَّ هٰذا الفقيرَ كانَ قد قتلَ أبا الفارسِ ، فمكَّنتُهُ مِنَ القصاصِ ، وإنَّ أبا الفارسِ كانَ قد أخذَ ألفَ دينارٍ مِنْ مالِ آخذِ الصُّرَّةِ ، فرددتُها إليهِ مِنْ تركتِهِ) .

فمَنْ أيقنَ بأمثالِ هٰذهِ الأسرارِ . . لم يَتعجَّبْ مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ، وتَعجَّبَ مِنْ جهلِ نفسِهِ ، ولم يقلْ : (لمَ ؟) و(كيفَ ؟) فرضيَ بما دَبَّرَهُ اللهُ في ملكوتِهِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله وقضائه » (٢٨) .

وها هنا وجهٌ رابعٌ يَنشعِبُ عن محضِ المعرفةِ بكمالِ الجُودِ والحكمةِ ، وبكيفيَّةِ ترتيبِ الأسبابِ المُتوجِّهةِ إلى المُسبَّباتِ ، ومعرفةِ القضاءِ الأوَّلِ الذي هوَ كلمحِ البصرِ ، ومعرفةِ القَدْرِ الذي هوَ سببُ ظهورِ تفاصيلِ القضاءِ ، وأنَّها رُتِّبَتْ علىٰ أكملِ الوجوهِ وأحسنِها ، وليسَ في الإمكانِ أحسنُ منها وأكملُ ، ولو كانَ وٱدُّخِرَ . . لَكانَ بخلاً لا جُوداً ، أو عجزاً يُناقِضُ القدرةَ ، وينطوي تحتَ ذٰلكَ معرفةُ سِرِّ القَدَرِ .

ومَنْ أيقنَ بذٰلكَ . . لم ينطوِ ضميرُهُ إلَّا على الرِّضا بكلِّ ما يجري مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وشرحُ ذٰلكَ يطولُ ، ولا رخصةَ فيهِ أيضاً ، فلنتجاوزْهُ[1] .

فَصْلٌ

[في الرِّضا بالقضاءِ ، والحبِّ والبغضِ في اللهِ تعالىٰ]

لعلَّكَ تقولُ : كيفَ أجمعُ بينَ الرِّضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، وبينَ بغضِ أهلِ الكفرِ والعصيانِ ، وقد تُعُبِّدتُ بهِ شرعاً ، وذٰلكَ مرادُ اللهِ تعالىٰ فيهم ؟

فاعلمْ : أنَّ طائفةً مِنَ الضُّعفاءِ ظنُّوا أنَّ تركَ الأمرِ بالمعروفِ مِنْ جملةِ الرِّضا بالقضاءِ ، وسمَّوهُ حُسْنَ الخُلُقِ ، وهوَ جهلٌ محضٌ ، بل عليكَ أن ترضىٰ وأن تكرهَ جميعاً ، والرِّضا والكراهيَّةُ يَتضادَّانِ

---

(١) انظر « المقصد الأسنىٰ » (ص ٤٩) وما بعدها .

إذا تواردا علىٰ شيءٍ واحدٍ مِنْ وجهٍ واحدٍ ، ولا يتناقضُ أن يُقتَلَ عدوُّكَ الذي هوَ عدوُّ عدوِّكَ أيضاً ، فترضاهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ هوَ عدوُّكَ ، وتكرهُهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ عدوُّ عدوِّكَ ، فكذٰلكَ للمعصيةِ وجهانِ :

وجهٌ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ إنَّها بقضائِهِ ومشيئتِهِ ؛ فهوَ مِنْ هٰذا الوجهِ مرضيٌّ بهِ .

ووجهٌ إلى العاصي مِنْ حيثُ إنَّهُ صفتُهُ وكسبُهُ ، وعلامةُ كونِهِ ممقوتاً مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ فهوَ مِنْ هٰذا الوجهِ مكروهٌ .

وقد تَعبَّدَكَ اللهُ تعالىٰ ببُغْضِ مَنْ يُبغِضُهُ مِنَ المخالفينَ لأمرِهِ ، فعليكَ الرِّضا بما تعبَّدَكَ بهِ ، والامتثالَ لهُ .

ولو قالَ لكَ محبوبُكَ : إنِّي أريدُ أن أمتحنَ حبَّكَ ؛ بأن أضربَ عبدي وأُرهقَهُ إلىٰ أن يَشتِمَني ، فمَنْ أبغضَهُ . . فهوَ محبِّي ، ومَنْ أحبَّهُ . . فهوَ عدوِّي .

فيمكنُكَ أن تُبغِضَ عبدَهُ إذا شتمَهُ ، معَ أنَّكَ تَعلَمُ أنَّهُ الذي اضطرَّهُ إلى الشَّتمِ ، وكانَ ذٰلكَ مرادَهُ منهُ ؛ فتقولُ : أمَّا فعلُهُ في الشَّتمِ . . فإنِّي أرضىٰ بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ تدبيرُكَ في عبدِكَ ، ومرادُكَ ممَّنْ أردتَ إبعادَهُ ، وأمَّا شتمُهُ مِنْ حيثُ هوَ صفتُهُ وعلامةُ عداوتِهِ . . فإنِّي أُبغِضُهُ ؛ لأنِّي أُحبُّكَ ، فأُبغِضُ ـ لا محالةَ ـ مَنْ عليهِ علامةُ عداوتِكَ .

وهٰذهِ دقيقةٌ زلَّ فيها الضُّعفاءُ ، فلذٰلكَ يتهافتونَ فيها .

فَصْلٌ

[في أنَّ الرِّضا بقضاءِ اللهِ لا ينافيهِ اتخاذُ الأسبابِ]

كذٰلكَ ينبغي ألَّا تظنَّ أنَّ معنى الرِّضا بالقضاءِ تركُ الدُّعاءِ ، ولا تركُ السَّهمِ الذي أُرسِلَ إليكَ حتَّىٰ يصيبَكَ ، معَ قدرتِكَ علىٰ دفعِهِ بالتُّرسِ ، بل تَعبَّدَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ بالدُّعاءِ ؛ ليَستخرِجَ بهِ مِنْ قلبِكَ صفاءَ الذِّكرِ ، وخشوعَ القلبِ ورِقَّتَهُ ؛ لتَستعِدَّ بهِ لقَبُولِ الألطافِ والأنوارِ .

فمِنْ جملةِ الرِّضا بقضائِهِ : أن يُتوصَّلَ إلىٰ محبوباتِهِ بمباشرةِ ما جعلَهُ سبباً لهُ ، بل تركُ الأسبابِ مخالفةٌ لمحبوبِهِ ، ومناقضةٌ لرضاهُ .

فليسَ مِنَ الرِّضا للعطشانِ ألَّا يَمُدَّ اليدَ إلى الماءِ الباردِ ، زاعماً أنَّهُ رضيَ بالعطشِ الذي هوَ مِنْ قضاءِ اللهِ تعالىٰ ، بل مِنْ قضاءِ اللهِ تعالىٰ ومحبَّتِهِ أن يُزالَ العطشُ بالماءِ .

فليسَ في الرِّضا بالقضاءِ ما يُوجِبُ الخروجَ عن حدودِ الشَّرعِ ، ورعايةِ سُنَّةِ اللهِ تعالىٰ أصلاً ، بل معناهُ : تركُ الاعتراضِ على اللهِ عزَّ وجلَّ إظهاراً وإضماراً ، معَ بذلِ الجهدِ في التَّوصُّلِ إلىٰ مَحابِّ اللهِ تعالىٰ مِنْ عبادِهِ ؛ وذٰلكَ بحفظِ الأوامرِ ، وتركِ النَّواهي .

* * *

الأصل العاشر

في ذكر الموت

اعلمْ : أنَّ المَقاماتِ التِّسعَ التي ذكرناها ليسَتْ هيَ علىٰ رتبةٍ واحدةٍ ، بل بعضُها مقصودةٌ لذاتِها ؛ كالمحبَّةِ والرِّضا ؛ فإنَّهُما أعلى المَقاماتِ ، وبعضُها مطلوبةٌ لغيرِها ؛ كالتَّوبةِ والزُّهدِ ، والخوفِ والصَّبرِ ؛ إذِ التَّوبةُ : رجوعٌ عن طريقِ البعدِ للإقبالِ إلىٰ طريقِ القُرْبِ ، والزُّهدُ : تركُ الشَّواغلِ عنِ القُرْبِ ، والخوفُ : سوطٌ يسوقُ العبدَ إلىٰ تركِ الشَّواغلِ ، والصَّبرُ : جهادٌ معَ الشَّهَواتِ القاطعةِ لطريقِ القُرْبِ .

وكلُّ ذٰلكَ غيرُ مطلوبٍ لذاتِهِ ، بلِ المطلوبُ القُرْبُ ؛ وذٰلكَ بالمعرفةِ والمحبَّةِ ، فإنَّها مطلوبةٌ لذاتِها لا لغيرِها ، ولٰكنْ لا يَتِمُّ ذٰلكَ إلَّا بقطعِ حُبِّ غيرِ اللهِ تعالىٰ عنِ القلبِ ، فاحتيجَ إلى الخوفِ والصَّبرِ والزُّهدِ لذٰلكَ .

ومِنَ الأُمورِ العظيمةِ النَّفعِ فيهِ : ذكرُ الموتِ ؛ فلذٰلكَ أوردناهُ ، ولذٰلكَ عظَّمَ الشَّرعُ ثوابَ ذكرِهِ ؛ إذ بهِ يَتنغَّصُ حبُّ الدُّنيا ، وتَنقطِعُ علاقةُ القلبِ عنها .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ ٱللَّذَّاتِ »(١) .

وقالَ عليهِ السَّلامُ : « مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ ٱللَّهِ . . كَرِهَ ٱللَّهُ لِقَاءَهُ »(٢) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : يا رسولَ اللهِ ؛ هل يُحشَرُ معَ الشُّهداءِ أحدٌ ؟ قالَ : « نَعَمْ ، مَنْ يَذْكُرُ ٱلْمَوْتَ فِي ٱلْيَوْمِ وَٱللَّيْلَةِ عِشْرِينَ مَرَّةً »(٣) .

ومرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بمجلسٍ وقدِ استعلاهُ الضَّحِكُ ، فقالَ : « شُوبُوا مَجْلِسَكُمْ بِذِكْرِ مُكَدِّرِ ٱللَّذَّاتِ » ، قيلَ : وما هوَ ؟ قالَ : « ٱلْمَوْتُ »(٤) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَوْ تَعْلَمُ ٱلْبَهَائِمُ مِنَ ٱلْمَوْتِ مَا يَعْلَمُ ٱبْنُ آدَمَ . . لَمَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا سَمِيناً »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كَفَىٰ بِٱلْمَوْتِ وَاعِظاً »(٦) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تَرَكْتُ فِيكُمْ وَاعِظَيْنِ : صَامِتاً

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٧) ، والنسائي (٤/٤) ، وابن ماجه (٤٤٢٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والهاذم : القاطع .

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٤) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها .

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٧٦٧٢) بنحوه .

(٤) أورده ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » (٩٥) عن عطاء الخراساني رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

(٥) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٣٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٣) عن سيدتنا أمِّ صُبَيَّة الجهنية رضي الله عنها .

(٦) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٢) من حديث سيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنهما .

وَنَاطِقاً ؛ فَٱلصَّامِتُ ٱلْمَوْتُ ، وَٱلنَّاطِقُ ٱلْقُرْآنُ »[١]

وذُكِرَ رجلٌ عندَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأُحسِنَ الثَّناءُ عليهِ ، فقالَ : « كَيْفَ كَانَ ذِكْرُ صَاحِبِكُمْ لِلْمَوْتِ ؟ » ، قالوا : ما كنَّا نكادُ نسمعُهُ يذكرُ الموتَ ، قالَ : « فَإِنَّ صَاحِبَكُمْ لَيْسَ هُنَالِكَ »[٢] .

وقالَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ أكيسُ النَّاسِ ، وأكرمُ النَّاسِ ؟ فقالَ : « أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ ٱسْتِعْدَاداً ، أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْأَكْيَاسُ ، ذَهَبُوا بِشَرَفِ ٱلدُّنْيَا ، وَكَرَامَةِ ٱلْآخِرَةِ »[٣] .

فَصْلٌ

[في أنَّ ذكرَ الموتِ سمةُ العارفينَ]

اعلمْ : أنَّ الموتَ عظيمٌ هائلٌ ، وما بعدَهُ أعظمُ منهُ[٤] ، وفي ذكرِهِ منفعةٌ عظيمةٌ ؛ فإنَّهُ يُنغِّصُ الدُّنيا ، ويُبغِّضُها إلى القلبِ ، وبغضُها رأسُ كلِّ حسنةٍ ، كما أنَّ حبَّها رأسُ كلِّ خطيئةٍ .

---

(١) أورده ابن الجوزي في « بستان الواعظين » (ص ٢٢٦) ، وعبد الحق الإشبيلي في « العاقبة » (٩) ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (١٤/١) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٤٩) ، وابن عدي في « الكامل » (١٥٣/٧) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٤١٧/١٢) .

(٤) في (ب) : زيادة : (قد طما بي خوف المنية ، ولكن خوف ما يعقب المنية أقوى) ، يقال : طما الماء ؛ إذا ارتفع وملأ النهر .

وللعارفِ في ذكرِهِ فائدتانِ :

إحداهُما : النفرةُ عنِ الدُّنيا .

والأخرى : الشَّوقُ إلى الآخرةِ ؛ فإنَّ المُحِبَّ ـ لا محالةَ ـ مُشتاقٌ .

ومعنى الشَّوقِ في المحسوساتِ : استكمالُ الخيالِ بالتَّرقِّي إلى المشاهدةِ ؛ فإنَّ المُشتاقَ إليهِ مُدرَكٌ ـ لا محالةَ ـ بالخيالِ ، وغائبٌ عنِ الأبصارِ ، وأحوالُ الآخرةِ ونعيمُها ، وجمالُ الحضرةِ الرُّبوبيَّةِ . . مُدرَكٌ كلُّ ذٰلكَ للعارفِ ، يَعرِفُهُ كأنَّما يَنظُرُ إليهِ مِنْ وراءِ سِترٍ رقيقٍ في وقتِ الإسفارِ وضَعفِ النُّور .

فهوَ مُشتاقٌ إلى استكمالِ ذٰلكَ بالتَّجلِّي والمشاهدةِ ، ويَعلَمُ أنَّ ذٰلكَ لا يكونُ إلَّا بالموتِ ، فلذٰلكَ لا يكرهُ الموتَ ؛ لأنَّهُ لا يكرهُ لقاءَ اللهِ تعالىٰ ، ولا سببَ لإقبالِ الخَلْقِ على الدُّنيا إلَّا قلَّةُ التَّفكُّرِ في الموتِ .

وطريقُ الفِكْرِ فيهِ : أن يُفرِّغَ الإنسانُ قلبَهُ عن كلِّ فِكْرٍ سواهُ ، ويجلسَ في خلوةٍ ، ويُباشِرَ ذكرَ الموتِ بصميمِ قلبِهِ ، ويَتفكَّرَ أوَّلاً في أخدانِهِ وأشكالِهِ الذينَ مضَوا :

فيَتذكَّرُهُم واحداً واحداً ، ويَتذكَّرُ حرصَهُم وأملَهُم ، وركونَهُم إلى الجاهِ والمالِ .

ثمَّ يَتذكَّرُ مَصارعَهُم عندَ الموتِ ، وتحسُّرَهُم علىٰ فواتِ العمرِ وتضييعِهِ .

ثمَّ يَتفكَّرُ في أجسادِهِم كيفَ تَمزَّقَتْ في التُّرابِ ، وصارَتْ جِيفةً يأكلُها الدِّيدانُ .

ثمَّ يَرجِعُ إلىٰ نفسِهِ ، ويَعلَمُ أنَّهُ كواحدٍ منهُم ؛ أملُهُ كأملِهِم ، ومَصرعُهُ كمَصرعِهِم .

ثمَّ يَنظُرُ في أعضائِهِ ، ويَنظُرُ كيفَ تَتفتَّتُ ، وإلىٰ حدقتِهِ كيفَ يأكلُها الدُّودُ ، وإلىٰ لسانِهِ كيفَ يَتهرَّأُ ويصيرُ جِيفةً في فيهِ .

فإذا فعلتَ ذٰلكَ . . تَنغَّصَتْ عليكَ الدُّنيا ، وكنتَ سعيداً ؛ إذِ السَّعيدُ مَنْ وُعِظَ بغيرِهِ ؛ ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ كَأَنَّ ٱلْمَوْتَ فِيهَا عَلَىٰ غَيْرِنَا كُتِبَ ، وَكَأَنَّ ٱلْحَقَّ فِيهَا عَلَىٰ غَيْرِنَا وَجَبَ ، وَكَأَنَّ ٱلَّذِينَ نُشَيِّعُ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ؛ نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَاثَهُمْ ، وَنَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ ، كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ ، قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ ، وَأَمِنَّا كُلَّ جَائِحَةٍ ، طُوبَىٰ لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ ٱلنَّاسِ »(١) .

فَصْلٌ

[في أنَّ مَنْ طالَ أملُهُ . . ساءَ عملُهُ]

أصلُ الغفلةِ عنِ الموتِ : طولُ الأملِ ، وذٰلكَ عينُ الجهلِ ؛

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٩) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما: « إِذَا أَصْبَحْتَ .. فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِٱلْمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ .. فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِٱلصَّبَاحِ، وَخُذْ مِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ، وَمِنْ صِحَّتِكَ لِسَقَمِكَ؛ فَإِنَّكَ ـ يَا عَبْدَ ٱللهِ ـ لَا تَدْرِي مَا ٱسْمُكَ غَداً »[1].

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي .. خَصْلَتَانِ: ٱتِّبَاعُ ٱلْهَوَىٰ، وَطُولُ ٱلْأَمَلِ »[2].

واشترىٰ أسامةُ رضيَ اللهُ عنهُ وليدةً إلىٰ شهرينِ بمئةٍ، فقالَ عليهِ السَّلامُ: « أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ أُسَامَةَ ٱلْمُشْتَرِي إِلَىٰ شَهْرَيْنِ؟! إِنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ ٱلْأَمَلِ، وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ مَا طَرَفَتْ عَيْنَايَ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ شُفْرَيَّ لَا يَلْتَقِيَانِ حَتَّىٰ يَقْبِضَ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ رُوحِي، وَلَا رَفَعْتُ طَرْفِي وَظَنَنْتُ أَنِّي وَاضِعُها حَتَّىٰ أُقْبَضَ، وَلَا لَقِمْتُ لُقْمَةً إِلَّا ظَنَنْتُ أَنِّي لَا أُسِيغُهَا حَتَّىٰ أَغَصَّ بِهَا مِنَ ٱلْمَوْتِ ».

ثمَّ قالَ: « يَا بَنِي آدَمَ؛ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ .. فَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ ٱلْمَوْتَىٰ، وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ »[3].

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٣٣) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣)، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٢٩) من حديث سيدنا علي كرم الله وجهه.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٦)، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٩١) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. والوليدة: الأَمَة.

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نَجَا أَوَّلُ هَـٰذِهِ ٱلْأُمَّـةِ بِٱلْيَقِينِ وَٱلزُّهْدِ ، وَيَهْلِكُ آخِرُ هَـٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ بِٱلْبُخْلِ وَٱلْأَمَلِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَكُلُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ ؟ » قالوا : نعم ، قالَ : « قَصِّرُوا آمَالَكُمْ ، وَٱجْعَلُوا آجَالَكُمْ بَيْنَ أَبْصَارِكُمْ ، وَٱسْتَحْيُوا مِنَ ٱللهِ حَقَّ ٱلْحَيَاءِ »(٢) .

فَصْلٌ

[في قولِ العارفِ : لو كُشِفَ الغطاءُ . . ما ازددتُ يقيناً]

اعلمْ : أنَّ العارفَ الكاملَ المُستهتَرَ بذكرِ اللهِ تعالىٰ . . مستغنٍ عن ذكرِ الموتِ ، بل حالُهُ الفَناءُ في التَّوحيدِ ، لا التفاتَ لهُ إلىٰ ماضٍ ولا إلىٰ مستقبلٍ ، ولا إلىٰ حالٍ مِنْ حيثُ إنَّهُ حالٌ ، بل هوَ ابنُ وقتِهِ ؛ بمعنىٰ : أنَّهُ كالمُتَّحدِ بمذكورِهِ ، لستُ أقولُ : مُتَّحِداً بالذَّاتِ ، فلا تغفُلْ فتغلطَ ، أو تسيءَ الظَّنَّ .

وكذٰلكَ يُفارِقُهُ الخوفُ والرَّجاءُ ؛ لأنَّهُما سوطانِ يسوقانِ العبدَ إلىٰ هٰذهِ الحالةِ التي هوَ ملابسُها بالذَّوقِ .

وكيفَ يذكرُ الموتَ وإنَّما يُرادُ ذكرُ الموتِ لقطعِ علاقةِ قلبِهِ عمَّا يُفارِقُهُ بالموتِ ؟!

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣١) عن الحسن رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

والعارفُ قد ماتَ مرَّةً في حقِّ الدُّنيا ، وفي حقِّ كلِّ ما يُفارِقُهُ بالموتِ ؛ فإنَّهُ قد ترفَّعَ وتنزَّهَ عنِ الالتفاتِ إلى الآخرةِ أيضاً ، فضلاً عنِ الدُّنيا ، بل قد تَنغَّصَ عليهِ ما سوى اللهِ تعالىٰ ، ولم يبقَ لهُ منَ الموتِ إلَّا كشفُ الغطاءِ ؛ ليزدادَ بهِ وضوحاً ، لا ليزدادَ يقيناً ، وهوَ معنىٰ قولِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لو كُشِفَ الغطاءُ . . ما ازددتُ يقيناً)[1] ؛ فإنَّ النَّاظرَ إلىٰ غيرِهِ مِنْ وراءِ سِترٍ لا يزدادُ برفعِ السِّترِ يقيناً ، بل وضوحاً فقطْ .

فإذاً ؛ ذكرُ الموتِ يَحتاجُ إليهِ مَنْ لقلبِهِ التفاتٌ إلى الدُّنيا ؛ ليَعلَمَ أنَّهُ سيُفارِقُها ، فلا يَعتكِفُ بهمَّتِهِ عليها ؛ ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ رُوحَ ٱلْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي : أَحْبِبْ مَا أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ ، وَعِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ ، وَٱعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ »[2] .

فَصْلٌ

[في كونِ الروحِ مِنْ أمرِ اللهِ]

لعلَّكَ تشتهي أن تَعرِفَ حقيقةَ الموتِ وماهيتَهُ ، ولن تَعرِفَ ذٰلكَ ما لم تَعرِفْ حقيقةَ الحياةِ ، ولن تَعرِفَ حقيقةَ الحياةِ ما لم

(١) ذكره الراغب الأصبهاني في « الذريعة » (ص ١٤٩) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٠٢) من حديث سيدنا علي كرم الله وجهه ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) من حديث سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنه ، دون زيادة : « إن روح القدس نفث في روعي » ، ورواها البزار في « مسنده » (٢٩١٤) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

تَعرِفْ حقيقةَ الرُّوحِ ؛ وهيَ نفسُكَ وحقيقتُكَ ، وهيَ أخفى الأشياءِ عنكَ .

ولا تطمعْ في أن تَعرِفَ ربَّكَ قبلَ أن تَعرِفَ نفسَكَ .

وأعني بنفسِكَ : رُوحَكَ التي هيَ خاصِّيَّةُ الإنسِ ، المضافةَ إلى اللهِ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ ، وفي قولِهِ : ﴿ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ ، دونَ الرُّوحِ الجسمانيِّ اللَّطيفِ ؛ الذي هوَ حاملُ قُوَّةِ الحسِّ والحركةِ التي تنبعثُ مِنَ القلبِ ، وتنتشرُ في جملةِ البدنِ في تجاويفِ العروقِ الضَّواربِ ، فيَفيضُ فيها نورُ حِسِّ البصرِ على العينِ ، ونورُ السَّمعِ على الأُذنِ ، وكذا سائرُ القُوىٰ والحواسِّ ؛ كما يَفيضُ مِنَ السِّراجِ نورٌ علىٰ حيطانِ البيتِ إذا أُديرَ في جوانبِهِ ؛ فإنَّ هـٰذهِ الرُّوحَ تشاركُ البهائمَ فيها ، وتَنمحِقُ بالموتِ ؛ لأنَّها بخارٌ اعتدلَ في نضجِهِ عندَ اعتدالِ مِزاجِ الأخلاطِ ، فإذا انحلَّ المِزاجُ . . بطلَ كما يَبطُلُ النُّورُ الفائضُ مِنَ السِّراجِ عندَ انطفاءِ السِّراجِ بانقطاعِ الدُّهنِ عنهُ أو بالنَّفخِ فيهِ ، وبانقطاعِ الغذاءِ عنِ الحيوانِ تَفسُدُ هـٰذهِ الرُّوحُ ؛ لأَنَّ الغذاءَ لهُ كالدُّهنِ للسِّراجِ ، والقتلَ لهُ كالنَّفخِ في السِّراجِ .

وهـٰذهِ هيَ الرُّوحُ التي يَتصرَّفُ في تعديلِها وتقويمِها علمُ الطِّبِّ ، ولا تَحمِلُ هـٰذهِ الرُّوحُ المعرفةَ والأمانةَ ، بلِ الحمَّالُ للأمانةِ الرُّوحُ الخاصِّيَّةُ للإنسانِ .

ونعني بالأمانةِ : تقلُّدَ عهدةِ التَّكليفِ ؛ بأن يَتعرَّضَ لخطرِ الثَّوابِ والعقابِ بالطَّاعةِ والمعصيةِ .

وهٰذهِ **الرُّوحُ لا تموتُ ولا تفنىٰ** ، بل تبقىٰ بعدَ الموتِ : إمَّا في نعيمٍ وسعادةٍ ، أو في جحيمٍ وشقاوةٍ ؛ **فإنَّها محلُّ المعرفةِ** ، والتُّرابُ لا يأكلُ محلَّ الإيمانِ والمعرفةِ أصلاً ، كما نطقَتْ بهِ الأخبارُ ، وشهدَتْ لهُ شواهدُ الاستبصارِ .

ولم يأذنِ الشَّرعُ في ذكرِ تحقيقِ صفتِهِ ؛ إذ لا يَحتمِلهُ إلَّا الرَّاسخونَ في العِلْمِ ، وكيفَ يُذكَرُ ولهُ مِنْ عجائبِ الأوصافِ ما لم تَحتمِلْهُ عقولُ أكثرِ الخَلْقِ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ؟! فلا تطمعْ في ذكرِ حقيقتِهِ ، وانتظرْ تلويحاً يسيراً مِنْ ذكرِ صفتِهِ بعدَ الموتِ .

فَصْلٌ

[في أنَّ الرُّوحَ لا تفنىٰ ولا تموتُ]

هٰذهِ الرُّوحُ لا تفنىٰ ألبتَّةَ ولا تموتُ ، بل يَتبدَّلُ بالموتِ حالُها فقطْ ، ويَتبدَّلُ منزلُها ، فتَترقَّىٰ مِنْ منزلٍ إلىٰ منزلٍ ، **والقبرُ في حقِّها** : إمَّا روضةٌ مِنْ رياضِ الجنَّةِ ، أو حفرةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ ؛ إذْ لم يكنْ لها معَ البدنِ علاقةٌ سوى استعمالِها البدنَ ، واقتناصِ أوائلِ المعرفةِ بهِ بواسطةِ شبكةِ الحواسِّ ؛ فالبدنُ آلتُها ومَركَبُها وشبكتُها ، وبطلانُ الآلةِ والمَركَبِ والشَّبكةِ لا يُوجِبُ بطلانَ الصَّائدِ .

نعم ؛ إن بطلَتِ الشَّبكةُ بعدَ الفراغِ مِنَ الصَّيدِ . . فبطلانُها

غنيمةٌ ؛ إذ يَتخلَّصُ مِنْ حملِها وثقلِها ؛ ولذٰلكَ قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْمَوْتُ تُحْفَةُ ٱلْمُؤْمِنِ »[1] .

وإن بطلَتِ الشَّبكةُ قبلَ الصَّيدِ . . عَظُمَتْ فيهِ الحسرةُ والنَّدامةُ والألمُ ؛ فلذٰلكَ يقولُ المُقصِّرُ : ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۝ ﴾ ، بل إن كانَ أَلِفَ الشَّبكةَ وأحبَّها ، وتَعلَّقَ قلبُهُ بها وبحُسْنِ صورتِها وصنعتِها وما يَتعلَّقُ بها . . كانَ لهُ مِنَ العذابِ ضِعفانِ :

أحدُهُما : حسرةُ فواتِ الصَّيدِ الذي لا يُقتنَصُ إلَّا بشبكةِ البدنِ .

والثَّاني : زوالُ الشَّبكةِ معَ تَعلُّقِ القلبِ بها وإِلفِهِ لها .

وهٰذا مبدأٌ مِنْ مبادئِ معرفةِ عذابِ القبرِ ، إنِ استقصيتَهُ . . تَحقَّقتَهُ قطعاً .

فَصْلٌ

[في الموتِ وما يُفضي إليهِ]

لعلَّكَ تشتهي أن تَعلَمَ حقيقةَ الاستقصاءِ المُفضي إلى التَّحقيقِ .

فاعلمْ : أنَّ هٰذا الكتابَ لا يَحتمِلُهُ ، فاقنعْ منهُ بأُنمُوذجٍ يسيرٍ :

فافهمْ : أنَّ معنى الموتِ زَمانةُ البدنِ[2] ، وأنتَ تَعرِفُ أنَّ زَمانةَ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٩٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣١٩) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، والتحفة : ما أُهدي من البر واللطف .

(٢) الزَّمانة : المرض يدوم زماناً طويلاً .

اليدِ خروجُها عن طاعتِكَ معَ وجودِ شخصِها ببطلانِ القُوَّةِ التي بواسطتِها تُستعمَلُ اليدُ .

فافهمْ : أنَّ الموتَ زمانةٌ مُطلَقةٌ في جميعِ الأعضاءِ ببطلانِ قُواها ، فيَسلُبُ الموتُ منكَ يدَكَ ورجلَكَ وعينَكَ وسائرَ حواسِّكَ وأنت باقٍ ؛ أعني : حقيقتَكَ التي أنتَ بها أنتَ ؛ فإنَّكَ الآنَ الإنسانُ الذي كنتَ في الصِّبا ، ولعلَّهُ لم يبقَ فيكَ مِنْ تلكَ الأجسامِ شيءٌ ، بلِ انحلَّتْ كلُّها ، وحصلَ بالغذاءِ بدلُها وأنتَ أنتَ ، وجسدُكَ غيرُ ذٰلكَ الجسدِ .

فإن كانَ لكَ معشوقٌ تَفتقِرُ فيهِ إلىٰ حواسِّكَ . . عظُمَ عذابُكَ بفِراقِ معشوقِكَ ، وجميعُ ما في الدُّنيا معشوقٌ ، ولا يُنالُ إلَّا بالحواسِّ .

ولا فرقَ في عذابِ العاشقِ بينَ أن يُحجَبَ عنهُ معشوقُهُ ، وبينَ أن تُفقَأَ عينُهُ ، أو يُسلَبَ هوَ عنهُ ؛ بأن يُحمَلَ إلىٰ موضعٍ حتَّىٰ لا يراهُ ؛ فإنَّ ألمَهُ مِنْ عدمِ الرُّؤيةِ .

ومَنْ أحبَّ أهلَهُ ومالَهُ ، وعَقارَهُ وفرسَهُ ، وجاريتَهُ وثيابَهُ . . يَألَمُ بفِراقِها ، سواءٌ سُلِبَتْ هٰذهِ الأشياءُ عنهُ ، أو سُلِبَ هوَ عنها ؛ بأن حُمِلَ إلىٰ موضعٍ آخَرَ ، وحيلَ بينَهُ وبينَها .

فالموتُ يَسلُبُكَ عن هٰذهِ الأشياءِ ، ويحولُ بينَكَ وبينَها ، فيكونُ عذابُكَ بقَدْرِ عشقِكَ لها .

والموتُ يُخلِّي بينَكَ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، ويقطعُ عنكَ هٰذهِ

الحواسَّ الشَّاغلةَ المُشوِّشةَ ، فتكونُ لذَّتُكَ في القدومِ على اللهِ تعالىٰ بقَدْرِ حبِّكَ لهُ وأُنْسِكَ بذكرِهِ ، ولأجلِ هٰذا نبَّهَكَ وقالَ : (أنا بُدُّكَ اللَّازمُ ، فالزمْ بُدَّكَ)[١] .

وأجمعُ العباراتِ عن نعيمِ الجنَّةِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَهُم فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ .

وأجمعُ العباراتِ لعذابِ الآخرةِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ ، ولا مُلِذَّ إلَّا الشَّهوةُ ، ولٰكنْ عندَ مصادفةِ المُشتهىٰ ، ولا مُؤلِمَ إلَّا الشَّهوةُ ، ولٰكنْ عندَ مفارقةِ المُشتهىٰ .

ولا ينبغي أن تغترَّ الآنَ وتقولَ : (إن كانَ هٰذا سببَ عذابِ القبرِ . . فأنا في أمانٍ منهُ ؛ إذ لا علاقةَ بيني وبينَ متاعِ الدُّنيا) ؛ فإنَّ هٰذا لا تُدرِكُهُ بالحقيقةِ ما لم تطرحِ الدُّنيا ، وتَخرُجْ عنها بالكليَّةِ ؛ فكم مِنْ رجلٍ باعَ جاريةً علىٰ ظنِّ أنَّهُ لا علاقةَ بينَهُ وبينَها ، فلمَّا أخذَها المشتري . . اشتعلَ قلبُهُ مِنْ نيرانِ الفِراقِ ، واحترقَ بها احتراقاً ، ربَّما ألقىٰ نفسَهُ في الماءِ والنَّارِ ليقتلَ نفسَهُ ويَتخلَّصَ منها !!

فكذٰلكَ يكونُ حالُكَ في القبرِ في كلِّ ما يَتعلَّقُ بهِ قلبُكَ مِنَ الدُّنيا ؛ ولذٰلكَ قالَ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَحْبِبْ مَا أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ »[٢] .

---

(١) تقدم (ص ٢٦٦) .

(٢) تقدم قريباً (ص ٤٦٣) .

ووراءَ هٰذا عذابٌ أعظمُ منهُ ؛ وهوَ حسرةُ الحِرمانِ عنِ القُرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، والنَّظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ ، ويَنكشِفُ بالموتِ عِظَمُ قَدْرِ ما فاتَ منهُ وإن كانَ لا يَعظُمُ قَدْرُهُ عندَكَ قبلَ الموتِ ؛ لأنَّ الموتَ سببٌ لانكشافِ ما لم يكنْ يَنكشِفُ قبلَهُ ، كما أنَّ النَّومَ سببٌ لانكشافِ الغَيبِ بمثالٍ أو غيرِ مثالٍ ، والنَّومُ أخو الموتِ ، ولٰكنَّهُ دونَهُ بكثيرٍ .

فهٰذانِ عذابانِ يَتضاعفانِ علىٰ كلِّ ميِّتٍ كانَ غيرُ اللهِ تعالىٰ أحبَّ إليهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وكانَ أُنسُهُ بغيرِ اللهِ تعالىٰ أكثرَ مِنْ أُنسِهِ باللهِ تعالىٰ ، وهما ضروريَّانِ تَعرِفُهُما إن عرفتَ بالحقيقةِ الرُّوحَ ، وبقاءَهُ بعدَ الموتِ ، وعلائقَهُ ، وما يُضادُّهُ بالطَّبعِ وما يوافقُهُ .

فَصْلٌ

[في كونِ الموتِ بوابةَ الحياةِ الحقيقيةِ]

لعلَّكَ تقولُ : المشهورُ عندَ أهلِ العلمِ : أنَّ الإنسانَ يُعدَمُ بالموتِ ثمَّ يُعادُ ، وأنَّ عذابَ القبرِ يكونُ بنيرانٍ وعقاربَ وحيَّاتٍ ، وما ذكرتَهُ بخلافِ ذٰلكَ .

فاعلمْ : أنَّ مَنْ قالَ : إنَّ الموتَ معناهُ العدمُ . . فهوَ محجوبٌ عن حضيضِ التَّقليدِ ، ويَفاعِ الاستبصارِ جميعاً (١) .

أمَّا حِرمانُهُ عن ذُروةِ الاستبصارِ : فلا يُدرِكُهُ ما لم يَستبصِرْ ،

---

(١) اليفاع : المرتفع من كل شيء .

وأمَّا حِرمانُهُ عنِ التَّقليدِ : فتَعرِفُهُ بتلاوةِ الآياتِ والأخبارِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴿١٧٠﴾ . . . ﴾ الآيةَ ، هٰذا في السُّعداءِ .

وأمَّا في الأشقياءِ . . فقد ناداهُم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومَ بدرٍ لمَّا قُتِلُوا ؛ فكانَ يقولُ : « يَا فُلَانَ بنَ فُلَانٍ » يذكرُ واحداً واحداً مِنْ صناديدِهِم « قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقّاً ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً ؟ » فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أتناديهِم وهم أمواتٌ ؟! فقالَ : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِكَلَامِي مِنْهُمْ ، لَـٰكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ٱلْجَوَابِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْمَوْتُ ٱلْقِيَامَةُ ، مَنْ مَاتَ . . فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ »[٢] ، وأرادَ بهٰذا القيامةَ الصُّغرىٰ ، والقيامةُ الكبرىٰ تكونُ بعدَها .

وشرحُ القيامةِ الصُّغرىٰ إن أردتَهُ . . فاطلبْهُ مِنْ (كتابِ الصَّبرِ) مِنْ كُتُبِ « الإحياءِ »[٣] .

والأخبارُ في الدَّلالةِ علىٰ بقاءِ أرواحِ الموتىٰ ، وشعورِهِم بما يجري في هٰذا العالَمِ أيضاً . . كثيرةٌ .

---

(١) رواه البخاري (٣٩٧٦) من حديث سيدنا أبي طلحة رضي الله عنه ، ورواه مسلم (٢٨٧٣ ، ٢٨٧٤) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » (١٧٣) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .
(٣) انظر « إحياء علوم الدين » (٧/٢١٨) .

فَصْلٌ

[في فهمِ حقيقةِ عذابِ القبرِ]

أمَّا قولُكَ : إنَّ المشهورَ مِنْ عذابِ القبرِ : التَّألُّمُ بالنِّيرانِ والعقاربِ والحيَّاتِ . . **فهـٰذا صحيحٌ** ، وهوَ كذٰلكَ ، ولـٰكنِّي أراكَ عاجزاً عن فهمِهِ ، ودَرَكِ سِرِّهِ وحقيقتِهِ ، إلَّا أنِّي أُنبِّهُكَ علىٰ أُنموذَجٍ منهُ ؛ تشويقاً لكَ إلىٰ معرفةِ الحقائقِ ، والتَّشمُّرِ للاستعدادِ لأمرِ الآخرةِ ؛ فإنَّهُ نبأٌ عظيمٌ أنتُم عنهُ مُعرِضونَ .

فقد قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ ، وَيُرْحَبُ لَهُ قَبْرُهُ سَبْعِينَ ذِرَاعاً ، وَيُضِيءُ حَتَّىٰ يَكُونَ كَٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ ٱلْبَدْرِ ، هَلْ تَدْرُونَ فِيمَاذَا أُنْزِلَتْ : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « عَذَابُ ٱلْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ ، يُسَلَّطُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنِّيناً ، هَلْ تَدْرُونَ مَا ٱلتِّنِّينُ ؟ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ حَيَّةً ، لِكُلِّ حَيَّةٍ تِسْعَةُ رُؤُوسٍ ، يَنْهَشُونَهُ وَيَلْحَسُونَهُ وَيَنْفُخُونَ فِي جِسْمِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ »(١) .

فانظرْ إلىٰ هـٰذا الحديثِ ، واعلمْ : أنَّ هـٰذا حقٌّ علىٰ هـٰذا الوجهِ الذي شاهدَهُ أهلُ البصائرِ ببصيرةٍ أوضحَ مِنَ البصرِ الظَّاهرِ ، والجاهلُ يُنكِرُهُ ؛ إذ يقولُ : إنِّي أنظرُ في قبرِهِ فلا أرىٰ ذٰلكَ أصلاً !!

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣١٢٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فليَعلَمِ الجاهلُ : أنَّ هـٰذا التِّنِّينَ ليسَ خارجاً عن ذاتِ الميِّتِ ؛ أعني : ذاتَ روحِهِ ، لا ذاتَ جسدِهِ ؛ فإنَّ الرُّوحَ هيَ التي تَتألَّمُ أو تَتنعَّمُ ، بل كانَ معَهُ قبلَ موتِهِ مُتمكِّناً مِنْ باطنِهِ ، لـٰكنَّهُ لم يكنْ يُحِسُّ بلدغِهِ لخَدَرٍ كانَ فيهِ بغلبةِ الشَّهَواتِ ، فأحسَّ بلدغِهِ بعدَ الموتِ .

وليَتحقَّقْ : أنَّ هـٰذا التِّنِّينَ مُركَّبٌ مِنْ صفاتِهِ ، وعددُ رؤوسِهِ بقَدْرِ عددِ أخلاقِهِ الذَّميمةِ وشهَواتِهِ لمتاعِ الدُّنيا .

وأصلُ هـٰذا التِّنِّينِ : حبُّ الدُّنيا ، وتَتشعَّبُ عنهُ رؤوسٌ بعددِ ما يَتشعَّبُ عن حبِّ الدُّنيا ؛ مِنَ الحسدِ والحقدِ ، والرِّياءِ والكِبْرِ ، والثَّروةِ والمكرِ ، والخداعِ وحبِّ الجاهِ والمالِ ، والعداوةِ والبغضاءِ ، وأصلُ ذٰلكَ معلومٌ بالبصيرةِ ، ولذٰلكَ كثُرَتْ رؤوسُهُ اللَّدَّاغةُ .

وأمَّا انحصارُ عددِها في تسعةٍ وتسعينَ . . فيُوقَفُ عليهِ بنورِ النُّبوَّةِ فقطْ ، فهـٰذا التِّنِّينُ مُتمكِّنٌ مِنْ صميمِ فؤادِ الكافرِ ، لا بمُجرَّدِ جهلِهِ بالكفرِ ، بل لِمَا يدعو إليهِ الكفرُ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴿٢٠﴾ . . . ﴾ الآيةَ .

وهـٰذا التِّنِّينُ لو كانَ كما تظنُّهُ خارجاً مِنْ ذاتِ الميِّتِ . . لكانَ أهونَ ؛ إذ ربَّما يُتصوَّرُ أن يَنحرِفَ عنهُ التِّنِّينُ ، أو ينحرفَ هوَ عنهُ ، لا بل هوَ مُتمكِّنٌ مِنْ صميمِ فؤادِهِ ، يَلدغُهُ لدغاً أعظمَ ممَّا تفهمُهُ مِنْ لدغِ التِّنِّينِ ، وهوَ بعينِهِ صفاتُهُ التي كانَتْ معَهُ في حياتِهِ ، كما

أنَّ التِّنِّينَ الذي يَلدغُ قلبَ العاشقِ إذا باعَ جاريتَهُ هوَ بعينِهِ العشقُ الذي كانَ مُستكنّاً في قلبِهِ استكنانَ النَّارِ في الحجرِ ، وهوَ غافلٌ عنهُ ، فقدِ انقلبَ ما كانَ سببَ لذَّتِهِ سببَ ألمِهِ .

وهٰذا سِرُّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ »(١) ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

بل سِرُّ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي : إنَّ الجحيمَ في باطنِكُم ، فاطلبوها بعلمِ اليقينِ ؛ لِترَوها قبلَ أن تدركوها بعينِ اليقينِ .

بل هوَ سرُّ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ، ولم يقلْ : إنَّها ستحيطُ ، بل قالَ : هيَ محيطةٌ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ ولم يقلْ : يحيطُ بهِم .

وهوَ معنىٰ قولِ مَنْ قالَ : (إنَّ الجنَّةَ والنَّارَ مخلوقتانِ) ، وقد

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه ، ولفظه : « يا عبادي ؛ إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ؛ فمن وجد خيراً . . فليحمد الله ، ومن وجد غير ذٰلك . . فلا يلومنَّ إلا نفسه » .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « الإحياء » (٤/١٠٦) : (والصفات الذميمة عقارب وحيات ، وهي في الآخرة مهلكات ؛ فإنها تلدغ القلوب والأرواح ، وألمها شديد ، بل أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد ، وهي مخلوقة من نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة) .

أنطقَ اللهُ لسانَهُ بالحقّ ، ولعلَّهُ لمَّا يُطلَعْ علىٰ سِرِّ ما يقولُهُ (١) .

فإن لم تفهمْ بعضَ معاني القرآنِ كذٰلكَ . . فليسَ لكَ نصيبٌ مِنَ القرآنِ إلَّا في قُشورِهِ ؛ كما ليسَ للبهيمةِ نصيبٌ مِنَ البُرِّ إلَّا في قِشرِهِ الذي هوَ التِّبنُ .

والقرآنُ غذاءُ الخَلْقِ كلِّهِم على اختلافِ أصنافِهِم ، ولٰكنَّ اغتذاءَهُم بهِ علىٰ قَدْرِ درجاتِهِم ، وفي كلِّ غذاءٍ مخٌّ ونُخالةٌ وتِبنٌ ، وحرصُ الحمارِ على التِّبنِ أشدُّ منهُ على الخبزِ المُتَّخَذِ مِنَ اللُّبِّ ، وأنتَ شديدُ الحرصِ علىٰ ألَّا تفارقَ درجةَ البهيمةِ ، ولا تَترقَّىٰ إلىٰ رتبةِ الإنسانيَّةِ ، بل إلى الملكيَّةِ ، فدونَكَ والانسراحَ في رياضِ القرآنِ ، ففيهِ متاعٌ لكُم ولأنعامِكُم .

فَصْلٌ

[في بيانِ حقيقةِ التنينِ المتمثِّلِ في القبرِ]

فإن قلتَ : فهل يَتمثَّلُ هٰذا التِّنِّينُ لهُ تمثُّلاً يشاهدُهُ مشاهدةً تضاهي إدراكَ البصرِ ، أم هوَ تألُّمٌ محضٌ في ذاتِهِ ؛ كتألُّمِ العاشقِ إذا حيلَ بينَهُ وبينَ معشوقِهِ ؟

---

(١) قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « الإحياء » (٤٢١/١) : (الجنة والنار مخلوقتان ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، فقوله تعالىٰ : ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ دليلٌ علىٰ أنها مخلوقة ، فيجب إجراؤه على الظاهر ؛ إذ لا استحالة فيه ، ولا يقال : لا فائدة في خلقهما قبل يوم الجزاء ؛ لأن الله تعالىٰ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) .

فأقولُ : لا ، بل يَتمثَّلُ لهُ حتَّىٰ يشاهدَهُ ، لٰكنْ تمثُّلاً رُوحانيّاً ، لا علىٰ وجهٍ يُدرِكُهُ مَنْ هوَ بَعْدُ في عالَمِ الشَّهادةِ إذا نظَرَ في قبرِهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مِنْ عالَمِ الملكوتِ .

نعم ؛ العاشقُ أيضاً قد ينامُ فيَتمثَّلُ لهُ حالُهُ في المَنامِ ، فربَّما يرىٰ حيَّةً تَلدغُ صميمَ فؤادِهِ ؛ لأنَّهُ بَعُدَ بالنَّومِ مِنْ عالَمِ الشَّهادةِ قليلاً ، فتَتمثَّلُ لهُ حقائقُ الأشياءِ تمثُّلاً محاكياً للحقيقةِ ، منكشفاً لهُ مِنْ عالَمِ الملكوتِ .

والموتُ أبلغُ في الكشفِ مِنَ النَّومِ ؛ لأنَّهُ أقمعُ لنوازعِ الحِسِّ والخيالِ ، وأبلغُ في تجريدِ جوهرِ الرُّوحِ عن غِشاوةِ هٰذا العالَمِ ؛ فلذٰلكَ يكونُ ذٰلكَ التَّمثُّلُ تامّاً مُحقَّقاً دائماً لا يزولُ ؛ فإنَّهُ نومٌ لا يَنتبِهُ منهُ إلَّا يومَ القيامةِ ، ويُقالُ لهُ : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

واعلمْ : أنَّ المُتيقِّظَ بجنبِ النَّائمِ إن كانَ لا يشاهدُ الحيَّةَ التي تلدغُ النَّائمَ . . فذٰلكَ غيرُ مانعٍ مِنْ وجودِ الحيَّةِ في حقِّهِ ، وحصولِ الألمِ بهِ ؛ كذٰلكَ حالُ الميِّتِ في القبرِ .

فَصْلٌ

[في تفصيلِ ما ذكرَهُ المُصنِّفُ عن عذابِ القبرِ]

لعلَّكَ تقولُ : قد أبدعتَ قولاً مخالفاً للمشهورِ ، مُنكَراً عندَ الجمهورِ ؛ إذ زعمتَ أنَّ أنواعَ عذابِ الآخرةِ تُدرَكُ بنورِ البصيرةِ

والمشاهدةِ إدراكاً مُجاوِزاً حدَّ تقليدِ الشَّرائعِ ، فهل يُمكِنُكَ ـ إن كانَ كذٰلكَ ـ حصرُ أصنافِ العذابِ وتفاصيلِهِ .

فاعلمْ : أنَّ مخالفتي للجمهورِ لا أُنكِرُها ، وكيفَ تُنكَرُ مخالفةُ المسافرِ للجمهورِ والجمهورُ يَستقِرُّونَ في البلدِ الذي هوَ مَسقَطُ رؤوسِهِم ومحلُّ ولادتِهِم ، وهوَ المنزلُ الأوَّلُ مِنْ منازلِ وجودِهِم ، وإنَّما سافرَ منهُمُ الآحادُ ؟!

واعلمْ : أنَّ البلدَ منزلُ البدنِ والقالَبِ ، وإنَّما منازلُ الرُّوحِ الإنسانيِّ عوالمُ الإدراكاتِ ؛ فالمحسوساتُ منزلُهُ الأوَّلُ ، والمُتخيَّلاتُ منزلُهُ الثَّاني ، والموهوماتُ منزلُهُ الثَّالثُ .

وما دامَ الإنسانُ في المنزلِ الأوَّلِ . . فهوَ دودٌ وفَراشٌ ؛ فإنَّ فَراشَ النَّارِ ليسَ لهُ إلَّا الإحساسُ ، ولو كانَ لهُ تخيُّلٌ وحفظٌ للمُتخيَّلِ بعدَ الإحساسِ . . لَمَا تهافَتَ على النَّارِ مرَّةً بعدَ أُخرىٰ وقد تأذَّىٰ بها أوَّلاً ؛ فإنَّ الطَّيرَ وسائرَ الحيوانِ إذا تأذَّىٰ في موضعٍ بالضَّربِ . . يَفِرُّ منهُ ولم يُعاوِدْهُ ؛ لأنَّهُ بلغَ المنزلَ الثَّانيَ ، وهوَ حفظُ المُتخيَّلاتِ بعدَ غيبوبتِها عنِ الحِسِّ .

وما دامَ الإنسانُ في المنزلِ الثَّاني بعدُ . . فهوَ بهيمةٌ ناقصةٌ ، إنَّما حدُّهُ أن يحذرَ عن شيءٍ تأذَّىٰ بهِ مرَّةً ، وما لم يَتأذَّ بشيءٍ فلا يدري أنَّهُ يحذرُ منهُ .

وما دامَ في المنزلِ الثَّالثِ ـ وهوَ الموهوماتُ ـ . . فهوَ بهيمةٌ

كاملةٌ ؛ كالفَرَسِ مثلاً ؛ فإنَّهُ قد يحذرُ مِنَ الأسدِ إذا رآهُ أوَّلاً وإن لم يَتأذَّ بهِ قطُّ ، فلا يكونُ حذرُهُ موقوفاً على أن يَتأذَّىٰ بهِ مرَّةً ، بلِ الشَّاةُ ترى الذِّئبَ أوَّلاً فتحذرُهُ ، وترى الجملَ والبقرةَ وهما أعظمُ منهُ شكلاً وأهولُ منهُ صورةً . . فلا تحذرُهُما ؛ إذ ليسَ مِنْ طبعِهِما إيذاؤُها .

وهٰؤلاءِ إلى الآنَ في مشاركةِ البهائمِ .

وبعدَ هٰذا يَترقَّى الإنسانُ إلىٰ عالَمِ الإنسانيَّةِ ، فيُدرِكُ أشياءَ لا تدخلُ في حِسٍّ ولا تخيُّلٍ ولا توهُّمٍ ، ويحذرُ بهِ الأمورَ المستقبلةَ ، ولا يَقتصِرُ حذرُهُ على العاجلةِ اقتصارَ حذرِ الشَّاةِ علىٰ ما تشاهدُهُ في الحالِ مِنَ الذِّئبِ ، ومِنْ ها هنا يصيرُ إلىٰ حقيقةِ الإنسانيَّةِ .

وتلكَ الحقيقةُ : هيَ الرُّوحُ المنسوبةُ إلى اللهِ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ ، وفي هٰذا العالَمِ يُفتَحُ لهُ بابُ الملكوتِ ، فيشاهدُ الأرواحَ المُجرَّدةَ عن غِشاوة القوالب ؛ وأعني بهٰذهِ الأرواحِ : الحقائقَ المحضةَ المُجرَّدةَ عن كسوةِ التَّلبيسِ وغِشاوةِ الأشكالِ ، وهٰذا العالَمُ لا نهايةَ لهُ .

أمَّا عوالمُ المحسوساتِ والمُتخيَّلاتِ والموهوماتِ . . فمتناهيةٌ ؛ لأنَّها مجاورةٌ للأجسامِ ، ومُلتصِقةٌ بها ، والأجسامُ لا يُتصوَّرُ أن تكونَ غيرَ متناهيةٍ .

والسَّيرُ في هٰذا العالَمِ مثالُهُ الخياليُّ : المشيُ على الماءِ ،

ثمَّ يَترقَّىٰ منهُ إلى المشيِ في الهواءِ ، ولذٰلكَ لمَّا قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مشىٰ على الماءِ . . فقالَ : « نَعَمْ ، وَلَوِ ٱزْدَادَ يَقِيناً . . لَمَشَىٰ عَلَى ٱلْهَوَاءِ »[1] .

وأمَّا **التَّردُّدُ على المحسوساتِ** . . فهوَ كالمشيِ على الأرضِ ، وبينَها وبينَ الماءِ عالَمٌ يجري مَجرى السَّفينةِ ، وفيها تَتولَّدُ درجاتُ الشياطينِ ، حتَّىٰ يُجاوِزَ الإنسانُ عوالمَ البهائمِ ، فينتهيَ إلىٰ عالَمِ الشَّياطينِ ، ومنهُ يسافرُ إلىٰ عالَمِ الملائكةِ ، وقد ينزلُ فيهِ ويستقرُّ ، وشرحُ ذٰلكَ يطولُ .

وهٰذهِ العوالمُ كلُّها منازلُ الهدىٰ ، ولٰكنَّ الهدى المنسوبَ إلى اللهِ تعالىٰ يُوجَدُ في **العالَمِ الرَّابعِ** ؛ وهوَ عالَمُ الأرواحِ ، وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

ومَقامُ كلِّ إنسانٍ ومحلُّهُ ومنزلُهُ في العُلْوِ والسُّفْلِ . . بقَدْرِ إدراكِهِ ، وهوَ معنىٰ قولِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (النَّاسُ أبناءُ ما يُحسِنونَ)[2] ؛ فالإنسانُ : بينَ أن يكونَ دوداً ، أو حماراً ، أو فرساً ، أو شيطاناً ، ثمَّ يُجاوِزُ ذٰلكَ فيصيرُ مَلَكاً .

وللملائكةِ درجاتٌ : فمنهُمُ الأرْضيَّةُ ، ومنهُمُ السَّماويَّةُ ، ومنهُمُ المُقرَّبونَ المُترفِّعونَ عنِ الالتفاتِ إلى السَّماءِ والأرضِ ، القاصرونَ

---

(١) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٨٠٢) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٠٨) عن ابن عائشة وغيره ضمن خطبة له .

نظرَهُم علىٰ جمالِ الحضرةِ الرُّبوبيَّةِ ، وملاحظةِ الوجهِ خاصَّةً ، وهم أبداً في دارِ البقاءِ ؛ إذ ملحوظُهُم هوَ الوجهُ الباقي ، وما عدا ذٰلكَ فإلى الفَناءِ مصيرُهُ ؛ أعني : السَّماءَ والأرضَ ، وما يَتعلَّقُ بهما مِنَ المحسوساتِ والمُتخيَّلاتِ والموهوماتِ ؛ وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧ ﴾ .

وهٰذِهِ العوالمُ منازلُ سفرِ الإنسانِ ؛ ليَترقَّىٰ مِنْ حضيضِ درجةِ البهائمِ إلىٰ يَفاعِ رتبةِ الملائكةِ ، ثمَّ يَترقَّىٰ مِنْ رتبتِهم إلىٰ رتبةِ العُشَّاقِ منهُم ، وهُمُ الكَرُوبيُّونَ العاكفونَ علىٰ ملاحظةِ جمالِ الوجهِ[1] ، يُسبِّحونَ الوجهَ ويُقدِّسونَهُ باللَّيلِ والنَّهارِ لا يَفتُرونَ .

فانظرِ الآنَ إلىٰ خِسَّةِ الإنسانِ وشرفِهِ ، وإلىٰ بُعدِ مراقيهِ في معارجِهِ ، وإلى انحطاطِ درجاتِهِ في تسفُّلِهِ ، وكلُّ الآدميّينَ مردودونَ إلىٰ أسفلِ السَّافلينَ ، ثمَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ يَترقَّونَ منها ، فلهُم أجرٌ غيرُ ممنونٍ ؛ وهوَ ملاحظةُ جمالِ الوجهِ .

وبهٰذا يُفهَمُ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا

(١) وقد ذكر الإمام المصنف في « جواهر القرآن » (ص ٢٧) : أن الكَرُوبيين : هم أعلى الملائكة السماوية ؛ وهم العاكفون في حظيرة القدس ، وقال السيد الشريف الجرجاني في « شرح المواقف » (٢٦١/٧) : (الكروبية من الملائكة : هم المهيَّمون المستغرقون في أنوار جلال الله سبحانه وتعالىٰ ، بحيث لا يتفرغون معه لشيء أصلاً ، لا لتدبير الأجسام ، ولا للتأثير فيها) .

جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ؛ لأنَّ معنى الأمانةِ : التَّعرُّضُ للعُهْدَةِ والخَطَرِ ، ولا خطرَ علىٰ سُكَّانِ الأرضِ ؛ وهُمُ البهائمُ ؛ إذ ليسَ لهُم إمكانُ التَّرقِّي مِنَ المنزلِ الثَّالثِ ، ولا خطرَ على الملائكةِ ؛ إذ ليسَ لهُم خوفُ الانحطاطِ إلىٰ حضيضِ عالَمِ البهائمِ .

وانظرْ إلى الإنسانِ وعجائبِ عوالمِهِ كيفَ يَعرُجُ إلى السَّماءِ العُلْويِّ رُقِيّاً ، ويهوي إلىٰ أرضِ الحقارةِ هُوِيّاً مُتقلِّداً هٰذا الخطرَ العظيمَ الذي لم يَتقلَّدْهُ في الوجودِ غيرُهُ ؟!

فيا مسكينُ ؛ كيفَ تُهدِّدُني بالعاقبةِ ، وتُخوِّفُني بمجاوزةِ الجمهورِ ، ومخالفةِ المشهورِ ، وبذٰلكَ فرحي وسروري ؟!

إنَّ الذي يكرهونَ منِّي . . ذٰلكَ الذي يشتهيهِ قلبي ، فاطوِ طُومارَ الهَذَيانِ (١) ، ولا تُقَعْقِعْ بعدَ هٰذا بالشِّنانِ (٢) .

فَصْلٌ

[في بيانِ أصنافِ عذابِ الآخرةِ]

وأمَّا مطالبتُكَ إيَّايَ بتفصيلِ عذابِ الآخرةِ وذكرِ أصنافِهِ . . فلا تطمعْ بالتَّفصيلِ ؛ فذٰلكَ داعيةٌ إلى المَلالِ والتَّطويلِ ، واقنعْ بذكرِ الأصنافِ ؛ فقد ظهرَ لي بالمشاهدةِ ظهوراً أوضحَ مِنَ العِيانِ : أنَّ أصنافَ عذابِ الآخرةِ ثلاثةٌ ـ أعني : الرُّوحانيَّ منها ـ : حُرْقةُ

---

(١) الطومار : الصحيفة .

(٢) الشِّنان : الجلد البالي ؛ أي : لا تصوِّت لي بعد هٰذا ، فإنني لا أفزع .

فُرْقةِ المُشتهَياتِ ، وخزيُ خَجْلَةِ الفاضحاتِ ، وحسرةُ فواتِ المحبوباتِ .

فهٰذهِ ثلاثةُ أنواعٍ مِنَ النِّيرانِ الرُّوحانيَّةِ ، تتعاقبُ علىٰ رُوحِ مَنْ آثرَ الحياةَ الدُّنيا ، إلىٰ أن ينتهيَ إلىٰ مقاساةِ النَّارِ الجِسمانيَّةِ ، فإنَّ ذٰلكَ يكونُ في آخرِ الأمرِ ، فخُذِ الآنَ شرحَ هٰذهِ الأصنافِ .

الصِّنفُ الأوَّلُ : حُرْقةُ فُرقةِ المُشتهَياتِ :

فصورتُهُ المُستعارةُ مِنْ عالَمِ الحِسِّ والتَّخيُّلِ : التِّنِّينُ الذي وصفَهُ الشَّرعُ وعدَّدَ رؤوسَهُ (١) ، وهيَ بعددِ الشَّهَواتِ ورذائلِ الصِّفاتِ ، تلدغُ صميمَ الفؤادِ لدغاً مُؤلِماً وإن كانَ البدنُ بمَعزلٍ عنهُ .

فقدِّرْ في عالَمِكَ هٰذا مَلِكاً مُستولِياً علىٰ جميعِ الأرضِ ، مُتمكِّناً مِنْ جميعِ المَلاذِّ ، مُستمتِعاً بها ، مُستهتَراً بالوجوهِ الحِسانِ ، متهالكاً عليها ، مشغوفاً بالإمارةِ واستعبادِ الخَلْقِ بالطَّاعةِ ، مُطاعاً فيهِم ، غافصَهُ عدوُّهُ واسترقَّهُ (٢) ، واستعملَهُ علىٰ ملأٍ مِنْ رعيَّتِهِ في تعهُّدِ الكلابِ ، وصارَ يَتمتَّعُ بنعمِهِ ، ويَستمتِعُ بأهلِهِ وجواريهِ بينَ يديهِ ، ويَتصرَّفُ في خزائنِهِ وذخائرِ أموالِهِ ، فيُفرِّقُها علىٰ أعدائِهِ ومعانديهِ !!

فانظرِ الآنَ ؛ هل ترىٰ علىٰ قلبِهِ تنِّيناً ذا رؤوسٍ كثيرةٍ ، تلدغُ

---

(١) تقدم (ص ٤٧١) .

(٢) غافصه : فاجأه ، وأخذه علىٰ غِرَّة .

صميمَ فؤادِهِ وبدنُهُ بمَعزِلٍ عنهُ ، وهوَ يَوَدُّ لو أنَّهُ يُبتلَىٰ بدنُهُ بأمراضٍ وآلامٍ ليتخلَّصَ منهُ ؟

فتوهَّمْ هٰذا ، فربَّما تَشَمُّ بهِ قليلاً مِنْ رائحةِ الحُطَمةِ ، التي هيَ نارُ اللهِ المُوقَدةُ ، التي تَطَّلِعُ على الأفئدةِ ، أُعِدَّتْ لِمَنْ جمعَ مالاً وعدَّدَهُ ، يَحسَبُ أنَّ مالَهُ أخلدَهُ .

واعلَمْ : أنَّ عذابَ كلِّ ميِّتٍ بقَدْرِ رؤوسِ هٰذا التِّنِّينِ ، وعددُ الرُّؤوسِ بعددِ المُشتهَياتِ ؛ فلهٰذا مَنْ كانَ أفقرَ ، وتمتُّعُهُ في الدُّنيا أقلَّ . . كانَ العذابُ عليهِ في الآخرةِ أخفَّ ، ومَنْ لا علاقةَ لهُ معَ الدُّنيا أصلاً . . فلا عقابَ عليهِ أصلاً .

الصِّنفُ الثَّاني : خزيُ خَجْلةِ الفاضحاتِ .

فقَدِّرْ رجلاً خسيساً رذيلاً ، فقيراً عاجزاً ، قَرَّبَهُ مَلِكٌ مِنَ الملوكِ ، ورفعَهُ وقَوَّاهُ ، وخَلَعَ عليهِ ، وسلَّمَ إليهِ نيابةَ مُلْكِهِ ، ومَكَّنَهُ مِنْ دخولِ حريمِهِ ، وجملةِ خزائنِهِ ؛ اعتماداً علىٰ أمانتِهِ ، فلمَّا عظُمَتْ عليهِ النِّعمةُ . . طغىٰ وبغىٰ ، وصارَ يختزلُ مِنْ خزائنِهِ ، ويَفجُرُ بأهلِهِ وبناتِهِ وسُرِّيَّاتِهِ ، وهوَ في جميعِ ذٰلكَ يُظهِرُ الأمانةَ للمَلِكِ ، ويَعتقِدُ أنَّهُ غيرُ مُطَّلعٍ علىٰ خيانتِهِ .

فبينَما هوَ في غمرةِ فجورِهِ وخيانتِهِ . . إذ لاحظَ رَوزنةً (١) ،

(١) الروزنة : الكوَّة أو الخرق في أعلى السقف .

فرأىٰ فيها المَلِكَ مُطَّلِعاً عليهِ منها ، وعلمَ أنَّهُ كانَ يَطَّلعُ عليهِ كلَّ يومٍ ، لٰكنَّهُ كانَ يغضُّ عنهُ ، ويُمهِلُهُ حتَّىٰ يزدادَ خُبثاً وفجوراً ، ويَزدادَ استحقاقاً للنَّكالِ ؛ ليَصُبَّ عليهِ في الآخرةِ أنواعَ العذابِ صبّاً .

فانظرِ الآنَ إلىٰ قلبِهِ كيفَ يَحترِقُ بنارِ الخِزيِ والخَجْلةِ وبدنُهُ بمَعزلٍ عنهُ ، وكيفَ يَوَدُّ أن يُعذَّبَ بدنُهُ بكلِّ عذابٍ ويَنكتِمَ خزيُهُ !!

فكذٰلكَ أنتَ تتعاطىٰ في الدُّنيا أعمالاً هيَ مُشتهَياتُكَ ولذَّاتُكَ ، ولتلكَ الأعمالِ أرواحٌ وحقائقُ خبيثةٌ قبيحةٌ ، وأنتَ جاهلٌ بها ، مُعتقِدٌ حُسْنَها ، فينكشفُ لكَ في الآخرةِ حقائقُها في صورِها القبيحةِ ، فتَختزي وتَخجَلُ خَجْلةً تُؤثِرُ عليها آلاماً بدنيَّةً .

فإن قلتَ : كيفَ تَنكشِفُ لي أرواحُها وحقائقُها ؟

فاعلمْ : أنَّكَ لا تفهمُهُ إلَّا بمثالٍ ؛ فمِنْ جملتِهِ مثلاً : أن يُؤذِّنَ المُؤذِّنُ في رمضانَ قبلَ الصُّبحِ ، فيرىٰ في المَنامِ أنَّ بيدِهِ خاتَماً يَختِمُ بهِ أفواهَ الرِّجالِ وفروجَ النِّساءِ ، فيقولُ له ابنُ سيرينَ : (هٰذا رأيتَهُ لِأَذَانِكَ قبلَ الصُّبحِ)[1] .

فتأمَّلِ الآنَ : أنَّهُ لمَّا بَعُدَ بالنَّومِ قليلاً عن عالَمِ الحِسِّ

---

(١) كذا في « منتخب الكلام » (١٤٨/٢) .

الجِسمانيّ . . انكشفَ لهُ رُوحُ عملِهِ ، لٰكنْ لمَّا كانَ بعدُ في عالَمِ التَّخيُّلِ ـ لأنَّ النَّائمَ لا يزولُ تخيُّلُهُ بالنَّومِ ـ غَشَّاهُ الخيالُ بمثالٍ مُتخيَّلٍ ؛ وهوَ الخاتَمُ والختمُ بهِ ، لٰكنَّهُ مثالٌ أدلُّ علىٰ رُوحِ العملِ مِنْ نفسِ الأذانِ ؛ لأنَّ عالَمَ المَنامِ أقربُ إلىٰ عالَمِ الآخرةِ ، فالتَّلبيسُ فيهِ أضعفُ قليلاً ، وليسَ يخلو عن تلبيسٍ ، ولأجلِهِ يُحتاجُ إلى التَّعبيرِ .

ولو قالَ قائلٌ لهٰذا المُؤذِّنِ : أمَّا تستحيي أن تَختِمَ أفواهَ الرِّجالِ وفروجَ النِّساءِ ؟ . . لقالَ : مَعاذَ اللهِ أن أفعلَ هٰذا ، ولَأَنْ أُقدَّمَ فتُضرَبَ عنقي . . أحبُّ إليَّ مِنْ أن أفعلَ ذٰلكَ ، فهوَ يُنكِرُهُ ؛ لأنَّهُ يجهلُهُ ، معَ أنَّهُ فعلَهُ ؛ لأنَّ رُوحَهُ قاصرةٌ عن إدراكِ أرواحِ الأشياءِ .

وكذٰلكَ لو أكلتَ لحماً طيِّباً على اعتقادِ أنَّهُ لحمُ طيرٍ ، فقالَ قائلٌ : أمَا تستحيي أن تأكلَ لحمَ أخيكَ الميِّتِ فلانٍ ؟! . . لقلتَ : مَعاذَ اللهِ أن أفعلَ ذٰلكَ !! ولَأَنْ أموتَ جوعاً . . أهونُ عليَّ مِنْ ذٰلكَ ، فنظرتَ فإذا هوَ لحمُ أخيكَ الميِّتِ قد طُبِخَ وقُدِّمَ إليكَ ، ولُبِّسَ عليكَ ، فانظرْ كيفَ تَختزي وتَفْتَضِحُ بهِ وبدنُكَ في مَعزِلٍ عن ألمِهِ ؛ فكذٰلكَ يرى المُغتابُ نفسَهُ في الآخرةِ ؛ لأنَّ رُوحَ الغِيبةِ تمزيقُ أعراضِ الإخوانِ والتَّفكُّهِ بها ، وفي عالَمِ الآخرةِ تَنكشِفُ أرواحُ الأشياءِ وحقائقُها .

وكذٰلكَ لو كنتَ ترمي حجارةً إلىٰ حائطٍ ، فقالَ لكَ قائلٌ : أمَا تستحيي أن تفعلَ ذٰلكَ والحجارةُ ترتدُّ مِنَ الحائطِ وتقعُ في دارِكَ ،

وتصيبُ حدقةَ أولادِكَ ؟! فقد عَمِيَتْ أحداقُهُم كلِّهِم !! فقلتَ : مَعاذَ اللهِ أن أفعلَ ذٰلكَ ، فقالَ : ادخلْ دارَكَ ، فدخلتَ ؛ فإذا هوَ كذٰلكَ ، فانظرْ كيفَ تَفْتَضِحُ ويَحترِقُ قلبُكَ تحسُّراً علىٰ عملِكَ الذي ظننتَهُ هيِّناً وهوَ عندَ اللهِ عظيمٌ !!

وهٰذا رُوحُ حسدِكَ لأخيكَ ؛ فإنَّكَ تحسدُهُ ولا تضرُّهُ ، وينعكسُ عليكَ ، ويُهلِكُ دِينَكَ ، ويَنقُلُ حسناتِكَ إلىٰ ديوانِهِ ، وهيَ قُرَّةُ عينِكَ ؛ لأنَّها سببُ سعادةِ الأبدِ ، فهيَ أعزُّ مِنْ حدقةِ الولدِ ، فإذا انكشفَ لكَ هٰذا الرُّوحُ . . فانظرْ كيفَ تحترقُ بنيرانِ الفضيحةِ وبدنُكَ بمَعزِلٍ عنهُ !!

فالقرآنُ كثيراً ما يُعبِّرُ عنِ الأرواحِ ؛ ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ في الغِيبةِ : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴿١٢﴾ ﴾ ، وقالَ في الحسدِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴿٢٣﴾ ﴾ .

فيكفيكَ مِنَ الأمثالِ مثالُ الأذانِ والغِيبةِ والحسدِ ، فقسْ عليهِ كلَّ فعلٍ نهاكَ الشَّرعُ عنهُ ، فذٰلكَ لقبحِ رُوحِ الفعلِ وحقيقتِهِ ، معَ حُسْنِ ظاهرِهِ ؛ أي : ظاهرُهُ حسنٌ للبصرِ الظَّاهرِ ، وباطنُهُ قبيحٌ للبصيرةِ الباطنةِ مِنْ مشكاةِ نورِ اللهِ تعالىٰ .

وعن هٰذا عَبَّرَ الشَّرعُ حيثُ قالَ : (تُعرَضُ الدُّنيا يومَ القيامةِ في صورةِ عجوزٍ شوهاءَ زرقاءَ ، صفتُها كَيْتَ وكَيْتَ ، لا يراها أحدٌ إلَّا

ويقولُ : أعوذُ باللهِ منها ، فيُقالُ : هـٰذهِ دنياكم التي كنتُم تتهالكونَ عليها ، فيُصادِفونَ في نفوسِهِم مِنَ الخزيِ والفضيحةِ ما يُؤثِرونَ النَّارَ عليهِ)[١] .

وإن أردتَ أن تفهمَ كيفيَّةَ هـٰذهِ الخَجْلةِ . . فاسمعْ حكايةَ رجلٍ مِنْ أبناءِ الملوكِ ، تَزوَّجَ بأجملِ امرأةٍ مِنْ بناتِ الملوكِ ، فشربَ تلكَ اللَّيلةَ وسكرَ ، وأخطأَ بابَ الحُجْرةِ ، فخرجَ مِنَ الدَّارِ وضلَّ ، فرأىٰ ضوءَ سِراجٍ ، فقصدَهُ علىٰ ظنِّ أنَّهُ مِنْ حُجْرتِهِ ، فدخلَ الموضعَ ، فرأىٰ جماعةً نياماً ، فصاحَ بهِم ، فلم يجيبوهُ ، فظنَّ أنَّهُم نيامٌ ، فطلبَ العروسَ ، فرأىٰ واحدةً نائمةً في ثيابٍ جديدةٍ ، فظنَّ أنَّها العروسُ فضاجعَها ، وأخذَ يُقبِّلُها ويغشاها ، ويجعلُ لسانَها في فمِه ، ويَمَصُّ ريقَها ، مُتلذِّذاً بذٰلكَ في سكرِهِ غايةَ التَّلذُّذِ ، ويتمسَّحُ بالرُّطوبات التي تصيبُهُ مِنْ جميعِ بدنِها علىٰ ظنِّ أنَّ ذٰلكَ عطرٌ ادَّخرَتْهُ لهُ .

فلمَّا أصبحَ . . أفاقَ مِنْ سكرِهِ ؛ فإذا هوَ في ناوُوسِ المجوسِ[٢] ، وإذا النِّيامُ موتىٰ ، وهـٰذهِ عجوزٌ شوهاءُ قريبةُ العهدِ بالموتِ ، عليها الحَنوطُ وكفنُها الجديدُ ، فصادفَ في فمِهِ وأنفِهِ مِنْ رطوباتِ ريقِها ومُخاطِها ، وعلىٰ بدنِهِ مِنْ قاذوراتِ أسافلِها ؛ فإذا هوَ مِنْ قَرْنِهِ إلىٰ قدمِهِ مُمتلِئٌ مِنْ قاذوراتِها !!

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٣) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه .

(٢) ناووس المجوس : أي : مقبرتهم ؛ وهو تابوت مزخرف من رخام ونحوه ، يوضع فيه الميت ، ويكون هـٰذا الناووس ظاهراً فوق الأرض .

ثمَّ تَفكَّرَ في غشيانِهِ إيَّاها وابتلاعِهِ ريقَها ، فهجمَ على قلبِهِ مِنَ الخزيِ ما تمنَّىٰ أن يَخسِفَ اللهُ بهِ الأرضَ ، حتَّىٰ ينسىٰ ما جرىٰ عليهِ ، ولا يزالُ يُعاوِدُهُ ذكرُهُ ولا يَنساهُ أصلاً ، بل يجدُ ما عملَهُ مِنْ سوءٍ مُحضَراً ، يَوَدُّ لو أنَّ بينَهُ وبينَهُ أمداً بعيداً ، وبدنُهُ بمَعزِلٍ عن هٰذهِ المخازي والآلامِ ، وهوَ في عذابٍ دائمٍ مِنَ الغثيانِ والقيءِ ، وتذكُّرِ تلكَ المخازي .

ويحزنُ أن يَطَّلعَ عليهِ أحدٌ فيتضاعفَ خزيُهُ ؛ فإذا هوَ بأبيهِ وجميعِ حشمِهِ قد جاؤوا في طلبِهِ ، واطَّلعوا علىٰ جميعِ مخازيهِ !!

فهٰذهِ حالُ مَنْ تَمتَّعَ بالدُّنيا ، يَنكشِفُ لهُ كذٰلكَ في الآخرةِ روحُهُ وحقيقتُهُ ؛ وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ ﴾ ؛ أي : يُعرَضُ عليها حاصلُها ؛ أي : رُوحُها وحقيقتُها ، ومعنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ ﴾ ؛ أي : يُكشَفُ عن أسرارِ الأعمالِ وأرواحِها القبيحةِ والحسنةِ .

وكما أنَّ أطيبَ الأطعمةِ رجيعُهُ أقذرُ وأنتنُ . . فكذٰلكَ ألذُّ تنعُّماتِ الدُّنيا حاصلُها وسِرُّها في الآخرةِ أقبحُ وأفضحُ ؛ ولذٰلكَ شبَّهَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الدُّنيا بالطَّعامِ ، وعاقبتَها بالرَّجيعِ (١) .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/٤٥٢) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٨/٢٩٩) من حديث سيدنا الضحاك بن سفيان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ←

الصِّنفُ الثَّالثُ : حسرةُ فواتِ المحبوباتِ :

فقدِّرْ نفسَكَ معَ جماعةٍ مِنْ أقرانِكَ دخلتُم في ظلمةٍ ، فكانَ فيها حجارةٌ لا تُرىٰ ألوانُها ، فقالَ أقرانُكَ : احمِلْ مِنْ هـٰذا ما تطيقُ ؛ فلعلَّهُ يكونُ فيهِ ما يُنتفَعُ بهِ إذا خرجنا مِنَ الظُّلمةِ ، فقلتَ : وماذا أصنعُ بها ؟ أتحمَّلُ في الحالِ ثقلَها ، وأَكُدُّ نفسي فيها ، وأنا لا أدري ما عاقبتُها ؟! ما هـٰذا إلَّا جهلٌ عظيمٌ ؛ فإنَّ العاقلَ لا يتركُ الرَّاحةَ نقداً بما يَتوقَّعُهُ نسيئةً ولا يستيقنُهُ ؟!

فأخذَ كلُّ واحدٍ مِنْ أقرانِكَ ما أطاقَ أخذَهُ ، وأعرضتَ عن ذٰلكَ تستحمِقُهُم وتَستجهِلُهُم وتَسخَرُ بهِم ؛ لأنَّهُم يَنُوءُونَ تحتَ أعبائِهِ وثقلِهِ ، وأنتَ مُرَفَّهٌ في الطَّريقِ ، تعدو وتضحكُ منهُم ، فلمَّا جاوزوا الظُّلمةَ . . نظروا ، فإذا هيَ جواهرُ ويواقيتُ ، يساوي كلُّ واحدٍ ألفَ دينارٍ ، فأقبلوا علىٰ بيعِها ، وتوصَّلوا بها إلى الجاهِ والنِّعمةِ ، وأصبحوا ملوكَ الأرضِ ، فأخذوكَ واستسخروكَ لتعهُّدِ دوابِّهِم ، يُنفِقونَ عليكَ كلَّ يومٍ قدراً يسيراً مِنْ فَضَلاتِ الطَّعامِ !!

فكيفَ ترى اشتعالَ نيرانِ الحسرةِ في قلبِكَ وبدنُكَ بمَعزِلٍ عنهُ ؟! وكم تقولُ : يا حسرتي علىٰ ما فرطتُ في جنبِ اللهِ ،

« يا ضحاكُ ؛ ما طعامك ؟ » قلت : اللحم واللبن ، قال : « ثم يصير إلىٰ ماذا ؟ » قلت : ثم يصير إلىٰ ما قد علمت يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا » .

ويا ليتَنا نُـرَدُّ فنعملَ غيرَ الذي كنَّا نعملُ ، وتقولُ لهُم : أفيضوا علينا ممَّا أُفيضَ عليكم ، فيقولونَ لكَ : هٰذا حرامٌ عليكَ ، ألم تكنْ تَسخَرُ منَّا ، وتضحكُ علينا ؟! فلا بدَّ أن نَسخَرَ اليومَ منكَ كما كنتَ تَسخَرُ منَّا .

فلا يزالُ ينقطعُ نِياطُ قلبِكَ مِنَ التَّحسُّرِ ، ولا ينفعُكَ التَّحسُّرُ ، ولٰكنْ تَتسلَّىٰ وتقولُ : الموتُ يُخلِّصُني مِنْ هٰذا كلِّهِ .

فاعلمْ : أنَّ حالَ تاركِ الطَّاعاتِ في الآخرةِ كذٰلكَ يَنكشِفُ لهُ ، ولٰكنْ لا مطمعَ في الموتِ المُخلِّصِ ، بل هيَ حسرةٌ أبديَّةٌ دائمةٌ ، وألمُها يتضاعفُ كلَّ يومٍ وإن كانَ البدنُ بمَعزِلٍ عنها ، وعنهُ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

وذٰلكَ لأنَّهُ يُفيضُ علىٰ أهلِ المعرفةِ والطَّاعةِ مِنْ أنوارِ جمالِ الوجهِ ما يَحصُلُ بهِ مِنَ اللَّذَّةِ مبلغٌ لا يوازيهِ نعيمُ الدُّنيا أصلاً ، بل يزيدُ عليهِ ما لا يدخلُ تحتَ الحصرِ ، لا نسبةَ بينَهُما إلَّا مِنْ حيثُ المشاركةُ في الاسمِ ، بل يُعطىٰ آخرُ مَنْ يَخرُجُ مِنَ النَّارِ مثلَ الدُّنيا عشرَ مرَّاتٍ ، كما وردَ بهِ الخبرُ (١) ، لا بمعنىٰ تضاعفِ المقدارِ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٧١) ، ومسلم (١٨٦) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه : « إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها ، وآخر أهل الجنة دخولاً ؛ رجل يخرج من النار كبواً ـ وعند مسلم : حبواً ـ فيقول الله : اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها ، فيُخيَّلُ إليه أنها ملأىٰ ، فيرجع فيقول : يا رب ؛ وجدتها ملأىٰ ، فيقول : اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها ، فيُخيَّلُ إليه أنها ملأىٰ ، فيرجع فيقول : يا رب ؛ وجدتها ملأىٰ ، فيقول : اذهب فادخل الجنة ؛ فإن لك مثل الدنيا ←

بالمِساحةِ ، بل بتضاعفِ الأرواحِ ، كما أنَّ الجوهرةَ تكونُ عشرةَ أمثالِ فرسٍ ، لا بالوزنِ والمقدارِ ، بل بروحِ الماليَّةِ ؛ إذ قيمتُها عشرةُ أمثالِهِ .

واعلمْ : أنَّ تحريمَ تلكَ اللَّذَّاتِ وإفاضتَها عليهِم ليسَ مِنْ جنسِ تحريمِ الرَّجلِ نعمةً علىٰ عبدِهِ بغضبٍ أو باختيارٍ حتَّىٰ يُتصوَّرُ تغيُّرُهُ ، بل هوَ كتحريمِ اللهِ تعالىٰ على الأبيضِ أن يكونَ أسودَ في حالةِ البياضِ ، وعلى الحارِّ أن يكونَ بارداً في حالةِ الحرارةِ ، وذٰلكَ لا يُتصوَّرُ فيهِ التَّبديلُ .

بل مثالُ ذٰلكَ : أن يقولَ للعالِمِ الكاملِ رجلٌ شيخٌ هَرِمٌ مِنَ الجُهَّالِ ، كانَ بليداً في أصلِ الفطرةِ ، ولم يُمارِسْ قطُّ علماً ، ولم يَتعلَّمْ لغةً : أفضْ علىٰ قلبي مِنْ دقائقِ علومِكَ ، فيقولُ : إنَّ اللهَ تعالىٰ حرَّمَهُ على الجاهلينَ .

معناهُ : أنَّ الاستعدادَ لقَبُولِهِ إنَّما يُكتسَبُ بذكاءٍ فطريٍّ ، وممارسةٍ طويلةٍ للعلمِ ، بعدَ تعلُّمِ اللُّغةِ والعربيَّةِ ، وأمورٍ أُخَرَ كثيرةٍ ، وإذا بطلَ الاستعدادُ وفاتَ . . استحالَتِ الإفاضةُ ؛ كما يستحيلُ إفاضةُ الحرارةِ على البارِدِ معَ بقاءِ البرودةِ .

فلا تظنَّنَّ أنَّ اللهَ تعالىٰ يغضبُ عليكَ فيعاقبُكَ انتقاماً ، ثمَّ

← وعشرة أمثالها ـ أو : إن لك مثل عشر أمثالها ـ فيقول : تسخر مني ـ أو : تضحك مني ـ وأنت المَلِك » ، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتىٰ بدت نواجذه ، وكان يقول : « ذاك أدنىٰ أهل الجنة منزلة » .

تخدعُ نفسَكَ برجاءِ العفوِ فتقولُ : لِمَ يُعذِّبُني ولم تضرَّهُ معصيتي ؟ بل يلزمُ العذابُ مِنَ المعصيةِ كما يلزمُ الموتُ مِنَ السُّمِّ .

واعلمْ أيضاً : أنَّ هـٰذهِ الحسرةَ دائمةٌ ؛ لأنَّ مَنشأَها تَضادُّ صفتينِ لا يزولُ تضادُّهُما أبداً .

مثالُهُ : أنَّ الذي يُعلِّقُ الخيطَ في عنقِهِ أو رِجْلِهِ . . إنَّما يَتألَّمُ لتضادِّ الصِّفتينِ ، لا لصورةِ الحبلِ والتَّعليقِ ، لـٰكنْ صفتُهُ الطَّبيعيَّةُ تطلبُ الهُوِيَّ إلىٰ أسفلَ ، والمنعُ القهريُّ بالحبلِ يمانعُ الصِّفةَ الطَّبيعيَّةَ ، فيتولَّدُ الألمُ فيهِ مِنْ تمانعِهِما .

فكذٰلكَ الرُّوحُ الإنسانيُّ مِنَ العالَمِ الرُّوحانيِّ الإلـٰهيِّ بأصلِ فطرتِهِ ، فلهُ بحكمِ الطَّبعِ حنينٌ وشوقٌ إلىٰ عالَمِ العُلْوِ ، وهوَ عالَمُ الأرواحِ ، وإلىٰ مرافقةِ الملأ الأعلىٰ ، ولـٰكنَّ أغلالَ الشَّهَواتِ وسلاسلَها تَجذِبُهُ إلىٰ أسفلِ السَّافلينَ ؛ وهيَ شهَواتُ الدُّنيا التي هيَ صفةٌ عارضةٌ قهرَتِ الصِّفةَ الطَّبيعيَّةَ ، ومنعَتْها عن نيلِ مقتضاها ، والألمُ يَتولَّدُ مِنْ بينِهِما .

والنَّارُ أيضاً إنَّما تؤلمُ للمُضادَّةِ ؛ فإنَّ الملائمَ للتَّركيبِ بقاءُ الاتِّصالِ ، والنَّارُ تُضادُّ الاتصالَ بالتَّفريقِ بينَ الأجزاءِ ، ولو لم تكنْ قد رأيتَ النَّارَ ، فحُدِّثتَ بأنَّ شيئاً لطيفاً ليِّناً يُماسُّ بدنَكَ فيؤلمُكَ . . لأستنكرتَهُ ، وقلتَ : شيءٌ لا صلابةَ فيهِ كيفَ يؤلمُ باللَّمسِ ؟!

واعلمْ : أنَّ التَّضادَّ مؤلمٌ ، سواءٌ كانَ بسببٍ خارجٍ أو داخلٍ ؛ فإنَّ سُمَّ العقربِ يبقىٰ في العضوِ ، ويؤلمُ لفرطِ برودتِهِ المُضادَّةِ لحرارةِ البدنِ ؛ فلا تظنَّنَّ أنَّ الآلامَ كلَّها تدخلُ مِنْ خارجٍ .

فإن قلتَ : إنَّ العقربَ إنَّما لدغَتْ مِنَ الخارجِ .

فاعلمْ : أنَّ ألمَ السِّنِّ وألمَ العينِ لا يقصرُ عنهُ ، وإنَّما سببُهُ انصبابُ خَلْطٍ داخلٍ مُضادٍّ لمِزاجِ العينِ والسِّنِّ ، وليسَ ذٰلكَ بأهونَ مِنْ لدغِ الحيَّةِ والعقربِ .

واعلمْ : أنَّ تضادَّ الصِّفاتِ على القلبِ يؤلمُ القلبَ إيلاماً لا يَنقُصُ عمَّا يؤلمُ السِّنَّ والعينَ ، ومثالُهُ **في أضعفِ الصِّفاتِ** : أنَّ البخيلَ المرائيَ إذا طُلِبَ منهُ عطيَّةٌ علىٰ ملأٍ مِنَ النَّاسِ عندَ مَنْ يريدُ أن يعرفوهُ بالسَّخاءِ . . يَتألَّمُ قلبُهُ لتضادِّ صفتينِ ؛ إذِ البخلُ يتقاضاهُ ألَّا يُعطيَ ، وحبُّ الجاهِ يتقاضاهُ أن يُعطيَ ، وقلبُهُ بينَ هاتينِ الصِّفتينِ كشخصٍ يُنشَرُ بمِنشارٍ نصفينِ .

فهٰذا مثالُ حسرةِ الفوتِ ، وعِظَمُها بقَدْرِ ما يَنكشِفُ مِنْ جلالةِ قَدْرِ الفائتِ ، ولا تعلمُهُ بالحقيقةِ في هٰذا العالَمِ ، بل في عالَمِ الكشفِ ، وهوَ نبأٌ عظيمٌ أنتُم عنهُ مُعرِضونَ .

واعلمْ : أنَّ هٰذهِ الأصنافَ الثَّلاثةَ لها ترتيبٌ :

فالصِّنفُ الأوَّلُ الذي يلقاهُ الميِّتُ المُعذَّبُ : هوَ حُرْقةُ فُرْقةِ المُشتهَياتِ ؛ وذٰلكَ تِنّينُ حبِّ الدُّنيا ، ولذٰلكَ أُضيفَ ذٰلكَ إلى القبرِ ، وإنَّما سبقَ هٰذا لأنَّ أغلبَ الأشياءِ علىٰ قلبِ الميِّتِ في الحالِ فِراقُ ما يفوتُهُ في الدُّنيا ؛ مِنْ جاهٍ ومالٍ ومنصبٍ ونعمةٍ .

ثمَّ بعدَ ذٰلك تَنكشِفُ لهُ أرواحُ الأعمالِ وحقائقُها القبيحةُ ؛ وذٰلكَ عندَ الانغمارِ التَّامِّ في الموتِ ، وبُعدِ العهدِ بغِشاوةِ صفاتِ الدُّنيا ، وكلَّما كانَ إمعانُهُ في الموتِ أشدَّ . . فهوَ للكشفِ أقبلُ ، فيَفيضُ عليهِ عندَ ذٰلكَ خزيُ الفضيحةِ ، ولذٰلكَ أُضيفَ هٰذا إلى القيامةِ ؛ لأنَّهُ وسطٌ بينَ منزلِ القبرِ وبينَ دارِ القرارِ ؛ ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ ؛ أي : يومَ القيامةِ .

وأمَّا حسرةُ فواتِ المحبوباتِ . . فيستولي عليهِ آخراً ؛ عندَ دارِ القرارِ في النَّارِ ، ففيها يقولُ : ﴿ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

وذٰلك : أنَّ بُعدَ العهدِ عنِ الدُّنيا ربَّما يُخفِّفُ عنهُ عذابَ النُّزوعِ إليها ، وطُولَ العهدِ بالكشفِ يُوجِبُ خروجَهُ عن خزيِ الافتضاحِ ؛ فإنَّ سَوْرةَ عذابِ الخزيِ تكونُ عندَ هجومِ الافتضاحِ ، ثمَّ يألفُ الفضيحةَ والخزيَ إلفاً ما ، ثمَّ عندَ فتورِهما قليلاً تنبعثُ حسرةُ

الفَوْتِ ؛ إذ تظهرُ جلالةُ الفائتِ ، ثمَّ تبقىٰ حسرةُ الفَوْتِ آخراً ، ويُشبِهُ أن يكونَ ذٰلكَ لا آخرَ لهُ .

وهٰذا كلُّهُ تَعرِفُهُ قطعاً إذا عرفتَ نفسَكَ ، وعرفتَ أنَّكَ لا تموتُ ، لٰكنْ تَعمىٰ عينُكَ ، وتَصَمُّ أذنُكَ ، وتُفلَجُ أعضاؤُكَ ، فأمَّا الحقيقةُ التي أنتَ بها أنتَ . . فلا تفنىٰ بالموتِ أصلاً ، بل يَتغيَّرُ حالُكَ فقطْ ، فيبقىٰ معَكَ جميعُ معارفِكَ ، وإدراكاتِكَ الباطنةِ وشهَواتِكَ ، وإنَّما تَعذُّبُكَ بفِراقِ ما أحببتَ ، وافتضاحُكَ بظهورِ ما يَنكشِفُ في تلكَ الحالِ ، وتحسُّرُكَ علىٰ فواتِ ما تَعرِفُ عِظَمَ قَدْرِهِ بعدَ الموتِ لا قبلَهُ ، وهٰذا كلُّهُ مُقدِّماتُ العذابِ الحِسِّيِّ البدنيِّ ، وذٰلكَ أيضاً حقٌّ ، ولهُ ميعادٌ معلومٌ ، كما وردَتْ بهِ الآيُ والأخبارُ .

فاقنعِ الآنَ بهٰذا القَدْرِ ؛ فإنَّ هٰذا الكلامَ يكادُ يُجاوِزُ حدَّ مثلِ هٰذا الكتابِ ، ولا بدَّ وأن يُحرِّكَ سلسلةَ الحمقىٰ والجاهلينَ ، ولٰكنَّهُم أخسُّ مِنْ أن يُلتفَتَ إليهِم ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

فلنَقتصِرْ علىٰ هٰذا ، ولنختِمْ بهِ « الأصولَ الأربعينَ » لنختِمَ بهِ كتابَ « جواهرِ القرآنِ » ، ومَنْ طلبَ مزيداً علىٰ هٰذا . . فليطلبْهُ مِنْ (كتابِ ذكرِ الموتِ) مِنْ كُتُبِ « الإحياءِ »[1] .

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٣٠٩/٩) .

فالغرضُ الأظهرُ مِنْ هٰذا الكتابِ : التَّلويحاتُ معَ التَّشويقِ إلى الاستقصاءِ المذكورِ في ذٰلكَ الكتابِ ؛ ففيهِ تَنكشِفُ أسرارُ علومِ الدِّينِ ، ولا يَفِرُّ عن طلبِهِ إلَّا مشغوفٌ بالدُّنيا ، لا يطلبُ مِنَ العلومِ إلَّا ما يَتَّخذُهُ شبكةً للحطامِ ، وآلةً لكسبِ الحرامِ ، فلا تناسبُهُ علومُ ذٰلكَ الكتابِ ولا يناسبُها أصلاً .

خاتمة
في مناظرة النفس (١)

اعلمْ : أنَّا قد نبَّهناكَ وشوَّقناكَ ؛ فإن أعرضتَ عنِ الإصغاءِ ، أو أصغيتَ بظاهرِ قلبِكَ كما تصغي إلى الكلامِ الرَّسميِّ . . فقد خِبْتَ وخسرتَ ، وما ظلمتَ إلَّا نفسَكَ ؛ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ .

وإن أصغيتَ إصغاءَ ذي فطنةٍ وبصرٍ حديدٍ ، وتفكَّرتَ تفكُّرَ مَنْ لهُ قلبٌ عتيدٌ ، أو ألقى السَّمعَ وهوَ شهيدٌ . . فاخرجْ عن جميعِ ما يَصدُّكَ عن سلوكِ الصِّراطِ المستقيمِ ؛ فلا يَصُدُّ عنهُ إلَّا حبُّ الدُّنيا ، والغفلةُ عنِ اللهِ تعالىٰ واليومِ الآخرِ .

واجتهدْ أن تُفرِّغَ قلبَكَ كلَّ يومٍ ساعةً عَقِيبَ صلاةِ الصُّبحِ ، وذٰلكَ عندَ صفاءِ الذِّهنِ ؛ فتُفكِّرَ في شأنِكَ ، وتنظرَ في مَبدئِكَ ومَعادِكَ ، وتُحاسِبَ نفسَكَ ، وتقولَ لها :

إنِّي مسافرٌ تاجرٌ ، وربحي سعادةُ الأبدِ ولقاءُ اللهِ تعالىٰ ، وخسراني شقاوةُ الأبدِ والحجابُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، ورأسُ مالي

---

(١) في هامش (ب) : (مطلب لطيف ، ومحل شريف ، طالع ترشد إن شاء الله) .

عمري ، وكلُّ نفَسٍ مِنَ الأنفاسِ كنزٌ مِنَ الكنوزِ ، وجوهرةٌ مِنَ الجواهرِ ؛ إذ تُصادُ بهِ سعادةُ الأبدِ ، وأيُّ كنزٍ أعظمُ مِنْ هٰذا ؟!

وإذا فَنِيَ العمرُ . . انقطعَتِ التِّجارةُ ، وحصلَ اليأسُ ، وهٰذا اليومُ يومٌ جديدٌ ، قد أمهلَني اللهُ تعالىٰ فيهِ ، ولو تَوفَّاني . . لكنتُ أشتهي أن يُرجعَني إلى الدُّنيا ؛ لأعملَ صالحاً .

فاحسبي ـ يا نفسُ ـ أنَّكِ قد تُوفِّيتِ ، ورجعتِ إلى الدُّنيا يوماً واحداً ، فاجتهدي في هٰذا اليومِ الواحدِ ، وانظري لنفسِكِ ، فإن لم تُمهلي للغدِ . . فقدِ استوفَيتِ ربحَ هٰذا اليومِ ولم تَتحسَّري ، وإن أُمهِلتِ . . فاستأنفي للغدِ مثلَ ذٰلكَ .

ولا تَخدعَنَّ نفسَكَ بتمنِّي العفوِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ ظنٌّ قد يَكذِبُ ، ولا يَنفعُ التَّحسُّرُ ، ثمَّ هبْ أنَّهُ قد عُفِيَ عنكَ ؛ أليسَ قد فاتَكَ ثوابُ المحسنينَ ؟! وناهيكَ بهِ حسرةً وندامةً .

فإذا قالَتْ نفسُكَ : ماذا أعملُ ؟ وكيفَ أجتهدُ ؟

فتقولُ : اتركي ما يُفارِقُكِ بالموتِ ، والزمي بُدَّكِ اللَّازمَ ؛ وهوَ اللهُ تعالى المَلِكُ العظيمُ ، واطلبي الأُنسَ بذكرِهِ .

فإذا قالَتْ : فكيفَ أتركُ الدُّنيا وقدِ استحكمَتْ علائقُها في قلبي ؟

فتقولُ : أقبِلي علىٰ قطعِ علائقِها مِنْ باطنِ القلبِ ، كما علَّمناكِ

في الأصولِ العشرةِ مِنَ المُهلِكاتِ ، ففتِّشي عن أغلبِ علاقةٍ مِنْ علائقِها ؛ مِنْ حبِّ مالٍ أو جاهٍ ، أو حَسَبٍ أو عداوةٍ ، أو شهوةِ بطنٍ أو فَرْجٍ ، أو غيرِ ذٰلكِ مِنَ المُهلِكاتِ .

فليسَ لكَ إلَّا أن تتفكَّرَ في عظمِ آفاتِها وإهلاكِها إيَّاكَ ، فتنبعثَ لمجاهدتِها ، ومخالفةِ مقتضاها ، وقد تخلَّصتَ منها ، وأيَّدَكَ اللهُ بتوفيقِهِ ومعونتِهِ .

ثمَّ تقولُ : فقدِّري أنَّكِ مريضةٌ مُدَّةَ العمرِ ، والعمرُ مُدَّةُ الاحتماءِ ، وقد أنبأَكِ طبيبٌ تظنِّينَ صدقَهُ : أنَّ مَلاذَّ الأطعمةِ تضرُّكِ ، وأنَّ الأدويةَ البَشِعةَ تنفعُكِ ؛ ألستِ تَتصبَّرينَ لقولِهِ علىٰ مَرارةِ الدَّواءِ طمعاً في الشِّفاءِ ؟ ألستِ تَتصبَّرينَ على الكَدِّ والتَّعبِ في السَّفرِ الطَّويلِ طمعاً في الاستراحةِ في المنزلِ ؟! فأنتِ مسافرةٌ ، ومنزلُكِ الآخرةُ ، والمسافرُ لا يستريحُ ، ويَتحمَّلُ التَّعبَ والكدَّ ، فإنِ استراحَ . . انقطعَ في الطَّريقِ وهلكَ .

وتقولُ : يا نفسُ ؛ ما الذي تطلبينَ مِنَ الدُّنيا ؟

إن طلبتِ المالَ ووجدتيهِ ـ وهيهاتَ ـ فقد تكونُ في اليهودِ جماعةٌ أغنىٰ منكِ .

وإن طلبتِ الجاهَ ونلتِ ـ وهيهاتَ ـ فيكونُ في أجلافِ الأتراكِ وحمقى الأكرادِ مَنْ يستولي عليكِ ، ويكونُ جاهُهُ أعظمَ مِنْ جاهِكِ .

فإن كنتِ لا تدركينَ آفةَ الدُّنيا ، وشدَّةَ عذابِها في الآخرةِ وبلائِها . . أفلا تَترفَّعينَ عنها لخِسَّةِ شركائِها ؟!

أمَا تعلمينَ أنَّكِ لو أعرضتِ عنِ الدُّنيا ، وأقبلتِ على الآخرةِ . . لكنتِ واحدةَ العصرِ ، وفريدةَ الدَّهرِ ، لا يُوجَدُ في الأقاليمِ نظيرُكِ ؟

وإن طلبتِ الدُّنيا . . كانَ في اليهودِ والحمقىٰ مَنْ سبقَكِ بها ، فأُفٍّ لدنيا سبقَكِ بها حميرٌ ، فتفكَّري يا نفسُ ، وانظري لنفسِكِ ؛ فلا ينظرُ لكِ أحدٌ غيرُكِ .

وكذٰلكَ لا تزالُ تناظرُ نفسَكَ حتَّىٰ تطاوعَكَ علىٰ سلوكِ الصِّراطِ المستقيمِ إلى اللهِ تعالىٰ .

فهٰذهِ المناظرةُ أهمُّ لكَ ـ إن كنتَ عاقلاً ـ مِنْ مناظرةِ الحنفيَّةِ والمعتزلةِ وغيرِهِم ، فلِمَ تعاديهِم وتجادلُهُم ولا يَضرَّكَ خلافُهُم ولا خطؤُهُم ولا خطأُ غيرِهِم ، ولا هم يقبلونَ منكَ ، ولا أنتَ تقبلُ منهُمُ الصَّوابَ وإن صارَ أظهرَ مِنَ الشَّمسِ ، وتتركُ أعدىٰ عدوِّكَ بينَ جنبَيكَ ، لا تنازعُهُ ولا تناظرُهُ ، بل تساعدُهُ علىٰ ما يُطالِبُكَ بهِ مِنْ شهَواتِهِ الباطلةِ الباطنةِ ، فتستنبطُ بالفكرِ الدَّقيقِ الحِيَلَ لقضاءِ شهَواتِهِ ؟! هل هٰذا إلَّا عينُ الانعكاسِ والانتكاسِ علىٰ قِمَّةِ الرأسِ ؟!

فهل رأيتَ قطُّ رجلاً يشاهدُ تحتَ ثوبِهِ حيَّاتٍ وعقاربَ ، أقبلَتْ عليهِ لتُهلِكَهُ ، فأخذَ المِروحةَ ليدفعَ الذُّبابَ عن وجهِ غيرِهِ ؟! فهل يَستحِقُّ مَنْ يفعلُ ذٰلكَ إلَّا الخزيَ ؟!

فاعلمْ : أنَّ هٰذا حالُكَ في اشتغالِكَ بمناظرةِ غيرِكَ ، وإعراضِكَ عن مناظرةِ نفسِكَ ، وفي هٰذا المَعرِضِ يَنكشِفُ لكَ رُوحُ عملِكَ يومَ تُبلى السَّرائرُ ، كما نبَّهتُكَ علىٰ كيفيَّةِ مُكاشفاتِ الآخرةِ بأسرارِ الأعمالِ وأرواحِها ، وما لم تناظرْ نفسَكَ مُدَّةً طويلةً . . فإنَّها لا تُخلِّيكَ لمناجاةِ ربِّك وذِكرِهِ والإقبالِ عليهِ .

ثمَّ طريقُكَ معَ النَّفْسِ إذا خالفَتْكَ : أن تعاقبَها بما يَزجُرُها ، وتعلمَ أنَّها كالكلبِ ، لا يَتأدَّبُ إلَّا بالضَّربِ .

وإن أردتَ أن تَتعلَّمَ طريقَ مناظرتِها ومراقبتِها ، ومحاسبتِها ومعاقبتِها . . فاطلبْهُ مِنْ (كتابِ المحاسبةِ والمراقبةِ) مِنَ « الإحياء »(١) ، فإنَّ هٰذا الكتابَ لا يَحتمِلُهُ .

واللهُ تعالىٰ يُوفِّقُنا وإيَّاكَ لإقامةِ الخيراتِ واكتسابِ الطاعاتِ بفضلِهِ وسَعةِ جُودِهِ(٢) .

* * *

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٩/١١٩) .

(٢) في هامش (و) : (بلغ مقابلة علىٰ حسب الطاقة والإمكان ، والله أعلم) .

خواتيم النسخ الخطية

خاتمة النسخة (أ)

وقد تمَّ كتابُ « الأربعينَ في أصولِ الدِّينِ » .

فرغَ مِنْ نقلِهِ ومقابلتِهِ يومَ الاثنينِ ، ثمانٍ والعشرينَ [كذا] رجبَ شهرِ اللهِ الأصمِّ ، سنةَ سبعٍ وسبعينَ وخمسِ مئةٍ .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمدٍ ، وآلِهِ الطاهرينَ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً ، برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ .

خاتمة النسخة (ب)

تمَّ الكتابُ .

والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاةُ علىٰ رسولِهِ محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ .

خاتمة النسخة (ج)

وصلَّى اللهُ علىٰ محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ .

تمَّ الكتابُ بفضلِ الوَهَّابِ بعونِ اللهِ وحُسْنِ توفيقِهِ ،

وصلَّى اللهُ علىٰ خيرِ خلقِهِ محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ . . علىٰ يدِ العبدِ الضعيفِ المُستغفِرِ لذنوبِهِ المُعترِفِ بعيوبِهِ ؛ يعقوبَ بنِ يوسفَ عفا الله عنهُما وعمَّنْ دعا لهُما وعن كافَّةِ المسلمينَ أجمعينَ ، وقتَ العِشاءِ في ليلةِ الأربعاءِ مِنْ شهرِ اللهِ رجبٍ الأصمِّ لسنةِ أربعٍ وثمانِ مئةٍ .

خاتمة النسخة (د)

إنَّهُ علىٰ ما يشاءُ قديرٌ .

كَمُلَ الكتابُ بحمدِ اللهِ وعونِهِ .

وقد فُرِغَ مِنْ تحريرِ هـٰذهِ النسخةِ الشريفةِ المباركةِ مِنْ يدِ الضعيفِ النحيفِ الحقيرِ للفقيرِ المدينِ المحتاجِ إلىٰ رحمةِ اللهِ الكريمِ .

تَمَّتْ بعونِ اللهِ وحُسْنِ التوفيقِ .

والصلاةُ والسلامُ علىٰ محمدٍ الحاثِّ إلىٰ سواءِ الطريقِ .

خاتمة النسخة (هـ)

تمَّ الكتابُ يومَ الثلاثاءِ وقتَ الضُّحىٰ في الغُرَّةِ مِنْ شهرِ الآخرِ (١) سنةَ سبعٍ وثمانِ مئةٍ .

---

(١) كذا في هـٰذه النسخة ، ولعلها : (ربيع الآخر) .

خاتمة النسخة (و)

واللهُ تعالىٰ يُوفِّقُنا وإيَّاكَ بفضلِهِ وسعةِ جُودِهِ وكرمِهِ بما فيهِ نجاتُنا ، والسلامُ .

تمَّ كتابُ الأربعينَ ، وهوَ القسمُ الثالثُ مِنْ « جواهرِ القرآنِ » بحمدِ اللهِ ومَنِّهِ وكرمِهِ وحُسْنِ توفيقِهِ .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمدٍ النبيِّ الأميِّ ، وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ .

خاتمة النسخة (ز)

. . . للصواب .

تمت الكتاب في شهر جمادى الأولىٰ ، في سنة ألف ومئة وعشرين وثمانية من الهجرة النبوية ، في يد أضعف العباد يوسف بن حسين بن قهرمان بن كريم بن أصلان ، غفر الله له و . . . والديهما ، والمسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات أجمعين ، في بلد بغداد في مدرسة مرجانية .

خاتمة النسخة (ح)

إنَّهُ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ .

تمَّ كتابُ « الأربعينَ في أصولِ الدِّينِ » ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، آمينَ آمينَ آمينَ .

وصلَّى اللهُ علىٰ سيّدِنا محمدٍ ، وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ .

وكانَ الفراغُ مِنْ نَساخةِ هٰذهِ لسبعٍ خلَتْ مِنْ شهرِ ذي الحِجَّةِ ، **عامَ ألفٍ ومئتينِ وأربعةٍ وخمسينَ .**

غفرَ اللهُ لكاتبِهِ وقارئِهِ وصاحبِهِ ، آمينَ آمينَ آمينَ آمينَ .

❊ ❊ ❊

أهمّ مصادر ومراجع التحقيق (١)

- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، **للزبيدي** ؛ الإمام الكبير الحافظ الفقيه اللغوي الشريف أبي الفيض وأبي الوقت محمد مرتضى بن محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الحنفي (ت ١٢٠٥ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
- الأحاديث المختارة (المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما) ، **للضياء المقدسي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه ضياء الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي الصالحي الحنبلي (ت ٦٤٣ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الملك دهيش (ت ١٤٣٤ هـ) ، ط ٤ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، دار خضر ، بيروت ، لبنان .
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها) ، **لابن حبان** ؛ الإمام الحافظ المجود الرحلة أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي الشافعي (ت ٣٥٤ هـ) ، بترتيب الإمام الحافظ الأمير علاء الدين أبي الحسن علي بن

(١) اعتمدنا في فهرسة المصادر على التالي : اسم الكتاب ، واسم المؤلف وسنة وفاته ، واسم المحقق ، ورقم الطبعة ، وتاريخ طبعه ، والدار الناشرة ومقرها .

بلبان بن عبد الله الفارسي المصري الحنفي (ت ٧٣٩ هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط ٣ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- إحياء علوم الدين ، **للغزالي** ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .
- أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه ، **لأبي الشيخ** ؛ الإمام الحافظ الصادق محدث أصبهان أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر أبي الشيخ بن حيان الأصبهاني الأنصاري (ت ٣٦٩ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد الإسكندراني ، ط ١ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
- آداب الصحبة ، **للسلمي** ؛ إمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ أبي عبد الرحمٰن محمد بن الحسين بن محمد الأزدي السلمي (ت ٤١٢ هـ) ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، دار الصحابة للتراث ، طنطا ، مصر .
- آداب النفوس ، **للحارث المحاسبي** ؛ الإمام الأصولي المتكلم الصوفي أبي عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي البصري (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط ٢ ، (١٤١١ هـ ، ١٩٩١ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

- الأدب المفرد ، **للبخاري** ؛ إمام الدنيا حبر الإسلام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ، تحقيق العلامة محمد فؤاد عبد الباقي (ت ١٣٨٨ هـ) ، ط ٤ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م) ، نسخة مصورة لدىٰ دار البشائر الإسلامية عن طبعة المكتبة السلفية ، بيروت ، لبنان .
- الأسماء والصفات ، **للبيهقي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- اعتلال القلوب ، **للخرائطي** ؛ الإمام الحافظ الحجة الأديب أبي بكر محمد بن جعفر بن محمد السامري الخرائطي الشافعي (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق حمدي الدمرداش ، ط ٢ ، (١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ، السعودية .
- الاقتصاد في الاعتقاد ، **للغزالي** ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط ١ ، (١٤٣٧ هـ ، ٢٠١٦ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي

البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق صلاح بن عايض الشلاحي ، ط ١ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- الأوراق ، قسم من سنة ٢٩٥ هـ إلىٰ سنة ٣١٥ هـ ، وفيه أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ، للصولي ؛ الإمام الأديب النديم النادرة أبي بكر محمد بن يحيى بن عبد الله ابن صول (صول تكين) الصولي البغدادي البصري (ت ٣٣٥ هـ) ، تحقيق الدكتور خلف رشيد نعمان ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، العراق .

- البحر الزخار (مسند البزار) ، للبزار ؛ الإمام الحافظ الكبير أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري البزار (ت ٢٩٢ هـ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمٰن زين الله (ت ١٤١٨ هـ) وعادل سعد وصبري عبد الخالق ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، السعودية .

- بداية الهداية ، للغزالي ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به محمد غسان نصوح عزقول وفريقه ، ط ١ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

- بستان الواعظين ورياض السامعين ، لابن الجوزي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) ، مراجعة

الدكتور السيد الجميلي ، ط ١ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، مصر .

- تاريخ بغداد (تاريخ مدينة السلام) ، **للخطيب البغدادي** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها ، **لابن عساكر** ؛ الإمام الحافظ الكبير المجود ثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي الشافعي (ت ٥٧١ هـ) ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي ، ط ١ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- التحديد في الإتقان والتجويد ، **للداني** ؛ الإمام الحافظ شيخ المقرئين أبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان ابن الصيرفي الأموي القرطبي الداني المالكي (ت ٤٤٤ هـ) ، تحقيق الدكتور غانم قدوري الحمد ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار عمار ، عمان ، الأردن .

- الترغيب والترهيب ، **للأصبهاني** ؛ الإمام الحافظ قوام السنة الفقيه أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل القرشي الأصبهاني الشافعي (ت ٥٣٥ هـ) ، خرج أحاديثه محمد السعيد زغلول ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، مكتبة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة ، السعودية .

ـ تعظيم قدر الصلاة ، للمروزي ؛ الإمام الحافظ الرحلة أبي عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي (ت ٢٩٤ هـ) ، تحقيق أحمد أبو المجد ، ط ١ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٣ م) ، دار العقيدة ، القاهرة ، مصر .

ـ تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين) ، لابن أبي حاتم ؛ الإمام الحافظ الكبير أبي محمد عبد الرحمٰن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي الحنظلي الرازي الشافعي (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق أسعد محمد الطيب ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م) ، مكتبة نزار الباز ، مكة المكرمة ، السعودية .

ـ التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، للرازي ؛ الإمام الأصولي المتكلم المفسر فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسين ابن خطيب الري البكري الرازي الشافعي (ت ٦٠٦ هـ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، ط ٣ ، (١٣٥٧ هـ ، ١٩٣٨ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة البهية لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) ، للزمخشري ؛ الإمام البارع المفسر المتكلم النظار جار الله أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي الحنفي (ت ٥٣٨ هـ) ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، ط ٢ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- التفسير ، **لمجاهد** ؛ الإمام الثقة المحدث المفسر التابعي أبي الحجاج مجاهد بن جبر المكي المخزومي (ت ١٠٤ هـ) ، تحقيق أبو محمد الأسيوطي ، ط ١ ، (١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- التهجد وقيام الليل ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مصلح بن جزاء بن فدغوش الحارثي ، ط ٢ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، السعودية .
- تهذيب الأسرار ، **للخركوشي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه العارف بالله عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الخركوشي (ت ٤٠٧ هـ) ، تحقيق بسام محمد بارود ، ط ١ ، (١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨ م) ، إصدارات الساحة الخزرجية ، أبو ظبي ، الإمارات .
- التواضع والخمول ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق لطفي محمد الصغير ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، دار الاعتصام ، القاهرة ، مصر .
- التوبة ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، ط ١ ، (١٤١١ هـ ، ١٩٩١ م) ، مكتبة القرآن ، القاهرة ، مصر .

- الثقات ، **لابن حبان** ؛ الإمام الحافظ المجود الرحلة أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي الشافعي (ت ٣٥٤ هـ) ، عني به إبراهيم شمس الدين وتركي فرحان المصطفىٰ ، ط ١ ، (١٤٠٩ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، **لابن رجب** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الواعظ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي الدمشقي الحنبلي (ت ٧٥٩ هـ) ، تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط (ت ١٤٣٨ هـ) وإبراهيم باجس عبد المجيد ، ط ١٠ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .
- جامع بيان العلم وفضله ، **لابن عبد البر** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الأديب أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق أبو الأشبال الزهيري ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، السعودية .
- الجامع في الحديث ، **لابن وهب** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الثقة أبي محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي الفهري المصري (ت ١٩٧ هـ) ، تحقيق الدكتور مصطفىٰ حسن حسين أبو الخير ، ط ١ ، (١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦ م) ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، السعودية .
- الجامع لشعب الإيمان ، **للبيهقي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي

أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط ٢ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، السعودية .

- جواهر القرآن ، **للغزالي** ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد رشيد رضا القباني ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، لبنان .

- الجوع ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ٢ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- الحلم ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، ط ١ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، مكتبة القرآن ، القاهرة ، مصر .

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، **لأبي نعيم الأصبهاني** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الثقة أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد المهراني الأصبهاني الشافعي (ت ٤٣٠ هـ) ، ط ٥ ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧ هـ) لدىٰ دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، القاهرة ، مصر . بيروت ، لبنان .

ـ ديوان ابن الرومي ، **لابن الرومي** ؛ الشاعر العباسي الكبير أبي الحسن علي بن العباس بن جريج ابن الرومي البغدادي (ت ٢٨٣ هـ) ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، ط ٣ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٣ م) ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، مصر .

ـ الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ، **للراغب الأصبهاني** ؛ الإمام اللغوي الحكيم أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصبهاني (ت ٥٠٢ هـ) ، تحقيق الدكتور أبو اليزيد أبو زيد العجمي ، ط ١ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، دار السلام ، القاهرة ، مصر .

ـ ذكر الموت ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مشهور آل سلمان ، ط ١ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م) ، مكتبة الفرقان ، عجمان ، الإمارات .

ـ ذم الدنيا ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

ـ الرسالة القشيرية ، **للقشيري** ؛ الإمام الأصولي المحدث المفسر الأستاذ زين الإسلام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري الأستوائي النيسابوري الشافعي (ت ٤٦٥ هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط ١ ، (١٤٣٨ هـ ، ٢٠١٧ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

- الرضا عن الله بقضائه ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق ضياء الحسن السلفي ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، الدار السلفية ، الهند .
- الرعاية لحقوق الله ، للحارث المحاسبي ؛ الإمام الأصولي المتكلم الصوفي أبي عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي البصري (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط ٤ ، (بدون تاريخ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- الروض البسام بترتيب وتخريج فوائد تمام (فوائد الحديث) ، لتمام ؛ الإمام الحافظ محدث الشام أبي القاسم تمام بن محمد بن عبد الله البجلي الرازي الدمشقي (ت ٤١٤ هـ) ، تحقيق وتهذيب جاسم بن سليمان الفهيد الدوسري ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٧ م) ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان .
- الزهد الكبير ، للبيهقي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر ، ط ٣ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .
- الزهد والرقائق برواية المروزي مع زيادات رواية نعيم بن حماد عليه ، لابن المبارك ؛ الإمام الحافظ الرحلة أبي عبد الرحمٰن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي المروزي (ت ١٨١ هـ) ، تحقيق العلامة المحدث حبيب الرحمٰن الأعظمي (ت ١٤١٢ هـ) ،

ط ١ ، (١٣٨٦ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة الهند لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- الزهد ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق ياسين السواس ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .
- الزهد ، **لابن حنبل** ؛ إمام أهل الدنيا الحجة الفقيه أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي (ت ٢٤١ هـ) ، عني به محمد عبد السلام شاهين ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- الزهد ، **لهناد الدارمي** ؛ الإمام الحافظ الثقة الزاهد أبي السري هناد بن السري بن مصعب التميمي الدارمي الكوفي (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق عبد الرحمـٰن بن عبد الجبار الفريوائي ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٥ م) ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، الكويت .
- سنن ابن ماجه ، **لابن ماجه** ؛ الإمام الحافظ الثبت المفسر أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الربعي القزويني (ت ٢٧٣ هـ) ، تحقيق جمعية المكنز الإسلامي بإشراف الدكتور العلامة أحمد معبد عبد الكريم ، ط ١ ، (١٤٣٧ هـ ، ٢٠١٦ م) ، دار المنهاج بإذن رسمي من جمعية المكنز الإسلامي ، جدة ، السعودية .
- سنن أبي داوود ، **لأبي داوود** ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي داوود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) ،

تحقيق العلامة محمد عوامة ، ط ٣ ، (١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ـ سنن الترمذي (الجامع الصحيح) ، للترمذي ؛ الإمام الحافظ العلم الفقيه أبي عيسىٰ محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر (ت ١٣٧٧ هـ) والعلامة محمد فؤاد عبد الباقي (ت ١٣٨٨ هـ) والشيخ إبراهيم غطوة عوض (ت ١٤١٧ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ سنن الدارقطني ، للدارقطني ؛ الإمام الحافظ الحجة أبي الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني البغدادي الشافعي (ت ٣٨٥ هـ) ، عني به عبد الله هاشم يماني ، ط ١ ، (١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

ـ السنن الكبرىٰ ، للنسائي ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخراساني (ت ٣٠٣ هـ) ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

ـ السنن الكبير ، للبيهقي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية ، القاهرة ، مصر .

- سنن النسائي (المجتبىٰ) ، للنسائي ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي عبد الرحمـٰن أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخراساني (ت ٣٠٣ هـ) ، ط ١ ، (١٣١٢ هـ ، ١٨٩٤ م) ، نسخة مصورة عن نشرة المطبعة الميمنية لدىٰ دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
- سير أعلام النبلاء (مع السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين) ، للذهبي ؛ الإمام محدث الإسلام ومؤرخ الشام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الدمشقي الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط ، ط ١١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .
- شرح اللزوميات ، للمعري ؛ الشاعر الفيلسوف الحكيم أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري (ت ٤٤٩ هـ) ، تحقيق الدكتورة سيدة حامد ومنير المدني وزينب القوصي ووفاء الأعصر ، ط ١ ، (١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠ م) ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، مصر .
- شرح المواقف ، للجرجاني ؛ الإمام الفقيه الموسوعي النادرة الشريف أبي الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني الحسيني الحنفي (ت ٨١٦ هـ) ، عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني ، ط ١ ، (١٣٢٥ هـ ، ١٩٠٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة لدىٰ منشورات الشريف الرضي ، القاهرة ، مصر .

- شرح ديوان المتنبي (التبيان في شرح الديوان) ، **للعكبري** ؛ الإمام النحوي الأديب الألمعي محب الدين أبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي الحنبلي (ت ٦١٦ هـ) ، (والصواب أنه لابن عدلان ؛ الإمام النحوي النادرة عفيف الدين أبي الحسن علي بن عَدْلان بن حماد بن علي الربعي الموصلي ت ٦٦٦ هـ) ، عني به العلامة مصطفى السقا (ت ١٣٨٩ هـ) والعلامة إبراهيم الأبياري (ت ١٤١٤ هـ) وعبد الحفيظ شلبي ، الطبعة الأخيرة ، (١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر .

- شمائل النبي صلى الله عليه وسلم ، **للترمذي** ؛ الإمام الحافظ العلم الفقيه أبي عيسىٰ محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق محمد وائل الحنبلي ، ط ٢ ، (١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م) ، دار البيروتي ، دمشق ، سورية .

- صحيح ابن خزيمة (مختصر المختصر من المسند الصحيح عن النبي ﷺ) ، **لابن خزيمة** ؛ الإمام الحافظ الحجة الفقيه أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري الشافعي (ت ٣١١ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي ، ط ٣ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣ م) ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

- صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه) (الطبعة السلطانية اليونينية) ، **للبخاري** ؛ إمام الدنيا حبر الإسلام الحافظ

أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ٣ ، (١٤٣٦ هـ ، ٢٠١٥ م) ، دار طوق النجاة ودار المنهاج ، بيروت ، لبنان . جدة ، السعودية .

ـ صحيح مسلم (الجامع الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، لمسلم ؛ حافظ الدنيا المجود الحجة أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ١ ، (١٤٣٣ هـ ، ٢٠١٣ م) ، دار المنهاج ودار طوق النجاة ، جدة ، السعودية . بيروت ، لبنان .

ـ صفة الصفوة ، لابن الجوزي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) ، صنع فهرسه العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٢ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٢ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

ـ الصمت وآداب اللسان ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق نجم عبد الرحمٰن خلف ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

ـ الضعفاء ومن نسب إلى الكذب ووضع الحديث ومن غلب على

حديثه الوهم ومن يتهم في بعض حديثه ومجهول روىٰ ما لا يتابع عليه وصاحب بدعة يغلو فيها ويدعو إليها وإن كانت حاله في الحديث مستقيمة ، **للعقيلي** ؛ الإمام الحافظ أبي جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي (ت ٣٢٢ هـ) ، تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار الصميعي ، الرياض ، السعودية .

ـ طبقات الشافعية الكبرىٰ ، **للتاج السبكي** ؛ الإمام الحافظ المجتهد النظار قاضي القضاة تاج الدين أبي النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الأنصاري السبكي الشافعي (ت ٧٧١ هـ) ، تحقيق العلامة محمود محمد الطناحي (ت ١٤١٩ هـ) والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو (ت ١٤١٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

ـ الطبقات الكبير ، **لابن سعد** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الثقة أبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي الزهري البصري (ت ٢٣٠ هـ) ، تحقيق الدكتور علي محمد عمر ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

ـ الطيوريات ، **لأبي طاهر السلفي** ؛ انتخبها الإمام الحافظ صدر الدين أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلفي الأصبهاني (ت ٥٧٦ هـ) من أصول كتب الإمام المحدث أبي الحسين المبارك بن عبد الجبار بن أحمد الصيرفي البغدادي ابن الطيوري

(ت ٥٠٠ هـ) ، تحقيق دسمان يحيىٰ معالي وعباس صخر الحسن ، ط ١ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، دار أضواء السلف ، الرياض ، السعودية .

ـ العاقبة (الموت والحشر والنشور) ، **لعبد الحق** ؛ الإمام العلامة الحافظ الفقيه أبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمٰن بن عبد الله ابن الخراط الأزدي الأندلسي الإشبيلي المالكي (ت ٥٨٢ هـ) ، تحقيق أبي عبد الرحمٰن عبيد الله المصري الأثري ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، دار الصحابة للتراث ، طنطا ، مصر .

ـ العظمة ، **لأبي الشيخ** ؛ الإمام الحافظ الصادق محدث أصبهان أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر أبي الشيخ بن حيان الأصبهاني الأنصاري (ت ٣٦٩ هـ) ، تحقيق رضاء الله بن محمد المباركفوري ، ط ٢ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار العاصمة ، الرياض ، السعودية .

ـ العقد الفريد ، **لابن عبد ربه** ؛ الإمام الأديب شاعر الأندلس شهاب الدين أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأموي القرطبي (ت ٣٢٨ هـ) ، تحقيق الأديب أحمد أمين (ت ١٣٧٣ هـ) والأديب أحمد الزين (ت ١٣٦٦ هـ) والعلامة إبراهيم الأبياري (ت ١٤١٤ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٥٩ هـ ، ١٩٤٠ م) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، مصر .

ـ العلل ومعرفة الرجال ، **لابن حنبل** ؛ إمام أهل الدنيا الحجة الفقيه أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني

البغدادي (ت ٢٤١ هـ) ، تحقيق الدكتور وصي الله بن محمد عباس ، ط ٢ ، (١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م) ، دار الخاني ، الرياض ، السعودية .

- عوارف المعارف ، للسهروردي ؛ الإمام المحدث شيخ الصوفية شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي القرشي البغدادي الشافعي (ت ٦٣٢ هـ) ، تحقيق أديب الكمداني ومحمد محمود المصطفىٰ ، ط ١ ، (١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م) ، المكتبة المكية ، مكة المكرمة ، السعودية .

- عيون الأخبار ، لابن قتيبة الدينوري ؛ إمام الأدب واللغة القاضي أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) ، تحقيق ثلة من أهل العلم ، ط ١ ، (١٣٤٣ هـ ، ١٩٣٠ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر .

- الفردوس بمأثور الخطاب ، للديلمي ؛ الإمام الحافظ أبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه إلكيا الديلمي الهمذاني (ت ٥٠٩ هـ) ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- فضائل الصحابة ، لابن حنبل ؛ إمام أهل الدنيا الحجة الفقيه أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي (ت ٢٤١ هـ) ، تحقيق وصي الله بن محمد عباس ، ط ٤ ، (١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م) ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، السعودية .

ـ الفقيه والمتفقه ، **للخطيب البغدادي** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق عادل يوسف العزازي ، ط ٢ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، السعودية .

ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير ، **للمناوي** ؛ الإمام الحجة الفقيه الثبت زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي الحدادي المناوي القاهري الشافعي (ت ١٠٣١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٧ هـ ، ١٩٣٨ م) ، طبعة مصورة عن المكتبة التجارية الكبرىٰ لدىٰ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

ـ القاموس المحيط ، **للفيروزاباذي** ؛ الإمام الكبير بحر اللغة وشيخ الإسلام مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزاباذي الشيرازي الشافعي (ت ٨١٧ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ قصر الأمل ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٤١٦ هـ ، ١٩٩٥ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

ـ قوت القلوب في معاملة المحبوب ، ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التوحيد ، **لأبي طالب المكي** ؛ الإمام الفقيه شيخ الصوفية أبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي الشافعي (ت ٣٨٦ هـ) ، بعناية العلامة محمد الزهري الغمراوي (ت بعد

١٣٦٧ هـ) ، ط ١ ، (١٣١٠ هـ ، ١٨٩٠ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة الميمنية لدىٰ دار صادر ، بيروت ، لبنان .

ـ الكامل في ضعفاء الرجال ، **لابن عدي** ؛ الإمام الحافظ الناقد الجوال أبي أحمد عبد الله بن عدي بن عبد الله ابن القطان الجرجاني الشافعي (ت ٣٦٥ هـ) ، الطبعة الأولىٰ بتحقيق الدكتور سهيل زكار ، والثالثة بقراءة وتدقيق يحيىٰ مختار غزاوي ، ط ٣ ، (١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٨ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، **لحاجي خليفة** ؛ العلامة المؤرخ الجغرافي البحاثة مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة ملا كاتب جلبي الإسطنبولي الحنفي (ت ١٠٦٧ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٢ هـ ، ١٩٩٢ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ الكنىٰ والأسماء ، **للدولابي** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الوراق أبي بشر محمد بن أحمد بن حماد الأنصاري الرازي الدولابي (ت ٣١٠ هـ) ، ط ١ ، (١٣٢٢ هـ ، ١٩٠٢ م) ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، حيدر آباد الدكن ، الهند .

ـ كيمياء السعادة ، **للغزالي** ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، بعناية محمد مصطفىٰ أبو العلا ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، طبعة مصورة لدى المكتبة الشعبية ، بيروت ، لبنان .

ـ اللمع ، **للطوسي** ؛ الإمام الزاهد أبي نصر عبد الله بن علي بن محمد السراج الطوسي الصوفي (ت ٣٧٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود (ت ١٣٩٨ هـ) وطه عبد الباقي سرور ، ط ١ ، (١٣٨٠ هـ ، ١٩٦٠ م) ، دار الكتب الحديثة ومكتبة المثنىٰ ، القاهرة ، مصر ـ بغداد ، العراق .

ـ المجالسة وجواهر العلم ، **للدينوري** ؛ الإمام الفقيه المحدث أبي بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري المالكي (ت ٣٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

ـ المجروحين من المحدثين ، **لابن حبان** ؛ الإمام الحافظ المجود الرحلة أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي الشافعي (ت ٣٥٤ هـ) ، تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار الصميعي ، الرياض ، السعودية .

ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، **للهيثمي** ؛ الإمام الحافظ نور الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي القاهري الشافعي (ت ٨٠٧ هـ) ، تحقيق الشيخ حسين سليم أسد ، ط ١ ، (١٤٣٦ هـ ، ٢٠١٥ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ـ المجموع شرح المهذب ، **للنووي** ؛ شيخ الإسلام الحافظ المجتهد الحجة محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف بن مُرِّي النووي الحزامي الدمشقي الشافعي (ت ٦٧٦ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود مطرجي ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- مداراة الناس ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ م) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .
- مساوئ الأخلاق وطرائق مكروهها ، **للخرائطي** ؛ الإمام الحافظ الحجة الأديب أبي بكر محمد بن جعفر بن محمد السامري الخرائطي الشافعي (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عطا ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .
- المستدرك على الصحيحين ، **للحاكم** ؛ الإمام الحافظ الناقد شيخ المحدثين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاكم الطهماني النيسابوري الشافعي (ت ٤٠٥ هـ) ، وبهامشه تعليقات الأئمة : البيهقي والذهبي وابن الملقن وابن حجر العسقلاني ، ط ١ ، (١٤٣٥ هـ ، ٢٠١٤ م) ، دار الميمان ، الرياض ، السعودية .
- مسند أبي داوود الطيالسي ، **للطيالسي** ؛ الإمام الحافظ الحجة أبي داوود سليمان بن داوود بن الجارود الطيالسي الفارسي البصري (ت ٢٠٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٢١ هـ ، ١٩٠٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .
- مسند أبي يعلى الموصلي ، **لأبي يعلى** ؛ الإمام الحافظ محدث الموصل أبي يعلىٰ أحمد بن علي بن المثنى التميمي

الموصلي (ت ٣٠٧ هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط ٢ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٨٩ م) ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، سورية .

- مسند الإمام أحمد ابن حنبل ، **لابن حنبل** ؛ إمام أهل الدنيا الحجة الفقيه أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي (ت ٢٤١ هـ) ، تحقيق جمعية المكنز الإسلامي بإشراف الدكتور أحمد معبد عبد الكريم ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

- مسند الدارمي (سنن الدارمي) ، **للدارمي** ؛ إمام أهل زمانه الحافظ الفقيه أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمـٰن بن الفضل التميمي السمرقندي الدارمي (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق الشيخ حسين سليم أسد الداراني ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار المغني ، الرياض ، السعودية .

- مسند الشاميين ، **للطبراني** ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٩ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- مسند الشهاب (شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب) ، **للقضاعي** ؛ الإمام المحدث المفسر المؤرخ القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي الشافعي (ت ٤٥٤ هـ) ،

تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- المصنف ، لابن أبي شيبة ؛ الإمام العلم سيد الحفاظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي (ت ٢٣٥ هـ) ، تحقيق الشيخ محمد عوامة ، ط ٢ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

- المصنف ، لعبد الرزاق ؛ الإمام الحافظ الثقة عالم اليمن أبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني (ت ٢١١ هـ) ، تحقيق العلامة المحدث حبيب الرحمٰن الأعظمي (ت ١٤١٢ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، المجلس العلمي بالتعاون مع المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

- المعجم الأوسط ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود الطحان ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، مكتبة المعارف ، الرياض ، السعودية .

- المعجم الصغير ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- المعجم الكبير ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال

أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، ومعه : « الأحاديث الطوال » ، تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٣ م) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- المعجم الوسيط ؛ مجموعة من العلماء ، تقديم الدكتور إبراهيم مدكور ، ط ٣ ، (دون تاريخ) ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، مصر .

- المعجم ، **لابن الأعرابي** ؛ الإمام المحدث المؤرخ أحمد بن محمد بن زياد بن بشر ابن الأعرابي البصري (ت ٣٤٠ هـ) ، تحقيق عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني ، ط ١ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، السعودية .

- معرفة الصحابة ، **لأبي نعيم الأصبهاني** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الثقة أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد المهراني الأصبهاني الشافعي (ت ٤٣٠ هـ) ، تحقيق عادل يوسف العزازي ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار الوطن ، الرياض ، السعودية .

- المقصد الأسنىٰ شرح أسماء الله الحسنىٰ ، **للغزالي** ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي (ت ١٤٣٨ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م) ، دار الجَفَّان والجابي ، ليماسول ، قبرص .

- مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ، **للخرائطي** ؛ الإمام

الحافظ الحجة الأديب أبي بكر محمد بن جعفر بن محمد السامري الخرائطي الشافعي (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق أيمن عبد الجابر البحيري ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، مصر .

- مكارم الأخلاق ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق الشيخ بشير محمد عيون (ت ١٤٣١ هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، سورية .

- مكارم الأخلاق ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق أبي بسطام محمد بن مصطفىٰ ، ط ١ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- مناقب الشافعي ، للبيهقي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق العلامة السيد أحمد صقر (ت ١٤١٠ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م) ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، مصر .

- منتخب الكلام في تفسير الأحلام ، لابن سيرين ؛ الإمام التابعي شيخ الإسلام محمد بن سيرين الأنصاري الأنسي البصري (ت ١١٠ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٩ هـ ، ١٩٤٠ م) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر .

- المنتظم في تواريخ الملوك والأمم ، **لابن الجوزي** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، ط ١ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .
- المنقذ من الضلال ، **للغزالي** ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ١ ، (١٤٣٤ هـ ، ٢٠١٣ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .
- الموطأ ، **لمالك بن أنس** ؛ عالم المدينة وإمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن نافع الأصبحي (ت ١٧٩ هـ) ، تحقيق العلامة محمد فؤاد عبد الباقي (ت ١٣٨٨ هـ) ، ط ١ ، (١٣٧١ هـ ، ١٩٥١ م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر .
- ميزان العمل ، **للغزالي** ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور سليمان دنيا (ت بحدود ١٤٠٧ هـ) ، ط ٢ ، بدون تاريخ ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .
- نزهة الحفاظ ، **للمديني** ؛ الإمام الحافظ المحدث أبي موسىٰ

محمد بن عمر بن أحمد المديني الأصبهاني الشافعي (ت ٥٨١ هـ) ، تحقيق عبد الراضي محمد عبد المحسن ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

ـ نهاية المطلب في دراية المذهب ، **لإمام الحرمين** ؛ الإمام الكبير شيخ الشافعية ضياء الدين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الطائي الجويني النيسابوري الشافعي (ت ٤٧٨ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور عبد العظيم محمود الديب (ت ١٤٣١ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠١٠ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ـ نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، **للحكيم الترمذي** ؛ الإمام الولي المحدث المفسر الحكيم أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن المؤذن الترمذي الصوفي الشافعي (ت ٣١٨ هـ) ، تحقيق الدكتور نور الدين جيلار البوردري ، ط ١ ، (١٤٣٦ هـ ، ٢٠١٥ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ـ الهم والحزن ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، دار السلام ، القاهرة ، مصر .

ـ الورع ، **للمروذي** ؛ الإمام الحافظ الثقة أبي بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروذي الخوارزمي البغدادي (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق سمير بن أمين الزهيري ، ط ٢ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، مكتبة المعارف ، الرياض ، السعودية .

- الوصايا (النصائح الدينية والنفحات القدسية ، القصد والرجوع إلى الله ، بدء من أناب إلى الله ، فهم الصلاة ، التوهم) ، **للحارث المحاسبي** ؛ الإمام الأصولي المتكلم الصوفي أبي عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي البصري (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

مُحتوى الكتاب